

# MÂAREF

Revue académique  
Faculté des Lettres et langues

# معارف

مجلة علمية محكمة  
تصدر عن كلية الآداب واللغات

جامعة أكلي محمد أولحاج بالبويرة  
(UAMOB)

**Numéro: 20**  
**Décembre 2016**  
**11ème Année**  
**PRÉSIDENT D' HONNEUR**  
**Pr. Kamel BADDARI**  
**DIRECTEUR de Publication:**  
**Pr. Mohamed DJELLAoui**  
**Rédacteur en chef :**  
**Dr.Kahina DAHMOUNE**  
**Membres du comité de Rédaction:**  
**Dr.Mustapha OULD YUCEF**  
**Dr.Réda SEBIH**  
**Salim LOUNISSI**  
**Bachir BAHRI**

**العدد: العشرون**  
**شهر: جوان 2016**  
**السنة الحادية عشرة**  
**الرئيس الشرفي:**  
**أ. د. كمال بداري**  
**المدير مسؤول النشر:**  
**أ. د. محمد جلاوي**  
**رئيس التحرير:**  
**د. كاهنة دحمون**  
**أعضاء هيئة التحرير:**  
**د. مصطفى ولد يوسف**  
**د. رضا سبيح**  
**أ. سليم لونيبي**  
**أ. بشير بحري**

**Dépot Légal: 1369 . 2006 الأيداع القانوني**

**ISSN: 1112 . 7007 ر.د.م.د.**

☎: 026935230

☎: 026935230

www.univ-bouira.dz  
m3arefl@gmail.com  
www.facebook.com/revue.maaref

موقع الجامعة على الانترنت  
البريد الإلكتروني لهيئة التحرير  
صفحة المجلة على الفيسبوك

جامعة أكلي محمد أولحاج

البويرة. الجزائر

Université Akli Mohand Oulhadj (UAMOB)

BOUIRA. ALGERIE



### - معايير النشر في المجلة

يشترط في البحوث والمقالات التي تنشر في مجلة معارف ما يأتي :

- 1- أن يكون البحث مبتكراً أو أصيلاً ، ويشكل إضافة نوعية في اختصاصه .
  - 2- أن تتوفر فيه الأصالة والعمق وصحة الأسلوب .
  - 3- ألا يكون قد سبق نشره .
  - 4- أن يلتزم بالقيم الإنسانية وبمعايير البحث العلمي وبخاصة أ- الابتعاد عن التجريح والإسفاف في القول ، والتعريض بالآخرين .  
ب- مراعاة البنية المنهجية .
  - ج- ترقيم الهوامش والإحالات تكون إما أسفل النص في نفس الصفحة، أو في آخر المقال، مستقلة عن قائمة المصادر والمراجع .
  - د- إعداد قائمة بمصادر البحث ومراجعته .
  - 5- أن تكون مكملات البحث من خرائط أو جداول في صورتها الأصلية .
  - 6- أن يكون البحث المترجم مصحوباً بأصله المترجم عنه .
  - 7- أن يقدم لإدارة المجلة مطبوعاً على الورق ومخزناً في قرص مدجج CD أو في وسيلة من وسائل استقباله في جهاز الحاسوب .
  - 8- أن تقدم سيرة ذاتية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث .
  - 9- عدد كلمات البحوث النظرية بين 3000 و5000 كلمة حسب المقاييس الدولية ، أي (بين 10-20 صفحة بمعدل 300 كلمة / صفحة) فيرجى التقييد بذلك .
  - 10- ترفق بالبحث ملخصات باللغات الثلاث (العربية والفرنسية والانجليزية) بما لا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل لغة .
- مع ملاحظة أن البحوث والمقالات :
- تخضع للتقويم العلمي واللغوي ويعلم الباحث بالنتيجة، كما أنها تخزن في أرشيف المجلة، ولا ترجع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .
  - تعبر عن آراء كتّابها وحدهم ، فهم المسؤولون عن صحة المعلومات وأصالتها ، ولا تتحمل الإدارة أي مسؤولية في ذلك .



### الهيئة الاستشارية الوطنية والدولية

أ.د. أمينة بلعلي	(تيزي وزو)	أ.د. محمد آكلي صلحي	(تيزي وزو)	أ.د. أحمد علي إبراهيم	(العراق)
أ.د. زهير مكسم	(بجاية)	أ.د. موسى إمارازن	(تيزي وزو)	أ.د. امزيان اعمر	(فرنسا)
أ.د. عباس بن يحيى	(المسيلة)	أ.د. يوسف وعليسي	(قسطنطينة)	أ.د. عبد الرؤوف زهدي	(الأردن)
أ.د. عبد الحميد بورايو	(تيزازة)	أ.د. الطيب بودربالة	(باتنة)	أ.د. عبد القادر فيدوح	(قطر)
أ.د. عبد الحميد هيممة	(ورقلة)	أ.د. أحمد يوحسن	(المغرب)	أ.د. عماد محنان	(تونس)
أ.د. عبد الغني بارة	(سطيف)	أ.د. أحمد شرشاش	(ليبيا)	أ.د. كمال نايت زاراد	(فرنسا)
أ.د. فاتح علاق	(الجزائر)	أ.د. محمد كريم الكوازي	(العراق)		
أ.د. محمد الزهار	(المسيلة)	أ.د. يوسف ناوري	(المغرب)		

### لجنة القراءة/ اللجنة العلمية للعدد 20 قسم الآداب واللغات

أ.د. أحمد حيدوش	أ.ت.ع	(البويرة)	أ.د. عبد القادر دامخي	أ.ت.ع	(باتنة)
أ.د. بسام قطوس	أ.ت.ع	(الأردن)	أ.د. عماد محنان	أ.م.	(تونس)
أ.د. جمال مجناح	أ.م.أ	(المسيلة)	أ.د. مليكة دحمانية	أ.م.أ	(البويرة)
أ.د. حفصة نعماني	أ.م.أ	(البويرة)	أ.د. بوعلام طهراوي	أ.م.أ	(البويرة)
أ.د. رايح ملوك	أ.م.أ	(البويرة)	أ.د. حفيفة أيت مختار	أ.م.ب.	(البويرة)
أ.د. سالم سعدون	أ.م.أ	(البويرة)	أ.د. صبيحة قاسي	أ.م.أ	(البويرة)
أ.د. عبد الرحمن عيساوي	أ.م.أ	(البويرة)	أ.د. نعيمة بن علية	أ.م.أ	(البويرة)
أ.د. عبد الملك ضيف	أ.م.أ	(المسيلة)	أ.د. فيروز رشام	أ.م.أ	(البويرة)



## فهرس الموضوعات

- 07 ..... كلمة التحرير  
-البعد الاقتصادي في بناء النظام اللغوي العربي
- 09 ..... عيسى شاغة  
-رؤى معجمية حدائفة.
- 25..... عمّارلعويجي  
-معالم التجديد في مناهج التفسير المعاصرة . القضايا اللغوية بين الحضور والغياب
- 41..... بوعلام طهراوي  
قراءة في عناوين كتب التفسير "جامع البيان...للطبري و"الكشاف...للزمخشري" أنموذجا
- 61..... فتحة بوشان  
-التعليق النحويّ وصوره في اللغة العربيّة ومذهب عبد القاهر الجرجانيّ فيه
- 85..... مقداد حوالم  
-المنظومة التربوية الجزائرية واللغة العربية
- 105..... صباح جودي  
-الثنائية اللغوية وإشكالية تعليم وتعلّم اللغة العربية
- 115..... زاهية لونس  
-مدى قدرة المعلمين على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية
- 129..... لعزلي فاتح  
-اللغة والتواصل في المدرسة بين العامية والفصحى
- 145..... خالدزعاف  
-البيئة العباسية وأثرها على اللغة الشعرية العباسية
- 159..... محمد محمود علي العمرو د.عماد علي سليم الخطيب  
-ظواهر أسلوبية بين الشعر والقرآن من خلال شرح ديوان الحماسة للمرزوقي
- 181..... قادة يعقوب

205	تجليات لسانيات النص في علوم القرآن فاتح بوزري.....
225	غواية الاختلاف وسجن المسبقات: قراءة في نصوص رحليّة غربيّة. جموعي سعدي.....
247	ارتحالات المعنى من النسق الثقافي إلى النسق الخطابي لخميسي آدامي.....
261	الاتجاه المسرحي الوثائقي في مسرحية فجر المسرح المصري كمال علوات.....
281	الصدى الفكري والأدبي للثورة الجزائرية في منشورات مجلة "الفكر" التونسية سعيد جلاوي.....

-Proposition d'une nouvelle technique d'enquête  
audiovisuelle en sociolinguistique : le récit de vie sur carte  
géographique.

05	SEBIH Réd.....
17	- <i>L' autorité et ses discours dans l'interaction scolaire.</i> Hocine Youcef .....
37	- Assia Djebar : l'identité de la création, entre langues et cultures. Achour HAMBLI .....
53	- Ecriture et figures de style dans les nouvelles de Amar Mezdad, le cas de Tuğalin et Inebgi n yiğ-nni BOUDIA Abderrezak.....

## كلمة مدير النشر

يطل على الأسرة الجامعية هذا العدد من مجلة "معارف" وهو يرفل في فخر واعتزاز، إذ هي السنة الحادية عشرة من الوجود.. عشرون عددا من البحث والتنقيب في مختلف مجالات المعرفة، تفتقت قرائح الباحثين خلالها، لتسهم في صناعة وعي يعتبر تكامل المعارف أساسا في أي مشروع حضاري.

وقد أرست بحوث المجلة في مسيرتها تلك صُوى يُهتدي بها، وتغري من في الطريق بمزيد كشف وتحريّ.. إذ استقر في عرف العقلاء أنه كلما زادت المعرفة، اتسع نطاق الجهل، وأن العلم ثلاثة أشبار، من تعلم الشبر الأول تكبر، ومن تعلم الشبر الثاني تواضع، ومن تعلم الشبر الثالث علم أنه لا يعلم شيئا.

وحين نمعن النظر في العالم حولنا ندرك أن تدفق المعلومات هائل ومريع، وأن اهتمام الأمم بالبحث العلمي كبير جدا، ولا سبيل لرأب الصدع وتدارك الركب، إلا بانتهاج سبيل حداؤها توخي العلمية في صناعة المعرفة في أكمل صورها، وتوطئتها ونشرها.

ولإن أدرك القائمون على التعليم العالي أن الجودة مطلب أساس لتحقيق رسالة الجامعة وتجسيد دورها، فإنها تكون أكد في مجال البحث والتأليف، والذي هو واجب النخبة الأول، إذ يستمر حينها الوجود المعنوي والروحي للباحث، حين يتلاشى وجوده المادي الفيزيائي، ولن تكون العبرة إلا بما خلفه من أصيل بحث وجميل قول وتحقيق واجب.. أجمل بعض متعلقات هذه المعاني المفكر الجزائري مالك بن نبي فقال: "التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يوم، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، وشعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة".

إن هذا العدد من مجلة "معارف" في بداية عقدها الثاني أولى عناية لربط الحاضر بالتراث، ومسايرة ما استجد في حقول المعرفة من مناهج ورؤى، واستثمار

نتائجها في مجالات اهتمام المجلة ، فتنوعت المقالات بين تنقيب في مفاهيم نظرية وتطبيقية ودراسات لغوية وتعليمية ومسح نقدي لنصوص أدبية.

ولا يفوتنا التنويه بجهود طواقم المجلة منذ انطلاقتها قبل أزيد من عشر سنوات، وكل الأمل أن تكون في مستقبل الأيام أكثر تألقا في ساحة البحث العلمي الأصيل محليا ودوليا..



## البعد الاقتصادي في بناء النظام اللغوي العربي

د. عيسى شاغة\*

### الملخص:

هذا البحث يستقرى النظام اللغوي العربي، فيبحث في الأساس الذي بُني عليه، والمسلك المنتهج في تكوينه، من خلال التركيز على مظاهر الاقتصاد اللغوي فيه، وذلك بهدف تأكيد كفاءة اللغة العربية في تقليل الجهد العضلي والذهني لمستخدميها، وقد أثبت البحث كل ذلك بتقديم أدلة وشواهد من المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية وتحليلها لإبراز البعد الاقتصادي فيها، ليخلص أخيراً إلى أن اللغة العربية وفرت لمتكلميها من الأبنية ما يغنيهم عن كلام لا يحصى عدداً، فهي إذن قد سلكت مسلكاً اقتصادياً ملحوظاً في انتظامها وهيكلتها، قد لا تتوفر عليه بعض اللغات الأخرى.

### Abstract:

This research focuses on the Arabic language system. She searches the basis on which it was built and the way that was borrowed during construction by focusing on aspects of linguistic economy, and to confirm the competence of the Arabic language in reducing muscular and mental effort of its users. This research has just proven by providing evidence and examples of phonetic, morphological and structure levels and analyzing them to highlight its economic dimension. Finally, we conclude that the Arabic language has provided its users with structures that allow them to speak without incalculable words. So it borrowed a remarkable economic way through his consistency and structure that would not exist in other languages.

مقدمة: إن وجود اللغة في حد ذاته يعتبر مكسباً مهماً للجنس البشري، فقد وفرت عليه جهداً كبيراً. كان يفترض أن يبذله. لو أنه لجأ إلى وسيلة اتصالية أخرى، ولو فرضنا أن الإنسان لجأ إلى الإشارات التي كانت تمثل الوسيلة الاتصالية الأولى عند الإنسان البدائي، فإنه في هذه الحال يحتاج لأن يجعل لكل معنى إشارة معينة، ولعل ذلك سيتطلب منه. لإبلاغ معنى بسيط. بذل مجهود عضوي كبير وشاق، لذلك فإن هذه الميزة النبيلة في اللغة جعلت بعضهم يراها «مؤسسة اقتصادية

\* أستاذ محاضر ب، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة.

تتمكن بالقليل من الألفاظ أن تستحضر ما لا حصر له من المعاني (1).

ثم إن اللغة التي لا توفر لتكلمها سبل التيسير اللفظي تبقى بعيدة عن الاقتصاد المنشود، ولا يكون مسعى المتكلمين لتحقيقه. فيما بعد. ذا جدوى. لذلك كانت الإشكالية التي انطلق منها هذا البحث هي: هل انتهجت اللغة العربية في بناء نظامها الأصلي مسلكا اقتصاديا قائما على قاعدة بذل أقل جهد والحصول على أكبر منفعة؟ وهل راعى الواضع. إن كانت اللغة مواضعة «المبدأ الاقتصادي في وضع اللغة العربية؟ (2)

1 / المفهوم المعجمي للاقتصاد: يرجع لفظ الاقتصاد إلى الجذر المعجمي (قصد)، والمعجم العربية تذكر أن: القصد في الشيء خلاف الإفراط، وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة أن لا يسرف ولا يقتير... والقصد استقامة الطريق... وطريق قاصد: سهل مستقيم، وسفر<sup>3</sup> قاصد: سهل قريب... والقصد العدل (4).

وهذا يعني أن القصد نقيض المشقة والبعد والجور، ونظير السهولة والقرب والعدل، كما أنه متمكن في الوسطية، فإذا علمنا بعد هذا أن من بين معاني صيغة الافتعال التي جاء عليها الفعل (اقتصاد) هي: المبالغة في معنى الفعل، أدركنا حينها أن الاقتصاد هو المبالغة في التوسط والاعتدال والسهولة، لذلك يتحراه الإنسان في كل مناحي حياته من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة وعلم وما إلى ذلك من أمور الحياة، التي إن طالها الاقتصاد جعلها أقل كلفة وأحسن مردودية وفائدة.

2 / المفهوم الاصطلاحي للاقتصاد اللغوي: إذا كان الاقتصاد في مفهومه المعجمي يعني الاستقامة والاعتدال والتوسط بين الإسراف والتقتير فهذا معنى عام يمكنه أن يتخصص بإضافته إلى أي من مجالات الحياة المختلفة، فهناك الاقتصاد في المال، والاقتصاد في المعيشة، والاقتصاد في السياسة، والاقتصاد في الدين... بل إن هناك من ذهب إلى أن في الكون كله نزعةً إلى الاقتصاد، وذلك أن «الكائنات تميل إلى التخلص من مظاهر التلوي والتكسر والتعقيد وكثرة الانعطاف والنتوء،

<sup>1</sup> تمام حسان، الأصول (دراسة إستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي)، الدار البيضاء، 1991، ص 359.  
<sup>(2)</sup> تكلم النحاة قديما عن الواضع وقصدوا به إما الله سبحانه تعالى، أو العربي الأول الذي يفترض أنه سخر حكمته لوضع هذه اللغة لإجرائها على الأصول التي ارتضاها.

(4) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت، مادة (قصد)، ج 03، ص 354 وما بعدها.

لتصير أقرب إلى الاستقامة والانحناء أو الانسياب.<sup>(1)</sup>

وعلى هذا فالاقتصاد اللغوي كما تعرفه معاجم المصطلحات اللسانية هو ذلك المبدأ الذي يظهر في التوفيق بين القوى المتعارضة (احتياجات التواصل والكسل) التي تتصارع في حياة اللغات، وإنه يسمح بممارسة عدد ثابت من الأفعال.<sup>(2)</sup> مما يعني أن الاقتصاد اللغوي مبدأ يحاول التوفيق بين قوتين تتنازعان لغات البشر، إحداهما تدفع المتكلم نحو بذل أكبر جهد ممكن بغية الإفهام وهي (احتياجات التواصل)، والأخرى تدفعه نحو التقليل من الجهد إرضاء لطبيعة الإنسان التي تميل إلى الكسل والخمول.

وهذا المعنى صرح به أيضا (قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية) لإميل بديع يعقوب؛ إذ يقول: «الاقتصاد يقع بين قوتين متناقضتين في النشاط اللغوي: الميل إلى الراحة وإلى بذل أقل جهد ممكن، والحاجة إلى التواصل وإعطاء الحد الأقصى من الأخبار والمعلومات».<sup>(3)</sup>

وقد استعمل الباحثون في هذا الموضوع مصطلح: (مبدأ الجهد الأقل)، نجد ذلك. مثلا. عند العالم النفسي (زيف ZIPF) في كتابه (السلوك الإنساني ومبدأ الجهد الأقل)، حيث حاول فيه أن يقدم دليلا مقنعا على أن كل سلوك صحيح للإنسان يحكمه مبدأ الجهد الأقل.<sup>(4)</sup>

ثم شاع هذا المصطلح في كتب اللسانيات عند الحديث عن تطور اللغات، على اعتبار أن مبدأ أو قانون الجهد الأقل (la loi du moindre effort) يحكم تطور اللغات.<sup>(5)</sup> وتناقلته كتب اللغويين العرب المحدثين بهذا المصطلح وأحيانا بمصطلح (نظرية السهولة والتيسير).<sup>(6)</sup>

<sup>(1)</sup> فخر الدين قباوة، الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، الشركة المصرية العالمية للنشر. لونغمان.

القاهرة. ط1، 2001، ص 09

<sup>(2)</sup> JEAN DUBOIS, DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE ET DES SCIENCES DU LANGAGE, LA ROUSSE, PARIS, 1994 P 163

. ANDRE MARTINET, ECONOMIE DES CHANGEMENTS PHONETIQUES, EDITION A FRANCKE S.A, BERNE. P:94

<sup>(3)</sup> إميل بديع يعقوب وآخرون، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين: بيروت، ط11987، ص07.

<sup>(4)</sup> فلوريان كولماس، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 263، نوفمبر 2000، ص 295.

<sup>(5)</sup> FERDINAND DE SAUSSURE. COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE. EDITION TALANTIKIT. BEJAIA. 2002. P180

<sup>(6)</sup> انظر إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو . المصرية. ط2، 1983، ص108. ورمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف. القاهرة. د ط. 1967، ص 44. ورمضان عبد التواب، التطور اللغوي وقانون السهولة والتيسير. مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة. مج 36 عام 1975. ص96.

أما استعمال مصطلح الاقتصاد اللغوي (Economie linguistique) فقد شاع مع اللغوي الفرنسي (أندريه مارتينييه) الذي صرح بذلك قائلا: «الموقف اللساني إذن حُسم من قبل زيف الذي دعاه (مبدأ الجهد الأقل) هذا التعبير الذي فضلنا أن نغيره بكلمة بسيطة تسمى الاقتصاد»<sup>(1)</sup>

3 / اقتصاد اللغة واقتصاد الكلام: يتحقق الاقتصاد اللغوي عبر مستويين يمكن أن نصلح على تسميتها (اقتصاد اللغة) و(اقتصاد الكلام). أما اقتصاد اللغة فهو الذي يكون متحققا على مستوى نظري عند النشأة الأولى للغة، وما يترتب عن ذلك من إهمال للأصوات العسيرة والصيغ الشكلية المعقدة، وتوفير الثروة اللفظية اللازمة للتواصل، بضبط أسماء لكل المسميات، وتجنب التفريعات المعقدة، بما يسمح للمتكلم من صوغ كلامه بحرية وسهولة أكبر، ويدخل في هذا الإطار ما ينشأ عن حركة اللغة في الزمن من تعديل وتغيير جماعي يلغي الصعب المجهد ويثبت السهل الميسر.

و في هذا المستوى يتسم الاقتصاد بكونه جماعيا ونظريا وثابتا إلى حد ما، لأن التغييرات التي تحدث في اللغة لن تظهر إلا بعد أجيال وأجيال، ومن هذا المنطلق فقط يصح القول: «إن أفضل لغة. إن كان هناك سبيل للمفاضلة. هي التي تؤدي وظيفتها التواصلية بأيسر ما يكون من الجهد»<sup>(2)</sup>

وأما اقتصاد الكلام فيتحقق في الأداء اللغوي للفرد، وتتحكم فيه قدرة المتكلم على اختيار الأسهل من أصوات اللغة وصيغها وتراكيبها وحسن تنظيمه لها. وذلك لأن عملية التكلم ليست بالسهولة التي قد نعتقدها، فمتكلم اللغة في الحقيقة يبذل جهدا معتبرا أثناء هذه العملية، ومن البدهي أن يحاول الاقتصاد في المجهد الذي يقوم به، وهذا الوضع لا يخص المتكلم وحده، بل يخص السامع أيضا، فهذا الأخير مضطر إلى تحمل مؤونة الكلام المجهد والصبر على تصاقب جميع أصواته عليه أو الانقطاع عن الاستماع إليه.

و يكون اقتصاد الكلام. حينئذ. لاحقا لاقتصاد اللغة، إذ لا يمكن للمتكلم مهما بلغ من القدرات الذهنية والعضلية أن يجعل كلامه مقتصدا إذا لم تترئ له لغته السبل المؤدية إلى ذلك، وإذا كان اقتصاد اللغة معيارا للتفاضل فيما بين

وميشال زكريا، الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. بيروت. ط2. 1983. ص.108.

(1) André Martinet, Économie des changements phonétiques. P 94

(2) ميشال زكريا، الألسنية، ص 152.

اللغات، فإن اقتصاد الكلام معيار للتفاضل فيما بين متكلمي اللغة الواحدة، إذ يبلغ الاقتصاد أقصى درجاته إذا كانت اللغة أيسر ما يكون للاستعمال، ووفق المتكلم في اختيار الأيسر منها، «وقد كان رسول الله (p) أقصد الناس لفظاً وأعم نفعاً لأن الله (Y) خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني»<sup>(1)</sup>.

إن هذين المستويين من الاقتصاد اللغوي يستوعبان كل مظاهره، ويغنياننا عن كل اضطراب في رسم حدوده ومعامله، وإن النظر إليه من هذه الزاوية يجعله أكثر وضوحاً وبياناً، ويرفع عنه الكثير من الغموض والتداخل الذي تناقلته به المباحث اللغوية المعاصرة.

4/ الاقتصاد في النظام الصوتي والصرف: تختلف اللغات بعضها عن بعض من حيث أنظمتها وآلية عملها، وتتفاوت هذه الأنظمة من حيث الميل إلى تقليل جهود متكلميها أو العكس،<sup>(2)</sup> أما اللغة العربية فتمتاز بنظام قائم على أساس اقتصادي متين، وأول ما يتجلى ذلك في نظامها الصوتي.

فإذا ما نظرنا إلى أصواتها وجدناها قد اختارت ثمانية وعشرين صوتاً لتركيب مفرداتها وجملها، وذلك قليل إذا ما قورن بعدد الأصوات التي يمكن لجهاز النطق البشري أن ينتجها والتي يقدرها بعضهم بخمسين (50) صوتاً.<sup>(3)</sup> كما أن هذا العدد من أصوات اللغة العربية ليس قليلاً إلى درجة تجعل الكلام مثقلاً بتردد الأصوات نفسها كما هو الحال في بعض اللغات.<sup>(4)</sup>

وهذه الأصوات التي اختارتها اللغة العربية تتسم بالتنوع؛ إذ تشغل مدارج واسعة المدى في الجهاز النطقي؛ حيث تمتد من قمة الحنجرة إلى منطبق الشفتين، وذلك يمثل مجالاً واسعاً لاستيعاب أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وهذا مفقود في بعض اللغات الحية؛ إذ ينحصر أداؤها في نطاق ضيق، فتتزاحم الأصوات وتتراكب في جهة من الحلق، أو في جانب من الشفتين وما يوالهما من الفم والخيشوم.<sup>(5)</sup>

إن هذا التنوع في الأصوات والاتساع في مجال مخرجها له دور اقتصادي هام

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، 1968، ج 2، ص 19  
(2) كان علماء اللسانيات يضربون المثل باللغة الألمانية التي يرون أنه من طبيعتها أن تميل إلى الثقل وإجهاد متكلميها، بإضافة صوت مهموس عندما لا يكون موجوداً، والهمس يتطلب جهداً أكبر من الجهر.  
FERDINAND DE SAUSSURE. COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE, P 260.

(3) انظر: ميشال زكريا، الألسنية، ص 32

(4) انظر: المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(5) انظر: فخر الدين قباوة، الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص 47

حين صياغة المفردات والتراكيب؛ إذ يفتح مجالاً واسعاً للتنقل بين مدارج وأحيازٍ متنوعةٍ ومتباعدةٍ مما يسهل عملية النطق، ويوفر على المتكلم جهداً إضافياً كان عليه أن يبذله لو حصرت له اللغة في جهة واحدة من جهاز النطق.

وقد لجأت اللغة العربية إلى هذا العدد المحدود من الأصوات لتشكّل منها مفرداتها، فكان أن اختارت جذوراً لغوية لتوضع فيها تلك الأصوات، وهي: (الثنائي، والثلاثي، والرباعي والخماسي) وتوزيع الأصوات الثمانية والعشرين في هذه الجذور يتشكل عدد هائل من الأبنية المحتملة عقلاً.

فقد روى السيوطي أن الخليل بن أحمد قد ذكر في كتاب (العين) أن عدد الأبنية التي يمكن أن تتكون من 28 صوتاً، سواء المستعمل منها أو المهمل من غير تكرار هي (12305412). وروى أيضاً أن أبا بكر الزبيدي حين اختصر كتاب (العين) للخليل، ذكر أن عدة الأبنية المحتملة عقلاً في اللغة العربية المستعملة منها والمهملة هي (6659400).<sup>(1)</sup>

و هذا العدد وإن كان يبدو ضخماً إلا أنه قليل إذا ما قيس بما كان يمكن أن تتألف منه الثمانية والعشرون صوتاً، لو توزعت في جذور أخرى تزيد على الجذور التي اختارتها اللغة العربية، كما أن هذا العدد المحتمل للأبنية لم يستعمل كله، فمن مجموع الأبنية التي ذكرها الزبيدي (6659400) ذكر أن عدد المستعمل منها هو (5620) بناءً وعدد المهمل (6693780) بناءً.<sup>(2)</sup>

و نسبة الخمسة آلاف المستعملة ضئيلة إذا ما قورنت بالستة ملايين المهملة، والتي هي رصيد احتياطي كبير ينتظر متكلم العربية ليعود إليه، فيستخدمه إذا دعت الحاجة واستجدت مقاصد ما في حياته.

وليس إهمال هذا القدر من الأبنية في اللغة العربية و قبول ما قبل منه محل صدفة أو ارتجال وتعسف، بل هو راجع إلى حكمة رآها بعضهم في واضح اللغة، وإلى بُعد نظرٍ مكنه من اختيار الأسهل والأيسر للاستعمال والاستغناء عن الأثقل والممل، يقول ابن جني: (واعلم أن واضح اللغة لما أراد صوغها وترتيب أحوالها هجم بفكره على جميعها، ورأى بعين تصوره جملها وتفصيلها، وعلم أنه لا بد من رفض ما شُنع تألفه منها، نحو هع، وقج، وكق، فنفاه عن نفسه).<sup>(3)</sup>

(1) عبد الرحمن السيوطي، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى بك وزملاؤه، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 03، ج: 01، ص 74.

(2) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(3) ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط، ج 01، ص 64.

وقد أسهب ابن جني في تعليل ظاهرة الإهمال هذه، وتلمس لها الأسباب والمبررات، إذ نجده يقول: (أما إهمال ما أهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الأصول المتصورة أو المستعملة فأكثره متروك للاستثقال وبقيته ملحقة به ومقفاة على أثره).<sup>(1)</sup>

فإذا أردنا تفصيل المسألة أكثر ونظرنا في عدد الأبنية في كل جذر لغوي، سنجد أنه يختلف من جذر لآخر وترتيبها تصاعدياً كالآتي:

عدد الأبنية الثنائية: 756.

عدد الأبنية الثلاثية: 19656.

عدد الأبنية الرباعية: 491400.

عدد الأبنية الخماسية: 11793600.

ونحصل بعملية الجمع البسيطة لمحاويل نتائج كل هذه الأبنية السابقة على: 12305412 بناءً.<sup>(2)</sup> وهو العدد نفسه الذي توصل إليه الخليل بن أحمد.

ويتبين لنا من قراءة بسيطة في هذه الأعداد أن أكبر نسبة للأبنية كانت للخماسي وأقل نسبة لها نجدها في الثنائي، ولكن لو تتبعنا مع أبي بكر الزبيدي نسبة المستعمل والمهمل في كل جذر لتبينت لنا الأهمية التي حظي بها كل جذر على حدة.

والجدول الآتي يبين ذلك:<sup>(3)</sup>

الجموع	الخماسي	الرباعي	الثلاثي	الثنائي	عدد المستعمل
5620	42	820	4269	489	عدد المستعمل
6693780	6375558	302580	1538	261	عدد المهمل

إن المعطيات الواردة في الجدول يتضح منها أن الجذر الثلاثي هو الأكثر استعمالاً في اللغة العربية، إذ المستعمل منه هو (4269) بناءً، وهذا العدد يفوق عدد المستعمل كله من الجذور الباقية والذي يقدر بـ (1351) بناءً.

ويعزّز هذا ما توصل إليه بعض الباحثين في دراستهم لجذور المعاجم العربية، فقد تأكد لديهم أن الأصل الثلاثي هو الأول في هرم الاستعمال، كما هو

(1) المصدر نفسه، ج 1، ص 54.

(2) ابن حويلي ميدني، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال، دار هومه، الجزائر 2003، ص 71.

(3) هذا الجدول مستخلص من الإحصاء الذي قام به أبو بكر الزبيدي وذكره في مختصر (العين). انظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ج 1، ص 75.

## موضح في الجدول الآتي: (1)

النسبة المتبقية	نسبة الرباعي المستعمل	نسبة الثلاثي المستعمل	عدد الأصول المستعملة	المعاجم
% 01,05	% 13,58	% 85,37	5639	الصحاح
% 0,41	% 27,21	% 72,38	9032	اللسان
% 03	% 26,50	% 70,50	11978	التاج

نلاحظ أن الأصل الرباعي حلّ في المرتبة الثانية بعد الثلاثي، وما بقي من الأصول جاء بنسب مفرطة في القلة.

إن علماء اللغة يفسرون كثرة استعمال الأصل الثلاثي في اللغة العربية بكونه أخف الجذور كلها، لقلة حروفه واعتداله وانسيابته على اللسان، وليس الأمر كذلك في بقية الجذور التي يرونها أثقل منه، ولهذا كان من الطبيعي. في رأي ابن جني - أن يهمل منها أكثر مما أهمل من الثلاثي. (2) حتى إنه لم يبق من الصيغ والأوزان والقوالب فوق الثلاثية إلا القليل.

ويمكن تفسير ذلك أيضا بكون استقرار اللغة العربية على الأصل الثلاثي إنما هو وليد تطور تاريخي للأصول اللغوية العربية التي سارت في خط تصاعدي إلى أن وصلت إلى مستوى معين هو الخماسي، ثم تراجع الاستعمال شيئا فشيئا ليستقر عند الأصل الثلاثي، دون التفريط في بقية الأصول، وكان من بين الأسباب التي وجهت هذا الاستقرار هي الحذف والإنقاص الذي يعد عملية جراحية يلجأ إليها المتكلم تحت ضغط الصعوبة أو البحث عن اليسر اللفظي. (3)

ولدواعٍ اقتصادية. أيضا. لم يلجأ النظام اللغوي العربي إلى تخليق صيغ وأوزان لغوية جديدة يصب فيها أصواته، بل راح يوزع الحركات والسكنات في الأبنية وذلك ما ولد عددا من الصيغ والقوالب يكفي لاستيعاب ما تحتاجه اللغة من كلمات، وحتى هذه الصيغ المحتمل تولدها قد أهمل منها المستعمل، لذلك فإنك «لا تجد في الثنائي على قلة حروفه ما أوله مضموم إلا القليل، وإنما عامته على الفتح، نحو: هل، وبل، وقد، وأن، وعن، وكم، ومن، وكذلك جميع ما جاء من الكلم على حرف واحد عامته على الفتح إلا الأقل، وذلك نحو همزة الاستفهام، وواو العطف وفائه، ولام الابتداء، وكاف التشبيه وغير ذلك... (4) وإيثار الفتح على الضم

(1) انظر: ابن حويلي ميدني، المعجم اللغوي العربي، ص 114

(2) انظر: ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 61.56

(3) انظر: ابن حويلي ميدني، المعجم اللغوي العربي، ص 102.

(4) ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 69.





هذا كله فيما يخص الاسم، فإذا انتقلنا إلى الفعل نجد أن أحادي الأصول وثنائهما مفقودان، وكذلك خماسي الأصول فما أكثر، ولم يبق إذن إلا الثلاثي والرباعي اللذان انتقي مما يحتملانه ما يأتي:

\* في الثلاثي المجرد: (23) بناء من أصل (3852) بناء محتمل والباقي هو (3829) بناء مهمل .

\* وفي الرباعي المجرد انتقي (11) بناء من أصل (38448) بناء والباقي هو (38437) بناء أهملت<sup>(1)</sup>.

وبتدقيق النظر فيما ورد من نسب المهمل والمستعمل في صيغ الأفعال والأسماء معاً، نجد أن نسبة استعمال الأبنية كانت عالية في الاسم مقارنة بالفعل، وذلك راجع لما قرره علماء العربية من ثقل الفعل و خفة الاسم، وذلك لأن «الفعل لضعفه و ثقله لا يتحامل بما يتحامل الاسم من ذلك لقوته»<sup>(2)</sup>.

إن هذه النماذج العددية التي قدمناها للتدليل على المنحى الاقتصادي للنظام الصوتي والصرفي تُبين كيف لجأت اللغة العربية إلى الاستغناء عن الكثير من الأوزان والأبنية ليبقى مستعملوها في نطاق محدود منها، مما يسهل عليهم نقل معلوماتهم بالقليل من الأبنية ولا يتمون في اللانهائي منها.

وقد ذهب ابن جني إلى أن هذا التوجه الاقتصادي ليس وليد الصدفة، بل جاء عن قصد ووعي تام من واضع اللغة، لذلك نجده يقول: «فإن قلت من أين يعلم أن العرب قد راعت هذا الأمر وعنيت بأحواله وتتبعته حتى تحامت هذه المواضع التحامي الذي نسبته إليها وزعمته مراداً لها، وما أنكرت أن يكون القوم أجفى طباعاً وأيبس طيناً من أن يصلوا إلى هذا القدر اللطيف الدقيق، الذي لا يصح لذي الرقة والدقة منا أن يتصوره إلا بعد أن توضح له أنحاءه، بل وتُشرح له أعضاؤه؟ قيل: هيهات ما أبعدك عن تصور أحوالهم، ويُعد أغراضهم ولطف أسرارهم كأنك لم ترهم وقد ضايقوا أنفسهم و خففوا عن ألسنتهم...»<sup>(3)</sup>.

ومما يدلنا أيضاً على اتباع العربية لمسلك اقتصادي في تكوين نظامها الصوتي والصرفي أنها إذا أرادت التعبير عن معنى إضافي للكلمة لا تعدل إلى كلمة أخرى جديدة تتضمن المعنيين معنى (الأصلي والإضافي)، وإنما تلجأ إلى الكلمة الأصلية فتضيف إلى بنيتها صوتاً أو صوتين أو أكثر في أولها أو وسطها أو آخرها،

(1) انظر فخر الدين قباوة، الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص 117. 120.

(2) ابن جني، الخصائص، ج 1، ص 236.

(3) المصدر السابق، ج 1، ص 74.

كالألف التي في (فاعل)، والميم والواو التي في (مفعول)، والنون التي في (انفعل)... وبذلك يتحقق الغرض بأقل كلفة وجهد، وتستغني اللغة عن إضافة كلمات جديدة إلى معجمها.

ومثال ذلك أنك إذا أردت التعبير عن حدث الضرب في الزمن الماضي ستجد أمامك صيغة (فَعَلَ) تصب فيها مادة (ض ر ب) فتحصل على (ضرب). فإن أردت إضافة من قام بالحدث والتنبيه عليه زدت الألف بين فاء الفعل وعينه فتحصل على (ضارب). فإن أردت إضافة معنى من وقع عليه الحدث أضفت حرفين هما الميم في أول الفعل والواو بين عينه ولامه فتصير (مضروب) مع تغيير بسيط في الحركات.

وهكذا يكون الأمر مع كثير من المعاني التي لم تلجأ اللغة العربية إلى إضافة كلمات جديدة للتعبير عنها، بل أضافت حروفاً محدودة في مبنى موجود، ومن المعلوم «أن الزيادة تكون لمعنى»<sup>(1)</sup>.

فزيادة حرف واحد أو أكثر على لفظ الفعل تحول صيغته إلى نمط جديد، وتضيف إليه معنى جديداً، فإذا هو يتضمن معاني مركبة تعني عن ألفاظ أو تراكيب في اللغات الأخرى، فتضعيف العين وحده يفيد التعدية أو التكتير، أو المبالغة أو الإزالة نحو: حَدَّرَ قَطْعَ وشمَّرَ وقشَّرَ.<sup>(2)</sup>

وفائدة الصيغة أيضاً أنها رابط ذهني بين عدد هائل من المواد التي تتوضع فيها، وذلك لأن كل من (ضَرَبَ)، (قَتَلَ)، (جَلَسَ) تربطها صيغة واحدة ببعضها هي (فَعَلَ) تجعلها دالة على وقوع حدث في الماضي أسند إلى مذكر غائب، والرابط بين (ضارب) و(قاتل)، و(جالس) هو صيغة (فَاعِل) الدالة على وقوع حدث ومن قام به وهذا اقتصاد ذهني واضح، يحصر ذهن المتكلم في قوالب محدودة مألوفة يسهل عليه حفظها وتذكرها.

ومن الفوائد الاقتصادية كذلك التي تنجم عن قاعدة (كلما زاد المبنى زاد المعنى) هو أنه إذا أضيف إلى الكلمة التي تدل على المفرد علامة التثنية (الألف والنون أو الياء والنون في المذكر، وتضاف التاء قبلهما في المؤنث) فإن هذا يعني عن تكرار الكلمة مرتين، وإضافة علامة الجمع (الواو والنون أو الياء والنون في المذكر، والألف والتاء في المؤنث) تعني عن تكرار الكلمة ثلاث مرات أو أكثر، أي بدل أن تقول (نجح طالب وطالب) تقول (نجح طالبان)، وبدل أن تقول: (صلى مسلم

(1) ابن عصفور، الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1983، ص5، ص56

(2) فخر الدين قباوة، الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص93

ومسلم ومسلم ...) تستغني عن كل ذلك بقولك: (صلى مسلمون).

وإذا أردت التعبير عن جمع كثير، وهو الذي يسميه علماء العربية منتهى الجموع، فإن العربية توفر لك قوالب تسهل عليك ذلك منها (مفاعل ومفاعيل)، فهذان القالبان يدلان عن الجمع المتكاثر، فيوفران عليك جهدا كنت ستبذله بتكرار اللفظ عدة مرات دون أن تحقق غرضك.

5/ الاقتصاد في النظام التركيبي: على مستوى التركيب نجد النظام اللغوي العربي بُني على أسس اقتصادية. كذلك. وأول ما يلفت انتباهنا في هذا الجانب، هو ظاهرة الإعراب التي تميز اللغة العربية وأخواتها من السامية عن باقي اللغات. فهذه الأخيرة يعتمد نظامها على الموقعية؛ إذ تحفظ لكل عنصر لغوي رتبته فلا يتقدم عنها ولا يتأخر، وليس الأمر كذلك في اللغة العربية، فإن الإعراب فيها يمنح المتكلم حرية أكبر في التقديم والتأخير وفق ما يسمح به النظام، وهذا ما يسهل عليه نقل معلوماته وإيصالها دون كلفة وملل ورتابة.

وقد نبه بعض الباحثين إلى أن الإعراب إنما جاء للتخفيف عن طريق معاقبة الحركة للسكون حتى يعتدل الكلام، وهو مذهب قطرب في تعليل دخول الإعراب إلى الكلام.<sup>(1)</sup>

ومن السمات الاقتصادية المتصلة بالإعراب أن العربية لم تجعل حظ العناصر اللغوية في الإعراب متكافئا، وذلك لأن علامات الإعراب (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) وفروعها غير متساوية في درجة الخفة والثقل، فترتيب العلامات الأصلية من الأخف إلى الأثقل هو كالاتي: السكون فالفتحة فالكسرة فالضمة.<sup>(2)</sup> لذلك كان توزيعها على الكلمات المعربة وفق معايير اقتصادية واضحة، راعت خفة وثقل هذه الكلمات، إذ أُعطي الأخف من العلامات للأثقل من الكلمات والأثقل من العلامات للأخف من الكلمات.<sup>(3)</sup> وبذلك يعتدل الكلام ويستقيم فينسب على اللسان انسيابا.

ومن الظواهر التي تدل دلالة واضحة على انتظام اللغة العربية وفق معايير

(1) انظر: أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط 1، 1996، ص 240، وأحمد علم الدين الجندي، في الإعراب ومشكلاته، مجلة مجمع اللغة العربية، ج 42، ص 162 وما بعدها. ولكن قُطِرنا لم يصرح بذلك، وإنما فهم من مضمون كلامه، كما أنه لم يحصر دخول الإعراب الكلام في غرض التخفيف بل يرى أنه دخل للترقية بين المعاني أيضا انظر: الزجاجة، الإيضاح في علل النحو، نج: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط 5، 1986، ص 106.

(2) انظر: أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، ص 35.

(3) انظر: الزجاجة، الإيضاح في علل النحو، ص 106.

اقتصادية ما نلاحظه من استغنائها التام عن فعل الكينونة المطلق، أو ما يسمى بالفعل المساعد والذي تحتفظ به اللغات الأجنبية مع أنها كلمات مفرغة، فلم تلجأ العربية إلى توظيفه والاستعانة به على الأقل على المستوى السطحي الملفوظ.

وقد نبّه الأستاذ طاهر سليمان حمودة إلى أن ثبات هذه الظاهرة في العربية ووضوحها يفوق غيرها من اللغات لما جُبلت عليه في خصائصها الأصلية من ميل إلى الإيجاز.<sup>(1)</sup>

وشبيه بهذا ما نلاحظه على مستوى التركيب من إسقاط بعض العناصر اللغوية لفظاً مع حضورها في الذهن تقديراً، وذلك ما يعرف في النحو العربي باستتار الضمائر، وفائدته أنه يقلص التراكيب اللغوية ويقلل من عدد أصواتها مع ضمان بقاء المعنى ذاته دون إخلال به أو إنقاص منه، مع العلم أن وجود الضمائر في حد ذاته إنما هو للإيجاز والاختصار، فهي على قلة أصواتها. قد حلت محل الاسم الظاهر وقامت بأداء معناه.

ولما كانت بعض التراكيب، إنما تقع في الكلام لتأدية معاني يكثر دورانها فيه، عوضت هذه التراكيب بألفاظ بسيطة يقل عدد أصواتها مما يسهل استخدامها، ويتناسب مع كثرة ترددها، فنتج عن ذلك ما يعرف (بحروف المعاني) وهذه في الحقيقة إنما جاءت «اختصاراً للجمل التي تدل معانيها عليها».<sup>(2)</sup>

فقد نابت حروف العطف عن جملة (أعطف)، وحروف الاستفهام نابت عن جملة (استفهم)، وحروف النفي نابت عن جملة (أنفي)، وكذا نابت حروف الاستثناء عن جملة (أستثني)... وقد وضع ابن جني هذه الظاهرة في قوله: «ألم تسمع إلى ما جاؤوا به من الأسماء المستفهم بها والأسماء المشروط بها، كيف أغنى الحرف الواحد عن الكلام الكثير المتناهي في الأبعاد والطول، فمن ذلك قولك: كم مالك؟ ألا ترى أنه قد أغناك عن قولك: عشرة مالك أم عشرون أم مائة أم ألف؟ فلو ذهبت تستوعب الأعداد لم تبلغ ذلك قط، لأنه غير متناه...».<sup>(3)</sup>

ثم إن متكلم العربية يجدها قد وفرت له مباني محددة صالحة لتأدية وظائف متعددة، مع أنها قد ضمنت له في الوقت نفسه أمن اللبس بواسطة القرائن المقالية والحالية ومثال ذلك العنصر اللغوي (ما) على إطلاقها، إذ تصلح

(1) طاهر سليمان حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1999، ص 09.

(2) السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1970، ج 1، ص 33.

(3) جني، الخصائص، ج 1، ص 82.

للموصولية والمصدرية والنفي والتعجب والزيادة ونحوها من الوظائف<sup>(1)</sup>.  
 وخالصة القول: إن اللغة العربية حافلة بمثل هذه المظاهر الاقتصادية التي  
 تنبئ عن نزعتها إلى تقليل الجهد المبذول على مستعملها، بأن وفرت لهم من الأبنية  
 ما يغنيهم عن كلام لا يحصى عددا، فهي إذن قد سلكت مسلكا اقتصاديا ملحوظا  
 في انتظامها وهيكلتها، قد لا تتوفر عليه بعض اللغات الأخرى، وما قدمناه على قلته  
 يعد شاهدا على ذلك.

#### قائمة المصادر والمراجع.

##### ◆ المصادر والمراجع العربية.

01. أنيس إبراهيم، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية. ط2، 1983.
  02. ابن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، دط.
  03. ابن عصفور، الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1983، 5.
  04. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، دط، دت.
  05. الجاحظ، البيان والتبيين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1968.
  06. الجندي أحمد علم الدين، في الإعراب ومشكلاته، مجلة مجمع اللغة العربية، ج 42.
  07. حسان تمام: -الأصول دراسة استيمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، دار الثقافة، الدار البيضاء، دط، 1991.
  - اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 1998.
  08. حمودة طاهر سليمان، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، 1999.
  09. الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت، ط5، 1986.
  10. زكريا ميشال، الألسنية علم اللغة الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1983.
  11. السيوطي عبد الرحمن: -المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تح: محمد أحمد جاد المولى بكوز ملاؤه، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط 03.
  - الأشباه والنظائر في النحو، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1970.
- (1) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط 3، 1998، ص 163.

- 12 .شاهين عبد الصبور، المنهج الصوتي في بنية الكلمة العربية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1980.
- 13 .عبد التواب رمضان: - التطور اللغوي وقانون السهولة والتيسير، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، عام 1975.
- . لحن العامة والتطور اللغوي، دار المعارف. القاهرة. د ط. 1967.
- 14 .عفيفي أحمد، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ط 1، 1996.
- 15 .قباوة فخر الدين، الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، ط 2001، 1.
- 16 .كولماس فلوريان، اللغة والاقتصاد، ترجمة أحمد عوض، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد 263، نوفمبر 2000.
- 17 .ميدني ابن حويلي، المعجم اللغوي العربي من النشأة إلى الاكتمال، دار هوميه، الجزائر 2003.
- 18 .نور الدين عصام، أبنية الفعل في شافية ابن الحاجب، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط 1، 1997.
- 19 .يعقوب إميل بديع وآخرون، قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية، دار العلم للملايين: بيروت، ط 01، 1987.

◆ المراجع الأجنبية.

- ANDRE MARTINET, ECONOMIE DES CHANGEMENTS PHONETIQUES, EDITION A FRANCKE S.A. BERNE .
- FERDINAND DE SAUSSURE. COURS DE LINGUISTIQUE GENERALE. EDITION TALANTIKIT. BEJAIA. 2002 .
- JEAN DUBOIS , DICTIONNAIRE DE LINGUISTIQUE ET DES SCIENCES DU LANGAGE, LA ROUSSE, PARIS, 1994





## رؤى معجمية حدائفة

### أ. عمّار لعويجي

#### الملخص:

المعجم كنز من كنوز الأمة وذخر من ذخائرها اللغوية النفيسة، وخزانة ألفاظها وفُسحة معانيها ومشتقاتها ومصطلحات علومها، والعرب عُرفت بديوانها الذي جسدت فيه حياتها الاجتماعية والثقافية والبيئية قبل مجيء الإسلام، لكن بعد بزوغ نور الرسالة المحمدية توسعت الرقعة الجغرافية للغة العربية واختلطت وتلاقت مع غيرها من لغات العالم. عندها بدأ التفكير في إنشاء معاجم لغوية فكان العين أولها، ثم توالى المدارس المعجمية الواحدة تلو الأخرى خدمة للقرآن ولغة الضاد التي أنزل بها. والآن وفي ظل التطور التكنولوجي المذهل، يحاول الدارسون معالجة اللغة العربية حاسوبياً وبناء قاموس آلي. الكلمات الدالة: القاموس، المعجمية، الذاكرة، الحوسبة، البرمجيات.

#### Résumé:

Lexique trésors de la nation et un atout de munitions linguistique précieux, placard ajouter à leur libellé et des significations claires et leurs dérivés et les termes des sciences, et les Arabes savaient Bdiyoanha qui incarnait la vie sociale, culturelle et environnementale de sa vie avant l'avènement de l'Islam, mais après l'émergence d'un message Noor Muhammadiyah à élargir la portée géographique de la langue arabe et Tlaqht mixte et avec d'autres langues Alm.andha commencé à réfléchir à la création de dictionnaires de langue était l'œil d'abord, puis roulé écoles lexicales un après l'autre service pour le Coran et la langue de daad laquelle il a été révélé. Maintenant, à la lumière de l'évolution technologique étonnant, les chercheurs essayant de répondre à la langue arabe Dictionnaire constructive Hacubiao.

Mots clés: dictionnaire, lexique, de la mémoire, de l'informatique, des logiciels.

• كلية الآداب واللغات. جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة.

توطئة: تطورت الدراسات اللغوية العربية بفضل علمائها الفطاحل ، واعتنت باللفظ والمعنى معاً ومست مستويات اللغة صوتاً وصرفاً، نحواً، ودلالةً ، فصار للعرب تراثاً مدوّناً معجمياً في شتى علوم اللغة، هذا عند السلف. فما واقع الحال عند الخلف؟ وما هي نظرتهم للمعجم في عصر المعلوماتية؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات؛ نورد بعض الرؤى لدارسين محدثين :

1. نظرة عبد القادر الفاسي الفهري لحوسبة المعجم : نفترض بدءاً، أن عدداً من إشكالات البحث المعجمي اللساني النظري لها «إسقاطات في مجالات التطبيق ، وضمنها التطبيقات الحاسوبية. ولاشك أن بناء قاموسٍ مُحوسَبٍ يقتضي معرفة ملامح المستهلك ومجالات الاستخدام الممكنة أو المتوخاة من هذه الصناعة (كالترجمة الآلية وفهم تركيب الكلام واستخراج المعلومات ، ومعالجة النصوص، الخ...)، إلا أن هناك متطلبات عامة للبناء لا يمكن أن يقوم بعمل معجمي دون توفرها. وضمن هذه المتطلبات:

(أ). تحديد المادة المعجمية وطبيعتها ومصدرها.

(ب). تحديد محتوى المداخل المعجمية.

(ج). - تمثل وصوغ القواعد التي تربط بين المفردات ، أو تحتسب ما هو حشوي فائض ضمن المعلومات التي ترد أو يمكن أن ترد في المداخل.

وواضح أن بناء المعجم يقتضي الفصل في مستوى نظري بين المعلومة المعجمية وغيرها من المعلومات التي تعالج ضمن أنموذج لغوي أعم (أو منظومة أعم). ويقصد هنا بالخصوص، المعلومة التي تعالج في المحلل النحوي ، فإذا كان المحلل يتجه إلى القواعد النحوية العامة فإن ما ننتظره هو عدم الخلط بين ما هو نحوي من القواعد ، وما هو معجمي منها.

علماً بأن المعلومة المعجمية لا تنحصر فقط في المفردات المخزنة بل تشمل أيضاً الترابط العلاقي بين الوحدات والقواعد التي تحتسب العلائق الممكنة أو ما يدعي بقواعد الحشو.

1. 1. المادة موضوع الوصف والملكة المعجمية: من الطبيعي ، ونحن بصدد بناء قاموس آلي ، أن نتساءل عن طبيعة المادة التي ستكون محتواه ، وكذلك مصدر هذه المادة. أين هي المواد والمعلومات التي ستحوسب؟ هل توجد في تاج العروس أو في لسان العرب أو في المعجم الوسيط أو غيرها من القواميس العربية؟ الجواب في عجالة: قطعاً لا.

لقد ذهب جمهور اللغويين والنحاة العرب القدامى إلى أن المادة المعجمية

يحددها السماع ، واشترطوا من أجل حصر اللغة أن تسمع اللفظة .ويسمع معناها.

وفي هذا يقول الاسترابادي: «...يحتاج إلى سماع استعمال اللفظ المعين ، وكذا استعماله في المعنى المعين<sup>(1)</sup> .»

فإذا كان الشرط الأول مقبولا في حدود ، لأنه يتيح وضع الحد بين ما هو مستعمل وما هو مهمل ، فإن الشرط الثاني غير مقبول ، لأنه يحصر اللغة في ما هو مكرر بلفظه ومعناه ، ولا يخرج عما قاله وأبدعه السلف.

فلئن كانت معرفة المعجم تقتضي ، فيما تقتضيه ، معرفة «ذاكرة الجماعة ، فإن من أهم ما يشغل بال الباحث المعجمي تجدد هذه «الذاكرة أو وجود ذاكرة لا تلقن.

وإذا كانت الإسهامات المعجمية العربية في القرون الهجرية الأولى ذات أهمية تاريخية كبرى بالنظر إلى تنوعها نهجا ومادة وتأليفا ، فإن المعاجم العربية الحالية ، رغم بعض الجهود المبذولة ، تظل قاصرة ، لا تلبى حاجات مستهلكها.

ولئن مثل موقف واضعي المعجم الوسيط موقفا جديدا حين أنكروا انقطاع سلامة اللغة عند عصر معين ، وفي مكان معين ، وأهملوا الألفاظ المهجورة والغريبة ، وأثبتوا المستحدثة أو المعربة مما أقره المجمع ، فإن هذا المعجم يظل مع ذلك بعيدا عن المؤلف القاموسي المنشود.

فهناك فجوة كبيرة بين ما يمثله هذا القاموس من معلومات ، شكلا ومحتوى ، وما نتوق إلى تمثيله ، من أجل رصد ملكة العربي معجميا. وسيتضح هذا في الفقرات الموالية ، حيث نتفحص البنية الداخلية للقاموس ، وطبيعة وحدة (أو وحدات) المعلومات التي نحتاج إليها للتخزين فيه ، ومحتوى المداخل المعجمية ، وكذلك خصائص القواعد المعجمية.

1. 2. القاموس والقواعد المعجمية: يقول عبد القادر فاسي فهري: نتصور ، في مستوى نظري ، أنه يمكن بناء نوعين من القواميس:

قاموس واسع بما يكفي ليشمل لائحة طويلة جدا من المداخل ، محشوة بكمية هائلة من المعلومات منصوص عليها في المداخل وقاموس مقعد ، بمعنى أنه يشمل لائحة من القواعد ، إضافة إلى لائحة المداخل ، ويكون دور القواعد فيه

(1) انظر شرح الشافية ، ج.1 ، ص.84/ع/كتاب المعجمة والتوسيط(نظرات جديدة في قضايا اللغة العربية)، عبد القادر الفاسي فهري.ص63

أساس الإغماء عن تكرار المعلومات الحشوية في كل مدخل على حده ، بل تقليص لائحة المداخل أيضا.

ويحتاج القاموس الواسع ، طبعا ، إلى ذاكرة ضخمة ، لأنه قد يتضمن ملايين المداخل والمعلومات ، وهي ذاكرة لا تتوفر في الحواسيب الشخصية ، مثلا. والأمر خلاف هذا في القاموس المقعد ، إذ تعمل القواعد الحشوية في اتجاه تقليص حجمه ، والاستغناء عن المعلومات المكررة ، مما يجعل إدخاله في الحواسيب ذات الذاكرة المحدودة شيئا ممكنا.

وقد يكون من الضروري البدء أولا ببناء القاموس الواسع ، ثم النظر في هذه المدونة الضخمة لفرز ما يمكن الاستغناء عنه. ومما يبرز القيام بهذا العمل بالنسبة للعربية مايلي:

أ. إن جل الدراسات المعجمية العربية ليست نسقية بما يكفي حتى تعتمد في عملية التقليص وينتج عن ذلك بالفعل استغناء مهم عن المعلومات الحشوية ، يتيح بناء معجم مقعد.

ب. ليس من الممكن استعمال «حدوس متكلي هذه اللغة اعتمادا مباشرا في تحديد الاطرادات ، بل يجب تبني نتائج البحوث الأساسية الطويلة النفس (والقليلة للأسف) سعيا وراء إعادة بناء أنساق اللغة العربية صوتيا وصرفيا وتركيبيا ودلاليا ، وإصلاح ما أفسده ، النحاة قدامى ومحدثين.

1. 3. المداخل المعجمية:تنظيم الذاكرة المعجمية يجب أن يكون مرنا بما يكفي ليساهم في عمليات معقدة مثل التحليل والتوليد والفهم. ومما يجب أن يتضمنه المعجم من معلومات بالنسبة لكل وحدة معجمية مايلي :

1.3.1. الخصائص النطقية: بما في ذلك النبر ، إضافة إلى الخصائص الكتابية. ومعلوم أن المعاجم العربية لا تعالج الجانب النطقي إطلاقا.

1.2.3. الصور الصوتية للمفردة.

1. 3. 3. الخصائص الصرفية. بما في ذلك الصور الصرفية المختلفة للمادة الواحدة.

1. 3. 4. المعلومات التركيبية: الصنف المقولي ، والإطار التفرعي ، والخصائص الإعرابية ،... الخ.

1.5.3. المعنى:

(أ). الحد(المفهوم وعلاقته بالمفاهيم الأخرى ، كعلائق الترادف والتضاد...)

(ب). الشبكة المحورية.

(ج). قيود التوارد.

1. 3. 6. الخصائص البلاغية والمقامية: ومن وجهة النظر اللسانية ، يفضل المعجم الذي يتضمن أقل قدر من الرموز على المعجم التي يتضمن أكبر قدر منها ، لأنه يسهل الاكتساب والفهم والإنتاج ، ويحدد شكل الوحدة التي نحتاج إليها لتخزين المعلومات في القاموس بحسب ما يحتاج إليه المعالج في عملية التقطيع إلى وحدات أثناء البحث. أو ضم قطع لبناء معلومة مركبة عند الانتقال. هذه الوحدات هي الجذر والصيغة والجذع الجرد أو الجذع المزيد أو الكلمة بكل تصريفاتها أو المركب المسكوك ، بحسب ما يمكن استخلاصه عن طريق القواعد ، أو مالا يمكن ، وبحسب ما يخضع لمبدأ التأليف ، أو مالا يخضع. وقد يكون من اللازم هنا تطبيق بعض القواعد الكتابية أو الصوتية للوصول إلى صور الصرفيات التحتية أو السطحية عند الاقتضاء («ازدهر»، «ازهر»).

ومحاولات تقليص حجم المعجم لا تشمل فقط التقليص داخل نفس المكون من مكونات المدخل ، بل تتجه أيضا إلى التقليص عبر المكونات ، نظرا إلى تداخل بعضها مع بعض؛ فهناك ، مثلا: عدة معلومات تفرعيه يمكن الاستغناء عنها بوجود العناصر الدلالية وتحقيقها المقولي الاعتيادي، ثم إن عددا من الضوابط لبناء الكلمة يمكن استخلاصها من قواعد التركيب (كرتب اللواحق داخل الكلمة مثلا).

فهذه الإشكالات نطن أنها ذات أهمية بالنسبة لبناء القاموس، وكذلك استخدامه في التطبيقات الآلية.

2. نظرة عبد الرحمن الحاج صالح: إن كل المعجميين وغيرهم من العلماء يعرفون أن الزمان الذي كان يكتفي فيه بتحرير الجزازات وترتيبها (بشقي الترتيبات لجعلها على جزا زيات خاصة) قد مضى وانتهى. وأيقنوا بضرورة اللجوء إلى الوسائل التقنية الحديثة والاستعانة بها لأنهم عرفوا أن الحواسيب تقوم من العمل المتقن وفي وقت وجيز ما تقوم به العشرات من الفرق في أشهر أو في سنوات ، فالريح في الوقت وفي المال وفي الإتقان باستعمالنا للحواسيب لا يشك فيه أحد. إلا أن ظهور الحواسيب وتدخلها فيما لم يكن له حساب يوجب علينا أن نحدد بالضبط ماهي أنواع الأعمال التي يمكن أن يكفينا إياها الحاسوب وكيف يتم ذلك. فماذا عسانا أن نطلب منه مما يستطيع القيام به بسهولة وبسرعة مما كنا نعجز عنه تماما؟ فقبل أن نعدد فضائل الحاسوب نذكر القارئ الكريم أن أكبر فضل يكسبه الحاسوب

هو أن له القدرة .العظيمة حقا .أن يدمج بفضل بعض البرمجيات ، الآلاف من الكتب وأي نوع آخر من النصوص وجعلها كأنها نص واحد ويستطيع بذلك أن يجري أي علاج وأي بحث عليها بأجمعها أو جزء منها ، كمختلف أنواع الأسئلة عن وجود شيء وبأي صيغة وكالفهرسة والحصر والإحصاء وغير ذلك.

1. 2 .بصفة عامة يمكن أن يحول البحث في محتوى المدونة(العظيمة جدا)<sup>(1)</sup>

والتصفح لها كله آليا وذلك:

أ . حصر كل السياقات لكل كلمة وردت فيها أو في جزء منها مع ذكر المرجع الكامل لها وهذا العمل هو عبارة عن فهرستها(فكل كلمة يذكر كل ما اقترنت به من القرائن في نص واحد أو كل النصوص.

وهذا بالنسبة للنص القرآني قد أنجز قبل اليوم<sup>(2)</sup> وقبل ظهور الحاسوب إلا أن الحاسوب يستطيع أن يفهرس أي كمية من العناصر من مدونة .ولو جاءت في ملايين من النصوص .في وقت قصير ، وسنرى فوائد ذلك.

ب . حصر جميع العبارات الخاصة ، لا المفردات فقط ، المتألفة الألفاظ<sup>(3)</sup> بسياقات كل واحدة منها وذكر المرجع الكامل لها.ونعني بالعبارة هنا أي تركيب تقتزن فيه كلمتان أو ثلاث بشيء من التلازم.ففي العربية:«رفع الجلسة هو المعروف ولا يقال أغلقها ، ويقال: « شد أزره لا «شد ظهره ، ويقال: «ضرب في الأرض ولا يقال: في البر أو غير ذلك مما ينتهي إلى اللغة العربية وتدخل في هذا النوع كل الأمثال وما يجري مجراها أي كل تركيب خاص مثل الذي ذكرناه.

ج . تحليل آلي بالحاسوب لكل كلمة متمكنة تأتي في نص إلى مادتها الأصلية ووزنها.

د . إحصاء آلي في نص أو عدة نصوص لكل وحدة لغوية أيا كانت بما في ذلك العبارات والجذور والأوزان.

ولكل واحدة من هذه العمليات فوائد كثيرة ومتنوعة ، وسنرى ذلك في عرضنا الآتي لمنهجية العمل في صناعة المعاجم.هذا ويستطيع الحاسوب أن يجيب ، على الفور ، عن أي سؤال يخص وحدة لغوية معينة أو عدة وحدات في وقت واحد

(1) عبد الرحمن الحاج صالح .بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، ج.2 ، الجزائر 2008. يسمى الحاسوبي المدونة اللغوية ، كما هو معروف ، قاعدة المعطيات اللغوية.

(2) المصدر نفسه. من ذلك كتاب:فتح الرحمن لآيات القرآن(لفيض الله بن موسى) والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (لمحمد فؤاد عبد الباقي).

(3) المصدر نفسه. وهي . ما يجري في الأمثال. عند سيبويه.

، لفظا ومعنى ومن أي جانب كان.

أما كيفية جمع المدونة وإنشائها فيكون السبيل إلى ذلك بمراعاة التنوع الكافي والشامل لمحتواها وهو المبدأ الأول الذي ذكرناه قبل ، والمراد من ذلك هو تغطية كل ميدان من المعرفة وكل ميدان من الحياة العامة وغيرها ، فيقام لذلك قائمة مستفيضة من هذه الميادين وذلك مثل (وهو مجرد مثال) كل ما يخص:

العلوم الدقيقة ، العلوم الطبيعية ، العلوم التطبيقية والتكنولوجيا ، العلوم الطبية ، الصيدلة البيطرة العلوم الإنسانية والفنون المختلفة وميدان الحياة العامة كالترفيه والإعلام والخدمات العمومية الكبيرة وغير ذلك. ولم هذه القائمة تفاصيل تدخل فيها كل ما يخص الحياة العامة .

ولابد من توزيع النصوص إلى أدبية وعلمية، ومن الحياة العامة على السواء ويجب أن يستخرج المنجزون للمعجم في البداية قائمة المداخل التي سيحتوي عليها المعجم من المدونة ويكمل ذلك ، للتصحيح وللحاجة ، بالرجوع إلى عدد من المعاجم الصغيرة والكبيرة القديمة والحديثة.

أما تهيئة وثائق العمل الخاص بتحرير المداخل فيكون في الغالب بالاستفادة مما ذكرناه من أعمال الحاسوب.

ويمكن أن يعتمد المحرر للمدخل على الوسائل:

.يقوم المحرر باستخراج المعاني من النصوص .وهو أهم كل الأعمال بكثير . يحصر كل السياقات وجمعها في مجموعة جزازات تخص الكلمة الواحدة (أي المدخل) وتكون فيها مرتبة بالترتيب الألفبائي (وغيره إن احتاج إلى ذلك) مستخرجة من المدونة عصرا بعد عصر إن كان الباحث يعتد بتاريخ الكلمة وإلا فلا ، فيكون الحصر خاصا بزماننا هذا فقط.

وهذه المجموعة من الجزازات تسمى عند معجمي القرن الواحد والعشرين «بملف اللفظة أما كيفية استنباط المعاني فقد وضع في ذلك الاختصاصيون قواعد دقيقة<sup>(1)</sup>.

يستخرج المحرر أيضا من كل ملف العدد الكافي من السياقات التي لابد من ذكرها كشواهد ، ويكون ذلك بحسب ما يقصده من المعجم: أن يكون موجهًا

(1) عبد الرحمن الحاج صالح. بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ج.2 الجزائر 2008. وقد استعملنا بعض القواعد الخاصة عرضها في بحث بعنوان: تحديث أصول البحث العلمي في التراث اللغوي العربي مؤتمراً مجمع القاهرة في 2005. ص 171.

للاختصاصي أو الطلاب أو جمهور المثقفين.

يمكنه أن يدل في كل مدخل على درجة شيوعه ودرجة تردده على الألسن (من المدونات المنطوقة) أو على الأقلام بالاعتماد أساساً على المدونة فيما يخص المكتوب. وهي معلومات يحصل عليها بسهولة بالحاسوب وهذا جد مفيد بالنسبة إلى المصطلحات فقد لا يعرف عن أحدها هل دخل بالفعل في الاستعمال أم لا وبأي اتساع. كما يمكن أن يبين إن كان يستعمل بكثرة في ميدان معين. فهنا يظهر فضل المسح الكامل للنصوص فهو مسح للاستعمال الحقيقي ولا يضاهيه النظر في المفردات في خارج إطارها الطبيعي.

واللجوء إلى الحاسوب في هذا الميدان يدخل في ميدان العلاج الآلي للنصوص اللغوية وهو المشهور «بعلم العلاج الآلي للغة وهو فرع من فروع اللسانيات الحاسوبية ويحتاج هذا العلاج الآلي إلى مجموعة من البرمجيات الخاصة يضبطها المهندسون المختصون في هذا العلم وفي هذا الميدان ويستعينون في ذلك باللغويين فيما يخص الجوانب من اللغة التي يرغبون في البحث فيها. أما فيما يخص العربية فقد وضع بعض المهندسين العرب منذ زمن برمجيات خاصة لإلقاء أسئلة على المدونات المحسوبة التي جمعوها كالنص القرآني وكتب الحديث أما المشروع العربي الكبير المسمى بالذخيرة العربية فقد تم وضع برمجية خاصة أيضاً كبيرة القدرة إذ تمكن الباحث من إلقاء عدد كبير من الأسئلة المتنوعة على الذخيرة (وتسمى أيضاً «بالانترنت العربي ويشعر في إنجازها قريباً إن شاء الله على مستوى الدول العربية»<sup>(1)</sup>).

هذا وتظهر الفائدة العظيمة من المسح الكامل (بكل معنى الكلمة) للسياقات لمعرفة جميع المعاني للكلمة الواحدة (في عصر معين) لأن هذا العلم الذي نحصل عليه هو موضوعي مائة بالمائة: يستخرج بالاستقراء الكامل من المعطيات أي من الواقع. فصحة هذه المعرفة تكون مبنية إذن على صحة المعطيات من حيث هي مستخرجة من الاستعمال الحقيقي للغة من جهة وعلى شمولية العملية الاستقرائية من جهة أخرى مع العلم أن لا معنى للكلمة إلا في سياق كامل الدلالة. وهذا العمل الاستنباطي لا نتصور أن يمكن تحقيقه بدون أن يستعان في ذلك بالحواسيب<sup>(2)</sup>؛ لأنه عمل من جنس أعمال العمالقة لضخامته ومشقته وما يكلف من الوقت والمجهود. وأفيد من ذلك، في نظرنا، هو ما يقتضيه علاج الحاسوب

(1) المصدر نفسه، ص 171.

(2) المصدر نفسه، ص 171.



للنصوص. وأي نوع من المعلومات. من التشدد الذي لا يرحم في الالتزام بدقة المنهج البحثي وبدقة الطرق التحليلية والتزام المنطق العلمي الحديث في كل سلوك يسلكه الباحث.

ونعجب لمن يدعو إلى الاستعانة بالحاسوب ويتماون في الوقت نفسه بمبدأ المسح الكامل ومدونة تجمع الملايين من النصوص حسب ما يتطلبه البحث اللغوي الحديث وقد تحقق ذلك بالفعل.

3. نظرة فتح الله سليمان لحوسبة المعجم: شهد العالم المعاصر ثورة حقيقية في مجال الإلكترونيات والبرمجيات والحاسوب وتقنية المعلومات. وترجع بداية ظهور الكمبيوتر إلى أواخر الأربعينات ، وعندما أصبحت تقنية الحاسوب تتوسع لتصبح كيانا قائما بذاته بدأت مصطلحات أخرى تظهر على الساحة ، مثل علم الكمبيوتر وعلم الحساب أو الاحتمال لتميزه عن الحساب التقليدي في الرياضيات<sup>(1)</sup>.

وقد دخل الحاسوب منذ ظهوره مجالات التعليم والثقافة ، فتراه يستخدم في ميدان الترجمة ، وفي مجال التعليم باعتباره وسيلة تقنية متطورة ، تجيء بديلة عن الطرق التقليدية في التعليم والتلقين.

وتتسم اللغة العربية بأنها لغة تشكل الجذور فيها سمة أساسية ، وينبني المعجم العربي بصفة عامة . على الجذور التي يرد تحتها كل الكلمات التي تشتق من هذا الجذر أو تنفرع عنه. ومن هنا تختلف العربية عن الفرنسية والانجليزية مثلا ، ففهما يكون اعتماد المعجم على الترتيب الالفبائي للكلمات (A ، B ، C) بينما يعتمد المعجم العربي على الترتيب الالفبائي للجذور ، وفي إطار الجذر الواحد ترتب الكلمات؛ ولذا «تتميز شجرة المفردات العربية بقلّة الجذور وتعدد الأوراق ، شجرة ثقيلة القاع ، فرغم صغر نواة المعجم 5000 . 7000 جذر تقريبا ، تتعدد المفردات بصورة هائلة ، بفضل الإنتاجية الصرفية العالية. وسمة أخرى للمعجم العربي هي طغيان الخاصية الثلاثية للجذور العربية التي لا تحتاج إلى تأكيد ، حيث تتوافر لجذور الثلاثية بمعدلات تفوق بكثير تلك الخاصة بالجذور الرباعية والخماسية»<sup>(2)</sup>.

(1) عبد الإله الدويهي: مفاهيم أساسية حول تقنية المعلومات ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثامن عشر. العدد الثالث ، ص. 24. ع/دراسات في علم اللغة ، تأليف: فتح الله سليمان. ص. 103.

(2) نبيل علي: اللغة العربية والحاسوب. مجلة عالم الفكر. المجلد الثامن عشر. العدد الثالث (1987). ص. 80. ع/دراسات في علم اللغة ، تأليف: فتح الله سليمان. ص. 104.

والواقع أن عدد الجذور في العربية يفوق هذا الرقم بكثير ، إذ يبلغ عددها في لسان العرب (9273) جذرا ، ويزداد هذا الرقم في تاج العروس ، حيث يبلغ (11978) جذرا<sup>(1)</sup>.

ومما يؤكد صدق مقولة قلة الجذور في العربية ، قياسا إلى كثرة مفرداتها وألفاظها التي يمكن اشتقاقها من تلك الجذور ما يراه بعضهم من «أن في لغتنا العربية: اثنا عشر مليونا وثلاثمائة وخمسة آلاف وأربعمائة واثننا عشرة لفظة»<sup>(2)</sup>. وثمة دراسات قليلة استطاعت أن تفيد من الحاسوب في الدراسات اللغوية ، وأقل منها فيما يتصل بالدراسات المعجمية. وقد يعود ذلك إلى عدة أسباب:

1 . حادثة دخول الكمبيوتر إلى الدول العربية بالنظر إلى بدء ظهوره ، فبين ظهوره ودخوله إلى هذه البلاد ما يقرب من عقدين من الزمان ، ذلك أن البيئة العربية لم تعرف الكمبيوتر إلا منذ بداية الستينات.

2 . أن استخدامه في البداية كان مقصورا على مجالات محددة ، منها البنوك ، والإدارات الحكومية ، وشركات الطيران ، وشركات البترول ، ولم تكن من بينها الجامعات ، مما أدى إلى تأخر . ولا أقول تخلف . تلك الجامعات ومراكز البحث العلمي عن الاستفادة بالإمكانات الكبيرة للحاسوب في المجالات العلمية والبحثية المختلفة.

3 . عدم اقتناع البعض بجدوى الكمبيوتر في الدراسات الإنسانية ، ويرجع ذلك إلى فكرة مؤداها أن هذا الجهاز يتعامل مع الأرقام والإحصاءات والحسابات والجداول ، ومن ثم فهو . في رأيهم . لا يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة في هذه العلوم الإنسانية.

4 . وجود عقبات حالت دون الانتفاع بالكمبيوتر في مجال الدراسات العربية ، تمثلت في تأخر ظهور شكل محدد لحروف اللغة العربية ، مما أدى إلى تأخر «العديد من البحوث والدراسات والتطبيقات ذات العلاقة باللغة ، ومن ضمنها التطبيقات الخاصة بالألسنيات وتوثيق المعلومات واسترجاعها ؛ إذ إن البحث عن المعلومات باللغة العربية من خلال الكلمات الدلالية أو التقارب الصوتي ما يزال متخلفا ، إذا ما قورن بما وصلت إليه مثل هذه التطبيقات في اللغات الحية الأخرى

(1) انظر: محمود الطناحي: تاج العروس والزمن البعيد. مقال بجريدة الأهرام بتاريخ: 1998/11/17.

(2) حسن ظاظا: كلام العرب من قضايا اللغة العربية. دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، ط 2 ، (1410 هـ. 1990 م). ص 98 ، 99. ع/دراسات في علم اللغة ، تأليف: فتح الله سليمان. ص 105.

5. قلة المواد والوسائل التعليمية المتاحة باللغة العربية والمتصلة بالمعاجم لشكل خاص ، وكذلك البرامج والبطاقات الالكترونية المتخصصة ، قياسا إلى غيرها مما يناظرها في فروع العلم المختلفة. على أنه ينبغي أن نسجل أن هذه المواد قد شهدت طفرة كبيرة في السنوات الأخيرة.

و من أبرز الانجازات والجهود ما تم في القرآن الكريم ، حيث توجد برامج تقوم بما يقوم به (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وزيادة؛ حيث يمكن عن طريق البرنامج القرآني معرفة الآية أو الآيات التي ترد فيها الكلمة ، ويمكن أيضا الوقوف على معنى تلك الكلمة وتفسير الآية التي تجيء فيها هذه الكلمة ، إضافة إلى ترتيب لها مسموع ، وغير ذلك من إمكانات قد لا تتصل بالمعجم. ومن تلك البرامج أيضا ما يغني عن (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف) وزيادة؛ حيث يمكن للمرء أن يعرف نص الحديث الذي وردت فيه الكلمة ومعنى أية كلمة فيه ، كما يمكن معرفة في أي كتاب من كتب الحديث الشريف ورد هذا الحديث ، وفي أي باب من أبواب الكتاب الذي رواه ، كما يحدد راويه أو رواته ، ويورد نبذة عن هذا الراوي: حياته ، وتلامذته ، وشيوخه.

ومن الجهود العلمية الكمبيوترية الرائدة في مجال المعاجم تلك الدراسة التي قام صاحبها<sup>(2)</sup> باستخدام الكمبيوتر في الإحصاء اللغوي لجذور اللغة العربية في معجم الصحاح للجوهري ، ويهدف بها إلى: عرض جذور مفردات اللغة العربية المستخدمة والواردة بالمعجم في صورة جداول توضح تردد الحروف في المواقع المختلفة من الكلمة ، وتتابع الحروف واختلافا فيها من حرف لآخر<sup>(3)</sup>

ويصل صاحب هذه الدراسة إلى عدة نتائج ، منها أن الجذور الثنائية تمثل ، 370% من مجموع جذور معجم الصحاح ، وتمثل حروفها 0,24% من مجموع حروف جميع الجذور... ويصل كذلك إلى أن عدد الجذور الثلاثية الممكنة رياضيا . في اللغة العربية (38)؛ أي: 21952 كلمة ، بينما يبلغ عدد الكلمات الثلاثية التي استخدمها العرب - كما في الصحاح 4814 كلمة وهذا العدد يمثل 21,93% من هذا

(1) عبد الإله الدويبي: مفاهيم أساسية حول تقنية المعلومات. ص 35. ع/ المرجع نفسه: ص 106.

(2) علي حلمي موسى: دراسة إحصائية لجذور معجم الصحاح باستخدام الكمبيوتر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1978 . ع/ دراسات في علم اللغة ، تأليف: فتح الله سليمان. ص 106.

(3) تم أول استخدام في العالم لمادة معالجة آليا في العلوم الإنسانية في أوائل الخمسينيات حيث أعدت قائمة بمصطلحات توماس الإكويني (المرجع 18/125). ع/ صناعة المعجم الحديث. تأليف: أحمد مختار عمر ، ص 168.

العدد المسموح به رياضياً.

ويتوصل الباحث كذلك إلى أن عدد الجذور الرباعية المسموح بها رياضياً هو  $(38 * 27)$  أي: 592704 كلمة ، بينما ورد في الصحاح 766 جذراً رباعياً فقط ، أي بنسبة 1,3 في الألف من العدد المسموح به رياضياً. وفيما يتعلق بالجذور الخماسية وجد أن عدد الجذور المسموح بها رياضياً تزيد عن 17 مليوناً من الجذور ، بينما ورد في الصحاح 38 جذراً خماسياً فقط ، تمثل: 0,674% من مجموع الجذور. وكذلك خلصت الدراسة إلى أن الجذور غير الثلاثية بالمعجم تمثل ما يقرب من 15% من مجموع جذوره ، وأن حروفها تمثل حوالي 19% من مجموع حروف الجذور ، أما الجذور السداسية وما فوقها فقد استبعدتها لأن الجوهر لم يورد في معجمه أي جذر مكون من ستة أحرف أو أكثر من ذلك .

ومن النتائج المهمة التي انتهت إليها تلك الدراسة ما يتعلق بتتابع الحروف ، فثمة حروف معينة لا تتلوها حروف بعينها ولا تسبقها حروف محددة ، فحرف (الشين) ، مثلاً ، لا يتبعه حرف (الضاد) ولا تسبقه الأحرف (ث ، ذ ، ز ، س ص ، ض ، ظ ، ل).

4. نظرة أحمد مختار عمر: يقول: وثمة برامج كمبيوترية معجمية عديدة يتضح فيها تطويع الحاسوب لخدمة المعجم بشكل عام ، بحيث يمكن للباحث أن يجد في هذا البرنامج ما يغنيه عن اللجوء ، للمعجم المطبوع. ومن أهم هذه البرامج ما يلي:

1. القاموس المحيط للفيروز أبادي: وينبني منهجه على إيراد الكلمات تبعا للترتيب الأصلي للقاموس ، أي طبقاً للحرف الأصلي الأخير من الكلمة ، ثم الحرف الأول فالثاني... كما يعرض تلك الكلمات ، متبعا للترتيب الألفبائي ، مع إمكانية إضافة كلمات وملاحظات من خارج الأصل.

2. الرائد: وهو معجم لغوي عصري ، يتضمن بالإضافة إلى معجم الرائد لجبران مسعود ، خمسة معاجم عربية هي:

(أ). موسوعة النحو والصرف والإعراب.

(ب). معجم المذكر والمؤنث.

(ج). معجم المصطلحات اللغوية.

(د). المعجم الأدبي.

(هـ). قاموس المصطلحات الأدبية واللغوية.

3. المورد: وهو قاموس مصور وناطق ، ويحتوي على قاموس إنجليزي .عربي ، لمنير البعلبكي ، وآخر عربي .إنجليزي ، لروحي البعلبكي.

4. معجم عبد النور.د/جبور عبد النور: وهو معجم عربي .فرنسي ، فرنسي -عربي. ويمتاز بكونه ناطقا بصوت بشري واضح ، وباحتوائه على مجموعة من الصور التوضيحية.

5. معجم المصطلحات العلمية والتقنية: إنجليزي .عربي .فرنسي. ويضم ستة معاجم أكاديمية متخصصة ، هي كالآتي :  
الإلكترونيات ، الجيولوجيا ، الطاقة ، الفيزياء ، الهندسة الكيميائية ، هندسة المياه.

الأعلام للزركلي: وهو قاموس لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين وهو يقدم إلى جانب تراجم هؤلاء الأعلام رسوماً بيانية للفترة الزمنية التي وجد فيها العلم مقارنة مع علم آخر.

وقد اقتحم العرب مجال الإحصاء اللغوي الحاسوبي منذ السبعينيات<sup>(1)</sup>، وعقدت المؤتمرات والندوات العالمية والعربية ، كان من أهمها المؤتمر الثاني حول اللغويات الحاسوبية العربية الذي عقد بالكويت عام 1989م ، وسبقه الملتقى الرابع للسانيات العربية والإعلامية بتونس الذي ناقش بحوثاً مثل:

(أ). تدريس العربية لغير الناطقين بها بواسطة الكمبيوتر.

(ب). نظام اشتقاق الكلمة العربية بالحاسب.

(ج). المعالجة الآلية للكلمات والنص في الأعمال المصطلحية.

(د). المعالجة الآلية لأوزان الشعر.

كما يعد على رأس المشغلين بحوسبة الدراسات اللغوية العربية الدكتور (نبيل علي) الذي قدم عدة أعمال رائدة على رأسها كتابة: اللغة العربية والحاسوب ، وبحثه: ميكنة المعجم العربي باستخدام المعالج الصرفي الآلي ، وبحثه: الجيل الخامس ومعالجة اللغة العربية آلياً ، وبحثه: الفهم الأوتوماتيكي للعربية غير المشكولة.

ومن أهم البحوث التي تناولت الموضوع. إلى جانب ما سبق. ما يأتي:

(1) وبعد الحلقة الأولى من سلسلة حلقات عن المعجم الحاسوبي تتناول إحصائيات اللغة العربية (الأفعال . المصادر . الأسماء . الجموع . الجذور . الخ) وقد نشرته مكتبة لبنان عام 1996. ع/صناعة المعجم الحديث ، تأليف: أحمد مختار عمر ، ص 169.

1. العلاج الآلي للنصوص العربية للدكتور عبد الرحمن الحاج صالح.  
2. ثلاثة إشكالات في حوسبة المعجم العربي للدكتور عبد القادر الفاسي الفهري.

3. التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية للدكتور محمد علي الخولي.

4. الإطار الآلي للمعالجة الآلية للغة العربية للدكتور علي فرغلي.

5. المعاجم في الترجمة الآلية للدكتور محمود إسماعيل صيني.

6. المعجم الإلكتروني للغة العربية للدكتور محمد الحناش.

7. معالجة اللغة العربية بالحاسوب للدكتور محمد حشيش.

وهناك عدة جهات في العالم العربي تولي أهمية كبيرة لمثل هذا النوع من الدراسات منها:

أ . الجمعية المصرية للحاسب الآلي التي تقوم بتنفيذ مشروع بحثي متكامل عن اللغويات الحاسوبية العربية يشتمل على أربعة مكونات هي: الذخيرة العربية ، والتعامل مع ما يقرب من أربعة آلاف وخمسمائة جذر من الجذور الشائعة وقواعدها وتحليل الأصوات ، والتعرف على الكلمات المكتوبة بخط اليد.

ب . المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا بدمشق الذي أعد أو أشرف على عدد من البحوث منها:

.تعليم النحو والصرف بمساعدة الحاسوب.

.النظام الصرفي النحوي للعربية بالحاسب.

.المعجم الحاسوبي في نظام خبير للغة العربية.

.نظام اشتقاق الكلمة العربية بالحاسب.

.إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي<sup>(1)</sup>.

ج . الشركة العالمية لبرامج الحاسب الآلي التي تتخذ مقرا لها بالقاهرة وتقوم بإنجاز عدد من المشروعات الحاسوبية العربية الهامة مثل:

.المكتر الآلي أو قاعدة بيانات المادة المعجمية العربية.

.المحلل الصرفي الآلي.

.المحلل الإملائي الآلي.

(1) المصدر نفسه، ص 169.

. قراءة النص العربي غير المشكول آليا.

د. العالمية للبرامج (صخر) ذات الجهود المتميزة ، والمؤهلة الآن لإنشاء قاعدة بيانات لغوية ضخمة يستفاد بها في صناعة المعجم.

هذه بعض المحاولات الجادة لنخبة من دارسينا وعلمائنا في إثراء الدرس المعجمي و إحياء التراث العربي وبعثه من جديد في حلة بهية معاصرة ، مساهمة لركب الثورة المعلوماتية والتكنولوجية ، وإرساء قواعد حاسوبية في ميدان البرمجيات ومعالجة اللغة آليا ؛ لتحقيق حلم الأمة في صنع معجم تاريخي للعربية.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 . المعجمة والتوسيط (نظرات جديدة في قضايا اللغة العربية): عبد القادر الفاسي الفهري، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، ط1، 1997 م.
- 2 . بحوث ودراسات في اللسانيات العربية: عبد الرحمن الحاج صالح، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية الجزائر، ج2، 2007م.
- 3 . دراسات في علم اللغة: فتح الله سليمان، دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، ط2008، 1م.
- 4 . صناعة المعجم الحديث: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1998 م.





## معالم التجديد في مناهج التفسير المعاصرة

### القضايا اللغوية بين الحضور والغياب

#### د. بوعلام طهراوي

##### الملخص:

من المُجمَع عليه أنّ اللغة العربية تُمَثِّلُ وعاءً مُحكِّمًا استوعب النَّصَّ القرآني؛ ألفاظه ومعانيه وأحكامه وشرائعه. ولمَّا كانت مستوياتُ الأُفهامِ والمداركِ والاهتماماتِ متباينةً بين العلماءِ والدارسين كان طبيعياً أن تتعدَّدَ التفسيرُ وتنوَّعَ، أو تختلفَ وتباينَ، وهو ما يُبرِّزُ كثرةَ التفسيرِ قديماً وحديثاً، واختلافها وتباينها في المناحي التي تتَّخذها، والأحكامِ التي تنطِقُ بها في تفسير النَّصِّ القرآني.

والكلامُ عن تعدُّدِ التفسيرِ سيقودنا إلى الكلامِ عن طبيعة هذا التعدُّدِ، فالتفسيرُ التي ظهرت ابتداءً انطلقت من مُدوِّنة اللغة العربية المُتشكِّلة من الشعر والنثر في عصور الفصاحة والاستشهاد. ومثلها في الاستعانة بمدونة العربية كتب التفسير التي استخرجت من النَّصِّ القرآني أحكاماً في العقيدة والتشريع والمعاملات في سائر العصور التي أُلِّفَتْ فيها.

وهناك صنفٌ آخر من التفسير التي استفادت من التفسير السابقة عليها، ولم تُنشئ أحكاماً شرعيةً جديدةً، بل اكتفت بإعادة الصياغة اللغوية أو التبسيط أو غير ذلك من الأهداف التي لا تُحوِّجُ مُفسِّريها إلى استحضار القضايا اللغوية المختلفة.. وهذه الدراسة ستتناول بالتفصيل هذه القضية: الحضور اللُّغوي في كتب التفسير قديماً وحديثاً.

#### Summary

For the Common that the Arabic language present an airtight container accomodates the Qur'anic text with it's meanings and words, also laws and provisions. And when it were the levels of understanding and interests different between Scholars and educators,it's natural that there are plurality of interpretations and varieties. That's what justify the multiplicity of interpretations in the

• أستاذ محاضر (أ)، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة.

past and now, for various disparities in their aspects and provisions which was spoken by the interpretation of the Qur'anic text.

What can we say about the variety of interpretations takes us to speak about the nature of this variety, because interpretations that emerged first started by the code of the Arabic language, consisting of poetry and prose in the era of eloquence and argument. And as these interpretations, that use the code arab ; books of interpretation that extracted from the Qur'anic text provisions in the doctrine, legislation and transactions throughout the ages was written in.

There is another kind of interpretation which benefited from the last interpretations, and it did not invented a new legal of the the legitimacy, but it merely re wording the language or simplification or other goals that are not lacking with the interpreter to recruitment different language issues. This study addresses in detail :linguistic presence in the past and present.

لم يستقطب نصّ من النّصوص في تاريخ الحضارة العربية ما استقطبه النّصّ القرآني من الاهتمام وتعدّد القراءة وتنوع الأقوال، ومردّد ذلك إلى أمور مميزة فيه، منها أنّه نصّ سماوي، وأنّه نصّ دين وتشرّيع، وأنّه نصّ معجز فيه من الخصائص الأسلوبية التي تعدّد بشأنها التّأويل تبعاً لاختلاف مستويات الألفهام. وقد تعدّد التّأويل للنصّ القرآني تبعاً لدواعين اثنين هما:

أ. دواعي التّأويل الخارجة عن النّصّ، ويتعلّق هذا القسم خصوصاً بمقاصد الشريعة.

ب. دواعي التّأويل المنبثقة من النصّ<sup>1</sup>.

قال الشاطبي في تأكيد الفصل بين المقاصد واللغة: الاجتهاد إن تعلّق بالاستنباط من النصوص فلا بدّ من اشتراط العلم بالعربية، وإن تعلّق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها أو مسلمة من صاحب اجتهاد في النصوص فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنّما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلاً.. فمن فهم مقاصد الشرع من وضع الأحكام وبلغ فيها رتبة العلم بها ولو كان فهمه لها من طريق الترجمة باللسان الأعجمي، فلا فرق بينه وبين

(1) د. الهادي الجطلاني، قضايا اللغة في كتب التفسير. دار محمد علي الحامي. تونس. ط1، 1998. ص: 221.

من فهمها من طريق اللسان العربي<sup>1</sup>.

ارتبط الدرس القرآني ارتباطاً وثيقاً بالدرس النحوي باعتباره اللون الأساس المميز للغة العربية؛ ذلك أنّ النصّ القرآني هو نسيج لغوي ونظم لفظي ظهرت مكانة اللغة فيه، والحاجة الملحة للمعرفة بالرصيد المعجمي العربي وبقواعد النظم وسنن التخاطب بين العرب للنفوذ إلى المعنى القرآني، وهذا شرط لازم من شروط تفسيره وفقه أحكامه ومقاصده.. وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، كقوله تعالى: « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف:2) «بلسان عربي مبين» (الشعراء:195)، وقد تحدى الله العرب وهم في أوج فصاحتهم على مراحل: أن يأتوا بمثله، ثم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وأخيرا أن يأتوا بسورة واحدة. ولما لم يفعلوا. رغم أنهم كانوا يملكون الآلة اللغوية اللازمة<sup>2</sup> للإنشاء. تحقق في حقهم حينئذ العجز وتحقق للقرآن الإعجاز، واستعملوا وسائل أخرى تعبيراً عن المكابرة والتعنت والصلف « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ».

بدأ وضع الأسس اللغوية في التفسير في مكة وكان صاحب هذا الاتجاه «عبد الله بن عباس ؓ»، فقد استعان بالشعر الجاهلي وما كان يردده فحول اللغة في صدر الإسلام في تفسير ما يقابله من الألفاظ الغريبة في النص القرآني. وكان هذا الاتجاه يهدف إلى بيان الألفاظ وما تفيده من معنى، وما يتعلق بالمعنى المستفاد من أحكام شرعية ومقاصد..

ثم كان القرآن الكريم الدافع الأول لوضع القواعد النحوية، وبتعبير آخر نشأ النحو في رحاب القرآن الكريم، واللحن الذي سمع في قراءة النص القرآني كان هو الداعي الأساس في السعي لتقنين كلام العرب، بما يحفظ علمهم لغتهم سليمة. ومن الأوائل الذين ارتبطت أسماؤهم بهذه المهمة الجليلة:

- أبو الأسود الدؤلي (ت 99 هـ): كان من القراء، أخذ القراءة عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب..

- عبد الرحمن بن هرمز (ت 117 هـ): من القراء ومن رجال الحديث أيضاً،

(1) الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة. ط2. بيروت. 1987. ج4. 162. 163.

(2) وقد أول بعض المفسرين فواتح السور (ألم، أعر، ص، ن..) بأن الله تعالى ذكر المشركين العرب بامتلاكهم الآلة اللغوية اللازمة التي أنشأوا بها أفصح النصوص، وهذا القرآن مؤلف من نفس تلك المادة التي ألفوا بها نصوصهم، فهل بإمكانهم الإتيان بمثله أو ببعض منه؟ ولما لم يقدرُوا رغم حرصهم على نقض هذا الدين تحقق الإعجاز في النص القرآني. (ينظر في ظلال القرآن لسيد قطب. الجزء الأول في تفسير فاتحة البقرة).

روى عن عبد الله بن بحينة، وأبي هريرة.. كما كان من الفقهاء، وقد اختلف إليه مالك بن أنس عدة سنين..

- نصر بن عاصم الليثي (ت89هـ): كان فقيها عالما بالعربية، من قدماء التابعين، من القراء والفصحاء، روى عنه القراءة عرضا أبو عمرو بن العلاء وغيره.. وهو أول من نقط المصحف وخمسها وعشرها<sup>1</sup>.

- عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت117هـ): أحد الأئمة في القراءات والعربية أخذ القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، روى عن أبيه وجده عن علي بن أبي طالب عليه السلام.

- أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ): هو أحد القراء السبعة المشهورين، أخذ عن جماعة من التابعين، وقرأ القرآن عن سعيد بن جبير ومجاهد وروى عن أنس بن مالك وعطاء، ووثقه يحيى بن معين وغيره، قال بشأنه الذهبي: قليل الرواية للحديث، وهو صدوق، حجة في القراءات<sup>2</sup>.

- الكسائي (ت189هـ): أكب منذ صغره على حلقات القراء أمثال: سليمان بن أرقم<sup>3</sup> (راوي قراءة الحسن البصري) وأبي بكر شعبة بن عياش (راوي قراءة عاصم بن أبي النجود)، وسفيان بن عيينة (راوي قراءة عبد الله بن كثير)، ثم لزم حلقة حمزة بن حبيب الزيات حتى حذق قراءته، وظل يقرئ الناس قراءة حمزة، واختار بعدها قراءة لنفسه، صارت بعد ذلك إحدى القراءات السبع المتواترة.

- الفراء (ت207هـ): اختلف منذ نشأته إلى حلقات القراء والمحدثين والمفسرين ومنهم: أبو بكر بن عياش، وسفيان بن عيينة والكسائي.. وهو صاحب كتاب معاني القرآن.

إنّ المطلع على كتب تفاسير القرآن الكريم منذ بداية ظهورها تصنيفا يجد أنه كان للغة فيما اعتبار كبير وحضور كثيف، وقد تجلّى من خلال التفنن في استثمار اللغة على وجه من الأوجه الأربع<sup>4</sup> التالية: إما توظيفها أداة لتفسير القرآن، أو توظيفها أداة لتأويل القرآن، أو توظيفها ثالثا أداة لبيان إعجاز القرآن، أو توظيفها رابعا تَعَلُّة للخوض في مسائل الخلاف الصرفية والنحوية خاصة.

(1) جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. 313/2.

(2) نفسه، 323/2.

(3) د. صلاح روي، النحو العربي: نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله. ص 389 وما بعدها.

(4) الهادي الجطلابي، قضايا اللغة في كتب التفسير. دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع. تونس، ط1، 1998.

## . القرآن والإعراب:

الإعراب لغة: هو الإبانة والإفصاح، ومن ذلك حديث النبي ع: «الثيب تعرب عن نفسها» أي تفصح. وقد ورد في الحديث الدعوة إلى إعراب القرآن قال ع: أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه، ومرّ عمر يقوم يرمون فعاب عليهم رميهم فقالوا: يا أمير المؤمنين: إننا قوم متعلمين، فقال: «لحنكم أشدّ عليّ من سوء رميكم، سمعت رسول الله ع يقول: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه<sup>1</sup>. وبناء على المعنى اللغوي والاصطلاحي للإعراب يتبين أنّ معنى إعراب القرآن الذي ورد الحض عليه تعلمًا وتعلِيمًا ونطقًا هو:

- صحّة تلاوة القرآن وإتقان النطق بكلماته وأداؤها أداءً صحيحاً سليماً ومعرفة تراكيبه والإبانة عن معانيه بألفاظه وأسلوبه في الخطاب..

- صيانة القرآن والمحافظة على فصاحته، خاصة إذا علمنا أن ظهور اللحن كان السبب المباشر في وضع النحو، وأنّ من أسباب هذا اللحن فيه أسلوبه العالي الذي فاجأ الناس بنظام جديد في أداء الكلمات والجمل لم يألّفوه من قبل..

أقبل النحويون على كتاب الله عز وجلّ يستنبطون منه أحكام النحو وبينون عليه مبادئه ويعربون آياته ويفسرون معانيه. ومعلوم أنّ كل علم يبدأ محدود الجوانب قليل المسائل في صورة محاولات تنمو شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى مرحلة النضج. ثم تصبح بعدها علوماً متميزة المعاني والحدود، وهو ما يلاحظ في جهود النحويين في ميدان دراستهم النحوية للقرآن الكريم، ومن أقدم المؤلفات النحوية كتاب سيبويه، وهو في أصله يتناول نص القرآن الكريم باعتباره الدليل الأول من أدلة النحو، ولكننا لا نعدم فيه تحليلاً فنياً لمعاني بعض الآيات القرآنية مما يعتبر مقدمة لهذه المحاولات لنشأة التفسير الفني، ومما يزيد من قيمته في هذا المضمار أنه يعتبر تسجيلاً أميناً بأسلوب العالم الفذ، لما كان يدور في حلقات الدرس ومجالس العلم في عصر سيبويه وقبله، وفي الدراسات النحوية حول القرآن الكريم فهو حافل بأراء السابقين من شيوخه وبعض العلماء حول توجيه كثير من الآيات القرآنية ووجوه إعرابها أو القراءات فيها، مما يجعل لهذا السفر الضخم قيمة أكبر في توجيه العلماء نحو التفسير الفني مع التفسير الأثري الذي كان هو السائد في عصر سيبويه. ومن نماذج ذلك:

ومثله في الاتساع قوله عزّ وجلّ: «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما

(1) د. إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع. ليبيا. ط. 3. 1990. ج 1/96.

لا يسمع إلا دعاء ونداء» (البقرة/171)، فلم يُشَبَّهوا بما يُنْعَقُ وإنما شَبَّهوا بالمنعوق به، وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذي لا يسمع، ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى، ومثل ذلك من كلامهم: بنو فلان يطوهم الطريق، يريد: يطوهم أهل الطريق<sup>1</sup>.

— وقال سيبويه: «وأما قوله سبحانه: «ويل يومئذ للمكذبين» (المرسلات/15) و«ويل للمطففين» (المطففين/1). فإنه لا ينبغي أن يقول: إنه دعاء ههنا، لأن الكلام بذاك واللفظ به قبيح، ولكن العباد كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم، وعلى ما يعنون فكأنه. والله أعلم. قيل لهم: «ويل للمطففين» و«ويل يومئذ للمكذبين»، أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم، لأن هذا الكلام إنما يقال لصاحب الشر والهلكة، فقيل: هؤلاء ممن دخل في الشر والهلكة ووجب لهم هذا، ومثل ذلك قوله تعالى: «فقولا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى» (طه/44)، فالعلم قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهبا أنتما في رجائكما وطمعكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثر من ذا ما لم يعلما، ومثله: «قاتلهم الله» (التوبة:30)، وإنما أجرى هذا على كلام العباد وبه أنزل القرآن<sup>2</sup>.

فهذه النماذج يمكن عدّها تشريعاً لغوياً تأخذ بيد المفسر نحو حمل كلام الله سبحانه على الوجوه الصحيحة، ولا يتأتى ذلك إلا بمعرفة أسلوبه في الخطاب والإحاطة بالأدوات اللغوية اللازمة، فالقرآن يخاطب العباد بأسلوب العرب في كلامها ومتعارف خطابها. وما كان في حكم المتشابه من نصوص القرآن فينبغي أن يؤول بما يليق بجلال الله وسعة علمه وإحاطته وكمال قدرته ونفاذ إرادته وتزهره عن النقص والعجز والجهل..

وجاءت بعد هذه المرحلة مرحلة التأليف في معاني القرآن وإعرابه، سلك هذا المسلك علماء لغويون كُثُر كالفراء (207هـ) وأبي عبيدة (211هـ) والأخفش (215هـ) والزجاج (311هـ) وأبي جعفر النحاس (338هـ) رحمهم الله جميعاً ووسعوا فيه حتى شملت القرآن كله، دلّ كلّ ذلك دلالة واضحة على صدق بلاء النحاة في خدمة الكتاب العزيز. وقد اتجه هؤلاء النحاة إلى التأليف في معاني القرآن بالتحدث عن لغته وإعرابه وتحليل معانيه وتوضيح مشكله، وظلّ هذا العنوان متداولاً ما يزيد عن أربعة قرون من أول المؤلفين وفاة سنة (واصل بن عطاء المتكلم الأديب 131هـ) إلى آخرهم تأليفاً به (نجم الدين أبو القاسم محمود بن أبي

(1) سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام هارون. دار الكتب العلمية. بيروت. ط3. 1988. 211/1. وينظر تفسير القرطبي 214/2.

(2) نفسه، 331/1.

الحسن بن الحسين النيسابوري القزويني الغزنوي الملقب ببيان الحق فرغ من تميم كتابه «إيجاز البيان في معاني القرآن» سنة 553هـ<sup>1</sup>.

. صلة كتب المعاني والإعراب بكتب التفسير:

الإعراب مفتاح مهم لفهم خطاب القرآن الكريم وهو طريق رئيس إلى تحليل تراكيبه تحليلًا يصيب المعنى الصحيح ويُبعد عن الزيغ في تفسيره. وكتب معاني القرآن هي من كتب التفسير، وهي نوع منه يستقلّ بخصائص معينة تتعلق بنشأته ولونه الذي اتّسم به، وكانت البداية لنشأة التفسير الفني والتفسير بالرأي الذي يعتمد مباشرة إلى النص لفهمه، وليس أدل على أهمية كتب معاني القرآن واستحقاقها الشرف الرفيع ما جاء في ترجمة شيخ المفسرين الطبري من أنّ معتمده. في تفسيره. كان على هذه الكتب التي سبق تأليفها عن تأليفه، مضيفاً إلى ذلك علمه الواسع باللغة وآدابها والشريعة والآثار.

. مكانة اللغة وعلم النحو لدى الفقهاء والمفسرين:

- شروط المفسر ومكان النحو فيها: يؤكد العلماء على أنّ كلّ لفظ احتمال معنيين فصاعداً لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه، فهم يعتمدون على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأي، فإن كان أحد المعنيين أظهر وجب الحمل عليه، إلا أن يقوم الدليل على أنّ المراد هو الخفي.. وإن استوى المعنيان اللذان يحملهما اللفظ، والاستعمال فيهما حقيقة في أحدهما لغوية أو عرفية، وفي الآخر شرعية، فالحمل على الشرعية أولى، إلا أن يدلّ دليل على إرادة القرينة اللغوية، كما في قوله تعالى: «وصلّ عليهم إنّ صلواتك سكن لهم» (التوبة:103)، إذ يؤخذ معنى الصلاة« هنا من المعنى اللغوي الذي يفيد الدعاء. فإن كان في أحدهما دلالة عرفية، وفي الآخر دلالة لغوية فيكون الحمل على العرفية أولى، وإن اتفقا في ذلك أيضاً، فإن تنافى اجتماعهما ولم يكن إرادتهما باللفظ الواحد، ك«القرء» للحيض والطهر.. اجتهد في المراد منهما بالأمارات الدالة عليه<sup>2</sup>.

وقد اشترط العلماء لصحة التفسير (العقلي) وجوازه أن يكون المفسر جامعاً للعلوم اللغوية والبلاغية متمكناً من معرفتها فقيهاً في أصولها عالماً بدقائقها، فلا تكفي المعرفة السطحية بها، ومن جملة هذه العلوم: علم اللغة. الاشتقاق. الصرف. النحو. المعاني. البيان. البديع. هذا بالإضافة إلى العلوم الشرعية الأخرى

(1) د. إبراهيم رفيده، النحو وكتب التفسير. 129/1.

(2) د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون. مكتبة وهبة، القاهرة. ط7. 2000. ج1. ص199.

كالعلم بالقراءات وأصول الفقه وأصول الدين وغيرها..

ولعله من الواضح أن التبخر في هذه العلوم مجتمعة والإمامة فيها كلها غير ممكن لأحد، واشتراطها على هذا النحو الواسع، قد يكون نظرياً أكثر منه عملياً إذا ما أريد بها التبحر فيها وإتقانها إتقاناً يعتدّ به، فخير أحوال العالم أن يحصل له ذلك في بعضها ويكون له إمام معقول ببعضها الآخر..

.مراحل التفكير النحوي في كتب التفسير:

بعد النظر في طبقات المفسرين والتأمل الطويل في مناهج المفسرين الذين عنوا بالنحو ومباحثه في تفاسيرهم يمكن تقسيم طبقاتهم إلى مايلي:

.الطبقة الأولى .يمثلها مؤلفو كتب معاني القرآن» لأن أصحابها كانوا أئمة أوائل في النحو، وحجة كل محتج في النحو ومباحثه..

.الطبقة الثانية .تمتاز بأصالة التفكير النحوي وأصالة المنهج اللغوي في التفسير ومن رجالها:

ابن جرير الطبري (ت310هـ) بداية .الزمخشري (ت538هـ) خاتمة.

.الطبقة الثالثة. ظهر فيها أئمة كبار في التفسير، تفاسير بعضهم موسوعات

علمية شاملة لكثير من ألوان المعارف الإسلامية والعربية والعقلية وممن يمثلها:

ابن عطية الغرناطي(ت546هـ) .فخر الدين الرازي (ت606هـ) .القرطبي

(ت671هـ) ..

وسنقدم فيما يلي نماذج ومقتطفات من تفاسير علماء الطبقتين الثانية والثالثة، متجاوزين الطبقة الأولى لأننا عرجنا عليها في الفقرات السابقة بما يغنيننا عن إعادة التمثيل لها هنا. ولن نطيل في عرض الأمثلة المتعلقة بهذه الطبقة إلا بالمقدار الذي يبصرنا بطريقة تعاطي هؤلاء المفسرين مع أي القرآن على ضوء التحليل اللغوي أو النحوي.

أ. نموذج تفسير الطبري المسمى: (جامع البيان من تأويل أي القرآن):

يقول: «فهذه أوجه تأويل: «غير المغضوب عليهم» باختلاف أوجه ذلك.

وإنما اعترضنا في ذلك من بيان وجوه إعرابه، وإن كان قصدنا في هذا الكتاب الكشف عن تأويل أي القرآن، لما في اختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه تأويله فاضطرتنا الحاجة إلى كشف وجوه إعرابه لنكشف لطالب تأويله وجوه



تأويله على قدر اختلاف المختلفة في تأويله وقراءته<sup>1</sup>.

يرى الطبري أن المفسر يجب أن يكون راسخ العلم في شيئين:

1. السيرة النبوية والأحاديث الثابتة الصحيحة والآثار المتعلقة ببيان القرآن الكريم وتفسيره.

2. اللسان العربي بمفهومه اللغوي الأدبي الشامل<sup>2</sup>.

ب. نموذج تفسير الزمخشري (ت538هـ): المسمى: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل): يتميز الزمخشري بمنهجه اللغوي الفريد وخصائصه الذاتية واستيعابه لفكر أئمة النحو وأئمة الدراسات البلاغية، جامعاً بين الإعراب والنظم البلاغي وإبراز خصائص التعبير القرآني المعجز، وابتداع منهج متميز عن مناهج المفسرين السابقين عليه.. وقد أهله لهذه المكانة كونه من النحويين الكبار والأدباء الممتازين.. ويعتبر تفسيره مصدراً مهماً للمتخصصين في العلوم اللغوية، ذلك أن الزمخشري بالإضافة إلى كونه مفسراً يعد كذلك عمدة في الدرس النحوي والبلاغي، وليس أدل على ذلك كتابه الشهير في النحو المسمى المفصل.

ج. القرطبي (ت671هـ): وتفسيره الجامع لأحكام القرآن المبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان: هو من أجلّ التفاسير جامعاً لألوان كثيرة من المعارف ومن بينها علم الإعراب لأهميته في بيان معانيه، ووجوه تأويله واستنباط أحكامه.. وهو معدود في تفاسير الفقهاء زاخر بأقوالهم واجتهاداتهم وأصولهم خصوصاً المالكية منهم.. أكثر فيه من الإعراب وذكر الأقوال النحوية وشواهداها. وسنمثل لذلك بالنموذج التالي:

– قوله تعالى: «ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه» (البقرة:130) تقدم في أكثر من مبحث. اختلاف النحويين في وجه نصب نفسه «لعدم تعدي سفه» فمنهم من قال: إنه بمعنى جهل «ومنهم من جعله متعدياً كسَفَهَ ومنهم من جعله بمعنى أهلك ومنهم من جعله على حذف فاء الجرّ.. (3).

د. ابن كثير وكتابه تفسير القرآن العظيم:

يعدّ ابن كثير إمام المفسرين بالأثر، ومن ثم لا نعثر في مؤلفه على الكثير من

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير أي القرآن، ج1/184.

(2) نفسه: ج1/93.

(3) تفسير القرطبي: 132/2.

القضايا النحوية واللغوية، اللهم إلا النزر القليل، ومن أمثلة ذلك قوله في تفسير سورة الفاتحة:

«الحمد لله رب العالمين»: القراء السبعة على ضم الدال في قوله: الحمد لله وهو مبتدأ وخبر، وروي عن سفيان بن عيينة ورؤية بن العجاج أنهما قالوا: (الحمد لله) بالنصب وهو على إضمار فعل.. (1). ويقول: «.. والحمد أعمّ من الشكر، وقال (رواية عن أبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري) في الشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف يقال: شكرته وشكرت له وباللام أفصح. وأما المدح فهو أعمّ من الحمد لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضا كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضا فهو أعمّ (2).

الأبحاث اللغوية (النحوية) في التفاسير المعاصرة:

نماذج الدراسة:

1. التفسير الموضوعي لمحمد الغزالي.

2. تفسير السعدي

3. تفسير ابن باديس.

4. التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

5. تفسير المراغي

6. تفسير المنار.

7. تفسير القاسمي.

يتباين المفسرون المعاصرون في درجات توظيفهم للمسائل اللغوية في مؤلفاتهم، وهذا التباين راجع إلى الاتجاه الذي يسلكه المفسر في تفسيره، والمقصد الذي يبتغيه. فهم في هذا الجانب بين مقلّ وبين مكثّر وبين متوسط. وعندما نقول التفسير المعاصر يتعين علينا تحديد الفترة الزمنية التي سنقتبس منها نماذج للدراسة، والفترة المختارة أنموذجا تتعلق بأشهر التفاسير التي كتبت في القرن الماضي، وقد اخترت منها: العناوين المذكورة أنفا.

والعينات المختارة تتنوع بين التفسير السلفي والتفسير الحركي والتفسير

(1) تفسير ابن كثير: 40/1.

(2) نفسه: 41/1.

العلمي والتفسي الموضوعي والتفسي الإصلاحي.. لعلماء ودعاة يتوزعون على عدة بلدان عربية: الجزائر، تونس، مصر، السعودية..

أولاً. تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور: يتميز هذا التفسير بكونه تفسيراً حافلاً قيماً واسعاً، مستفيداً من القراءات العشر أخذاً من علوم العربية وبيان إعجاز القرآن الكريم بنصيب وافر مُدبِّراً بها كثيراً من المسائل الشائكة، وقد أشار ابن عاشور في بداية مؤلفه إلى عنايته في التفسير ببيان الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، يقول:

«واهتمت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة. وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده، ويتناول منه فوائد ونكتا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير..

ثم تطرق بعد ذلك إلى التفصيل في الكليات العامة التي ينبغي على المفسر أن يعرفها، وذلك ضمن مقدمات تسع. وقد فصل في أربع منها في ما يتعلق بالقضايا اللغوية التي ينبغي على المفسر معرفتها والإحاطة بها وهي:

المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل (اللغة).

المقدمة الثانية: في استمداد علم التفسير (من بينها علم العربية..). يقول:

إنّ القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان..

المقدمة السادسة: في القراءات.

المقدمة التاسعة: في المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها.

نموذج من تفسير الفاتحة:

«الحمد مرفوع بالابتداء في جميع القراءات المروية وقوله لله» خبره، فلام لله» متعلق بالكون والاستقرار العام كسائر المجرورات المخبر بها، وهو هنا من المصادر التي أتت بدلاً عن أفعالها في معنى الإخبار، فأصله النصب على المفعولية المطلقة على أنه بدل من فعله، وتقدير الكلام نحمد حمداً لله.. وإنما كان الحمد لله

بالرفع أبلغ لأنه دال على الدوام والثبات.. (1). وهكذا لا يكاد يمر المؤلف على موضع آية إلا وينبه القارئ على بعض ما فيها من لفات لغوية أو بلاغية تزيد المعنى جلاء .

ثانيا . تفسير المراغي: ينتقد المراغي في مقدمة كتابه نزوع بعض المفسرين إلى حشو تفاسيرهم بالكثير من الفنون كالبلاغة والنحو والصرف والفقهاء والأصول والتوحيد، حتى صارت عقبه كأداء أمام قارئها .. إلى ما فيها من أقاصيص مجانية لوجه الصواب.. إلى تفسير للقضايا العلمية (2) ..

وبناء على ما سبق وأن أشار إليه فلا نجد في تفسيره استعراضا واضحا للقضايا اللغوية إلا فيما يتعلق بشرح بعض المفردات شرحا لغويا، دون أن يتجاوز ذلك إلى تلمس جماليات التراكيب وأسرار النظم في الكلام.

. نموذج من التفسير (سورة النساء):

«لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر» (النساء:162). لا يتعرض المراغي في هذه الآية إلى التعليل اللغوي في نصب المقيمين «خلافاً للأسماء المعطوفة عليها والواقعة مرفوعة، إلا إشارة عابرة، يقول: «والمقيمين الصلاة» أي وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال، فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان.. «والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر» أي: والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة في استحقاق المدح بالتبع (3) ..

. ثالثا . تفسير القاسمي (محاسن التأويل): يعد هذا التفسير تفسيراً أثريا لأن مؤلفه يرى أن هذا النوع هو الأولى بالاتباع، وأن المروري من التفسير عن الرسول ع وعن الجيل الأول من الصحابة والتابعين له المقام الأول متى صح الإسناد إليهم، أما التأويل فهو مسلك من لم يقف على الآثار السلفية في التفسير، شريطة عدم التقصير في علم السماع وعدم الإقلال من البحث عنه، وإلا عُدَّ نقصا في الدين وزيادة فيه بالرأي المحض..

ذكر المؤلف في بداية تفسيره مجموعة من المقدمات، ومنها مقدمة في القراءات القرآنية نقل بشأنها بعض الأقوال والآراء التي تتعلق بقبولها أو ردها في الشق المتعلق باللغة العربية، كنقله قول الداني في جامع البيان: أئمة القراءة لا

(1) محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير. ج. 1، ص 158.

(2) المراغي، تفسير المراغي. ج. 1، المقدمة

(3) تفسير المراغي، ج. 6، ص 19.

تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل والرواية، إذا ثبتت عندهم لم يرد لها قياس عربية ولا فشو لغة لأنّ القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها (1).

ويختلف القاسمي عن غيره من المفسرين في أنه ينقل كثيرا آراء غيره، حتى إننا لا نكاد نعرف له رأيا في الموضوع لغلبة النقل عليه. وبالجملة فهو لا يهتم كثيرا بذكر أوجه القراءات والقضايا الإعرابية في تفسيره، اللهم إلا بعض النماذج القصيرة والواضحة من بعض العلوم اللغوية في تجلية معاني مفردات القرآن الكريم وتراكيبه وهو وإن لم يتناول هذه القضايا بالتفصيل كما فعل ابن عاشور في التحرير والتنوير، إلا أننا نقرأ في تفسيره بعض هذه اللفقات اللغوية، ومن أمثلة ذلك هذه النماذج:

في تفسير قوله تعالى من سورة الفاتحة: «الحمد لله رب العالمين» يقول:

واللام في (الحمد) للاستغراق أي استغراق جميع أجناس الحمد وثبوتها لله تعالى تعظيما وتمجيذا<sup>2</sup>. ويقول في تفسير قوله تعالى: «إياك نعبد وإياك نستعين» : ... فلا بد أن يكون العابد محبا للإله المعبود كمال الحب؛ ولا بد أن يكون ذليلا له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده.. وقد أشار لذلك تقديم المفعول، فإنّ فيه تنبيها على ما يجب للعبد من تخصيصه ربه بالعبادة، وإسلامه وجهه لله وحده<sup>3</sup>.

ويقول في موضع آخر: «قوله تعالى: «والعين بالعين» (المائدة: 45) والمعطوفات بعدها، كلها قرئت منصوبة ومرفوعة والعطف على محل (أن النفس بالنفس) لأن المعنى: وكتبنا عليهم (النفس بالنفس) إما لإجراء (كتبنا) مجرى (قلنا)، وإما لأنّ معنى الجملة التي هي قولك (النفس بالنفس) مما يقع عليه الكُتْبُ كما يقع عليه القراءة، تقول: كتبتُ الحمد لله» وقرأت (سورة أنزلناها)، ولذلك قال الزجاج: لو قرئ (أن النفس بالنفس) بالكسر لكان صحيحا، وقد وسّع الخفاجي في العناية ببحث الرفع هنا. على عادته في النحويات فانظره إن شئت<sup>4</sup>.

ويقول في تأويل قوله تعالى: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إليك.. والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة..» قال الزمخشري: ارتفاع

(1) القاسمي، محاسن التأويل. 301/1.

(2) نفسه. 6/1.

(3) القاسمي، محاسن التأويل. 10/1.

(4) نفسه: 2003/6.

(الراسخون) على الابتداء. و(يؤمنون) خبره و(المقيمون) نصب على المدح. لبيان فضل الصلاة.. وهو باب واسع قد كسره سيبويه على أمثلة وشواهد.. ولا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه لحنًا في خط المصحف. وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب، ولم يعرف مذاهب العرب، وما لهم في النصب على الاختصاص من الافتنان(1)..

#### رابعاً. تفسير المنار لرشيد رضا:

أصل هذا التفسير للشيخ المجدد محمد عبده التي كان يلقيها على تلامذته، وقد تولى تلميذه رشيد رضا جمع هذه الدروس ونشرها في مؤلفه المعروف بـ تفسير المنار. ويميز هذا التفسير نزوع صاحبه لنقد كتب التفسير التي حشيت بقضايا النحو وتفريعاته حتى أخرجتها عن مقاصدها العالية التي ألفت من أجلها، ولكنه لا يمانع من الإقلال من الأساليب النحوية متى كان لها دور جلي في توضيح المعنى، والتوجيه الصحيح للآيات القرآنية. ويمكن القول بأن هذه النزعة التي طبعت تفسير المنار بشأن نقد طغيان الاستغلال النحوي هي التي سادت في التفاسير التي أنشئت بعده، إذ اتجه المفسرون حديثاً إلى استبعاد قضايا الخلاف بين النحويين وتعلياتهم وكثرة التوجيهات والتخريجات والاقتصار على ما لا بد منه في تفسير القرآن.

يقول رشيد رضا في مقدمة التفسير: «... كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية، والهداية السامية، فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو، ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات الفقهاء المقلدين..(2).

ويفهم من هذا التقديم أنّ المؤلف سينأى في تفسيره عن القضايا اللغوية وسائر الفنون الأخرى غير ما يتعلق بالتعامل المباشر مع القرآن الكريم. ويقول: «ولهذا كان الذي نعني به من التفسير هو ما سبق ذكره أي من فهم الكتاب من حيث هو دين، وهداية من الله للعالمين، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس في هذه الحياة الدنيا، وما يكونون به سعداء في الآخرة، ويتبعه بلا ريب: بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الإعراب على الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته. أي عند الحاجة إلى ذلك كالمسائل التي عدوها مشكلة، وربما نشير

(1) نفسه: 1718/5.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار. 7/1.

أحيانا إلى الإعراب من غير تصريح بعبارات النحو الاصطلاحية، كما نفعل ذلك في بعض نكت البلاغة أو قواعد الأصول، حتى لا تكون الاصطلاحات شاغلا للقارئ عن المعاني، صارفة له عن العبرة.. (1).

وسنقدم بعض النماذج لملاحظة هذا التوجه الذي ارتضاه محمد رشيد رضا في تفسير المنار.

### .النماذج:

- نموذج أول: يقول في تفسير قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». يقول: هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن، وقد قطعه وفصله مما قبله، فلم يعطفه عليه للإشارة إلى ما بينهما من طول شقة الانفصال وعدم المشاركة في شيء ما (2). وهو يريد هنا بالقسم الأول من الناس طائفة المؤمنين المتقين الذين وصفهم الله تعالى في فاتحة سورة البقرة بجملة من الأوصاف.

- نموذج ثان: يعلق رشيد رضا في موضع آخر من تفسير القرآن الكريم على ظاهرة لغوية جلية وهي إدراج لفظة بصيغة النصب في سياق العطف على ألفاظ وردت في موضع الرفع، وذلك في قوله تعالى: «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر»، يقول: وأما قوله: «والمقيمين الصلاة» فهو جملة مستقلة، و المقيمين فيه منصوب على الاختصاص أو المدح على ما قاله النحاة البصريون سيبويه وغيره، والتقدير: أعني أو أخص المقيمين الصلاة منهم الذين يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان. والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هنا، ما ذكرنا أنفا من مزية الصلاة وكون إقامتها آية كمال الإيمان، على أن تغيير الإعراب في كلمة ينبه الذهن إلى التأمل فيها، ويهدي الفكر إلى استخراج مزيها، وهو من أركان البلاغة.. وقيل إن المقيمين «معطوف على المجرور قبله، والمعنى: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك على الرسل وبالمقيمين الصلاة وهم الأنبياء أنفسهم..»

و«المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر» يجوز أن يكون هذا عطفا على الراسخون «وعلى ضمير يؤمنون بما أنزل إليك» وأن يكون مبتدأ خبره

(1) نفسه. 19/1.

(2) نفسه. 139/1.

محذوف، أي: والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك.. (1).

#### خامسا. تفسير السعدي:

هو عبد الرحمن بن ناصر السعدي من السعودية ولد سنة 1889 م وتوفي سنة 1956 م. له مؤلف في تفسير القرآن الكريم يسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المتان ، يضم هذا المؤلف التفسير الكامل للقرآن الكريم بأسلوب عصري سهل بعيدا عن التطويل الممل والإيجاز المخلّ، بل هو وسط هذا وذاك، متجنباً الحشو والتطويل، نائياً عن ذكر الخلاف وهو ما يجعله في متناول الجميع قراءة واقتناء. وقد تفادى التعرض لأنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها، مهما كان مستواه العلمي.

يقول السعدي في مقدمة تفسيره: «.. ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود ولم أشتغل في حلّ الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم.. (2). ومن ثم فلا نكاد نعثر في تفسيره على تحليلات لغوية لبعض الآيات القرآنية، ومنها تلك الآيات التي وقع بشأنها أخذ ورد بين علماء التفسير أو علماء اللغة على السواء.

سادسا. نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي: يعدّ هذا النوع من التفسير طريقة جديدة في تناول الدرس القرآني؛ ذلك أن المؤلف يحاول رسم صورة شمسية لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها، وآخرها تصديقا لأولها.. (3).

ولم يشر المؤلف في مقدمة كتابه إلى التناول اللغوي في تفسير الآيات القرآنية، وما ذكره يتعلق بموضوع طريقة تناول التفسير الموضوعي، وتتلخص طريقته في أنه لا يقف عند كل آية يفسرها ويستخرج منها دلالاتها ومقاصدها كما عهدناه في سائر التفاسير الأخرى، بل هو يقدم صورة شاملة للمحاور الكبرى التي تتضمنها هذه السورة أو تلك. وهذه الصورة الشاملة تشكلت من استغلال المؤلف الفذ لكل آيات التفسير وصياغتها في قالب من الأفكار يصور من خلالها الانسجام

(1) تفسير المنار. 65. 64/6.

(2) تفسير السعدي. المقدمة.

(3) تفسير الغزالي. ص 7.



الكامل لسور القرآن الكريم وآياته.

سابعاً .تفسير ابن باديس: يستغلّ ابن باديس في تفسيره الآليات اللغوية العربية مستعيناً بها في تفسير كلام الله تعالى، سواء ما تعلق منها بـ:

التفسير المعجمي: من خلال الشرح اللغوي والاصطلاحي للألفاظ والكلمات الواردة في الآيات التي يتولى تفسيرها. ومن ذلك قوله تحت عنوان: الشرح والبيان: «جعلنا الليل والنهار»: خلقناهما ووضعناهما آيتين. وجعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة، فهما حادثان مسيران بتدبير وتقدير<sup>1</sup>..

ويعلق تعليقا أسلوبيا يتسم بالبساطة يقول: «.. فليست الفاء في «فمحنونا للترتيب في الوجود، وإنما هي للترتيب في الذكر، وللترتيب في التعقل: فإن القمر والشمس بعض من آيات الليل والنهار، والجزء متأخر في التعقل عن الكل. وقد اتفق الكاتبون على الآية. ممن رأينا. على أن المراد من لفظ الآية في الموضعين واحد: أ . فإما أن يراد بها نفس الليل والنهار، والإضافة في آية الليل» و آية النهار«للتبيين كإضافة العدد للمعدود.

أو يراد بها الشمس والقمر فيكون: «وجعلنا الليل والنهار آيتين» ، على تقدير مضاف في الأول تقديره هكذا: وجعلنا نيري الليل والنهار. أو في الأخير مقدرًا هكذا: وجعلنا الليل والنهار ذوي آيتين.

ب . وإما على تقريرنا المتقدم فإن لفظ «آيتين صادق على الليل والنهار. ولفظ «آية الليل و» آية النهار ، صادق على الشمس والقمر. وعليه يكون تقدير الآية هكذا: وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحنونا قمر الليل وجعلنا شمس النهار مبصرة. وهو تقدير صحيح لا معارض له من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى، وسالم من دعوى تقدير محذوف، ومفيد لكثرة المعنى بأربع آيات: بالليل وقمره والنهار وشمسه. فالتقدير به أولى، ولذلك فسرنا الآية عليه<sup>(2)</sup>..

ويغلب على تفسير ابن باديس أنه لا يوغل في التأويلات اللغوية في تفسير الآيات، بل لا يتناول من القضايا اللغوية إلا المسائل التي تعين على تفسير الدلالة اللغوية لبعض الكلمات أو التراكيب، وإذا توسع قليلاً في التحليل اللغوي فهو يتجاوز حدود التفسير الذي يريده بسيطاً مركزاً مربياً للقارئ والمستمع ومنها له على الأحكام والحكم المستنبطة من هذه الآية أو تلك، ومن أمثلة ذلك قوله في

(1) تفسير ابن باديس 45.

(2) تفسير ابن باديس. ص 46.

تفسير قوله تعالى: «وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً» (الإسراء:35):

«إذا كان (مسؤول) بمعنى مطلوب، أي مطلوب الوفاء به، فإنَّه مطلوب في الفطرة، وفي الشريعة، فالعباد فطروا على استحسان الوفاء، ومطالبة بعضهم بعضاً به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم، ووعدهم الثواب عليه. ففي قوله: «إنَّ العهد كان مسؤولاً» ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه. ويتضمن هذا الترغيب التخويف من ترك المطلوب.

وإذا كان مسؤول بمعنى مسؤول عنه، فإنَّ المعنى أنَّ الله تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهدهم: هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء، وعلى الخيانة بالعذاب والإهانة؟(1).

### الخاتمة:

بعد هذا الاستقراء والتتبع للعلاقة الوثيقة القائمة بين الدرسين: اللغوي والقرآني قديماً وحديثاً يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

1. لا يمكن الفصل بين الدرسين اللغوي والقرآني (تفسيره ..) لأنَّ النص القرآني يطبعه أسلوبه اللغوي المميز ولا يفكك شفرة هذا الأسلوب القرآني إلا آلة الدرس اللغوي والنحوي يتولاها متضلعون في اللغة العربية.

2. الإنكار الذي أعلنه بعض المفسرين على بعض المصنفات التفسيرية إنما كان ينصب على طائفة من المفسرين الذين بالغوا في التأويل إلى أن أدى بهم ذلك إلى ليّ أعناق النصوص لحملها على توجهاتهم وأفكارهم وتبرير معتقداتهم.

3. التفاسير التي أشرنا إلى خلوها من المعالجة اللغوية لا يعني أنها شرعت إمكانية الاستغناء عن التحليل اللغوي، بل هذه التفاسير توجه بها مؤلفوها نحو غرض معين: دعوي إصلاحي حركي، وقراءة نماذج منها تؤكد تشرب أصحابها بالبيان العربي.

4. الدعوة إلى تشجيع التشرب بالأساليب اللغوية الفصيحة، والتمكن من العلوم العربية الأساسية قبل الخوض في التفسير والتجرؤ عليه دون امتلاك هذه الأدوات.

5. الدعوة إلى تزكية علية لنماذج من التفاسير الصادرة حديثاً لتكون عنواناً على الأعمال التفسيرية الجادة.

(1) نفسه: 97.

## قائمة مصادر البحث ومراجعته

1. القرآن الكريم
2. كتب التفاسير:
  - أ. تفسير القرآن العظيم لابن كثير.
  - ب. جامع البيان في تفسير آي القرآن لابن جرير الطبري.
  - ج. تفسير القرطبي.
  - د. الكشاف للزمخشري.
  - هـ. تفسير المراغي.
  - و. تفسير القاسمي.
  - ز. تفسير ابن باديس.
  - ح. تفسير المنار لرشيد رضا.
  - ط. تفسير السعدي.
  - ي. التفسير الموضوعي لمحمد الغزالي.
  - ن. في ظلال القرآن لسيد قطب.
  - ك. تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.
3. د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرن.
4. د. إبراهيم رفيدة، النحو وكتب التفسير.
5. د. الهادي الجطلأوي، قضايا اللغة في كتب التفسير.
6. الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة.
7. جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.
8. د. صلاح روي، النحو العربي: نشأته، تطوره، مدارسه، رجاله.
9. سيبويه، الكتاب.



## قراءة في عناوين كتب التفسير

"جامع البيان... للطبري" و"الكشاف... للزمخشري" أنموذجا

أ. فتيحة بوشان.

جامعة البويرة

### الملخص

يهدف هذا المقال إلى التعريف بتفسيرين يعدّان من أهمّ التفسيرات، ليس لقيمتها الدينية فحسب، وإنما لقيمتها اللغوية كذلك، كما أنّهما حقلان خصبان للبحوث الدلالية...

و قد انطلقنا في بحثنا هذا من عنواين التفسيرين وهما: " جامع البيان عن تأويل آي القرآن." للطبري ت 310 هـ، و " الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل." للزمخشري ت 538 هـ.

إنّ التعريف بالتفسيرين، انطلاقا من عنواينهما، هو في حقيقة الأمر الحديث عن أهم خصائص التفسيرين من منظور مؤلفيهما، فلا شك أنّ المؤلف يختار بعناية عنوان كتابه، ليكون مرآة عاكسة لمضمونه، وأهم خصائصه التي قد تميّزه عن بقية المؤلفات الأخرى في الموضوع نفسه .

ولأجل هذا جاءت دراستنا دراسة دلالية مقارنة للكلمات الأساسية الواردة في عنواين التفسيرين. والحديث عن دلالة الكلمة يجرّنا إلى الحديث عن السياق الذي وردت فيه، فإذا كان للكلمة الواحدة استعمالات مختلفة، فإنّ السياق الذي ترد فيه هو الذي يحدّد المعنى المقصود من بين المعاني الأخرى المحتملة. ولا نقصد هنا السياق اللغوي فقط، وإنما سياق الموقف كذلك، كخصيصة المتكلم والسامع وكل الظروف المحيطة بعملية التخاطب، كالمكان و الزّمان والأوضاع الاجتماعية و الثقافية وغيرها... التي تساهم في تحديد معاني الكلمات .

وقد عوّلنا في دراستنا هذه -أساسا- على المتكلم وهو مؤلف التفسير وواضع العنوان، من خلال ما قاله في مقدّمة تفسيره وما قام به في صلب هذا التفسير أو بالعودة -أحيانا- إلى كتب أخرى هو مؤلفها.

### Résumé :

Cet article vise à faire connaître deux exégèses coraniques (tafasir), indispensables, dans le domaine de l'interprétation des

textes coranique. Ces deux ouvrages tiennent leurs importances, non seulement de leurs valeurs religieuses mais aussi de leurs valeurs langagières, ils constituent aussi deux champs fertiles pour les études sémantiques. Faire connaitre, ces deux exégèses coraniques à partir de leurs intitulés, est en réalité, un propos sur leurs principales caractéristiques du point de vue de leurs auteurs, car il est évident, que l'auteur sélectionne attentivement le titre de son œuvre de façon à en réfléchir le contenu, et de ses principales caractéristiques, qui le distingue des autres œuvres traitant le même thème. C'est pourquoi, on s'est engagé dans une étude de nature sémantique, comparative s'arrêtant devant les mots structurels figurant dans les deux titres. Or, saisir la signification d'un mot, nous entraines à le traiter dans le contexte dans lequel il apparait. Cela dit, notre intention ne se limite pas au contexte verbal, mais nous prenons aussi en considération le contexte situationnel. Pour cela il est inévitable dans notre analyse de s'arrêter devant les différents éléments qui déterminent le sens approprié du mot, tel que la personne énonciateur, le Co-énonciateur, leurs statut respectif, et tous les conditions de production de cet acte d'énonciation. Dan note approche, on s'est basé fondamentalement, sur le locuteur, en tant qu'auteur et producteur de l'exégèse et de son titres, à travers ce qu'il a dit dans son introduction, et ce qu'il a réalisé au sein de son œuvre, voir dès fois , d'autres œuvres lui appartenant.

**Abstrat :**

This article aims to make known two Koranic exegeses (tafasir) essential in the field of interpretation of Koranic texts. These two books take their importance, not only from their religious values but also from their language values, they constitute also two fertile fields for semantic studies.

Make known these two Koranic exegeses from their titles, is in reality a talking about their main characteristics from the perspective of their authors, because it is obvious that the author selects carefully the title of his work so to reflect the content and its principles characteristics, which distinguishes it from other works dealing with the same theme.

That is why it has undertaken a study which has a comparative and semantic nature stopping in front of the structural words that appear in the two titles. But grasp the meaning of a word moves us to treat it in a context in which it appears. Our intention is not limited to verbal context we also take into consideration the situational context or context of situation. Hence, it is inevitable in our analysis to stop at the various elements that determine the proper sense of the word as the enunciator person co-enunciator, their respective status, and all the conditions of production of this act of enunciation.

In our approach, it is fundamentally based on the speaker as a writer and producer of exegesis and its title through what he said in his introduction, and what he has achieved in his work even when other works belonging to him.

### 1- تفسير الطبري\*: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»\*\*

جاءت كلمة «جامع» على وزن اسم الفاعل، وهو وصف يدل على الحدث وفاعله. وكلمة «جامع» مأخوذة من الفعل الثلاثي الصَّحَّح المتعدِّي - جمع- هذا عن بنية الكلمة أما عن مدلولها فيقول ابن منظور: "..... جَمَعَ الشَّيْءَ عَن تَفْرِقَةٍ يَجْمَعُهُ جَمْعًا وَ جَمَعَهُ وَأَجْمَعُهُ فَاجْتَمَعَ... و المجموع الذي جُمع من هاهنا وهاهنا وإن لم يُجْعَل كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ. واستجمع السَّيْلُ: اجْتَمَعَ مِنْ كُلِّ مَوْضِعٍ. وَ جَمَعْتُ الشَّيْءَ إِذَا جِئْتُ بِهِ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا. وَتَجَمَّعَ الْقَوْمُ: اجْتَمَعُوا أَيضًا مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا..."<sup>1</sup>

\* هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري الأملي ت 310هـ: يقول عنه ابن النديم: "كان متفننا في

انطلاقاً من هذا، يمكن القول أن: « جامع البيان...» هو مؤلف يضم في طياته كل ما يتعلّق بموضوع البيان عن تأويل أي القرآن بغض النظر عن: كون هذا المجموع متشابهًا أو مختلفًا.

وهو ما يؤكده الطبري بنفسه في مقدمة تفسيره حيث جاء فيها: " ونحن في شرح تأويله وبيان ما فيه من معانيه، مُدْثَنُونَ، إن شاء الله ذلك، كتابًا مُسْتَوْعِبًا لكلّ ما بالناس إليه الحَاجَةُ من علمه، جامعًا، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافيًا، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه، و مبيّنو علل كلّ مذهب من مذاهبهم، و موضّحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك، و أخصر ما أمكن من الاختصار فيه..."<sup>1</sup>.

لقد سعى الطبري في مؤلّفه هذا، إلى إنشاء كتاب:

- مستوعب لكل ما يحتاج الناس إلى معرفته عن كتاب الله تعالى.

- جامع، كاف، يُغني عن العودة إلى الكتب الأخرى. يقول الزركشي ت794هـ: " ثم إنّ محمّد بن جرير الطبري، جَمَعَ على النَّاسِ أَشْتَاتَ التَّفاسيرِ، وقرّب البعيد."<sup>2</sup>.

كما أنّه مخبر عمّا اتَّفَق عليه في تفسير الآيات وما اختلف فيه، ولا يكتفي الطبري بهذا العرض، بل يتدخل في كلّ مرّة مبيّنًا رأيه في ذلك.

جميع العلوم: علم القرآن والنحو والشعر واللغة والفقهاء كثير الحفظ، له مذهب في الفقه اختاره لنفسه... وعرفه ياقوت الحموي بقوله: " هو المحدث الفقيه المقرئ: المؤرّخ المعروف المشهور. للطبري عدّة كتب منها: كتاب المحاضر والسجلات، كتاب الوصايا، كتاب أدب القاضي، كتاب الصلاة، كتاب القراءات، كتاب المسترشد، كتاب تهذيب الآثار ولم يتمه، كتاب في التاريخ، كتاب في التفسير وهو موضوع بحثنا، قال عنه ابن النديم: " لم يعمل أحسن منه". انظر: ابن النديم، الفهرست، دط، بيروت: دار المعرفة، دت، ص 326-327.

- ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، ط 1، ج 6، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993، ص 1010.

\*\* يبلغ عدد أجزاءه -حسب طبعة دار هجر- 24 جزءًا وتتراوح عدد صفحات الجزء الواحد بين 623 ص و 774 ص.

<sup>1</sup> أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دط، مج 8، بيروت: دار صادر، دت، ص 53.

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دط، ج 1، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، دت، ص 07.

<sup>2</sup> بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن تح: أبو الفضل الدمياطي، دط، القاهرة: دار الحديث، 2006، ص 422.



أما كلمة « البيان » فهي من أهم الكلمات التي تكرر ورودها في مقدمة الطبري، وقبل أن نبحث عن معناها من خلال السياقات التي وردت فيها سنبحث عن معناها أولاً في معجم لسان العرب. يقول ابن منظور: "... والبيانُ: ما يُبَيَّن به الشَّيْءُ من الدلالة وغيرها. وبان الشَّيْءِ بيانًا: اتَّضح، فهو بيِّن، والجمعُ أبيناءٌ، مثل هيِّن وأهيناءٌ، وكذلك أبان الشيء فهو مبيِّنٌ...وتبيَّن الشيءُ: ظهر..."<sup>1</sup>.

يمكننا اختصار هذا الكلام بقولنا: البيان هو ما بيِّن به الشيءُ أو ما أظهر الشيءَ ووضَّحه وهو الوضوح كذلك.

أما الطبري، فيقول عن البيان ما يأتي: "إنَّ من عظيم نعم الله على عباده، وجسيم مِنته على خلقه، ما منحهم من فضل البيان، الذي به عن ضمائر صدورهم يُبينون، و به على عزائم نفوسهم يدلُّون، فذلُّل به منهم الألسن، وسهَّل به عليهم المُستصعِب، فيه إيَّاه يوحدون، وإيَّاه به يسبحون ويقدِّسون، وإلى حاجاتهم به يتوصَّلون، وبه بينهم يتحاورون، فيتعارفون ويتعاملون..."<sup>2</sup>.

يعدّد الطبري -في قوله هذا- فوائد البيان على العباد فبالبيان:

- يُبينون عن ضمائر صدورهم.
- يدلُّون على عزائم نفوسهم.
- ذلُّل الله لبعض عباده الألسن.
- سهَّل الله عليهم المستصعِب.
- يوحدون الله ويسبحونه ويقدِّسونه.
- يتوصَّلون إلى حاجاتهم.
- يتحاورون بينهم، فيتعارفون ويتعاملون.

يفهم من هذا أنّ البيان هو اللّغة التي هي خاصية إنسانية، لكن الناس يتفاوتون في درجة البيان أو درجة الإفصاح والإبانة يقول الطبري:

«.....ثم جعلهم جلّ ذكره- فيما منحهم من ذلك- طبقات، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فبين خطيب مُسهِب، وذلِق اللّسان مُهذِب، ومفحم عن نفسه لا يُبين، وعي عن ضمير قلبه لا يعبر، وجعل أعلامهم فيه رتبة، وأرفعهم فيه درجة، أبلغهم فيما أراد به بلاغا وأبينهم عن نفسه به بيانا، ثم عرّفهم في تنزيله ومُحكّم أي

<sup>1</sup> ابن منظور، لسان العرب، مج 13، ص 67.

<sup>2</sup> الطبري، جامع البيان عن تاويل أي القرآن، ج 1، ص 08.

كتابه فَضَلَ ما حباهم به من البيان، على من فضّلهم به عليه من ذي البكّم والمُسْتَعْجَم اللّسان، فقال تعالى ذكره: "أَوْ مَنْ يُنْشَوُا فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ." الزخرف: 18 فقد وضح إذن لذوي الأفهام، وتبيّن لأولي الألباب، أنّ فضل أهل البيان على أهل البكّم والمُسْتَعْجَم اللّسان،

بفضل اقتدار هذا من نفسه على إبانة ما أراد إبانته عن نفسه ببيانه، واستعجاب لسان هذا عمّا حاول إبانته بلسانه...<sup>1</sup>

يشير الطبري هنا إلى ما يمكن أن يسمى بـ «عيوب الخطاب» كما يقول المالكي ومن ثم يضع أصولاً ويقرّر مبادئ لما يمكن أن نسميها بالخطاب الناجح، والخطاب الفاشل.<sup>2</sup>

فليس كلّ من يتكلّم يملك البيان، وإتّما التّاس في ذلك طبقات، أعلاهم، مرتبة أقدّهم على الإبلاغ والإبانة والإفهام فالأمر إذن مرتبط بالمعنى، يقول الطبري: «...فإن كان ذلك كذلك، وكان المعنى الذي به باين الفاضل المفضول في ذلك فصار به فاضلاً، والآخر مفضولاً، هو ما وصفنا من فضل إبانة ذي البيان عما قصر عنه المستعجم اللّسان، وكان ذلك مختلف الأقدار... فلا شك أنّ أعلى منازل البيان درجة، واسنى مراتبه مرتبة، أبلغه في حاجة المبين عن نفسه، وأبينه عن مراد قائله، وأقربه من فهم سامعه...<sup>3</sup>. ولا شك أنّ أبين البيان كلام الله تعالى يقول الطبري:

"...فإذ كان تفاضل مراتب البيان، وتباين منازل درجات الكلام بما وصفت قبل، وكان الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه أحكم الحكماء، وأحلّم الخلماء، كان معلوماً أنّ أبين البيان بيانه، وأفضل الكلام كلامه، وأنّ قدر فضل بيانه جلّ ذكره على بيان جميع خلقه كفضله على جميع عباده"<sup>4</sup>.

لقد تحدّث القدماء عن البيان كالجاحظ وابن مسكويه، لكن الطبري يختلف عن هؤلاء كما يقول محمد المالكي: "... من حيث إنّه لا يعالج البيان بطريقة مجردة أو محدودة، وإتّما يجعل منه أنماطاً وأشكالاً تتصاعد وتندرج وتقوى إلى أن

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 1، ص 8.

<sup>2</sup> محمد المالكي، دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دط، المغرب: مطبعة فضالة، 1996، ص 53.

<sup>3</sup> الطبري، المصدر نفسه، ص 09.

<sup>4</sup> نفسه، ص 11.

تصل إلى مفهوم البيان بمعناه المطلق، الذي يبلغ أو يفوق درجة الكمال، فالبيان ليس ثابتاً في نقطة معينة محدودة، وإنما هو ينطلق إلى المطلق واللانهاية، بكل أشكاله ودرجاته من المصدر الإلهي، ومستمدًا من القوّة والعناية الربّانية، فإنّه إذا تجاوز المقدار، وخرج عن القوانين والأساليب البيانية المعهودة عند بني البشر، فإنّه يصير في قوّة المعجزة، وهذا هو الهدف المنهجي الذي

من اجله ساق الكلام عن مفهوم البيان وقيّمته وتفاوت الناس فيه...<sup>1</sup>.

أمّا «التأويل» فهي من الكلمات التي اختلف العلماء في تحديد معناها. يقول الأصفهاني: «التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ومنه المؤئل للموضع الذي يُرجع إليه. وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه علما كان أو فعلا...»<sup>2</sup>.

ويقول ابن منظور تحت مادة «أول»: «الأول: الرجوع. آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً: رجع. وأول إليه الشيء رجعه... وأول الكلام وتأوله: دبّره وقدره، وأوله وتأوله: فسّره... وفي حديث ابن عباس: "اللهم فقّهه في الدين وعلمه التأويل قال ابن الأثير هو من آل الشيء يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ... وسئل أبو العباس احمد بن يحيى عن التأويل فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو منصور: يُقال أُلْتُ الشيءَ أوّلهُ إذا جمعته وأصلحته فكأنّ التأويل جمعٌ معاني ألفاظاً أشكلت بلفظ واضح لا إشكال فيه...»<sup>3</sup>.

من كلّ هذا نستنتج أنّ التأويل قد يكون بمعنى:

- ردّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، بما في ذلك ردّ معاني الألفاظ المشكّلة إلى لفظ واحد لا إشكال فيه، أي إرجاع هذه المعاني المشكّلة إلى الغاية المرادة منها، وهي غاية واحدة، وكذلك نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى وضع آخر وهو المجاز.

<sup>1</sup> محمد المالكي، دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ص50.

<sup>2</sup> الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط1 محققة ومصححة، بيروت-لبنان:- دارالفكر، 2006، ص28.

<sup>3</sup> ابن منظور، لسان العرب، مج:11، ص32-33.

## -التفسير.

لكن ما هو المعنى الذي يقصده الطبري من كلمة « التأويل » الواردة في عنوان تفسيره؟. لمحاولة الإجابة عن هذا السؤال، عدنا إلى مقدّمة تفسيره، وتبعنا مختلف السياقات التي وردت فيها كلمة «التأويل».

فتحت عنوان: "القول في الوجوه التي من قبلها يُوصَل إلى معرفة تأويل القرآن." وانطلاقاً من قوله تعالى: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون." النحل:44. "وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون." النحل:64. "هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب." آل عمران: 07. يعدّ الطبري وجوه التأويل فيقول: "... فقد تبين ببيان الله جلّ ذكره أنّ ممّا أنزل الله من القرآن على نبيّه -ص- ما لا يُوصَل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول -ص-... وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله -ص- له تأويله بنصّ منه عليه، أو بدلالة قد نصّبها دالة أمته على تأويله. وأنّ منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة... وأنّ منه ما يعلم تأويله كلّ ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، وذلك إقامة أعرابه، ومعرفة المسمّيات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتهما الخاصة دون ما سواها، فإنّ ذلك لا يجهله احد منهم، وذلك كسامع منهم لو سمع تاليا يتلو « وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون، ألا إنّهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون.» البقرة 11،12 لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه ممّا هو مضرّة، وأنّ الإصلاح هو ما ينبغي فعله ممّا فعله منفعّة، وإنّ جهل المعاني التي جعلها الله إفسادا، والمعاني التي جعلها الله إصلاحا، فالذي يعلمه ذو اللسان الذي بلسانه نزل القرآن، من تأويل القرآن، هو ما وصفت من معرفة أعيان المسمّيات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها، والموصوفات بصفاتهما الخاصة، دون الواجب من أحكامها وصفاتها وهيئاتها التي خصّ الله بعلمها نبيّه -ص-، فلا يُدرِك علمه إلا ببيانه، دون ما استأثر الله بعلمه دون خلقه...»<sup>1</sup>.

ومنه يمكن القول أنّ للتأويل ثلاثة وجوه:

<sup>1</sup> الطبري جامع البيان عن تأويل أي القرآن ج1، ص:67 إلى70.

- 1 - ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول -ص\*1.
- 2 - ما لا يعلم تأويله إلا الله، وهذا ما كان فيه الخبر عن آجلا حادثة وأوقات آتية كوقت قيام الساعة، ونزول عيسى بن مريم.....
- 3 - ما كان علمه عند أهل اللسان الذي نزل به القرآن كإقامة إعرابه، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها والموصوفات بصفاتهما الخاصة دون ما سواها، ولا يوصل إلى معرفة ذلك إلا إذا كان المفسر عالما بلغة العرب\*\*2.

يفهم من هذا، أنّ اجتهاد المفسر يكمن في الوجه الأخير، ولا يجوز أن يفسر المفسر برأيه ما لم يكن له دليل من كلام العرب. وكذلك أن لا يكون تفسيره- كما يقول الطبري-مخالفا لأقوال السلف من الصحابة والأئمة والخلف من التابعين وعلماء الأئمة<sup>3</sup>. ثم يدعم الطبري ما توصل إليه بقول ابن عباس فيقول: "وبمثل ما قلنا في ذلك زوي الخبر عن ابن عباس.... قال ابن عباس " التفسير على أربعة أوجه وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله... وهذا الوجه الرابع الذي ذكره ابن عباس من أنّ أحدا لا يعذر بجهالته، معنى غير الإبانة عن وجوه مطالب تأويله، وإنما هو خبر عن أنّ من تأويله، ما لا يجوز لأحد الجهل به"<sup>4</sup>.

نلاحظ من خلال ما سبق، أنّ ما سماه ابن عباس ﷺ بـ «التفسير» تحدّث عنه الطبري على أنّه "التأويل" دون أن يشير إلى اختلاف مضمون الكلمتين، وما يمكن أن يستنتج من هذا أنّ الطبري يعتبر "التفسير" في هذه الحالات هو كذلك

<sup>1</sup> وهذا يخص كما يقول الطبري: "وجوه امره، واجبه وندبه وإرشاده، وصنوف نهيه، ووظائف حقوقه، وحدوده، ومبالغ فرائضه، ومقادير اللزوم بعض خلقه لبعض، وما أشبه ذلك من أحكام آية...". جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج1، ص68.

<sup>2</sup> لأنّه كما يقول الطبري: «... فبين- إذا كان موجودا في كلام العرب الإيجاز والاختصار، والاجتزاء بالإخفاء من الإظهار، وبالقلة من الإكثار في بعض الأحوال واستعمال الإطالة والإكثار، والتبرّد والتكرار، وإظهار المعاني بالأسماء دون الكناية عنها، والإسرار في بعض الأوقات، والخبر عن الخاص في المراد بالعام الظاهر، وعن العام في المراد بالخاص الظاهر، وعن الكناية والمراد منه المصريح، وعن الصفة والمراد الموصوف، وعن الموصوف والمراد الصفة، وتقديم ما هو في المعنى مؤخر، وتأخير ما هو في المعنى مقدم، والاكتفاء ببعض من بعض، وبما يظهر عما يُحذف وإظهار ما حُظِّه الحذف - أن يكون ما في كتاب الله المنزّل على نبيّه محمد -ص- من ذلك، في كل ذلك له نظير، وله مثلاً وشبيهاً، ونحن مبيّنو جميع ذلك في أماكنه، إن شاء الله ذلك...» جامع البيان عن تأويل القرآن، ج1، ص12، 13.

<sup>3</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج1، ص89.

<sup>4</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج1، ص70.

"التأويل" ولا فرق بينهما.

كما استشهد الطبري برواية عن رسول الله -ص- لإثبات مرّة أخرى ما توصّل إليه فيقول: "وقد روى بنحو ما قلنا في ذلك أيضا عن رسول الله ﷺ خبر في إسناده نظر... أن رسول الله ﷺ قال: "أنزل القرآن على أربعة أحرف، حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسّره العرب، وتفسير تفسّره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادّعى علمه سوى الله فهو كاذب".<sup>1</sup>

إنّ هذه الرواية التي استشهد بها الطبري لإثبات أنّ التأويل أربعة أوجه، لم يذكر فيها كذلك كلمة

"تأويل" وإنما المذكور هو كلمة "تفسير".

وفي موضوع آخر يتحدث الطبري عن حث الله عزّ وجلّ عباده على الاعتبار بما في أي القرآن من المواعظ والبيان، ثمّ يختم حديثه بقوله: "فإذ كان ذلك كذلك... صحّ أنّهم بتأويل ما لم يحجب عنهم علمه من آية الذي استأثر الله بعلمه منه دون خلقه، الذي قدّمنا صفته أنفا عارفون. وإذ صحّ ذلك فسد قول من أنكر تفسير المفسرين من كتاب الله وتنزله ما لم يحجب عن خلقه تأويله".<sup>2</sup>

يفهم من هذا أنّ تفسير المفسرين -عند الطبري- هو تأويلهم لآيات الله ما لم يحجب عنهم تأويله.

وتحت عنوان: "ذكر بعض الأخبار التي غلط في تأويلها منكر والقول في تأويل القرآن." يقول الطبري: "فإن قال لنا قائل: فما أنت قائل فيما حدثكم به العباس بن عبد العظيم... عن عائشة قالت ما كان النبي -ص- يفسر شيئا من القرآن إلاّ أيّا بعددٍ، علّمهنّ إياه جبريل."

ثمّ يذكر الطبري - بعد هذا الخبر - مجموعة من الأخبار في هذا الموضوع ليعلّق فيما بعد على الخبر الأوّل فيقول: "... أمّا الخبر الذي روى عن رسول الله -ص- أنّه لم يكن يفسّر من القرآن شيئا إلاّ أيّا بعددٍ، فإنّ ذلك مصحّح ما قلنا من القول في الباب الماضي قبل، وهو أن من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلاّ ببيان الرسول -ص-، وذلك تفصيلٌ جُمِلَ ما في آية، من أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وحدوده وفرائضه، وسائر معاني شرائع دينه، الذي هو مُجَمَّلٌ في ظاهر التنزيل، وبالعباد إلى تفسيره الحاجة، لا يدرك علمُ تأويله إلاّ ببيان من عند الله على لسان

<sup>1</sup> نفسه.

<sup>2</sup> نفسه، ص78.

رسول الله -ص- "...<sup>1</sup>.

لعلّ أهم الملاحظات التي يمكن أن نسجلها هنا هي:

- يقول الطبري عن هذا الخبر أنّه لا يتناقض مع قوله: "... أنّ من تأويل القرآن ما لا يدرك علمه إلاّ ببيان الرسول -ص-..." وفي أثناء شرحه لهذا الأمر، يقول: "...الذي هو مجمل في ظاهر التنزيل وبالعباد إلى تفسيره الحاجة لا يدرك علم تأويله إلاّ ببيان من عند الله على لسان رسول الله -ص-..." فما يلاحظ هنا أنّ الطبري يستخدم كلمتين مختلفتين وهما: "تأويل" و"تفسير" للحديث عن موضوع واحد.

- أدرج الطبري هذا الخبر- وكذلك مجموعة اخرى من الأخبار التي تنتهي الى الموضوع نفسه - تحت عنوان " ذكر بعض الأخبار التي غلط في تأويلها منكر القول في تأويل القرآن." ولم يقل غلط في تأويلها منكر القول في تفسير القرآن، ولكن من جهة أخرى، لم نعثر في هذه الأخبار عن كلمة «تأويل» وإنما الوارد فيها هي كلمة " تفسير".

هذا عن مقدّمة تفسير الطبري، أمّا إذا عدنا إلى متن الكتاب سنجد الطبري يستخدم في كل مرة عبارات من نوع: " القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه..."، "اختلف أهل التأويل..."، "وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله جلّ ثناؤه... جاءت الرواية عن..." "والصواب في تأويل ذلك عندي..." إلى غيرها من العبارات التي تتضمن كلمة "تأويل".

ومن كلّ هذا نستنتج أنّه حتّى وإن اعتبر الطبري "التأويل" هو "التفسير"، إلاّ أنّه يفضّل استخدام كلمة "التأويل" على كلمة "التفسير"، وأكبر دليل على ذلك أنه سعى مؤلفه "جامع البيان عن تأويل أي القرآن." ولم يقل "...عن تفسير أي القرآن".

و في الأخير نقول أن المقصود ب "جامع البيان عن تأويل أي القرآن." هو كتاب يضم تفاسير المفسرين لآيات القرآن الكريم بغض النظر عن تشابهها أو اختلافها.

وهذا الآن نموذج من تفسير الطبري يوضح بعض ما قلناه سابقا ويدعمه. «القول في تفسير السورة التي يُذكر فيها البقرة. القول في تأويل قوله جلّ ثناؤه: "آلم 1".

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 1، ص: 78 إلى 82.

قال أبو جعفر: اختلفت تراجمة القرآن في تأويل قول الله تعالى ذكره: " أَلَمْ "، فقال بعضهم: هي اسم من أسماء القرآن.

ذَكَرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ يَحْيَى، قَالَ: ... عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: " أَلَمْ " قَالَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ، حَدَّثَنِي الْمُثَنَّى بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْأَمْلِيُّ قَالَ: ... عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ " أَلَمْ " اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ فَوَاتِحُ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهَا الْقُرْآنَ. ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ.

حَدَّثَنِي هَارُونَ بْنُ إِدْرِيسَ الْأَصْمُ الْكُوفِيُّ: قَالَ عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: " أَلَمْ " فَوَاتِحُ يَفْتَحُ اللَّهُ بِهَا الْقُرْآنَ ... وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ اسْمٌ لِلسُّورَةِ.

ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ

حَدَّثَنِي يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: أَنْبَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، قَالَ: سَأَلْتُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنَ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: " أَلَمْ 1 " ذَلِكَ الْكِتَابُ. " وَ " أَلَمْ 1 " تَنْزِيلٌ " وَ " أَلَمْ 1 " تَلَكَّ " فَقَالَ: قَالَ أَبِي: إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ السُّورِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ.

ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ قِسْمٌ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِهِ.

ذَكَرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ حُرُوفٌ مَقْطَعَةٌ مِنْ أَسْمَاءِ وَأَفْعَالٍ، كُلُّ حَرْفٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَعْنَى غَيْرِ مَعْنَى الْحَرْفِ الْآخَرِ.

ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ هَجَاءٍ مَوْضُوعٍ.

ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ يَشْتَمِلُ كُلُّ حَرْفٍ مِنْهَا عَلَى مَعَانٍ شَتَّى مُخْتَلِفَةٍ.

ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ مِنْ حِسَابِ الْجُمَّلِ ...

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِكُلِّ كِتَابٍ سِرٌّ، وَسِرُّ الْقُرْآنِ فَوَاتِحُهُ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ فَأَيُّهُمْ اِخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى ذَلِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هِيَ حُرُوفٌ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ: اسْتُعْجِنِي بِذِكْرِ مَا ذُكِرَ مِنْهَا فِي أَوَائِلِ السُّورِ عَنْ ذِكْرِ بَوَاقِيهَا الَّتِي هِيَ تَتَمَّةُ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ حَرْفًا ... وَقَالَ آخَرُونَ: بَلِ ابْتَدَأَتْ بِذَلِكَ أَوَائِلُ السُّورِ لِيَفْتَحَ



لاستماعه أسمع المشركين، إذ تواصلوا بالإعراض عن القرآن، حتى إذا استمعوا له تُلي عليهم المؤلّف منه. وقال بعضهم: الحروف التي هي فواتح السور حروفٌ يَسْتَفْتِحُ اللهُ بها كلامه...

قال أبو جعفر: ولكلّ قول من الأقوال التي قالها الذين وصفنا قولهم في ذلك وجهٌ معروفٌ... والصواب عندي من القول في تأويل مفاتيح السور التي هي حروف المعجم، أنّ الله جلّ ثناؤه جعلها حروفاً مقطّعةً، ولم يصل بعضها ببعض فيجعلها كسائر الكلام المتصل الحروف، لأنّه عزّ ذكره أراد بلطفه الدلالة بكل حرف منه على معان كثيرة لا على معنى واحدٍ، كما قال الربيع ابن انس، وان كان الربيع قد اقتصر به على معانٍ ثلاثة دون ما زاد عليها. والصواب في تأويل ذلك عندي أنّ كلّ حرف منه يحوي ما قاله الربيع وما قاله سائر المفسرين غيره فيه، سوى ما ذكرت من القول عمّن ذكرت عنه من أهل العربية أنّه كان يُوجّه تأويل ذلك إلى أنّه حروف هجاء استُعِيّ بذكر ما ذكر منه في مفاتيح السور عن ذكر تتمّة الثمانية والعشرين الحرف من حروف المعجم، بتأويل: أن هذه الحروف ذلك الكتاب، مجموعة، لا ريب فيه. فإنّه قول خطأ فاسدٌ، لخروجه عن أقوال جميع الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الخالفين من أهل التفسير والتأويل، فكفى دلالة على خطئه شهادة الحجّة عليه بالخطأ، مع إبطال قائل ذلك قوله الذي حكيناه عنه...<sup>1</sup>.

## 2- تفسير الزمخشري\*: "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في

وجوه التأويل\*".

"الكشاف" على وزن "فَعَال" و هي من صيغ المبالغة، و "الكشفُ": رَفَعُكَ الشَّيْءَ عَمَّا يُوَارِيهِ وَ يَغْطِيهِ، كَشَفَهُ يَكْشِفُهُ كَشْفًا ... وَ كَشَفَ الْأَمْرَ يَكْشِفُهُ كَشْفًا: أَظْهَرَهُ...<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج1، ص:204 إلى 223.

\* هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ت538 هـ، يقول عنه ياقوت الحموي: "كان إماما في التفسير و النحو و اللّغة و الأدب واسع العلم كبير الفضل متفننا في علوم شتى. " للزمخشري نحو خمسين مؤلفا في علوم مختلفة كالتفسير و الحديث و الفقه و اللغة و الترجمة... من بين أشهر مؤلفاته " الكشاف " - وهو موضوع بحثنا - ، " الفائق في غريب الحديث "، كتاب " المفصل في صنعة الإعراب "، معجم " أساس البلاغة " إلخ... يقول عنه خليل مأمون شيحا - الذي خرّج أحاديث الكشاف وعلّق عليه - : " لقد أشارت كلّ التراجم بدون استثناء أنّ الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد، متظاهرا باعتزاله، متشددا بأرائه... " وهذا ما جعل عددا من العلماء يقدحون فيه و يدعون لاجتناب قراءة تفسيره لما تضمّن من آراء المعتزلة، رغم اعترافهم بقيمته اللّغوية و البلاغية.

أنظر: - ياقوت الحموي الزومي، معجم الأدباء، ج 19، ص 126، 133، 135.

\_ ابن خلكان، وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، تج: إحسان عباس، د ط، ج 2، بيروت: دار صادر، دت،

يقول الزمخشري في مقدّمة تفسيره: "اعلم أنّ متن كلّ علم و عمود كل صناعة طبقات العلماء فيه متدانية، و أقدام الصنّاع فيه متقاربة أو متساوية. أو متساوية... و إنّما الذي تباينت فيه الرتب... و عظم فيه التفاوت و التفاضل... ما في العلوم والصناعات من محاسن النكت و الفقر، و من لطائف معان يدق فيها مباحث الفكر، من غوامض أسرار، محتجبة وراء أستار، لا يكشف عنها من الخاصة إلاّ أوحدهم و أخصّهم، وإلاّ واسطهم وخصهم، ثم إنّ أملاً العلوم بما يغمر القرائح، و انهضها بما يبهز الألباب القوارح من غرائب نكت يلطف مسلكها، و مستودعات أسرار يدقّ سلكها، علم التفسير..."<sup>1</sup>.

يفهم من هذا أنّ أحسن تفسير هو ذلك التفسير الذي يظهر تلك الأسرار المحتجبة عن أنظار العامة من العلماء أي المعاني الخفية التي لا يمكن الوصول إليها إلاّ بإعمال الفكر، و هذه الأسرار هي حقائق التنزيل.

و قد أشار الزمخشري في أكثر من موضع، إلى أنّ تفسيره فيه إعمال للفكر، و عمق في البحث، ففي حديثه عن الطريقة التي انتهجها في كتابه يقول: "... فأخذت في طريقة أخصر من الأولى مع ضمان التكثر من الفوائد و الفحص عن السرائر..."<sup>2</sup>.

و في مقدمة كتابه " ربيع الأبرار " - و هو يتحدّث عن سبب تأليفه لهذا الكتاب - أشار الزمخشري إلى مدى اعتماده على العقل في تفسيره " الكشّاف..." حيث قال: " و هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين في الكشّاف عن حقائق التنزيل، و ترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه و خباياه و التنفيس عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه و خفاياه، و أن تكون مطالعته ترفيها لمن ملّ، و النظر فيه إحماضاً لمن اختل..."<sup>3</sup>.

و يقول في ديوانه الشعري<sup>4</sup> مادحا كتابه الكشّاف:

ص 110.

\_ الزمخشري، تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به و خرّج أحاديثه و علّق عليه خليل مأمون شيحا، ط 3، ج 1 بيروت: دار المعرفة، 2009، ص 7.

\*\*-يبلغ عدد صفحاته 1235 ص حسب طبعة دار المعرفة المعتمد عليها.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، مج 9، ص 300.

<sup>1</sup> الزمخشري، تفسير الكشّاف...، ج 1، ص 23.

<sup>2</sup> 1-الزمخشري، تفسير الكشّاف...، ج 1، ص 24.

<sup>3</sup> الزمخشري، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تح: عبد الأمير مهنا، ط 1، ج 1، بيروت: منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، 1992، ص 20، 21.

<sup>4</sup> الزمخشري، ديوان جار الله الزمخشري، شرح فاطمة يوسف الخيمي، ط 1، بيروت، دار صادر، 2008،

ثم استوى الكشاف ثم على يدي      متفحص عن سره كشاف  
 حسن الإبانة عن حقائق نظمه      بفصوصه و عيونه عراف  
 و مما قاله أيضا في مدح كتابه<sup>1</sup>:  
 تالله ما "الكشاف" إلا أخذ      صفة الجلي به الدقيق الخافي  
 نكت إلى نكت ترصف نظمها      بمُنكِبٍ لِحُلْمِها رصاف  
 فلننظر إلى تلك العبارات التي استخدمها الزمخشري و هو يتحدث عن  
 تفسيره: التكتير من الفوائد، الفحص

عن السرائر، إجاله الفكر في استخراج ودائع علمه و خباياه، استيضاح  
 غوامضه و خفاياه، الكشاف متفحص عن سره، حسن الإبانة، حقائق نظمه،  
 عراف، الجلي، به الدقيق الخافي، نكت ترصف نظمها، رصاف إلخ... إنها و بلا شك  
 تحمل معنى دقة البحث أو المبالغة فيه.

و من كلّ هذا يمكن القول أن المقصود بـ "الكشاف عن حقائق التنزيل..."  
 المُظهر للمعاني الدقيقة الخفية الموجودة في القرآن الكريم، فتتجلّى بذلك حقائقه  
 و تزال غوامضه.

أما عن الشطر الثاني من عنوان الكتاب و هو " ... عيون الأقاويل في وجوه  
 التأويل. « ف « عيون » جمع كلمة عين و كلمة عين هي من المشترك اللفظي، و يبدو  
 أن المقصود بـ « عيون الأقاويل » هو خيارها، وهذا بالنظر الى السياق اللغوي  
 الذي وردت فيه الكلمة. جاء في لسان العرب: " ... و عين كلّ شئ: خيارها. و عين  
 المتاع و المال و عينته: خياره... " <sup>2</sup>.

و " وجوه التأويل\*": أي المعاني المحتملة لنصّ القرآن الكريم.

يقول الزمخشري: " ... و تدبر الآيات التفكر فيها و التأمل الذي يؤدي إلى  
 معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة، و المعاني الحسنة، لأنّ من اقتنع  
 بظاهر المتلو لم يحل منه بكثير طائل و كان مثله كمثل من له لقحة درور لا يحلمها  
 و مهره نشور لا يستولدها... " <sup>3</sup>.

ص392.

<sup>1</sup> المصدر نفسه، ص393.

<sup>2</sup> ابن منظور، لسان العرب، مج13، ص305.

\* أنظر: ص6 من هذا المقال.

<sup>3</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج23، ص925.

يعتمد الزمخشري- كغيره من المعتزلة- على العقل إلى جانب اللغة في إعطاء التأويلات المختلفة لنص القرآن الكريم:

أ- **التأويل العقلي**: يقول الجاحظ: " و للأمر حكامان: حكم ظاهر للحواس، و حكم باطن للعقول، و العقل هو الحجّة. "1 فا لعقل إذن هو الذي يمكننا من الوصول إلى الحقائق الجوهرية، فعلى سبيل المثال يؤول الزمخشري الآية 16 من سورة البقرة: " أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى. " بقوله، " فإذا قلت: كيف اشتروا الضلالة بالهدى و ما كانوا على هدى؟ قلت: جعلوا لتمكّنهم منه

و إعراضهم عنه كأنه في أيديهم فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطّلوه و استبدلوهما به، و لأنّ الدين القيم هو فطرة الله التي فطر الناس عليها فكلّ من ضلّ فهو مستبدل خلاف الفطرة. "2 و يؤول الآية 56 من سورة النساء " إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصلمهم نارا كلّما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إنّ الله كان عزيزاً حكيماً. " بقوله: « فإن قلت: كيف تعذب مكان الجلود العاصية جلود لم تعص؟ قلت: العذاب للجملّة الحساسة و هي التي عصت لا للجلد... "3. لقد اعتمد الزمخشري هنا على التأويل العقلي، وهو تأويل مقنع واضح يرضي القارئ، ولعله لا يحتاج إلى التعليق.

### ب- التأويل اللغوي:

\* **التأويل النحوي**: النحو هو انتحاء سمّت كلام العرب، يقول ابن جني النحو: " هو انتحاء سمّت كلام العرب، في تصرّفه من إعراب و غيره، كالتثنية، و الجمع، و التحقير... و التركيب... "4 و يعتبر الإعراب الركيزة الأساسية التي يقوم عليها النحو في إنجاز عمله، فهو يعيّن الوظائف النحوية للكلمات، و بالتالي يعيّن القيم الدلالية لتلك الكلمات في سياقها اللغوي.

و قد أشار الزمخشري إلى أهمية الإعراب في تأويل النص القرآني حيث قال: " هذا و إنّ الإعراب أجدى من تفاريق العصا، و آثاره الحسنّة عديد الحصى. و من لم يتق الله في تنزيله، فاجترأ على تعاطي تأويله، و هو غير معرب، فقد ركب عمياء، و خبط خبط عشواء، و قال ما هو تقوّل و افتراء و هراء، و كلام الله منه براء، و هو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان، المطلع على نُكت نظم القرآن، الكافل بإبراز

1 أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تح: عبد السلام هارون، ط2، ج1، مكتبة الجاحظ، 1965، ص 207.

2 الزمخشري، الكشاف...، ج1، ص50.

3 المصدر نفسه، ج5، ص: 241-242.

4 أبوالفتح بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دط، ج1، دار الكتب المصرية، دت، ص34.

محاسنه، الموكل بإثارة معادنه...<sup>1</sup>.

كما أنّ للخصائص التركيبية من تقديم وتأخير وحذف وإضمار وصل وفصل إلخ... تؤثر

على المعنى، لذا وجب مراعاتها. وهذه الآن امثلة مأخوذة من الكشاف تبين كيف يستعين الزمخشري بالنحو لتأويل بعض الآيات.

يقول الزمخشري في قوله تعالى: " الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً (1) قيماً لئُنذِر بأساً شديداً من لدنه و يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أنّ لهم أجراً حسناً (2). " الكهف: " ولم يجعل له عوجاً " و لم يجعل له شيئاً من العوج قطّ، و العوج في المعاني كالعوج في الأعيان، و المراد: نفي الاختلاف و التناقض عن معانيه، و خروج شيء منه من الحكمة و الإصابة فيه. فإن قلت: بم انتصب: " قيماً "؟ قلت: الأحسن أن ينتصب بمضمّر، و لا يُجعل حالاً من الكتاب، لأنّ قوله: " و لم يجعل " معطوف على " أنزل " فهو داخل في حيّز الصلّة، فجاعله حالاً من الكتاب، فاصل بين الحال و ذي الحال ببعض الصلّة، و تقديره: و لم يجعل له عوجاً جعله قيماً، لأنّه إذا نفي عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة. فإن قلت: ما فائدة الجمع بين نفي العوج و إثبات الاستقامة، و في أحدهما غنى عن الآخر؟ قلت: فائدته: التأكيد، قرب مستقيماً مشهوداً له بالاستقامة و لا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصحّح، و قيل: قيماً على سائر الكتب: مصدّقاً لها، شاهداً بصحّتها، و قيل: قيماً بمصالح العباد و ما لا بدّ لهم منه من الشرائع...<sup>2</sup>.

يرى الزمخشري أنه من الأحسن أن تنصب كلمة " قيماً " بمضمّر أي بمحذوف يُقدّر " جعله " أي " جعله قيماً " و لا تجعل حالاً من الكتاب لأنّ هناك فاصلاً بين الحال -قيماً- و ذي الحال -الكتاب- ببعض الصلّة " و لم يجعل " و قدّر الناصب بـ " جعله " لأنّه إذا نفي عنه العوج فهذا يعني إثبات الاستقامة، و في هذا التأويل الذي جمع بين نفي العوج و إثبات الاستقامة فائدة و هي التأكيد على أنّ هذا الكتاب يخلو من أيّ عوج فهو مشهود له بالاستقامة.

و يؤوّل الزمخشري قوله تعالى: " اقرأ باسم ربك الذي خلق<sup>1</sup> خلق الإنسان من علق<sup>2</sup>. " العلق فيقول: " فإن قلت: كيف قال: " خلق " فلم يذكر له مفعولاً، ثم

<sup>1</sup> الزمخشري، المفصل في علم العربية، ط2، بيروت - لبنان: دار الجيل، دت، ص07.

<sup>2</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج15، ص612.

قال: «خلق الإنسان»؟ قلتُ: هو على

وجهين: إما أن لا يقدر له مفعولا و أن يراد أنه الذي حصل منه الخلق و استأثر به لا خالق سواه. و إما أن يقدر و يراد خلق كل شيء، فيتناول كل مخلوق، لأنه مطلق، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض. و قوله: "خلق الإنسان" تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأن التنزيل إليه و هو أشرف ما على الأرض. و يجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان" فليل الذي خلق مهما، ثم فسره بقوله خلق الإنسان تفخيم الخلق للإنسان ودلالة على عجب فطرته<sup>1</sup>.

لقد اضطر الزمخشري إلى إعطاء تأويلات مختلفة للآية الأولى من سورة العلق حتى يجيب عن السؤال المطروح: وهو لماذا لم يذكر مفعول "خلق" في هذه الآية رغم أنه فعل متعد؟ و لا يكتفي الزمخشري بإعطاء التأويلات النحوية المحتملة فقط وإنما يعطي كذلك المعنى المترتب عن كل تأويل على النحو الآتي:

- لا يقدر المفعول به، و يراد عندها بيان أن الله سبحانه هو الخالق و لا خالق سواه سبحانه.

- يقدر المفعول بخلق «كل شيء» أي كل المخلوقات. و خصص سبحانه في الآية الثانية نوع المخلوقات و هو «الإنسان» لأنه هو المعنى بالتنزيل و لأنه أشرف المخلوقات.

- يراد الذي خلق الإنسان، و جاء خلق مُهَمَّأً ثم فسره سبحانه بقوله «خلق الإنسان» تفخيما لخلق الإنسان و دلالة على عجب فطرته كما يقول الزمخشري.

و يبدو أن الزمخشري كان يستعين أحيانا بالتأويل النحوي لخدمة معتقده الاعتزالي كما يظهر ممَّا يأتي: يقول في قوله تعالى: "هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء و الأرض." فاطر 03. "فإن قلت: ما محل يرزقكم؟ قلتُ: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعته صفة لخالق، و أن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم و أوقعت يرزقكم تفسيرا له، أو جعلته كلاما مبتدأ بعد قوله: "هل من خالق غير الله" فإن قلت: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى؟ قلتُ: نعم إن

\*سورة الرحمن: 1-2-3.

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج30، ص1212.

جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأمّا على الوجهين الآخرين وهما الوصف و التفسير فقد تقيّد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق، و الرزق من السماء المطر و من الأرض النبات.<sup>1</sup>

يقول مصطفى الصّاوي الجويني أنّ تأويل الزمخشري لهذه الآية يبيّن « بحقّ دقّة الزمخشري في التماسه الوجوه النحوية التي يسخرها لخدمة الرأي الاعتزالي في مسألة حرّية الإرادة. فهو هنا يرى أنّ الخالق الله مقيد بخلق الرزق في السماء و في الأرض أمّا خلق الأفعال فهي من العباد و تعبيره هنا ملتو ملفوف غير صريح.»<sup>2</sup>

و يؤول قوله تعالى: " هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن. " الحديد<sup>3</sup>. " هو الأوّل " هو القديم الذي كان قبل كلّ شيء " والآخر " الذي يبقى بعد هلاك كلّ شيء. " والظاهر " بالأدلة الدالة عليه " والباطن " لكونه غير مدرك بالحواس. فإن قلت: فما معنى الواو؟ قلت: الواو الأولى معناها الدلالة على أنّه الجامع بين الصفتين الأولى و الأخيرة، و الثالثة على أنّه الجامع بين الظهور و الخفاء، و أمّا الوسطى فعلى أنّه الجامع بين مجموع الصفتين الأولى و مجموع الصفتين الأخيرين. فهو المستمر الوجود في جميع الأوقات الماضية والآتية، و هو في جميعها ظاهر و باطن، جامع للظهور بالأدلة و الخفاء فلا يدرك بالحواس. و في هذا حجة على من جوّز إدراكه في الآخرة بالحاسة"<sup>3</sup>.

يفهم من هذا الكلام، أنّ الزمخشري ينكر رؤية الله في الآخرة، و هذا الاعتقاد يدخل ضمن أصل من أصول الاعتزال و هو التوحيد، حيث يرى المعتزلة أنّ الله منزّه عن الجسمية فلا يمكن رؤيته. لذا أول الزمخشري قوله تعالى: " ... الظاهر و الباطن " ب " جامع للظهور بالأدلة و الخفاء... " إذن ظاهر بالأدلة الدالة عليه فقط، و لا يمكن أن يدرك بالحواس.

و يبدو جلياً، أنّ هناك علاقة بين النحو و الاعتزال، يوضّح مازن المبارك هذه العلاقة بقوله: " و يعود أمر الصلة بين النحو و الاعتزال إلى العقل و عمله في كلّ من الميدانين، فكما كان العقل عند المعتزلة

آلة الدفاع عن العقيدة، كذلك كان عند النحاة آلة تقعيد الأحكام النحوية

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج22، ص880.

<sup>2</sup> مصطفى الصّاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، ط3، القاهرة: دار المعارف، ص147.

<sup>3</sup> الزمخشري، المصدر السابق، ج27، ص1081.

التي وصلوا إليها باستقراء كلام العرب. وقد كان النحو والاعتزال متجاورين في عقول الكثيرين من العلماء، حتى بلغ بعض هؤلاء مرتبة الإمامة في العلمين جميعا، وكان منهم أمثال السيرافي وابن جني والزمخشري... وقد لاحظ العلماء كثرة المعتزلة بين النحويين حتى أفردوا تراجمهم بكتب خاصة.<sup>1</sup>

يفهم من هذا أن إعمال العقل هو العنصر المشترك بين النحو والاعتزال.

\* **المجاز**: المجاز هو استخدام اللفظ في غير ما وضع له أصلا، يقول عبد القاهر الجرجاني: "المجاز مفعول من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه. وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وصف بأنه مجاز على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا."<sup>2</sup>

يعتبر المجاز من أهم الوسائل التي يستخدمها المعتزلة لتأويل الآيات التي لا تتماشى مع أصولهم الفكرية. يقول نصر حامد أبو زيد: "...اتخذوا من المجاز سلاحا لتأويل النصوص التي لا تتفق مع أصولهم الفكرية."<sup>3</sup>

وهذه أمثلة من كتاب "الكشاف..." تبين ذلك. يقول الزمخشري في قوله تعالى: "إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله يد الله فوق أيديهم." "الفتح 10: لما قال: "إنما يبائعون الله." أكده تأكيدا على طريق التخييل فقال: "يد الله فوق أيديهم." يريد أن يد رسول الله التي تعلق أيدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" \* والمراد بيعة الرضوان."<sup>4</sup>

ويقول في الآية 16 من سورة ق: "ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد." "ونحن أقرب إليه" مجاز والمراد قرب علمه منه وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا

لا يخفى عليه شيء من خفياته فكأن ذاته قريبة منه كما يقال والله في كل

<sup>1</sup> مازن المبارك، الرماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، ط3، جديدة مصححة، دمشق-سورية:- دار الفكر، 1995، ص242.

<sup>2</sup> عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، علق حواشيه محمد رشيد رضا، ط1، بيروت-لبنان- دار الكتب العلمية، 1988، ص342.

<sup>3</sup> نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة واليات التأويل، ط6، الدار البيضاء-المغرب:- المركز الثقافي العربي، 2001، ص122.

\*النساء، الآية80.

<sup>4</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج26، ص1025.



مكان وقد جلَّ عن الأمكنة.<sup>1</sup> يرى المعتزلة أن الله منزّه عن الجسميّة، كما أنّه سبحانه متعال عن المكان، لذا أوّل الزمخشري قوله تعالى "...يد الله فوق أيديهم" بـ "يد رسول الله التي تعلو أيديهم، وقال أنّ المعنى هو تقرير أنّ عقد الميثاق مع الرسول -ص- كعقده مع الله سبحانه، واحتجّ لذلك بأية أخرى هي "من يُطع الرسول فقد أطاع الله." ثم يقول المقصود هو بيعة الرضوان. وفي قوله تعالى: "...نحن اقرب إليه من حبل الوريد..." يقول الزمخشري أنّ هذا مجاز والمراد قرب علمه منه وأنّه يتعلّق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقاً بحيث لا يخفى عليه شيء، فالقرب إذن لا يتعلّق بقرب المكان لأنّ الله سبحانه جلّ عن الأمكنة كما يقول المعتزلة. ولعلّ الطريقة التي انتهجها الزمخشري في معجمه "أساس البلاغة" خير شاهد على العناية الكبيرة التي يوليها للمجاز، فكلمًا ذكر الزمخشري لفظة إلاّ وأعطى معناها المجازي بعد معناها الحقيقي مباشرة، فهو بهذا يرى أن اللّغة مبنية على الحقيقة والمجاز معاً، فلا غرابة إذن من ذكره للوجوه المختلفة لتأويل القرآن الكريم في تفسيره "الكشاف..."

ومما سبق نقول إنّ عنوان تفسير الزمخشري \_الكشاف\_ عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل \_ يبيّن الغرض من هذا الكتاب وهو إظهار المعاني الخفية الموجودة في القرآن الكريم والتي لا تظهر إلاّ بالتأويل، وكأنّ الزمخشري بعنوانه هذا ينتقد كذلك التفاسير التي تعتمد على ظاهر المتلو ولا تبحث في ما يخفيه الظاهر من حقائق التنزيل.

وإذا ما حاولنا عقد مقارنة بسيطة بين التفسيرين انطلاقاً من ما ذكرناه سابقاً، يمكننا استنتاج ما يأتي:

\_ أهمّ ميزة يميّز بها تفسير الطبري، هي الجمع الهائل المسند لأقوال المفسرين سواء كانت هذه الأقوال متشابهة أو مختلفة، فهو لا يكتفي بذكر قول واحد ليثبت وجود تفسير ما لأية معيّنة، وإنّما يذكر أكثر من قول حتّى وإن كانت هذه الأقوال متطابقة في المعنى وفي اللفظ كذلك، ليتدخّل في الأخير مبدئياً رأيه، ولهذا قيل عن الطبري أنّه جماع شره، على عكس من ذلك جاء تفسير الزمخشري مختصراً دقيقاً، فهو يذكر المعنى الذي يراه مناسباً ولا يهتم بذكر شواهد من أقوال المفسرين تدعّم ما توصل إليه أو تخالفه، لأجل ذلك، وضعت مختصرات وتلخيصات لتفسير الطبري، ووضعت الحواشي والشروح و التعليقات على تفسير

<sup>1</sup> الزمخشري، الكشاف...، ج 26 ص 1044.

الزمخشري.

- يهتم التفسيران بذكر التأويلات المختلفة للآيات القرآنية، وورود كلمة "تأويل" في عنوانهما أكبر دليل على ذلك، لكن الأکید أن تأويل الطبري يختلف عن تأويل الزمخشري سواء في النوع أو الكيف. فإذا

كان الطبري يأخذ بالتأويل اللغوي الجاري على سنن العرب في كلامها، على أن لا يخالف هذا التأويل التفسير بالمأثور، فإنّ الزمخشري كان يعتمد على التأويل العقلي بالإضافة إلى التأويل اللغوي. على أن لا يخالف ذلك التأويل أصول الاعتزال بل يلجأ الزمخشري أحياناً للتأويل، حتى يجعل معنى الآية موافقاً لأصول معتقده الفكري.

وهذان الاتجاهان، معروفان في مجال التفسير بـ «التفسير بالمأثور» في مقابل «التفسير بالرأي» أو «التفسير التأويلي». "النوع الأول من التفسير يهدف إلى الوصول إلى معنى النص عن طريق تجميع الأدلة التاريخية واللغوية، التي تساعد على فهم النص فهما «موضوعياً»، أي كما فهمه المعاصرون لنزول هذا النص من خلال المعطيات اللغوية التي يتضمنها النص وتفهمها الجماعة، أما التفسير بالرأي أو "التأويل" فقد نظر إليه على أساس أنه تفسير «غير موضوعي»، لأنّ المفسّر لا يبدأ من الحقائق التاريخية والمعطيات اللغوية، بل يبدأ بموقفه الراهن محاولاً أن يجد في القرآن "النص" سنداً لهذا الموقف، وقد أطلق على أصحاب الاتجاه الأول أهل السنة والسلف الصالح، ونظر إلى هذا الاتجاه - غالباً - نظرة إجلال واحترام وتقدير، بينما كانت النظرة إلى أصحاب الاتجاه الثاني - وهم الفلاسفة والمعتزلة و الشيعة والمتصوفة - نظرة حذر وتوجس، وصلت في أحيان كثيرة إلى التكفير وحرق الكتب...»<sup>1</sup>.

وفي الختام نقول، إنّ للتفسيرين قيمة علمية لا يُستهان بها، لذا يعدان من أهم التفاسير وأشهرها، وما الاختلاف الموجود بينهما إلا نعمة على الباحث، بل إنّ هذا الاختلاف هو الذي جعل منهما مصدرين أساسيين لا يستغنى عنهما في مجال تفسير القرآن، كما يمكن الاستفادة منهما في مجالات مختلفة من أهمها مجال الدراسات اللغوية والدلالية.

<sup>1</sup> نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ص 15.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم.
- 2- ابن النديم، الفهرست دط، بيروت دار المعرفة دت.
- 3- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دط، ج2، بيروت: دار صادر، دت.
- 4- أبو الفتح بن جني، الخصائص تح: محمد علي النجار دط، ج1، دار الكتب المصرية دت.
- 5- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، دط، مج: 08-09-11-13، بيروت: دار صادر، دت.
- 6- أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي:  
- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، اعتنى به وخرّج أحاديثه وعلّق عليه خليل مأمون شيحا، ط3، بيروت: دار المعرفة، 2009.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تح: عبد الأمير مهنا، ط1، ج1، بيروت: منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات 1992.
- ديوان جار الله الزمخشري، شرح فاطمة يوسف الخيبي، ط1، بيروت: دار صادر: 2008.
- المَفْصَل في علم العربية، ط2، بيروت - لبنان: دار الجيل، دت.
- 7- أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري الأملي، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دط، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، دت.
- 8- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تح وشرح: عبدا لسلام محمد هارون، ط2، ج1، مكتبة الجاحظ، 1965.
- 9- الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الأصفهاني، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تح: يوسف الشيخ محمد ألبقاعي، ط1 محققة ومصححة، بيروت - لبنان: دار الفكر: 2006.
- 10- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: أبو الفضل الدميّطي، دط، القاهرة: دار الحديث، 2006.
- 11- عبد القادر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، علق حواشيه محمد رشيد رضا، ط1، بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، 1988.
- 12- مازن المبارك، الرّماني النحوي في ضوء شرحه لكتاب سيبويه، ط3، جديدة مصححة، دمشق-سورية: دار الفكر، 1995.
- 13- محمد المالكي، دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره: جامع البيان عن تأويل أي القرآن، دط، المغرب: مطبعة فضالة، 1996.
- 14- مصطفى الصّاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان

- 
- إعجازه، ط3، القاهرة: دار المعارف، دت.
- 15- نصر حامد أبو زيد، إشكاليات القراءة واليات التأويل، ط6، الدار البيضاء-المغرب: المركز الثقافي العربي، 2001.
- 16- ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدياء - إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، تح: إحسان عباس، ط1، ج:6-19، بيروت: دار العرب الإسلامي، 1993.

## التعليقُ النحويّ وصوره في اللغة العربيّة

ومذهبُ عبد القاهر الجرجانيّ فيه

أ.مقداد حوالام\*

الملخّص:

المعاني النحويّة المسماة في اللغة العربيّة «أبواب النحو كالفاعليّة والمفعوليّة والإضافة وغيرها، الناشئة عن طريق الإسناد والتعدية والتخصيص والتفسير والملايسة والنسبة وغيرها. أو تلك المسماة «أساليب الجمل» كالاستفهام والنفي والنهي والنداء وغيرها، كلّها مرهونة في التركيب العربيّ السليم بالعلاقات القائمة بين الوحدات والعناصر. الكليم. المكوّنة للجمل والمركّبات وفق قوانين النحو وقواعده وأحكامه. كما يراها «عبدُ القاهر الجرجانيّ ويلخصّها في فكرة نظم الكلام وتأليفه عنده، من خلال كتابه «دلائل الإعجاز حيث قدّم فيه صورًا ونماذج عن التعليق الصحيح الممكن بين أفراد الكليم، الذي ينتج عنه كلامٌ فصيحٌ مفيد، وكما فهمها كثيرٌ من اللغويين العرب المحدثين.

الكلمات المفتاحيّة: التعليق والتعلّق، الإسناد، الارتباط، النحو، النظم، التأليف، صور التعليق، العلاقات التركيبيّة.

### Abstract

Grammatical significations called in Arabic "the parts of grammar" as the subject, complement, the addition and others created through issuance, personalization, transitive relation, explanation, report and others, or which called "types of sentences" as interrogative, negative, prohibition appeal and others, all are related, in good Arabic structure, to the existing relations between the and elements constituting the phrases and incorporated in accordance with the rules and basics of arabic grammar as sees and summarizes "al jurjani Abdulkaher" by the idea of building and production of speech through his book "the signs of miracle" (dala'el el i'djaz) in which he provided images and examples for good comment possible between the speech

\* أستاذ مساعد أ، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة البويرة.

elements from which produced an eloquent speech and beneficial, as included several modern arabs linguists.

**Keywords:** comment and attachment, attribution, links, grammar, construction and production, examples of the comment, compositional relationships.

1 . معنى التعليق: الأصل اللغوي المعجمي لهذا المصطلح هو (عَلِقَ)، جاء في «اللسان»: «عَلِقَ بِالشَّيْءِ عَلَقًا وَعَلَقَةً: نَشِبَ فِيهِ»<sup>(1)</sup>. ومنه نشأت مصطلحات كثيرة التداول والاستعمال على غرار (العلاقة والتعليق والتعلق): ف (العلاقة: بفتح العين رابطة، ربطُ معنًى بمعنًى آخر... نُستعملُ للمعاني، وبالكسر في الأمور المحسوسة. شيءٌ بسببه يستصحبُ شيءٌ شيئاً آخر. استصحبه دعاه إلى الصحبة. فالمعنى أن العلاقة شيءٌ بسببه يطلبُ الشيءُ الأولُ أن يكونَ الشيءُ الثاني مصاحباً له<sup>(2)</sup> والعلاقة في اللغة هي الارتباط، والصلة بين معنيين<sup>(3)</sup> ومنه أيضاً (التعليق) من (عَلِقَ) بتضعيف اللام، يقال: عَلِقَ بِهَا تَعْلِيقًا أَي ارتبطَ بِهَا أو أَحْبَبَهَا<sup>(4)</sup> وَعَلَقَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ أو عَلَيْهِ: جعله معلقًا به، مستمسكًا به. و(التعلق): مصدرٌ (تعلَّقَ) بزيادة التاء وتضعيف اللام، وتعلَّقَ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ: نَشِبَ فِيهِ واستمسكَ به<sup>(5)</sup>.

واعتمادًا على المعنى اللغوي لمصطلح (التعليق) المتقدِّم كان معناه النحوي، فمن معانيه في النحو الارتباط، كتعليق شبه الجملة بالفعل أو شبهه<sup>(6)</sup>. أي ارتباطهما وحاجة كليهما إلى الآخر. وتعلُّق الشرط بجوابه والعكس كما في قول سيبويه: «وإنما انجزم هذا الجواب كما انجزم جواب (إن تأتي) ب (إن تأتي)، لأنهم جعلوه معلقًا بالأول غير مستغنٍ عنه إذا أرادوا الجزاء، كما أن (إن تأتي) غير مستغنية عن (أتك)<sup>(7)</sup>.

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (علق).

(2) محمد علي الهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفتون، تقديم رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. لبنان، ط1، 1996، ج2 / ص1205.

(3) إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 2006، ج6/ص447.

(4) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. لبنان، الطبعة الجديدة، 2007م، ص389.

(5) إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، ج4/ص583-584.

(6) إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، ج4/ص583.

(7) أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت،

2. التعليق والإسناد: كثيراً ما يقترن مصطلحُ التعليقِ أو التعليقِ بمصطلحِ الإسناد. كما في قول ابن مالك<sup>(1)</sup> عن الإسناد بأنه عبارة عن تعليق خبرٍ بمخبرٍ عنه، نحو: (زيدٌ قائمٌ) في المعنى والدلالة. واعتبر الزمخشريُّ الإسنادَ ضرباً من العقد والتركيبِ يجبُ توفُّره في نيّة المتكلِّمِ المنشيِّ وقصده، بدون ذلك يكون طرفاه في حكم الأصواتِ غيرِ الدالّةِ على كلامٍ؛ إذ أنّها حينذاك لا تدلُّ على معنًى تامٍّ. بل هي في حكم الأصواتِ التي يُنَعَّقُ بها غيرُ مُعَرِّبَةٍ ولا مبيّنة<sup>(2)</sup> فالمبتدأ والخبرُ مثلاً يرتفعان «مع تركيب المبتدأ بالإخبار عنه، وتركيب الخبر بالإخبار به<sup>(3)</sup> لأنّ الإعراب الذي به يُدلُّ على المعاني «لا يُستحقُّ إلا بعد العقد والتركيب<sup>(4)</sup> فقصدُ علاقةِ العقدِ والتركيبِ بين طرفي الإسنادِ المسندِ إليه والمسندِ هذه تُعدُّ من أهمِّ شروطِ الكلامِ المفيدِ. فهما عمداً الكلام<sup>(5)</sup> مرتبطان أشدَّ الارتباطِ بوساطة الإسناد، يَطْلُبُ كلُّ منهما الآخر، ولا مناصَّ للمتكلِّمِ من الوفاء بهما حتّى يتحقَّقَ ما يتغيَّاه التركيبُ من فوائد<sup>(6)</sup>. وهذا ما يُفهمُ من كلامِ سيبويه: «هذا باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يَغْنَى أحدهما عن الآخر، ولا يجدُ المتكلِّمُ منه بُدّاً<sup>(7)</sup> وقولُ المبرِّدُ في تحليل جملة (زيدٌ منطلقٌ): «فالاتِّداءُ نحو قولك: (زيدٌ)، فإذا ذكرته فإنما تذكره للسامع ليتوقَّع ما تُخبرُ به عنه، فإذا قلت: (منطلقٌ) أو ما أشبهه صحَّ الكلامُ، وكانت الفائدةُ للسامع في الخبر؛ لأنّه قد كان يَعْرِفُ زيداً كما تعرّفه، ولولا ذلك لم تُقلْ له (زيدٌ)، ولكنك قائلاً: (رجلٌ يُقال له زيدٌ)، فلمّا كان يَعْرِفُ زيداً، ويجْهَلُ ما تُخبرُ به عنه أفدته الخبرُ، فصَحَّ الكلامُ؛ لأنّ اللفظةَ الواحدةَ من الاسم والفعل لا تُفيدُ شيئاً، وإذا قرنتها بما يصلحُ حدّثَ معنًى واستغنى الكلامُ<sup>(8)</sup> ومعنى عدم الاستغناء يعبرُ عن قوة

ط3.93/1.94.

(1) ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائفي الحنّائي الأندلسي، شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيّد ومحمد بدوي المختون، د.ط، د.ت، ج 1، ص 9. وجلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط، 1413هـ/1992م، 11/1.

(2) ينظر أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المفصل في علم العربيّة، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ/2003م، ص 31. وابن يعيش، شرح المفصل 83/1.

(3) أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل 263/3.

(4) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المفصل في علم العربيّة، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط 1، 1424هـ/2003م، ص 31.

(5) عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، 73/1، وفاضل صالح السامرائي، الجملة العربيّة تأليفها وأقسامها، ص 14 نقلاً عن همع 11/1.

(6) علي أبو المكارم، مقومات الجملة العربيّة، دار غريب، القاهرة، ط 1، 2007م، ص 19.

(7) سيبويه، الكتاب، 22/1. وفي نسخة: لا يستغني..

(8) أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد، كتاب المبرِّد، كتاب المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث

حاجة كل طرفٍ للآخر، حتى لكأتهما كلمةً واحدةً، كما فهم من قول سيبويه مثلاً: «واعلم أنَّ المبتدأ لا بُدَّ له من أن يكون المبنيُّ عليه شيئاً هو هو (1) فالإسنادُ علاقةٌ بين طرفين (2) وهو جزءٌ هامٌّ مهمٌّ غيرٌ منطوقٍ به في الكلام، ولكنه هو الذي يجعله مركباً متماسكاً منعقداً، إذ هو رابطةٌ (3) وتعليقٌ.

وقال عبد القاهر: «وليت شعري، كيف يتصورُ وقوعُ قصدٍ منك إلى معني من دون أن تريدَ تعليقها. أي كلمة. بمعنى كلمةٍ أخرى. ومعنى هذا القصدِ إلى معاني الكلم أن تُعلمَ السامعَ بها شيئاً لا يعلمُه؟ ومعلومٌ أنك. أيها المتكلمُ. لست تقصدُ أن تُعلمَ السامعَ معاني الكلم المفردة التي تُكلمُه بها، فلا تقول: (خرج زيد) لتعلمه معنى (خرج) في اللغة، ومعنى (زيد)، كيف ومحالٌ أن تُكلمه بالفاظٍ لا يعرفها كما تعرفُ؟ ولهذا لم يكن الفعلُ وحده من دون الاسمِ، ولا الاسمُ وحده من دون اسمٍ آخرٍ أو فعلٍ كلاماً، وكنت لو قلت: (خرج)، ولم تأتِ باسمٍ ولا قدّرت فيه ضميرَ الثبتي، أو قلت: (زيد) ولم تأتِ بفعلٍ ولا اسمٍ آخرٍ، ولم تُضمّره في نفسك كان ذلك وصوتاً تصوته سواً، فاعرفه (4) وأغلب الظنُّ أن ما يقصده الجرجاني بمصطلح «التعليق ومشتقاته وتفصيله ذلك هو ما يريدُه النحاة من الإسناد، وإن كان التعليقُ أوسع من الإسناد؛ إذ الإسنادُ قرينةٌ واحدةٌ من قرائن التعليق المعنوية بله اللفظية (5) يقول عبد القاهر: «معلومٌ أن ليس النظمُ سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسببٍ من بعض. وبعد أن ذكرَ صوراً من تعلق الاسمِ بالاسم، وتعلق الاسمِ بالفعل، وتعلق الحرفِ بهما، قال: «ومختصرُ كلِّ الأمر: أنه لا يكونُ كلامٌ من جزءٍ واحدٍ، وأنه لا بُدَّ من مسندٍ ومسندٍ إليه... وجملة الأمر: أنه لا يكونُ كلامٌ من حرفٍ وفعلٍ أصلاً، ولا من حرفٍ واسمٍ إلا في النداء... (6) ويشبهه عبد القاهر العلاقة بين الألفاظِ المكونة للكلامِ المفيد بما يقومُ به الصائغ الماهرُ في عمله، يقول: «واعلم أنَّ مثلَ واضعِ الكلامِ مثلُ من يأخذُ قطعاً من الذهب أو الفضة فيذيبُ بعضها في بعضٍ حتى تصيرَ قطعةً واحدةً. وذلك أنك إذا

الإسلامي، القاهرة، ط2، 1399هـ/1979م، 4/126.

(1) سيبويه، الكتاب، 2/127.

(2) علي أبو المكارم، مقومات الجملة العربية، ص42.

(3) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م. ع. س، ط1، 1414هـ/1993م، قسم1/مجلد1/ص19.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكله وشرح غامضه وخرج شواهد وقدم له ووضع فهارسه ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1424هـ/2003م، دلائل الإعجاز ص388.

(5) للتوسع في هذه الفكرة يُنظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص181 وما بعدها تحت عنواني . النظام النحوي، وقرائن التعليق .

(6) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص57 وما بعدها.



فلت: (ضرب زيدٌ عمرًا يومَ الجمعةِ ضربًا شديدًا تأديبًا له)، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم كلِّها على مفهومٍ هو معنًى واحدٌ، لا عدَّةٌ معانٍ كما يتوهمه الناسُ، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتُفيدَه أنفسَ معانها وإنما جئت بها لتُفيدَه وجوهَ التعلُّق التي بين الفعل الذي هو (ضرب) وبين ما عملَ فيه، والأحكام التي هي محصولُ التعلُّق... لأنَّ (عمرًا) مفعولٌ لـ (ضرب) وقعَ من (زيد) عليه، و(يومَ الجمعة) زمانٌ لـ (ضرب) وقعَ من (زيد)، و(ضربًا شديدًا) بيانٌ لذلك الضرب كيف هو وما صفته؟، و(التأديب) علَّةٌ وبيانٌ أنَّه كان الغرضَ منه. وإذا كان ذلك كذلك بَانَ وثبتت أنَّ المفهومَ من مجموع الكلم معنًى واحدٌ لا عدَّةٌ معانٍ؛ وهو إثباتك زيدًا فاعلاً ضربًا لعمرو في وقت كذا، وعلى صفة كذا، ولغرض كذا؛ ولهذا المعنى نقولُ إنَّه كلامٌ واحدٌ<sup>(1)</sup> قال أحد الباحثين يُقدِّمُ لنظريَّةِ النظم عند الجرجاني: «والنظم: هو البوتقة التي تنصهرُ فيها الكلمات المفردة، وتتداخلُ معانها حتى تصيرَ معنًى واحدًا لا عدَّةَ معانٍ<sup>(2)</sup> هذا يعني أنَّ المعنى المستفادَ من الجملة بعد توسيعها وامتدادها يصيرُ غيرَ المعنى الذي استُفيدَ من النواة الإسنادية وحدها، وذلك لأنَّ الجملة تؤدِّي معنًى دلاليًا واحدًا لا عدَّةَ معانٍ، وكلِّما أنشئت علاقةً جديدةً في الجملة تغيَّرَ معنى الجملة عمَّا كان عليه قبل إنشاء تلك العلاقة<sup>(3)</sup> فاللغة والكلامُ مجموعةٌ من العلاقات لا مجموعةٌ من الألفاظ،<sup>(4)</sup> والمعاني التي «تنشأ من تعلُّق الاسم بالاسم، أو أو تعلُّق الاسم بالفعل، وتعلُّق الحرف بهما هي معاني النحو وأحكامه، فالتعلُّق والإسناد يُفهمان من النحو، وعنهما تكونُ المعاني التي يريدُ المتكلِّمُ إبرازها، ويستطيع السامعُ إدراكها<sup>(5)</sup> فالإسنادُ هو «العلاقةُ الرابطةُ بين العنصرين المكوِّنين لأقلِّ الكلام المفيد. وهذه العلاقةُ هي «محورُ الكلام، والمركِّبات التي لا تُحقَّقُ فيها هذه العلاقةُ لا تُعدُّ كلامًا<sup>(6)</sup>».

بالنظر إلى الجمل الآتية تتضح هذه العلاقة أكثر، ويُدرِكُ الفرقُ بين كلِّ جملتين في المجموعتين المكوِّنتين من نفس الكلمات تقريبًا، وذلك بالتركيز على علاقة الإسناد فقط دون سواها من العلاقات التركيبية:

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 388. 389.

(2) عبد العاطي غريب علام، دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1997م، ص3.

(3) ينظر محمد رزق شُعر، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص37.

(4) عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ، الرياض، ص76، نقلًا عن محمد مندور، في الميزان الجديد، ص147.

(5) عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص80.

(6) محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربية، ص11.

المجموعة الأولى: أ. مُكْرِمٌ مُحَمَّدٌ عَلِيًّا؟ ب. أ. مُكْرِمٌ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ؟

العلاقة بين الكلمتين (مكْرِمٌ) و(مُحَمَّدٌ) في الجملة (أ) علاقة إسنادية؛ فـ (مكْرِمٌ) مبتدأ ووصف مشتق (اسم فاعل) مسند إليه، و(مُحَمَّدٌ) فاعل له سدّ مسدّد الخبر، فهو مسند، أو هو مبتدأ مؤخر خبره مقدّم (مكْرِمٌ). أمّا العلاقة بين (مكْرِمٌ) و(مُحَمَّدٌ) في الجملة (ب) فقد افتقدت الإسناد. وانتقلت العلاقة الإسنادية إلى ما بين (مكْرِمٌ) و(عَلِيٌّ).

المجموعة الثالثة: أ- مُحَمَّدٌ أَخوكُ. ب. مُحَمَّدٌ أَخوكُ نَاجِحٌ.

نجدُ العلاقة فيها بين الكلمتين (مُحَمَّدٌ) و(أَخوكُ) في الجملة (أ) إسنادية، في حين هي في (ب) غير ذلك، بل صارت علاقة الإسناد بين (مُحَمَّدٌ) و(نَاجِحٌ) لأنّ (أَخوكُ) صار تابعًا. وهما معًا مسند إليه مبتدأ، و(نَاجِحٌ) مسند خبر. ولو صدرنا الجملتين بـ «إِنَّ» لظلت كلمة (أَخوكُ) في (أ) مرفوعة على الخبرية، فنقول: (إِنَّ مُحَمَّدًا أَخوكُ) لأنّها خبر مسند، بينما في (ب) فإنّها ستنصب، فنقول: (إِنَّ مُحَمَّدًا أَخاكُ نَاجِحٌ)، لأنّها صارت كالجاء من كلمة (مُحَمَّدًا) المنصوبة بحكم تبعيتها لها. فصار في الجملة إسنادان يُمكن تمثيلهما بالشكل الآتي:

مسند إليه «مسند (مسند إليه مسند). أو: مسند إليه 1 (مسند إليه 2 مسند للمسند إليه 2) وهما معًا مسند للمسند إليه 1. أي: مبتدأ 1 مبتدأ 2 خبر للمبتدأ 1، والمبتدأ 2 مع خبره خبر للمبتدأ 1.

3. التعليق عند عبد القاهر الجرجاني: سبق أنّ عبد القاهر يصرّح في مدخل «دلائل الإعجاز» أنّ النظم عنده ليس «سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض»<sup>(1)</sup>. والتعليق هنا كما فهمه تمام حسّان هو الذي يُفسّر العلاقات السياقية أو التركيبية، وهو روح «النظم» الذي «جعل الجرجاني للمعاني: أي أنّ النظم عنده هو تصوّر العلاقات النحوية بين الأبواب النحوية، كتصوّر علاقة الإسناد بين المسند إليه والمسند، وتصوّر علاقة التعدية بين الفعل والمفعول به، وتصوّر علاقة السببية بين الفعل والمفعول لأجله، وهلم جرا<sup>(2)</sup>. فالنظم نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم لا بناء الكلمات في صورة جملة<sup>(3)</sup>. إذ أنّ الكلمة الواحدة دون ربطها بأخواتها ربطًا نحويًا محكمًا لفظًا أو تقديرًا فإنّها إذ ذاك «لا تزيد عن كونها صوتًا نصوتّه. إذ لا فائدة خبرية ولا بلاغية ولا سمة نحوية

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم ياسين الأيوبي، ص 57. وفي طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة، 2004 م، بتعليق محمود محمد شاكر، ص 4 في المدخل.

(2) تمام حسّان، اللغة العربية، ص 186 و188.

(3) تمام حسّان، اللغة العربية، ص 187.

... وإتّما تظهرُ فيها الفائدةُ الإخباريّةُ والصفاتُ النحويّةُ عند دخولها في الجملة وتأليفِ الكلام (1) والنظمُ عنده هو «توحي معاني النحو في معاني الكلِم، وأن توحيها في متون الألفاظِ محال» (2).

والمتتبعُ لكلام عبد القاهر يدركُ أنّه يُبعدُ تعليقَ الحروفِ .الأصواتِ لا الأدوات . من النظم والتعليق ، وأنّ ذلك مختصُّ بالكلمات والألفاظِ الدالّةِ . فقد قال: «ومما يجبُ إحكامُه... الفرقُ بين قولنا: حروفٌ منظومةٌ، وكلِمٌ منظومةٌ. وذلك أنّ نظمَ الحروفِ هو توالفها في النطق فقط، وليس نظمُها بمقتضى عن معنَى، ولا الناظمُ لها بمقتضى بذلك رسمًا من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه ما تحرّاه. فلو أنّ واضعَ اللغَةِ كان قد قال: (رَبَضَ) مكانَ (ضَرَبَ) ، فما كان في ذلك ما يُؤدّي إلى فسادٍ. وأمّا نظمُ الكلِم فليس الأمرُ فيه كذلك؛ لأنك تقتفي في نظمها آثارَ المعاني، وترتيبها على حسب ترتيبِ المعاني في النفس ، فهو إذن نظمٌ يُعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعِضه مع بعض، وليس هو النظمُ الذي معناه ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتَّفَق (3). فنظمُ الحروفِ في الألفاظِ إذن اعتباطيٌّ، هو مجردُ ضمِّ حرفٍ إلى آخر حسبِ الوضع الذي كان له، لا لمعنى اجتماعيٍّ يرادُ توصيلُه وتبليغُه، ولا معنَى نفسيٍّ يُرامُ وصفُه والإفصاحُ عنه. وأمّا المعنى الوظيفيُّ النحويُّ فهو للألفاظِ والكلِم وقد ضمَّ بعضها إلى بعضٍ، على طريقةٍ مخصوصةٍ وفقًا لمعاني النحو وأحكامه. فليس «من عاقلٍ يفتحُ عينَ قلبه إلّا وهو يعلمُ ضرورةً أنّ المعنى في ضمِّ بعضها إلى بعضٍ تعليقٌ بعضها ببعضٍ، وجعلُ بعضها بسببٍ من بعض، لا أن ينطقَ ببعضها في أثر بعضٍ من غير أن يكونَ فيما بينها تعلقٌ، ويعلمُ كذلك ضرورةً . إذا فكّرَ أنّ التعلُّقَ يكونُ فيما بين معانيها، لا فيما بينها أنفسها... (4) يُفهمُ من كلام عبد القاهر أنّ قيمةَ الكلِم والألفاظِ وأهمّيّتها، أو مزيّتها وفصاحتها بتعبيره ليست في ذواتها وأنفسها، ولا لمعانيها اللغويّةِ القاموسيّةِ، وإنّما في تركيبها ونظمها وترتيبها، وأنّ الفكرَ لا يتعلّقُ بها مفردةً، ولا بمعانيها في أنفسها، إنّما يتعلّقُ بما بين تلك المعاني من علاقاتٍ، وهذه العلاقاتُ ليستُ إلّا معاني النحو (5). وذلك من قبيل قوله: «... بأنّ الفصاحةُ لا تكونُ في الكلِم أفرادًا، وأنّها إنّما تكونُ إذا ضمَّ بعضها إلى بعضٍ، وكان يكونُ المرادُ

(1) أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995م، ص 127.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 350 و 351.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تقديم ياسين الأيوبي، ص 102.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 425.

(5) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط1، 1994، ص 50.

بضمّ بعضها إلى بعضٍ تعليقٍ معانيها بعضها ببعضٍ، لا كونَ بعضها في النطقِ على أثر بعضٍ... (1) وقوله: «أنّ الألفاظَ المفردة التي هي أوضاعُ اللّغة لم توضع لتُعرفَ معانيها في أنفسها، ولكنّ لأنّ يُضمَّ بعضها إلى بعضٍ فيُعرفَ فيما بينها من فوائدٍ» (2). يعني معاني الكليم المنظومة لا المفردة؛ فالسامعُ يفترضُ أن يكونَ على علمٍ بمعاني الكليم المفردة التي يُخاطبُ ويكلّمُ بها، أو بالأحرى يُخبرُ بها ويسمعُها، فعندما يقولُ المتكلّمُ مثلاً: (خرج زيدٌ)، فلا يكونُ الغرضُ والقصدُ من الكلامِ إخبارَ السامعِ وإفهامه معنى الخروجِ، ولا معنى زيدٍ، مفردَين غيرِ متعلّقين ببعضهما، أي مجردَين من معاني النظم والنحو (3). وإنّما المرادُ من ذلك إفادتهُ بنسبة الخروجِ إلى زيدٍ، وحصولُ الفعلِ منه، وإسناده إليه. فليستِ الألفاظُ عنده إلا رُموزاً للمعاني المقرّرة، والإنسانُ . متكلّمًا أو متلقّيًا . يَعرفُ مدلولَ الألفاظِ المفردة أولاً، ثمّ يعرفُ الألفاظَ الدالّةَ عليها ثانيًا، لأنّ «الألفاظَ سماتٍ لمعانيها، ولا يُتصوّرُ أن تسبقَ الألفاظُ معانيها، فذلك ضربٌ من المحال (4). قال عبدُ القاهرِ في ذلك: «ومّا ينبغي أن يعلمه الإنسانُ ويجعله على ذكرٍ، أنّه لا يُتصوّرُ أن يتعلّقَ الفكرُ بمعاني الكليم أفرادًا ومجرّدةً من معاني النحو؛ فلا يقومُ في وهمٍ، ولا يصحُّ في عقلٍ أن يتفكّرَ متفكّرًا في معنى فعلٍ من غير أن يريدَ إعماله في اسمٍ، ولا أن يتفكّرَ في معنى اسمٍ من غير أن يريدَ إعمالَ فعلٍ فيه، وجعله فاعلاً له أو مفعولاً، أو يريدَ منه حكمًا سوى ذلك من الأحكام، مثل أن يريدَ جعله مبتدأً أو خبرًا أو صفةً أو حالاً أو ما شاكلَ ذلك (5). ومن ذلك أيضًا قوله في «أسرار البلاغة»: «... والألفاظُ لا تفيّدُ حتى تُؤلّفَ ضربًا خاصًا من التآليفِ، ويُعمدَ بها إلى وجهٍ دون وجهٍ من التركيبِ والترتيبِ. فلو أنّك عمدتَ إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ فعددتَ كلماته عددًا كيفَ جاءَ واتَّفَقَ، وأبطلتَ نضده ونظامه الذي عليه بُنيَ، وفيه أفرغَ المعنى وأجرى، وغيّرتَ ترتيبه الذي بخصوصيّته أفادَ ما أفادَ، وبنسقه المخصوصِ أبانَ المرادَ،... أخرجته من كمال البيانِ إلى مجال الهديان (6). وذلك لأنّ «المعنى الذي كانت له هذه الكليمُ بيتَ شعرٍ أو فصلَ خطابٍ، هو ترتيبها على طريقٍ معلومةٍ، وحصولها على صورةٍ من

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 426.

(2) عبد القاهر الجرجاني، تقديم ياسين الأيوبي، ص 495.

(3) من الباحثين من لا يميّز بين النحو والنظم، فمحمد مندور مثلاً يُستعمل علم النحو أو علم التراكيب syntaxe

يعلم النظم. النقد المنهجي عند العرب، ص 437.

(4) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص 46 بتصرف.

(5) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 387.

(6) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاکر، دار المدني، جدّة، ص 4 و5. وانظر

مثل ذلك في دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 387.

التأليف مخصوصة<sup>(1)</sup>. معنى ذلك أنّ الحُسْنَ في الألفاظ . على سلامتها وشرفها . ليس ذاتياً، وإنّما سببه إجادة نظمها مع أخواتها المجاورة لها، فبذلك فقط يكون الكلامُ كلاماً. لأنّ الألفاظ في نظره ليستْ إلا رموزاً وعلاماتٍ لمعانيها ومدلولاتها<sup>(2)</sup> تشيرُ إليها. وقال: «... لا يُتصوّرُ أن تُعرفَ للفظٍ موضعاً من غير أن تُعرفَ معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ، من حيثُ هي ألفاظٌ، ترتيباً ونظماً، وأنك تتوخى الترتيبَ في المعاني، وتُعَمِلَ الفكرَ هناك، فإذا تمَّ لك ذلك أتبعتهما الألفاظُ، وقفوتَ بها آثارها، وأنك إذا فرغتَ من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتجِ إلى أن تستأنفَ فكراً في ترتيب الألفاظِ، بل تجدُها ترتبُ لك بحكم أنّها خدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها ولا حِقَّةٌ بها، وأنّ العلمَ بمواقع المعاني في النفس علمٌ بمواقع الألفاظِ الدالّةِ عليها في النطق<sup>(3)</sup>. فالمتكلّمُ حينما يرغبُ في الكلامِ لا يطلبُ اللفظَ أولاً، إنّما يطلبُ المعنى، فإذا ظفِرَ به وتحصّلَ له تلاحقتِ الألفاظُ إلى لسانه، فيختارُ منها ما يوافقُ الفكرةَ والمعنى<sup>(4)</sup>. علّق درويش الجندي على هذا الأمرِ بقوله: «وهو – الجرجاني . في هذا يتفقُ مع ما يقولُ نوديه (Nodier) في هذا المعنى: «إنّ الكلمةَ ثمرةٌ للفكرة، فمتى نضجتِ الفكرةُ سقطتِ كما تسقطُ الثمرةُ الناضجةُ، ولكنها تسقطُ على كلمتها<sup>(5)</sup>».

وهذا لا يعني أنّ الجرجاني يُهملُ اللفظَ ويحتقرُ شأنه، كلاً! فإنّه يُنزله منزلةً ويهتّمُ به، ويجمعُ بينه وبين المعنى «عن طريق ما يحدثُ بينهما من التّحامِ في الصياغة والتصوير<sup>(6)</sup>. وأن لا سبيلَ إلى فهمِ نظم المعاني في النفس وترتيبها إلاّ بنظم بنظم الألفاظِ<sup>(7)</sup> الدالّةِ عليها في النطق. فاللفظُ . في عرفه . وعاءٌ للمعنى يقعُ بسببه ضرورةً، ولولاه ما كان . اللفظُ . ليكون، وإن كانَ فسيكونُ أجوفاً خاوياً، وإذا كان الأمرُ كذلك وجبَ أن يتبعَ اللفظُ المعنى في موقعه، فإذا وجبَ المعنى أن يكونَ أولاً في النفس وجبَ للفظِ الدالِّ عليه أن يكونَ مثله أولاً في النطق<sup>(8)</sup>، وهكذا.

4. صور التعليق عند عبد القاهر: بعد أن أكّد الجرجاني أنّ النظم هو تعليقُ الكلمِ بعضها ببعض، وجعلُ بعضها بسببٍ من بعض، راحَ يبيّنُ صورَ هذا التعليقِ وأشكاله وأمثله من أقسامِ الكلمِ الثلاثةِ المعروفةِ، الاسمِ والفعلِ والحرفِ.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 387.

(2) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د.ط، د.ت، ص 51.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 105.

(4) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، ص 82.

(5) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، ص 82. عن إبراهيم سلامة، بلاغة أرسطو، ص 321.

(6) حاتم صالح الضامن، نظرية النظم تاريخ وتطور، ص 46.

(7) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، ص 81.

(8) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 104 بتصرف.

فقال: «والكلم ثلاث: اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ. وللتعليق بينها طرُقٌ معلومةٌ، وهو لا يعدو ثلاثة أقسامٍ: تعلقُ اسمٍ باسمٍ، وتعلقُ اسمٍ بفعلٍ، وتعلقُ حرفٍ بهما<sup>(1)</sup> فلا تعلقُ لفعلٍ بفعلٍ، ولا ائتلافٌ بينهما؛ فلا يُقال مثلاً: (خرج ضحك) بنية إسناد الفعل الأول إلى الثاني، فذلك فاسدٌ وباطل، ولا يُعدُّ كلامًا فصيحًا. قال: «فقولهم (بالضم) لا يصحُّ أن يُرادَ به النطقُ باللفظة بعد اللفظة، من غير اتصالٍ يكونُ بين معنيهما، لأنه لو جازَ أن يكونَ لمجرد ضمِّ اللفظِ إلى اللفظِ تأثيرٌ على الفصاحة، لكان ينبغي إذا قيل: (ضحك خرج) أن يحدثَ من ضمِّ (خرج) إلى (ضحك) فصاحةٌ، وإذا بطلَ ذلك لم يبقَ إلا أن يكونَ المعنى في ضمِّ الكلمة إلى الكلمة توخيَ معنى من معاني النحو فيما بينهما<sup>(2)</sup>. وأمّا إذا قيلَ على سبيل المثال: (خرج يضحك)، أو (كان يعمل)، أو (كاد يسقط)، فهذه تراكيبٌ وإن بدت في ظاهرها مكوّنةً من فعلين، فإنها ليست بإسناد أحدهما إلى الآخر. وإنما تكونُ دائماً بتقدير اسمٍ أو ضميرٍ سبقَ ذكره ومعرفته يُسندُ إليه الفعلان. وليست من قبيل تعلقِ فعلٍ بفعلٍ؛ فالفعل لا يكونُ مسنداً إليه، بل يكونُ أبداً مسنداً إلى غيره<sup>(3)</sup>.

ولا ائتلافٌ أيضاً بينَ حرفٍ وحرفٍ، ولا حتّى بينَ حرفٍ واسمٍ، أو بينَ حرفٍ وفعلٍ منفردينَ مستقلينَ غيرَ مجتمعين. كما قد يفهمُ خطأً من قوله: «وتعلقُ حرفٍ بهما. وقد نبّه بعد ذلك إلى أنه «لا يكونُ كلامٌ من حرفٍ وفعلٍ أصلاً، ولا من حرفٍ واسمٍ إلا في النداء، نحو: (يا عبد الله!)<sup>(4)</sup>. ومعلومٌ أنّ النداء عند نحائنا مفسّرٌ ومؤوّلٌ بفعلٍ مضمّرٍ مقدّر. قال الجرجاني يفسّرُ هذا الاستثناءً من الائتلاف بينَ الحرفِ والاسمِ في أسلوبِ النداء: «وذلك أيضاً إذا حقّق الأمرَ كان كلاماً بتقدير الفعلِ المضمّرِ الذي هو: (أعني، وأريد، وأدعو)، و«يا دليلٌ عليه وعلى قيام معناه في النفس<sup>(5)</sup>.

وربّما تُوهّم أنّ مثل قولنا: (بالله!)، أو (والله!)، أو (تالله!) من قبيل تعلقِ الحرفِ بالاسم. والأمرُ ليس كذلك؛ فالقسَمُ بالباء وهو الأصلُ يكونُ بتقدير فعلٍ القسَمِ أي: (أقسمُ بالله). أو (حلفتُ بالله). وإذا كان بالواو أو بالتاء لا يستقيمُ تقديرُ فعلٍ. ويكونُ بتقدير جملةٍ المقسَمِ عليه؛ أي: (والله لأفعلن!) مثلاً. فيكونُ

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 57.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 375.

(3) أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي، الإيضاح، تحقيق ودراسة كاظم بحر المرجان، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط2، 1416هـ/1996م، ص 72. وابن مالك، شرح التسهيل، 9/1.

(4) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 60.

(5) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، نفس ص.

الأمر حينئذٍ من قبيل تعلق الحرف بمجموع الجملة، لا بالاسم وحده. وأمّا قوله (بهما) فالمراد أن يكونا. الاسم والفعل. مجتمعين في نفس التركيب. وقال في موضع آخر: «ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: مؤتلف، وهو الاسم مع الاسم، والفعل مع الفعل. وغير مؤتلف، وهو ما عدا ذلك، كالفعل مع الفعل، والحرف مع الحرف»<sup>(1)</sup>.

قدّم عبد القاهر صورًا وأمثلةً عن كلّ قسمٍ من أقسام التعلّق كما يلي<sup>(2)</sup>:

1.4: تعلق اسم باسم: يتعلّق الاسم بالاسم إذا:

1. 1. 4: كان أحدهما خبرًا للآخر. أي يكون أحد الاسمين مسندًا إليه مبتدأ، والثاني مسندًا خبرًا. نحو قوله سبحانه: «اللَّهُ أَحَدٌ»<sup>(3)</sup>.

1. 4. 2: كان الأول وصفًا مشتقًا: كأن يكون (اسم فاعلٍ أو مفعولٍ، أو صيغةً مبالغةً، أو صفةً مشبهةً، أو اسم تفضيلٍ) أو مصدرًا عاملاً عمل الفعل، والثاني معمولًا للأول. أي أنّ الأول مسند (كأنه فعل)، والثاني مسند إليه. نحو:

1. 2. 1. 4: قوله تعالى: «لاهيئةً قلوبهم»<sup>(4)</sup>. ف (لاهيئةً) اسم فاعلٍ أُعملَ عملَ الفعل، و(قلوبهم) معموله فاعلٌ له.

2. 2.1. 4: وقوله تبارك اسمه: « ذلك يومٌ مَجْموعٌ له الناسُ »<sup>(5)</sup> (مجموعٌ) اسمٌ مفعول مفعولٍ عامِلٌ، و(الناسُ) معموله نائبٌ فاعلٍ له.

3. 2. 1. 4: قوله عزّ في علاه: « أوإطعامٌ في يومٍ ذي مسغبةٍ يتيماً ذا مقربةٍ »<sup>(6)</sup> لفظٌ (إطعامٌ) مصدرٌ عامِلٌ عملَ الفعل المتعدّي، و(يتيماً) مفعولٌ به للمصدر.

3. 1. 4: كان الأول صاحب حالٍ والثاني حالاً منه. نحو قوله عزّ وجلّ: «وما نرسلُ المرسلينَ إلا مبشرينَ ومُنذرينَ»<sup>(7)</sup> ف (مبشرين) هنا حالٌ من (المرسلين)، وكلاهما اسمٌ.

(1) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 425.

(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 57. 58. 59. كثيرٌ من الشواهد الآتية لم يذكرها الجرجاني.

(3) سورة الإخلاص، الآية 1.

(4) سورة الأنبياء، الآية 3.

(5) سورة هود، الآية 103.

(6) سورة البلد، الآيتان 14 و15.

(7) سورة الكهف، الآية 56.

4. 1. 4: كان أولهما متبوعاً والثاني تابِعاً له:

4. 1. 4. 1: كأن يكون نعتاً له، نحو قوله تعالى: «سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى» (1). حيث (الأعلى) نعتٌ لـ (رَبِّكَ).

2.4.1.4: أو تأكيداً، نحو قوله سبحانه: «وانتوني بأهلكم أجمعين» (2).

3.4.1.4: أو عطفَ بيانٍ، نحو قوله جلَّ شأنه: «وإلى عادٍ أخاهم هوداً» (3).

4.4.1.4: أو بدلاً، نحو قوله عزَّ وجلَّ: «إن للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً» (4).

5.4.1.4: أو عطفًا (نسقًا)، نحو: (حدائق وأعناباً) في الشاهد السابق.

5.1.4: كان الأول مضافاً إلى الثاني، كما في قوله سبحانه: «رب العالمين» (5).

6.1.4: كان الثاني تمييزاً للأول، نحو قول الله سبحانه: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» (6).

2.4: تعلقُ اسمٍ بفعلٍ: يتعلَّقُ الاسمُ بالفعل حين:

1.2.4: يكون الاسمُ فاعلاً للفعل.

2.2.4: أو مفعولاً به، كقولك: (ضربتُ زيداً).

3.2.4: أو مفعولاً فيه، كقولك: (خرجتُ يومَ الجمعةِ ووقفتُ أمامك).

4.2.4: أو مفعولاً لأجله، كقوله تعالى: «ومن يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاتِ الله» (7).

5.2.4: أو مفعولاً معه، كقولك: (لو تركتُ الناقةَ وفصيلها لرضعها).

6.2.4: أو مطلقاً كقولك: (ضربتُ ضرباً).

7.2.4: أو مُنْزَلاً منزلةَ المفعول، كخبر (كان) وأخواتها، والحال، والتمييز مثل: (طاب

زيدٌ نفساً)، والاستثناء كقولك: (جاءني القومُ إلا زيداً).

ويمكنُ إضافةُ حالةٍ من تعلقِ الاسمِ بالفعل. أو لنقلُ تعلقِ الاسمِ بالجملة. لم يُشْرَ إليها عبدُ القاهرِ في هذا الموضوع؛ وهي عندما يكونُ الفعلُ. أو الجملةُ. خبراً مسنداً إلى الاسم. نحو قولنا مثلاً: (اللهُ يعلمُ)؛ فـ (يعلمُ) حملةٌ أُسْنِدْتُ إلى اسمِ (اللهُ).

(1) سورة الأعلى، الآية 1.

(2) سورة يوسف، الآية 93.

(3) سورة الأعراف، الآية 65.

(4) سورة النبأ، الآيتان 31 و32.

(5) سورة الفاتحة، الآية 2.

(6) سورة الزلزلة، الآية 7.

(7) سورة النساء، الآية 114.



3.4: تعلق الحرف بالاسم والفعل: وهو على ثلاثة أضرب<sup>(1)</sup>:

3. 4. 1: حرف الجرّ المساعد على التعدية الذي يتوسط الفعل والاسم، فيوصل الأول إلى الثاني. نحو: (مررتُ بزَيْدٍ). فالفعلُ (مرّ) تعدّى إلى (زيد) بواسطة الحرفِ (الباء) مستعيناً به. وهو ما يُمكن تسميته بالأنساق الفعلية. وهي الأفعال التي تُستعمل دائماً مع حرفٍ يعينها على التعدية غير المباشرة. نحو قولنا مثلاً: (عدلَ ب) أي سَوَى وأشركَ، أو (عَدَلَ في) بمعنى أنصفَ، أو (عدَلَ عن) إذا مالَ وحادَ، أو (عدَلَ إلى) أي رجَعَ. وهذا من تعلق الحرف بالاسم والفعل معاً. وكذلك الأمرُ بالنسبة لـ (واو) المصاحبة أو المعية، و(إلا) الاستثنائية في التوسط، وإن لم يكن عملُ النصبِ في الاسم بعدهما لهما، ولكن بوساطتهما وعونهما.

3. 4. 2: حرفُ العطفِ، يُدخلُ الثاني في عملِ عاملِ الأول. نحو: (مررتُ بزَيْدٍ وعمرو). ففي هذا المثالِ أدخلَ حرفُ العطفِ (الواو) الاسمَ الثاني (وهو المعطوفُ: عمرو) في عملِ (أي الجرّ) عاملِ (حرفِ الجرّ: الباء) الاسمِ الأولِ (وهو المعطوفُ عليه المجرورُ: زيد). وهذا من قبيل تعلق حرفٍ باسمين في آنٍ.

3. 4. 3: حروفُ النفي أو الاستفهام والشرط وغيرها تتعلّق بمجموع الجملة. نحو: (لا رَجُلَ في الدار). فالحرفُ (لا) هنا لم يتعلّق بالاسم المفرد (رجل) وحده، كما قد يُتوهّم من قول النحاة أنّها لنفي الجنس، وإنّما تتعلّق بمجموع الجملة، فيكون المعنى أنّ (لا) لنفي الكينونة والوجود في الدار لجنس الرجال. وكذلك الأمرُ إذا قلتُ في الاستفهام: (هل خرجَ زيدٌ؟). فإنّ الحرفَ (هل) تتعلّق بمعنى الجملة كاملةً، لا بالفعل وحده؛ لأنك لم تستفهم عن الخروج مطلقاً، ولكن عنه واقعاً من زيد. لذلك أُطلق عليها مصطلحُ حروفِ المعاني أو الجمل.

5. خلاصة التعليق وصوره عند عبد القاهر: بما تقدّم من تفصيلٍ يبلغ عددُ العلاقاتِ النحويّةِ التركيبيّةِ بين الكلماتِ في الجملة العربيّةِ عند عبد القاهر ثنثي عشرةً علاقةً كليّةً أساسيّةً، تتفرّعُ إلى ثلاثٍ وثلاثين صورةً مختلفةً للتعليق عنده، موزّعةً كالآتي:

## 1.5: ستُّ (06) علاقاتٍ لتعلّق الاسم بالاسم، هي:

## 1.1.5: علاقةُ الإسنادِ المتمثّلةِ في الإخبار، ولها صورةٌ واحدة.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 59. 60 بتصرف. وينظر أيضاً عبد العاطي غريب عاملاً، دراسات في البلاغة العربيّة، جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1997 م، ص 35. وعلي أبو المكارم، مقومات الجملة العربيّة، ص 72.

- 2.1.5: علاقة الملابسة المتمثلة في الحالية، ولها صورة واحدة.
- 3.1.5: علاقة التبعية، ولها خمس صور على اعتبار أن التابع يكون نعتاً، أو توكيداً، أو بدلاً، أو عطف بيان، أو عطف نسقي .
- 4.1.5: علاقة الإضافة، ولها صورة واحدة.
- 5.1.5: علاقة العمل التي يعمل فيها الاسم عمل الفعل، ويكون المفعول فاعلاً أو مفعولاً به أو نائب فاعل. ولها ست صور حيث يكون الاسم العامل اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو صفة مشبهة، أو مصدرًا.
- 6.1.5: علاقة التمييز، ولها صورة واحدة أيضاً.
- 2.5: ثلاث (03) علاقات لتعلق الاسم بالفعل، هي:
- 1.2.5: علاقة الإسناد بالفاعلية، ولها صورة واحدة.
- 2.5: علاقة التعدية بالمفعولية، ولها ست صور باختلاف نوع المفعول الذي يكون مفعولاً به، أو فيه، أو له، أو معه، أو مطلقاً، والمفعول فيه يكون ظرف زمان أو مكان.
- 3.2.5: علاقة المنزّل منزلة المفعول، ولها أربع صور، يكون فيها الاسم خبراً لـ (كان) وأخواتها، أو حالاً، أو تمييزاً، أو مستثنى.
- 3.5: ثلاث (03) علاقات لتعلق الحرف بالاسم والفعل، هي:
- 1.3.5: علاقة التوسط، ولها ثلاث صور: الجرّ، وواو المعية، والّا الاستثنائية.
- 2.3.5: علاقة العطف، ولها صورة واحدة.
- 3.5: علاقة التعلق بمجموع الجملة، ولها ثلاث صور هي النفي والاستفهام والشرط. تضاف إليها حالة النداء. ما يجعلها في الإجمال أربعاً وثلاثين (34) صورة<sup>(1)</sup>.

فتلك إذن هي إمكانات التأليف والتركيب بين وحدات الكلام وأقسامه، وطرق التعليق والتعلق بينها، طبقاً لمعاني النحو وأحكامه المتوخاة فيما بين الكلم من علاقات حسب قانون عبد القاهر في إنشاء الكلام ونظمه. قال بعد بيان ذلك: «فهذه هي الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه، وكذلك السبيل في كل شيء كان له مدخل في صحة تعلق الكلم بعضها ببعض، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ومعنى

(1) علي أبو المكارم، مقومات الجملة العربية، من ص 70 إلى 76 بتصرف.

من معانيه (1).

## 6. التعليق والنحو عنده:

رجع الجرجاني بعد ذلك يُعزِّز رأيه في النظم . أو النحو . والتعليق، ويُبيِّن مضمونه ومحصوله، وأنه ليس إلا كما تقدّم ذكره. قال: «واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك، علمت علماً لا يعترضه الشكُّ، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يُعلّق بعضها ببعض ويُبنى بعضها على بعض، وتُجعل هذه بسبب من تلك... وإذا كان كذلك، علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمّد إلى اسم فتجعله فاعلاً لفعل (علاقة الفاعلية أو الإسناد)، أو مفعولاً (علاقة المفعولية أو التعدية)، أو تعمّد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبراً عن الآخر (علاقة الخبرية أو الإسناد)، أو تُتبع الاسم اسماً على أن يكون الثاني صفةً للأول (النعئية)، أو تأكيداً له، أو بدلاً منه (الثلاثة علاقة التبعية)، أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني حالاً (علاقة الملازمة). أو تمييزاً (علاقة التفسير أو التبيين). أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى، أن يصير نفيًا أو استفهامًا أو تمنّيًا، فتدخل عليه الحروف الموضوعية لذلك، أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطًا في الآخر. فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى (معاني الأساليب والجمل) ... وعلى هذا القياس. أي وعلى هذه الطريقة يكون القياس (2).

فالنحو «يبحثُ تأليفَ الكلام، أو تركيبَ فيما بين الكلم (3) والألفاظ، والعلاقات التي تُقيمها اللغةُ بينها (4) الناتجة عن ذلك التركيب المخصوص المقصود. وهو «بنية مجردة ذات علاقاتٍ داخليةٍ عضوية (5) و«نظامٌ تتشابهُ فيه العلاقاتُ العضوية حتى يُصبح بهذا التشابك «بنيةً» جامعةً مانعةً. وهذا النظامُ محكمٌ أشدَّ الإحكام لدرجة لا يُمكن معها أن يتطرقَ إليه شيءٌ من التناقض، إذ لو حصل ذلك لما صلح للتطبيق (6) وعليه ف«لا ينبغي تخطي الدور الذي تُؤدّيه العلاقاتُ والروابطُ داخلَ الجملة، فهي التي تجعلها عضويةً حيّةً، وهي إذن أساسُ حياتها. والنحو هو الضابطُ الدقيقُ والمنظّمُ الصحيحُ للعلاقات المعنوية بين الوحدات الدالة

(1) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 60.

(2) الإمام عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تقديم ياسين الأيوبي، ص 106.

(3) محمود فهد حجازي، مدخل إلى علم اللغة، ص 107.

(4) ينظر محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة مترجم عن الأستاذين

لانسونوماييه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دط، 1996، ج 1/ ص 336.

(5) تمام حسّان، الأصول، ص 65.

(6) تمام حسّان، الأصول، ص 62. بتصريف.

(الكلمات) أو بين الجمَلِ في الفكرة الواحدة... وهو أساسُ التفاعلِ بين مكوّناتِ الجملةِ كي تُؤدّي في النهاية المعنى المنشودَ من الكلام، ولولاه ما نشأ المعنى الدلاليُّ المفهومُ من الجملة أو الكلام، أي ما كان للكلام معنًى أو مدلولٌ<sup>(1)</sup> لأنّ اللغةَ عموماً «لا يُدرِكُ منها غرضٌ ولا يُفادُ منها معنًى إلاّ بارتباطِ كلماتها ببعضها ببعضٍ. والنحوُ يقومُ على دراسة العلاقاتِ المطرّدةِ بين شتّى أبوابه. لأنّ الغايةَ من دراسته هي فهمُ تحليلِ بناءِ الجملةِ بما يكشفُ عن أجزاءها ومكوّناتها، ويوضّحُ عناصرَ تركيبها، وتربطُ هذه العناصرَ فيما بينها، بحيثُ تُؤدّي معنًى مفيداً، ويُبيّنُ علائقَ هذا البناءِ ووسائلَ الربطِ بينها<sup>(2)</sup>».

تقدّمَ أنّ هذه العلاقاتِ التركيبيةَ أو السياقيةَ هي ما كان عبدُ القاهر يقصدهُ من مصطلحِ «التعليق»<sup>(3)</sup> فالنحوُ عنده هو التعليقُ والنظمُ<sup>(4)</sup> واستعملَ لذلك ثلاثَ كلماتٍ: المصدرين (التعليق والتعلُّق)، والفعل (يعلِّق). قال: «معلومٌ أنّ ليس النظمُ سوى تعليقِ الكَلِمِ ببعضها ببعضٍ<sup>(5)</sup>. وقال: «فهذه هي الطرقُ والوجوهُ في تعلُّقِ الكَلِمِ ببعضها ببعضٍ، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه. وكذلك السبيلُ في كلّ شيءٍ كان له مدخلٌ في صحّةِ تعلُّقِ الكَلِمِ ببعضها ببعضٍ، لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكامِ النحو ومعنًى من معانيه<sup>(6)</sup>» وقال أيضاً: «واعلم أنّك أنّك إذا رجعتَ إلى نفسك، علمتَ علماً لا يعترضه الشكُّ، أنّ لا نظمَ في الكلم ولا ترتيبَ، حتى يُعلّقَ بعضها ببعضٍ ويُبنى بعضها على بعضٍ، وتُجعلَ هذه بسببٍ من تلك<sup>(7)</sup>» «التعلُّقُ والإسنادُ يُفهمان من النحو، وعنهما تكونُ المعاني التي يريدُ المتكلِّمُ إبرازها، ويستطيعُ السامعُ إدراكها<sup>(8)</sup>» و«المعنى النحويُّ أو الوظيفيُّ في الدراساتِ الحديثةِ يعبران عن مفهومٍ واحدٍ، هو المعنى الذي تكتسبهُ الكلمةُ داخلَ السياقِ: أي المعنى الناتج من وضعِ الكلمةِ في علاقةٍ مخصوصةٍ مع سائرِ الكلماتِ في الجملة. فإذا رتبتَ الكلماتِ في تركيبٍ لغويٍّ صحيحٍ اكتسبتَ معانيَ نحويّةً تُحدِّدها طبيعةُ التركيبِ الذي تردُّ فيه<sup>(9)</sup>» والوظائفُ النحويّةُ إجمالاً هي المعاني النحويّةُ التي

(1) محمد رزق شُعير، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص 10. بتصرف.

(2) محمد رزق شُعير، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص 1. 2.

(3) تمام حسان، اللغة العربية، ص 188. ومحمد رزق شُعير، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص 19.

(4) خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، ص 33. يسمّي محمد مندور علم النحو أو التراكيب (syntax) بعلم النظم، النقد المنهجي عند العرب، ص 437. مترجم عن كتاب . علم اللسان لأنطوان مايبه.

(5) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 57.

(6) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 60.

(7) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.

(8) عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحويّة من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص 80 بتصرف.

(9) محمد رزق شُعير، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص 19. 20. وأضاف إلى ذلك مصطلحيّ المعنى الداخليّ

تُحدِّدُها الكلماتُ في الجملة. فإذا نظرنا في قولنا على سبيل المثال: (أكرمَ عليُّ خالدًا)، وجدنا العنصرين (عليُّ) و(خالدًا) مرتبطين متصلين في التركيب بالفعل المتعدي (أكرمَ) اتصالاً وثيقاً؛ إذ إنه يعودُ إليه وحده إمكانُ الجمعِ بينهما هنا، فإذا سقطتْ علاقتهُ بهما فقدًا وجودهما التركيبيَّ والدلاليَّ. فما معنى قولنا: (عليُّ خالدًا) دونَ الفعلِ الذي يربطُ بينهما؟ وفي الوقت ذاته ماذا يُفيدُ الفعلُ (أكرمَ) دونَ العنصرين الآخرين؟ غيرَ الدلالةِ على الحدثِ وزمانه مجردًا من أيِّ دلالةٍ أخرى. كما تُفهمُ العلاقةُ القائمةُ بينَ الفعلِ وبينَ العنصرِ الأوَّلِ برفعه، وهي علاقةُ الإسنادِ، وبينه وبينَ الثاني بنصبه، وهي علاقةُ التعديّة. فالمعنى النحويُّ يتوقَّفُ على هذه العلاقاتِ لا على المعاني المعجميّة المفردة لعناصر الجملة<sup>(1)</sup>.

هذا ويمكنُ لدائرة هذه العلاقاتِ النحويّة السياقيّة أن تتسع وتمتدُّ أكثر. كما يظهرُ في تمديدِ المثالِ السابقِ إلى:

(أكرمَ عليُّ خالدًا إكرامًا جيّدًا خارجَ الدارِ عصرَ الجمعةِ احترامًا له)<sup>(2)</sup>. لتحليلِ هذا التركيبِ الموسّعِ الممتدِّ أقسّمُ الكلماتِ المكوّنةَ له على شكلِ ثنائياتٍ، بينَ جزأيِّ كلّ ثنائيّةٍ منها علاقةٌ نحويّةٌ تركيبيةٌ خاصّةٌ على النحو الآتي:

-(أكرمَ، عليُّ): بينَ العنصرينِ (أكرمَ) و(عليُّ)، أي بينَ عمديّين: الفعلِ المسندِ والفاعلِ المسندِ إليه، وهي علاقةُ الإسنادِ، الممثّلةُ في الفاعليّة.

-(أكرمَ، خالدًا): بينَ الفعلِ (أكرمَ) ومفعوله المباشرِ الفضلةِ (خالدًا) أي: المفعوليّةِ المباشرةِ، (مفعول به)، وهي هنا علاقةُ التعديّة.

-(أكرمَ، إكرامًا): بينَ (أكرمَ) و(إكرامًا)، أي بينَ الفعلِ والمفعولِ المطلقِ، وهي علاقةُ التحديدِ أو التوكيدِ.

-(أكرمَ، خارجَ): بينَ (أكرمَ) والفعلِ و(خارجَ) المفعولِ فيه الدالِّ على المكانِ، وهي علاقةُ الظرفيّةِ المكانيّةِ.

-(أكرمَ، عصرَ): بينَ الفعلِ (أكرمَ) و(عصرَ) المفعولِ فيه أيضًا، ولكنّه الدالُّ على الزمانِ، وهي علاقةُ الظرفيّةِ الزمانيّةِ.

والمعنى النبويّ .. نقلاً عن جوديت جرين، التفكير واللغة، ترجمة عبد الرحيم جبر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1993، ص 169.

(1) محمد رزق شُعير، الوظائف الدلاليّة للجملة العربيّة، ص 11 بتصرف.

(2) استعمل محمد رزق شُعير و خليل عمايرة نفس التركيب لكن بدون توسيعه باستعمال ظرف المكان، ينظر الوظائف الدلاليّة للجملة العربيّة، ص 12. وفي نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدّة، م. ع. س، ط 1، 1404 هـ/1984 م، ص 99.

- (أكرم، احترامًا): بين الفعلِ (أكرم) والمفعولِ له أو لأجله (احترامًا)، وهي علاقةُ الغائيّةِ أو السببيّةِ.

وهذه علاقاتٌ كلّها مرتبطةٌ بالبؤرة المركزِ التي هي الفعلُ، يُسميها نحائنا معمولاتِ الفعلِ.

(إكرامًا، جيّدًا): بين النعتِ (جيّدًا) ومنعوتِه (إكرامًا)، وهي علاقةُ التبعيةِ.

- (عصرَ، الجمعة): أي بين المضافِ (عصرَ) والمضافِ إليه (الجمعة)، وهي علاقةُ الإضافةِ أو النسبةِ.

- (احترامًا، له): بين المصدرِ (احترامًا) ومتعلِّقه (له)، وهي علاقةُ التخصيصِ أو المفعوليّةِ غيرِ المباشرةِ بواسطةِ جسرِ حرفِ الجرِّ، وهي صورةٌ من صُورِ التعديةِ.

- (اللام، والهاء) في (له): أي بين الجارِّ والمجرور، وهي علاقةُ التلازمِ، والنسبةِ في أي.

فكما نرى نصلُّ بالتحليلِ النحويِّ لهذه الجملةِ الممتدّةِ ذاتِ الإسنادِ الواحدِ إلى إبرازِ علاقاتٍ تركيبيةٍ كثيرةٍ بلغتْ هنا عشرةً. وبإمكانِ المتكلِّمِ زيادةُ علاقاتٍ أخرى بالتوسُّعِ أكثرَ في التركيبِ، بذكرِ كلِّ المتعلِّقاتِ الممكنةِ، كأن يقولَ: (أكرمَ الرجلُ طيّبَ النفسِ ضيوفَه إلّا واحدًا خارجَ الدارِ عصرَ الجمعةِ إحسانًا منه واحترامًا لهم). فيزيدُ بذلكِ علاقةَ الملابسِ (الحالِ) بقوله: (طيّبَ النفسِ) في الثنائيّةِ (الرجل، طيّب)، وعلاقةَ الإخراجِ بالاستثناءِ في (ضيوفه، واحدًا). وعلاقةُ التبعيةِ بالعطفِ في (إحسانًا، احترامًا). وهكذا حسبَ نيّةِ المتكلِّمِ والمعاني التي يرغبُ في التعبيرِ عنها وتبليغها<sup>(1)</sup>. وعلى هذا تبدو الجملةُ أشبهَ بسلسلةٍ متّصلةٍ الحلقاتِ متماسكةٍ إذا انتزعنا منها حلقةً أو اختلَّ التماسكُ عند حلقةٍ من حلقاتها لسببٍ من الأسبابِ أصبح لدينا سلاسلُ تستقلُّ كلُّ منها عن الأخرى<sup>(2)</sup>. يقول ابن يعيش: «... أنّ الشئئين إذا تركبًا حدث لهما بالتركيب معنًى لا يكون في كلّ واحدٍ من أفراد ذلك المركّب<sup>(3)</sup>.

قائمة المصادر والمراجع:

### القرآن الكريم.

(1) للتوسُّع في هذه العلاقات ينظر تمام حسان، اللغة العربية، من ص 191 إلى ص 204 تحت عنوان . قرائن التعليق. القرائن المعنوية .. ومحمد إبراهيم عبادة، الجملة العربية مكوناتها، أنواعها، تحليلها، مكتبة الآداب، القاهرة، ط 4، 1428هـ/2007م، من ص 15 إلى 19.

(2) محمد رزق شعير، الوظائف الدلالية للجملة العربية، ص 12 بتصرف.

(3) ابن يعيش، شرح المفصل، ج 1/ص 85.

- ابن منظور، لسان العرب، طبعة دار المعارف، القاهرة.
- ابن مالك جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله الطائري الحياتي الأندلسي، شرح التسهيل، تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، د.ط. د.ت.
- ابن يعيش موقق الدين يعيش، شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية، مصر. د.ط. د.ت.
- أبو بشر عمر و بن عثمان بن قنبر سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1.
- أبو حيان الأندلسي، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، تحقيق حسن هنداوي، دار القلم، دمشق.
- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، كتاب المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عزيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ط2، 1399هـ/1979م.
- أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي، الإيضاح، تحقيق ودراسة كاظم بحر المرجان، عالم الكتب، بيروت. لبنان، ط2، 1416هـ/1996م.
- أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المفصل في علم العربية، تحقيق سعيد محمود عقيل، دار الجيل، بيروت. لبنان، ط1، 1424هـ/2003م.
- أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995م.
- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. لبنان، الطبعة الجديدة، 2007م، ص389.
- إميل بديع يعقوب، موسوعة علوم اللغة العربية، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان، ط1، 2006.
- تمام حسّان، الأصول دراسة إبستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط. 1982د.
- تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1418هـ/1998م. د.ط. د.ت.
- جلال الدين السيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد السلام محمد هارون وعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ط. 1413هـ/1992م.
- حاتم صالح الضامن، نظرية النظم تاريخ وتطور، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، 1979م. د.ط. د.ت.
- خليل أحمد عمارة، في نحو اللغة وتراكيبها، منهج وتطبيق، عالم المعرفة، جدة، م.ع. س، ط1، 1404هـ/1984م.
- درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، د.ط. د.ت.
- الرضي الاسترابادي، شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، تحقيق حسن بن محمد بن إبراهيم الحفظي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، م.ع. س، ط1، 1414هـ/1993م.
- زهران البدرابي، عالم اللغة عبد القاهر الجرجاني المفتن في العربية ونحوها، دار العلم العربي، ط1، 2009.
- عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار

- المريخ، الرياض.
- عبد العاطى غريب علّام، دراسات في البلاغة العربية، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ط1، 1997م.
- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، د.ط، د.ت.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شكله وشرح غامضه وخرّج شواهده وقدّم له ووضع فهرسه ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا . بيروت، 1424هـ/2003م.
- علي أبو المكارم، مقومات الجملة العربية، دار غريب، القاهرة، ط1، 2006م.
- محمد إبراهيم عبادة، الجملة العربية مكوّناتها، أنواعها، تحليلها، مكتبة الآداب، القاهرة، ط4، 2007م.
- محمد رزق شُعبير، الوظائف الدلالية للجملة العربية دراسة لعلاقات العمل النحوي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1428هـ/2007م.
- محمد عبد المطّلب، البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، ط1، 1994.
- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات العلوم والفنون، تقديم رفيق العجم، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت. لبنان، ط1، 1996.
- محمد مندور، النقد المنهجيّ عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللغة مترجم عن الأستاذين لانسون وماييه، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، 1996.
- محمود فهدى حجازي، مدخل إلى علم اللغة، دار قباء، القاهرة، د.ط، د.ت.



## المنظومة التربوية الجزائرية واللغة العربية

أ. صباح الجودي

الملخص:

إن النظام التربوي الجزائري مر بفترة فترات مختلفة بعد الاستقلال على يومنا هذا نتيجة التطورات الحاصلة في المجتمع، ولا بد أن تسير هذه المنظومة هذه التطورات والتغيرات الحاصلة في شتى الميادين. لكن طرق التعليم التي كانت سائدة كالتلقين والحفظ لم تساعد التلميذ على التحصيل العلمي والمعرفي وحتى على مستوى تعلم خاصة اللغة العربية التي كانت لغة التدريس. مما أدى إلى ضعف في أدائه خاصة والضعف في المستوى التعليمي بصفة عامة. لكن مع الاصلاحات الأخيرة التي باشرتها الدولة كإدخال الوسائل التعليمية الجديدة كالإعلام الآلي والانترنت ووسائل أخرى، تغيير البرامج المقررة ضف إلى ذلك إعادة النظر في الكثير من النقاط السلبية كالنظام التعليمي والحجم الساعي التي استدعت تضافر جهود الكل لغرض تطوير المنظومة التربوية الجزائرية والتي ينتظرها المجتمع.

### Abstract:

The Algerian educational system crossed by several periods after the independence to this day. Due to the change and to the development of the society in several domains. but this educational system knew several difficulties in particular in methods of teaching which not arranged student and many others difficulties which caused ; bad level in studies specially in language of teachings (arabic) and the success rates in the studies were weak. To improve things the government made many efforts in this domain which have every important as to integrate the modern means like IT and internet , also has doing big reforms as one better of educational system for that the society waits.

---

• أستاذ مساعد أ، كلية الآداب واللغات، جامعة بجاية.

\* مقدمة: لقد وجدت الجزائر نفسها غداة استرجاع السيادة الوطنية في مواجهة التخلف الاجتماعي، وأمام منظومة تربوية بعيدة كل البعد عن واقعها من حيث المبادئ والغايات والمضامين، وكان لزاما على الدولة الفتية بلورة طموحات الشعب الجزائري في التنمية وإبراز مكونات هويته وبعده الثقافي الوطني وتجسيد حقه في التربية، وهكذا وضعت المنظومة التربوية الاختيارات الأساسية التي سترسم البلاد على أساسها الصورة النموذجية للشخصية الوطنية.

أمام التطور المتسارع الذي لم يسبقه مثيل في شتى الميادين غدا من الضروري أن يتصدى النظام التربوي لها ليواكبها بل يسبقها لأن الخبراء أثبتوا بأن التربية ينبغي أن تسبق التنمية لأنها تتكفل بها بل وتخطط لها ولذا كان الاهتمام بالنظام التربوي من طرف الدول المتقدمة حاسما وفعالا من أجل تحسين مردودها ووضعها في خدمة التنمية. وعملت تلك الدراسات بعد وضع معالم النظام والمنظومة إلى رسم الخطوات التي ينبغي أن تنتهج فكانت البحوث والدراسات المنظمة والإمكانيات المختلفة لبلوغ أهدافه والشروط التي ينبغي أن تهيأ للنظام. فالمقصود بالنظام أو المنظومة التربوية هو تلك الوحدة الفنية لأنها تضم جماعات من الناس يستخدمون هذه الطرق والوسائل ويستغلون تلك الآلات والعدد والأدوات.

\*. المنظومة التربوية الجزائرية: لقد كانت المنظومة التربوية الجزائرية تعتمد في تحقيق وظيفتها التعليمية على الطرائق التقليدية العقيمة في التعليم كالحفظ والتلقين، وكان الهدف من هذه الطريقة هو الحصول على المعرفة دون النظر إلى طريقة التدريس. كما اعتمدت المنظومة التربوية الجزائرية اللغة العربية كلغة التدريس والتعليم في مختلف المستويات والأطوار.

إن اللغة العربية أداة للتعليم لا بد من إجادتها، واستعمالها بوضوح ودقة وسهولة في كل الأنشطة وليست موضوعا فقط. بينما منعت استخدام العامية خوفا من العواقب التي قد تنجر وراء ذلك كالاختلالات اللغوية لدى التلميذ التي لا يقدر المدرسون على تقويمها. فمجرد إلقاء النظر على أهداف وغايات المدرسة ومكانتها الأساسية نجدها تنحصر في تلقين التلاميذ الحقائق الواردة في الكتاب المدرسي، معتمدة في ذلك على أسلوب الحفظ دون العناية بمدى استيعاب وفهم التلميذ للمادة المقررة، كما كان اكتساب المعرفة غاية في حد ذاتها، ولا يهم إن كانت المعرفة المكتسبة ذات قيمة عملية أم لا. إن التلميذ لم يحظ بالعناية الكافية في المدرسة الأساسية وكثيرا ما كان التلميذ ذو التحصيل البطيء ويتم بالإهمال

ويعالج بطرق غير تربوية من طرف المعلم الذي يعد سيد العملية التعليمية بلا منازع إذ هو نبع يتدفق منه سيل المعرفة وان واجب تلاميذه إذا رأوا هذا النبع يتدفق أن يصغوا إليه حتى لا يفوتهم أي شيء 1.

ولما تغير مفهوم التلميذ ومفهوم عملية التعلم تبعاً لما حدث من تغيرات في المجتمع الحديث، كان من الضرورة الملحة أن تساير المدرسة هذه التغيرات وبخاصة في مجال الاكتساب اللغوي، وأن تكون أكثر ملائمة لواقع العصر ومتطلباته، إذ أنه من خصوصيات المدرسة المعاصرة التي تعترف بضرورة نشر التوعية المعرفية من أن يكون على قدر من التمكن اللغوي والاستيعاب المعرفي، وان تؤدي هذه المعرفة إلى تغيرات مرغوب فيها في سلوك المتعلم وتفكيره، كما أنها تؤمن بضرورة توافر النشاط الذاتي بجانب المتعلم.

وفي الحقيقة أن هذه المنظومة تفتقر إلى عنصر أساسي يتمثل في ذلك التفاعل بين المعلم والمتعلم والمادة التعليمية من جهة وعلاقة المتعلم بالطرق التعليمية من ناحية أخرى. إذ نسجل ذلك التنافر القائم بين طرائق التدريس والتلميذ حيث يعد هذا الأخير عنصراً ثانوياً في العملية التعليمية مما خلق صعوبات جمة. ولم تكن تلك الطريقة وثيقة الصلة بحاجات التلاميذ واهتماماتهم، وبخاصة عندما اتضح أن التلميذ يتعلم فقط عندما يشترك في عمل يفهمه وتحقق لديه الدافعية والرغبة للقيام بهذا العمل. وبالرجوع إلى المسار الزمني نجد أن تجربة المدرسة الأساسية أثبتت عجزها في الاستجابة للكثير من تطلعات المجتمع الجزائري. مما فرض على المنظومة التربوية إيجاد آليات ومناهج جديدة تستجيب لهذه التطلعات.

ولاشك أن النظام التربوي الجزائري الجديد له أبعاد وأهداف من أبرزها إعادة تأهيل وبناء المتعلم بطرق وأساليب ملائمة لتنشئته تنشئة جيدة ليكونوا مواطنين فاعلين قادرين على تأدية أدوارهم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ويستمد النظام التربوي الجديد حركيته من ضرورة التوفيق بين الحفاظ على التراث الثقافي والقيم الدينية والاجتماعية التي تميز المجتمع الجزائري لإعداد مواطنين غيورين على هويتهم وقادرين على رفع التحديات التي تفرضها العولمة.

\*. المنظومة التربوية الجزائرية واللغة العربية: إن تعليم اللغة في الجزائر كان يستمد مرجعيته من طريقة النحو، التي تعود أصولها إلى القرن الثامن عشر في أوروبا تعتمد على كتاب النحو الشامل، كما تقوم هذه الطريقة على افتراض أن اللغة نظام من القوانين يجب ملاحظته في النصوص والجمل، والربط بينه وبين

نظام اللغة الأولى للمتعلم 2. وتقوم هذه الطريقة على الحفظ والتلقين وملء عقول التلاميذ بالقواعد المعقدة، التي تميل إلى اللغة الأدبية الراقية بعيدا عن لغة التخاطب اليومي (العامية) التي تتميز بالبساطة. بدأ نجد المدرسين يركزون على تعليم المفردات ووضعها في تراكيب لغوية سليمة، كما يميلون إلى تحفيظ قوانين اللغة دون مراعاة الفهم وقدرات الطفل، والهدف من إتباع المدرسة الجزائرية هذه الطريقة المعيارية هو الحفاظ على اللغة العربية الفصحى، ومحاربة النظام الذي سلطه الاستعمار أثناء الحرب. وقد تبني النظام السائد بعد الاستقلال مباشرة: ثلاثة اختيارات أساسية فأراد أن يكون وطنيا وثوريا وعلميا 3. وبالتالي كان التعليم في الجزائر وطنيا بتعريب التعليم والتكوين كما كرست الجزائر في المحتويات التعليمية بعد الاستقلال حب الوطن كأهم وسيلة تدعو بها الشعب إلى التحلي بالروح الوطنية.

إن اللغة العربية في الجزائر فرضت نفسها كلغة أولى ولغة التعليم، وتعتبر دعامة من دعائم الشخصية الوطنية. وهي وسيلة التواصل الفكري والثقافي من خلال كونها لغة الكتب والمقالات والخطابات السياسية والرسمية. ومع العلم أنها في وقت مضى استطاعت أن تستوعب ما توصلت إليه الحضارات القديمة مع معارف في مختلف الميادين، وأن التراث الذي خلفه العلماء العرب كان باللغة العربية من مختلف الفنون. إن الهدف من تعليم اللغة العربية ليس مجرد تعلم ألفاظها وتركيبها فقط، وإنما كيفية توظيفها وطريقة التعبير بها في الخطاب اليومي، لأن اللغة وسيلة اتصال وتفاهم بين أفراد المجتمع، ولأن الأفكار والمعاني كثيرة فعلى الفرد اختيار ألفاظه وعباراته للتعبير عن هذه المعاني بالأساليب المناسبة ووفق ما يقتضيه المقام، لأن الإنسان ينفرد عن سائر المخلوقات باللغة نطقا وكتابة، لكي يحقق التواصل بين الأفراد والمجتمعات على اختلاف بيئاتهم، لهذا فاللغة هي أساس الحضارة.

فإن تعليمها في الجزائر في المرحلة الابتدائية يهدف إلى تمكين الطفل من أدوات المعرفة من خلال تزويده بالمهارات الأساسية في القراءة والكتابة والتعبير، واكتساب العادات الصحيحة والاتجاهات السليمة، لأن اللغة العربية في المرحلة الأولى من التعليم ليست مادة دراسية فحسب، بل هي الوسيلة لدراسة المواد الأخرى واستيعابها، إذ هناك ارتباط وثيق بين النجاح في تحصيل المواد المختلفة والقدرة اللغوية، ذلك لأن اللغة تؤدي الدور الأكبر في استقبال الأفكار واستيعابها، فالطالب المتقدم في اللغة العربية يفوق أقرانه في سرعة الفهم والتحصيّل لما يقرأ، ويقوده هذا إلى النجاح في دراسته بل في حياته 4، بينما تأخر الطفل الجزائري في

اكتساب مهارات اللغة العربية، وهو أساس صعوبات التعلم، وتظهر بعد ذلك صعوبات في المواد الدراسية الأخرى، لأن الطفل ليست لديه القدرة على قراءة أو كتابة نصوص من المواد الأخرى، وبالتالي لا يقدر على فهم واستيعاب معلومات المواد الأخرى كالرياضيات والتعبير والإملاء ودراسة الوسط وغيرها.

\*. ويمكن أن نلخص أهم الأهداف في تعليم اللغة العربية:

1. تنمية الثروة اللغوية للتلاميذ من تحصيل للقدرات المعرفية واللغوية المرتبطة طبعاً باللغة العربية.

2. اللغة العربية وسيلة للتفكير لأن وجودها يحدد الهوية.

3. تنمية قدرات التلميذ على القراءة والشغف بها.

4. تعود التلميذ على القدرات والمهارات كالسرعة في القراءة، الإلقاء الجيد، القراءة الصامتة والجهرية والفهم السريع. 5. تنمية ثروة التلميذ اللغوية في اللغة العربية بوتيرة سريعة.

\*. العراقيل التي تعاني منها المنظومة التربوية الجزائرية:

1. الضعف في اللغة العربية: اللغة العربية لغة سامية تتميز عن سائر اللغات بخصائص منها أنها لغة القران الكريم، مما أضفى عليها تلك الأهمية التي تتمتع بها، فهي اللغة الرسمية في بلادنا، لغة التعليم في مختلف المستويات، لكن هذا لم يمنع من وجود صعوبات في تعلمها خاصة الطفل إذ أن المحيط اللغوي الجزائري معقد، فاللغة التي يكتسبها في المحيط ليست التي يلقاها في المدرسة (يكتسب العامية في البيت ويتعلم الفصحى في المدرسة)، مما يصعب عليه التحصيل العلمي. كما يعاني الطفل الجزائري من نقص في الرصيد اللغوي في اللغة العربية، نتيجة أسباب كثيرة من بينها نقص المقرئية.

وقد أصبحت ظاهرة الضعف في اللغة العربية ظاهرة لا ينجو منها إلا القليل من التلاميذ في مراحل التعليم، لعدة أسباب منها ما يتعلق بالمتعلم نفسه ومنها ما يتعلق بالمعلم، ومنها ما يتصل بالمنهج والبرنامج، ومنها ما يتصل بالأسرة لعدم تشجيع الطفل على القراءة والمطالعة.

2. صعوبات يلقاها الطفل أثناء تعلم اللغة العربية: باعتبار أن اللغة العربية متميزة في أساليبها وأبنيئها تتسم بالبلاغة والفصاحة وقوة التأثير، كما فيها أساليب مجازية وصور أدبية تساعد القارئ على فهم النص وتفاعله مع المكتوب. كما أن فيها صعوبات قد تعترض الطفل الجزائري في نطقها وطريقة كتابتها، ومن بين هذه

الصعوبات في القراءة والإملاء والنحو والصرف، وقد يمكن أن نلخص أهم هذه الصعوبات فيما يلي:

1. عدم اكتساب التقنيات الأساسية والضرورية التي تسمح بقراءة مسترسلة ومعبّرة لنص من النصوص.

2. الصعوبة في الكناية تتمثل في عدم قدرة المتعلم على الخط الواضح، وكتابة الكلمات كتابة صحيحة وتركيب جمل تركيبا مقبولا معنى ومبنى، ونظرا لعجزه عن استخدام القواعد الإملائية والنحوية والصرفية التي درسها مع صعوبة اختيار المفردات لتوظيفها في كتاباته. لقد أكد عليتعوينات في دراسته حول صعوبة تعلم اللغة العربية لدى تلاميذ الطور الثاني من التعليم الأساسي 5، أن اللغة العربية الفصحى لا تستعمل إلا في الإدارة وفي المواقف التعليمية الرسمية ووسائل الإعلام المختلفة، لأن المنظومة التربوية الجزائرية لا تسمح باستخدام العامية أثناء تدريس اللغة العربية، وفي مختلف مستويات التعليم وأطواره، لكن ذلك لم يمنع بعض المعلمين والأساتذة من استعمال العامية في حجرة الدرس وأثناء شرح الدروس، وهذا مخالف للقوانين المعمول بها والتي تنص عليها وزارة التربية الوطنية. هذه الصعوبات التي يواجهها التلميذ الصغير خاصة ويتجاوزها نسبة كبيرة من الأطفال بعد مدة من مزاوله الدراسة، بينما تبقى نسبة قليلة ترسخ فيها هذه الصعوبات إلى حين تلقيها تربية علاجية 6، وقد قام بعض من الباحثين في الدول العربية بإجراء دراسات وتجارب علمية لتبسيط صعوبات اللغة العربية، وجعلها سهلة وبسيطة على التلاميذ حتى يتخطوها بسلام. إلا أن هذه الدراسات في مجال صعوبات تعلم اللغة العربية تبقى قليلة بالمقارنة بالدراسات التي قام بها الباحثون وعلماء اللغة في الدول الغربية، ومن حيث إجراء دراسات وتجارب علمية كثيرة عديدة قصد تبسيط لغة التعليم وجعلها سهلة ميسورة على التلاميذ، هذه الصعوبات التي تتمثل عادة في القراءة والكتابة وقواعد وإملاء.

3. إن هذه الصعوبات التي تواجه التلميذ في تعلم اللغة العربية، تقف عائقا في نموه اللغوي والمعرفي والنفسية نتيجة تأثير المحيط اللغوي، إذ كثيرا ما تتداخل العامية في استعماله اللغة الفصحى، ويظهر ما يسمى بالاستراتيجيات والمنهجيات الموجودة لا تعكس الواقع اللغوي الجزائري، وذلك يؤدي بالضرورة إلى تعميق المشكلات في وسط المتعلمين الصغار، واللغة الأم تتدخل بشكل كبير في تعلم اللغة الثانية: لغة الأم في عقل التلميذ بصمات لا تمحى، ولهذا يتحتم على كل مدرس لغة الثانية، أن يعطي هذه البصمات كل ما تستحقه من عناية وأن يسأل عن

النقاط المشتركة بين اللغة الأولى والثانية، وكيف تحل اللغة الأم للتلميذ هذا المشكل الفونولوجي والصرفي والنحوي 7. ففي الجزائر بلد التعددية اللغوية من اللغة العربية واللغة الأمازيغية، يجد الطفل نفسه أمام لغة أخرى في المدرسة والتي تعتبر لغة ثانية بالنسبة له بعد لغته الأصلية أو اللغة الأم، فالكلام الذي يصدره التلميذ الجزائري بعد مرحلة معينة، ولهذا ألح الكثير من اللسانيين والتربويين على أن يهتم معلمو وأساتذة اللغة العربية بدراسة أخطاء التلاميذ الشفهية والكتابية، هذا ما يفسر مدى تأثير المحيط اللساني الذي يتم فيه تعليم اللغة الهدف.

لقد حاولت العديد من المدارس اللغوية من المدرسة البنيوية إلى المدرسة التوليديّة دراسة ظاهرة تأثير اللغة الأم في المتعلم، إذ اقترحت حلولاً مختلفة باختلاف اتجاهاتها، حيث نادى الاتجاه البنيوي بضرورة عزل اللغة الأم عن اللغة الثانية لأنها تعرقل تعلمها بيد أن المدرسة التوليديّة تصر على الاعتماد على اللغة الأم في تعلم اللغة الثانية.

3. ضعف المستوى في النظام التربوي: لا شكّ في أنّ ضعف المستوى ملاحظ في وقتنا الحالي، وتعلق أسبابه على المدرسة الأساسية في إطار الإصلاحات المنتهجة في ظل غياب المعطيات الدالة على ذلك، يبقى أن نقول هل المعطيات العلمية والمادية التي يجب أن تقدم لهذه المدرسة كانت كافية مثل الإطار الكفاء، والإمكانات:

1. الإطار الكفاء (المعلم) موجود ولكنه يحتاج دائماً إلى تربيص وإلى إطلاع على المستجدات العصرية كما أنّ هذا الإطار يحتاج إلى الإمكانيات المادية والتي بواسطتها يستطيع أن يقوم بواجباته التربوية أمام النقص في بعض الأشياء، إذ كيف يستطيع أن يبلغ المردود اللازم أمام عدد من التلاميذ يفوق الأربعين.

2. غياب الدراسات المتعلقة بالنمو الديمغرافي والتطور العمراني، بما فيها الهياكل المدرسية، والحجم المرهق، وحرية المبادرة المنعدمة لدى المدرس نظراً للمحاور التي يجب الالتزام بها، وكثافة البرامج دون الحديث عن الظروف الصعبة التي يعيشها المعلم، وخاصة في الريف، وهي من العوامل التي لا تساعده على تأدية واجباته أو تعيقه.

3. ولا ننسى أنّ المدرسة الأساسية مهما كانت محاسنها فهي لا تحمل الكمال في أهدافها وبرامجها، وتحتاج إلى تكييف دائم مع المعطيات الراهنة.

4. إنّ ما تهدف إليه العملية التربوية في مختلف المراحل هو مواجهة مشكلات وتطلعات المجتمع كما أنّه حان الوقت أن نستهدف النوع لا الكم. ويصاحب هذه النقطة قضية المتابعة ومواصلة التحديث في المنظومة التربوية.

كذلك عدم استشارة أهل الاختصاص اعني المعلمين في أي إصلاح أو تغيير في البرامج 8.

4 . عدم الاكتراث لأهمية المطالعة في التحصيل اللغوي والمعرفي : إن الطفل المدرسي يثري ذخيرته اللغوية في اللغة العربية بواسطة الكتب الموجهة للأطفال أو الكتاب الموازي، كالاطلاع على الأناشيد والمحفوظات، وكلما زادت وتيرة المطالعة عنده ازداد تحصيله اللغوي والمعرفي. أكدت الدراسات والأبحاث على أهمية المطالعة في حياة الطفل وليس الأمر مقتصرًا فقط على الصغار بل حتى على الكبار، ولأن التعلم يستوجب القراءة والمطالعة والكتاب، كما يستوجب على المعلمين حسن التعامل مع التلاميذ علميا وتربويا لكي لا تغرس في نفوسهم الخوف في المدرسة، هذا فضلا على إتباع الطريقة التقليدية في التعليم والتي تجعل الطفل مستقبلا فقط وليس مساهما فيها. زد إلى ذلك غياب شبه كلي للأنشطة الثقافية والثقافية مثل الرحلات، المسرحيات، الحفلات، والمسابقات الثقافية والترفيهية والرياضية التي يتفاعل معها التلميذ، إذ تجعله يعيش أجواء أخرى، ما يساهم بقسط كبير في تحسن المستوى التعليمي للطفل الجزائري.

إن الوقت المخصص لنشاط المطالعة قليل فلا يتعدى ساعة في الأسبوع، وهو وقت غير كاف بالمقارنة مع الأهداف المسطرة والمرجو تحقيقها بهذا النشاط التعليمي وطبيعة النصوص المقترحة له، والتي تتطلب حجما ساعيا أكبر من الذي خصص لها حتى تتم قراءتها وفهمها واستيعابها. كما تؤكد ذلك التوجيهات التربوية هذه الأخيرة انتهت إلى هذا العائق إذ ليس من الضروري أن تكون متنوعة وشاملة لكل جوانب الموضوع، ولكنها لم تول اهتماما لقراءة التلميذ داخل القسم وإنما ركزت على قراءة التلميذ خارج القسم. إن النصوص المقررة في نشاط المطالعة وإن استوفت الشروط التعليمية إلا أنها افتقرت إلى شروط أخرى تتعلق بالفهم المساهم في ترسيخ المعارف، ضف إلى ذلك عوائق أخرى ساهمت في عزوف المتعلم عن القراءة، وبذلك فقد المتعلم نشاطا يمارس فيه اللغة نتيجة عدم توفير هذا النشاط عوامل نجاحه حتى يكون وسيلة لتوظيف علوم اللغة وقواعدها. فإذا كان اللسانيون يولون اهتماما لعلاقة التأثير والتأثر بين النص والقارئ، فإن نصوص المطالعة عندنا فقدت حتى عوامل استيعابها.

5 . تدهور أداء المدرسة الأساسية رغم كونها الركيزة الأساسية في ميدان التعلم: إن المدرسة هامة في حياة الفرد والمجتمع، وأن المجتمعات تطورت يوم اهتمت بالمدرسة وتربية النشء، فالمدرسة هي المنزل الثاني الذي يتعلم فيه الطفل



ما يقوده إلى النجاح في حياته العامة والخاصة، ويتمكن الطفل من خلال المدرسة تعلم اللغة الرسمية والوطنية. وإن الصعوبات التي يجدها في تعلمها لا بد أن تكون محل اهتمام المدرسة التي تسعى لمساعدة التلميذ على تخطيها. ليكون الطفل مؤهلاً لغويًا وعلميًا، ولأن يكون فردًا صالحًا في الأسرة والمجتمع. فإن المدرسة هي المكان الأنسب للتعلم، وبواسطة هياكلها يمكن أن تصل إلى هذه الغاية المتمثلة في تنمية الملكات اللغوية والقدرات الذهنية للطفل، وكذلك من خلال تفعيل دور هياكلها التربوية التي تساهم في تنمية مهارة القراءة والمطالعة ما يساعده في تطوير لغته وإثراء رصيده المعرفي. لكن وضعيتها اليوم لا يحسد عليها لأنها محل إهمال ونسيان.

فإن ضعف إمكانات المدرسة الأساسية، فإنه بقدر ما يرجع إلى صيرورة الفعل التربوي. والحقيقة أنّ عدم فعالية التوجيه التربوي له دور كبير في هذه المسألة، ويحتاج إلى معالجة حاسمة كماً وكيفاً، بل إن الأمر يجب أن يطرح في هذه النقطة من زاوية إيجاد المسارب الأخرى للمدارس. كما كان من الضروري أن يعدّ التلميذ إعداداً مهنيًا يتماشى مع الحاجات القائمة والمنتظرة للمجتمع الجزائري، وكذلك إكسابه المعلومات والمهارات والخبرات العلمية التي تؤهله لمستوى أحسن، ومما يجعل منه مواطنًا نافعاً قادراً على التطور بمستواه والنمو بمهارته.

\*خاتمة: إن المنظومة التربوية الجزائرية عرفت إصلاحات كثيرة خاصة تلك المتعلقة بالبرامج، محاولة في ذلك إيجاد أليات جديدة، تتماشى مع البيئة وما يحيط بالتلميذ، وكذلك مع تطور الزمن وما وصل إليه العلم الحديث، لكن رغم ذلك تعاني المنظومة التربوية من مشاكل كثيرة ومتعددة، مما ولد بعض الاضطراب في هذا القطاع التربوي الذي يعد أهم القطاعات في الجزائر سواء من حيث عدد المنتسبين إليه أو من حيث الميزانية المخصصة له. لكن متى تضافرت جهود المسؤولين والمنتسبين إلى القطاع يمكن تجاوز هذه العراقيل وكذا المضي قدما نحو الأمام. وبالتالي الارتقاء بالمنظومة التربوية الجزائرية إلى مصاف المنظومات التربوية المتطورة.

\*توصيات:

- . ضرورة الاهتمام بالنظام التربوي أكثر من خلال توفير ظروف عمل مريحة للمعلم وكذلك ظروف مناسبة للتحصيل العلمي بالنسبة للتلميذ .
- . ضرورة استشارة المعلم في كل إصلاح تربوي وخاصة تلك المتعلقة بالبرامج.
- . إعادة الاعتبار للمدرسة كونها الركيزة الأساسية في التعليم.

-الاهتمام النشاطات المدرسية الثقافية والترفيهية التي تبعد المتعلم من الارهاق نتيجة تكثيف في الدروس.  
 -إعطاء أهمية أكثر للمكتبة المدرسية كونها مكملة للعملية التربوية وإخراجها من الوضعية المؤسفة التي تعاني منها.  
 -الاستفادة ممن المنظومات التربوية المتطورة، وكذلك توظيف ما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثة من وسائل متطورة جدا كالانترنت مثلا ما يساعد كثيرا على التحصيل العلمي والمعرفي.

## \*الهوامش:

1. فكري حسان زيان، التدريس، عالم الكتاب، القاهرة، ط 1، 1999، ص 129.
2. محمود فتوح، في علم اللغة التطبيقي، ط 1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1989، ص 10.
3. وزارة التربية والتعليم الأساسي، مجلة التربية، في سبيل إعلاء المدرسة الجزائرية، الجزائر، 1982، ع 3، ص 97.
4. حسن شحاتة، قراءات الأطفال، الدار المصرية اللبنانية، ط 3، 2000، ص 59.
5. عليتعوينات، صعوبات تعلم اللغة العربية المكتوبة في الطور الثالث من التعليم الأساسي، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 13.
6. المرجع نفسه، ص 27.
7. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الخطة القومية للترجمة. تونس 1985.
8. مقال صالح بلعيد، «قرار تعميم اللغة العربية وتعميمها، رأي في التجربة الجزائرية، مجلة اللسان العربي، الموقع الإلكتروني، [www.google.fr](http://www.google.fr)

## الثنائية اللغوية وإشكالية تعليم وتعلّم اللغة العربية

### زاهية لونس

ظهرت في الآونة الأخيرة دراسات لسانية اجتماعية، استغلّتها الغرب في ميدان تعليم وتعلّم اللغات، ومن المهمّ جدًّا بالنسبة لنا أيضًا، استغلال مثل هذه الدراسات لاهتمامها بقضايا حساسة خاصة باللغة من شأنها أن تخدم تعليم وتعلّم اللغة العربية، ومن مواضعها: الواقع اللغوي من ازدواجية لغوية، تعدّد اللغوي وثنائية اللغوية...ولهذا فالبحث في اللغة العربية يقتضي « البحث في اللهجات العامية، والعكس بالعكس، كما أنّ تصنيف اللغة العربية باعتبارها لغة بيئية يقتضي ممّن يبحث في تعليمها وتعلّمها الانتباه إلى قوّة العلاقات بينها وبين اللهجات العامية، سواء بالتّقلّ الإيجابي للقدر، أو بالتداخل المنتج للأخطاء<sup>(1)</sup>. ومثل هذه الظواهر اللغوية يجب أن ينطلق تفسيرها من أسس لسانية، ولسانية نفسية، سوسيوثقافية وبيداغوجية واضحة يمكن ملاحظتها، ومن تشخيص عام وشامل، لأنّ ما هو ملحوظ من ظواهر لغوية كالأخطاء والتداخلات يمكن أن يحجب وراءه متوالية لعدد من الأسباب غير الواضحة<sup>(2)</sup>.

فمن أجل دراسة وبحث مشكلات تعليم اللغة العربية وغيرها من اللغات، لا بدّ أن ننطلق من الواقع المحسوس بوصفه الوصف الصحيح اعتمادا على آخر ما توصّلت إليه مختلف العلوم المهتمّة باللغة من زاوية ما دون نسيان النتائج التي توصّلت إليها اللسانيات وعلم التربية والاستفادة منها بعيدا عن النظرة السطحية، ومن أجل تجاوز الهوة الحاصلة بين اللغة العربية الفصحى والعامية على مستوى التحصيل البيداغوجي، توصّلت علماء التربية إلى أنّ المسلك الطبيعي لسدّ هذا الفراغ يكمن في «محاولة معرفة طبيعة لغة المنشأ التي يستعملها الطفل بعفوية والانطلاق منها بالتدرّج حتى لا يحسّ المتعلّم بأيّ تباعد بين لغته التلقائية ولغة المدرسة الجديدة<sup>(3)</sup> هذا فيما يخصّ الطفل العربي عموما، أي المناطق بإحدى العاميات لغة أمّ، والطفل الجزائري خصوصا، وإذا كان الهدف من الاهتمام باللغة

• أستاذة مساعدة أ، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة.

(1) المصطفى بنان، التلقي اللغوي: قراءة لسانية تطبيقية في أخطاء تلاميذ السلك الأول الأساسي، دكتوراه، جامعة الحسن الثاني، 2003/2002، المغرب: ص 124/123.

(2) مصطفى بن عبد الله بوشوك، تعليم وتعلّم اللغة العربية وثقافتها، ط2، المملكة المغربية: 1994، الهلال العربية للطباعة والنشر، ص 152.

(3) عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة العربية (البحث في الأصول)، الرباط: 1998، مكتبة النجاح الجديدة، ص 121.

العربية هو جعلها لغة عصرية متفتحة على جميع الابتكارات وقادرة على استيعاب مفاهيم مختلف العلوم في إطار العولمة «فإنه يجب على المعلمين في مرحلة التعليم الابتدائي، وفي بداية تعلم اللغة العربية، أن يضعوا في الحسبان المكتسبات اللغوية القبلية للتلاميذ حتى يتم انتقالهم من لغات الأم (العامية العربية والمتغيرات الأمازيغية) إلى التعليم بشكل ميسور<sup>(1)</sup> إذ عليهم تحضير التلاميذ مسبقاً من خلال تخصيص فترات تمهيدية نشيطة بغرض إعداد المتعلمين لمرحلة التعلّمات الأساسية، وثمين رصيدهم اللغوي والمفاهيم التي يستند إليها تعلم القراءة بوجه خاص، وهذا يكون في فترة الأسابيع الأولى من بداية التعليم والتعلم حيث يضع المتعلم المبتدئ صوره الذهنية بنفسه وينطلق معه المعلم في عملية التعلم حين يتأكد من أنه بلغ تلك الدرجة، وأنه قادر على الإجهاز بما يكفّه في نفسه من الصور، فلا بدّ من التأكيد على ضرورة تعلم اللغة الشفوية من أجل تعلم اللغة المكتوبة، والولوج في عالم الكتابة.

إنّه من الضروري إنجاز البحوث الميدانية للإحاطة بالواقع اللساني الاجتماعي فهمي مما يساعدنا على تغيير الوضع التعليمي للغة العربية، إذ على أساس هذه البحوث وعلى منوالها «ينكشف أولاً: الوضع الحقيقي للغة العربية في جميع المستويات وفي جميع البلدان العربية ونحصل بذلك على المعطيات الموضوعية التي لا تشوبها الأحكام الذاتية، ثمّ أن نتمكّن بشقّي أنواع التحليل الاستقرائي والإحصائي، وغيرهما من معرفة العلاقات القائمة بين الظواهر المكتشفة والأسباب الحقيقية التي أحدثتها، ونتمكّن بالتالي على إيجاد الحلول العلمية المناسبة<sup>(2)</sup> فمن الأحسن أن لا ننظر إلى المشاكل اللغوية بشكل منفصل عن العالم الخارجي أو قاعة الدراسة «كما يجب أن لا تنفصل هذه المشكلات عن السياق السياسي والثقافي والاجتماعي الذي يحدث فيه تعلم اللغة<sup>(3)</sup> إذا لا بدّ من «طرق موضوع الواقع اللغوي العربي<sup>(4)</sup> كما تساءل الحاج صالح عن السبب الذي جعل العلماء ينزويون عن هذا الواقع، متناكرين له أشدّ التناكر وأضاف قائلاً:

(1) مديرية التعليم الأساسي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، مناهج السنة الأولى من التعليم الابتدائي، الجزائر: 2003، ص5.

(2) عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، موفم للنشر، الجزائر: 2007، ص159.

(3) ماكار ميشيل، الخطاب اللغوي واكتساب اللغة في علم اللغة التطبيقي، تر: المركز الثقافي للتعريب والترجمة، دط، القاهرة: 2009، دار الكتاب الحديث، ص36.

(4) عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، الجزء الأول، ص114.

«علينا إذا أن ننظر إلى هذا الواقع اللغوي نظرة شاملة<sup>(1)</sup> ومما يمكن أن يتبين لنا من هذا الواقع هو أنّ اللغة لا يتمّ نموّها إلاّ بنموّ الشعب الناطق بها في مختلف الميادين الاقتصادية وبالتالي الثقافية.

1. الثنائية اللغوية **Diglossie**: أوّل ملاحظة يمكن ذكرها عن أحوال اللغة العربية في العالم العربي عامة والجزائري خاصة هو تعدّد اللهجات العامية وشيوعها عند أفراد هذه المجتمعات، إذ يستعملونها في الحياة اليومية في البيت والشارع، في المؤسسات والأسواق، بل حتّى في بعض أجهزة الإعلام، وقد انتشرت العاميات لأسباب تاريخية وجغرافية<sup>(2)</sup>، كما أنّ حضورها إلى جانب اللغة العربية الفصحى هو ما يُسمّى الثنائية اللغوية» والذي هو من بين المفردات الأكثر انتشاراً في اللسانيات الاجتماعية وهو ترجمة للمصطلح الانجليزي «Diglossia» ويعتقد أنّ أوّل من تحدّث عن هذه الظاهرة هو اللغوي الألماني كارل كرمباخر Krumbacher في كتاب له صدر عام 1902. Dasproblem der modern griechischenschriftspradie

إذ تطرّق في هذا الكتاب إلى طبيعة ظاهرة الثنائية اللغوية وأصولها وتطورها فأشار بشكل خاص إلى اللغتين اليونانية والعربية.

أمّا الرأي العام الشائع في أدب هذه الظاهرة اللغوية هو أنّ العالم الفرنسي وليم مارسيه «William Marçais 1930 هو أوّل من نحت المصطلح بالفرنسية La diglossie وعرفه في مقالة تخصّ الثنائية في العربية وذلك في عام 1930 بقوله: «هي التنافس بين لغة أدبية مكتوبة ولغة عامية شائعة للحدث<sup>(3)</sup> كما أنّ هذا المصطلح لم يدخل في المعجم العالمي إلاّ في سنة 1958 من طرف شارل فرقسون.

1. 1. تعريف الثنائية اللغوية: ثمة اختلاف بين المترجمين العرب والمعاجم اللسانية العربية في ترجمتها لمصطلح «Diglossie»، فمنهم من ترجمه بالثنائية اللغوية، مثل معجم اللسانيات «الصادر عن مكتب تنسيق التعريب» و قاموس اللسانيات «لعبد السلام المسدي، كما تُرجم بالأزدواجية اللغوية» من طرف محمد علي الحولي «في معجم علم اللغة النظري» وبسام بركة في معجم اللسانيات» وكذلك

(1) نفسه، ص 114.

(2) الطاهر لوصيف، منهجية تعليم اللغة وتعلّمها، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر: 1996، قسم اللغة العربية وأدابها، ص 41/70.

(3) محمد راجي زغلول، دراسات في اللسانيات الاجتماعية العربية، دط، الأردن: 2005، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية، ص 7.

مجموعة من اللغويين في معجم مصطلحات علم اللغة الحديث . ونحن نأخذ بالترجمة الأولى.

وفي عام 1958، قدّم شارل فرقسون هذا المصطلح إلى الإنجليزية في مقالة تُعدّ من أشهر ما كتب عن الثنائية اللغوية، إذ بحث أربع حالات لغوية تتميز بهذه الظاهرة وهي: العربية اليونانية الألمانية السويدية واللغة المهجّنة في هايتي، ويعرّف فرقسون هذه الظاهرة بـ«حالة لغوية ثابتة نسبياً، يوجد فيها فضلاً عن اللهجات الأساسية (التي ربّما تضمّ نمطاً أو أنماطاً مختلفة باختلاف الأقاليم) نمط آخر في اللغة مختلف، عالي التصنيف (وفي غالب الأحيان أكثر تعقيداً من الناحية النحوية) فوق المكانة، وهو آلة لكمية كبيرة ومحترمة من الأدب المكتوب لعصور خلت، أو لجماعة سالفة، ويتعلّم الناس هذا النمط بطرق التعليم الرسمية، ويستعمل لمعظم الأغراض الكتابية والمحادثات الرسمية، ولكنّه لا يستعمل من قبل أيّ قطاع من قطاعات الجماعة المحلية للمخاطبة أو المحادثة العادية<sup>1</sup>. أمّا قاليسون وكوست R. Gallisson و Coste، فيعرّفان الثنائية اللغوية كما يلي: «هي تلك الحال التي يستعمل فيها فرد أو جماعة من المتكلمين مستويين من التعبير ينتميان كلاهما إلى لغة واحدة<sup>(2)</sup>، فالثنائية اللغوية إذن هي تعايش تنوعين لغويين في صلب الجماعة الواحدة، ويسمّى المستوى الرفيع منها بـ«Highvariety» أمّا المستوى الوضع فيسمّى بـ«Lowvariety»، وقد بنى فرقسون تصوّره هذا بعد إعمال النظر في بعض الأوضاع اللغوية في بعض البلدان، كالبلدان العربية التي تتعايش فيها العربية العامية مع العربية الفصحى، أمّا في اليونان فتتعايش اللغة الإغريقية العامية Demotiki والإغريقية الصافية Katharessova<sup>3</sup>، فيستعمل مصطلح الثنائية اللغوية من أجل وصف وضعيات لسانية وظواهر الاحتكاك اللغوي، وكذا في انعكاساته على التخطيط اللغوي وقد يكون مهماً في وجهة نظر تعليمية اللغات، وكذا لدراسة الآداب، ويجب التذكير بأنّ هذا المصطلح يستخدم لوصف وضعية تعايش نظامين لغويين ينحدران من أصل واحد<sup>4</sup>. وقد دعا فرقسون في ختام مقالته المختصين إلى دراسة هذه الظاهرة بشكل أوسع وهو ما قد تمّ بالفعل، إذ تمكّن هدسون Hudsson (1992) من حصر ما

(1) نفسه، ص 7.

(2) R. Gallisson & D. Coste، Dictionnaire de didactique des langues، Paris : 1976، Hachette، p153/154.

(3) محمد يحياتن، التعددية اللسانية من خلال الأبحاث اللسانية الاجتماعية الحديثة، مجلة اللسانيات، العدد 11 (2006)، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، ص 73.

(4) Marie Louise Moreau، Sociolinguistique، les concepts de base، Liège: 1979، Mardaga، p125.

مجموعه 1092 مادة علمية منشورة عن الثنائية اللغوية جُلّها في الانجليزية، وأكثر من نصف هذه المواد العلمية تمّ نشره في العشر سنوات من 1983. 1992<sup>1</sup>. أمّا عن أهمّ الدارسين للثنائية اللغوية بعد فرقسون فهم:

ديل هايمز Dell Hymes.

جمبرزز Gempers.

فيتشمان Fishman.

### 2.1. توزيع الوظائف في الثنائية اللغوية:

لقد أشار اللسانيون الاجتماعيون إلى ما يُسمّى بالمجالات (domains) وأحد هذه المجالات مثلاً، هو البيت، فالعربية العامية تستعمل مثلاً في البيت «ومجال البيت لا يعني المكان الذي تحدث فيه المحادثة، بل يشمل أيضاً المشاركين فيها، وموضوع الحديث وأية عوامل هامة أخرى<sup>2</sup> إذن العامية هي لغة البيت، أي تستعمل على الدوام للتخاطب بشكل غير رسمي مع أفراد العائلة الآخرين داخل البيت حول أمور عائلية، كما أنّ استعمالها كوسيلة للتعليم «لن تكون مقبولة لدى الغالبية العظمى للمجتمعات باستثناء استعمالها في بعض الأحيان في المشافهة في المدارس الابتدائية فقط وعلى نطاق ضيق جداً<sup>3</sup> أمّا الفصحى فهي لغة المواقف الرسمية ولغة أدبية فصيحة وفي بعض الأحيان يصحّ لنا تسميتها باللغة القديمة classical أو تقرب منها.

والجدول التالي أسّسه فرقسون (1959. 1972) ورومان Romaine (1989). رمز للمستوى الرفيع بـ(H) والمستوى الوضع بـ(L) نسبة إلى الحرف الأول من الكلمتين الانجليزيّتين (low&hight) ويبين هذا الجدول مجالات استعمال كلّ من المستوى الأعلى والمستوى الأدنى.

(1) محمّد راجي زغلول، دراسات في اللسانيات الاجتماعية العربية، ص11.

(2) جون ليونز، اللغة واللغويات، تر: محمّد إسحاق العناني، ط1، عمان: 2009، دار جديد للنشر والتوزيع، ص162.

(3) نفسه، ص269.

المستوى الرفيع (H)	المستوى الوضع (L)	الموقف الاجتماعي
X		1. الصلاة
	X	2. إصدار التعليمات للخدم والعمال والكتابة
	X	3. بعض الخطابات الشخصية
	X	4. للمحادثة في البرلمان والخطب السياسية
	X	5. المحاضرات الجامعية
	X	6. الحوار مع الأسرة والأصدقاء والأقران
	X	7. القصص والصحف وعناوين الصور
	X	8. التعليق على الكاريكاتير السياسي
	X	9. الشعر والأدب والقصص
	X	10. الأدب الشعبي

ولكل من المستوى الرفيع والمستوى الوضع مميزات ووظائف كما هي واضحة في الجدول فالمستوى الأول يُكتسب في ظروف طبيعية، وهو ما يطلق عليه اسم (لغة الأم) ويستعمل في محيط الأسرة والأصدقاء، وثمة اليوم أصناف عامية عربية في الجزائر «تنتهي إلى الفضاء المغربي الذي يتميز - كفضاء لغوي - بتداخل أشكال من الأداء الذي يسود في البلدان المغاربية (تونس، المغرب، ليبيا، الصحراء الغربية وموريتانيا) <sup>1</sup>. أمّا المستوى الثاني فهو يكتسب عن طريق نظام التعليم ويستعمل غالباً في مستوى الكتابة أو في المواقف الخطابية الرسمية، ويكون موازياً للأول... لكنّه مختلف عنه، بحيث يكون أكثر تعقيداً على المستوى النحوي ويكون حاملاً لأدب واسع، رفيع ومكتوب... وبالنسبة للمستوى الرفيع في اللغة العربية فأصبح يكتسب بالتلقين والتعليم <sup>2</sup>. فالفرق إذن بين المستوى الفصيح والمستوى العامي في كثير من المجتمعات قد أصبح فارقاً واضحاً بيننا بحيث أنّ التفريق بينهما من الناحية الوظيفية سواء أكانت هذه لهجات للغة واحدة أم غير ذلك، ولهذا يمكن تمييز الأوضاع القائمة على الثنائية اللغوية ببعض السمات من بينها:

أ. التوزيع الوظيفي: فالتنوع الرفيع يستخدم في المسجد والآداب والخطب الرسمية والجامعة والمدرسة... إلخ، في حين يستخدم التنوع الوضع في الأحاديث العادية اليومية والأدب الشعبي... إلخ.

ب. يحظى التنوع الرفيع بصيت اجتماعي على عكس التنوع الوضع الذي هو موضع استهجان.

ج. يسخر التنوع الرفيع لإنتاج معترف به ومحط إعجاب.

(<sup>1</sup>) Khaoula Taleb Ibrahim, Les algériens et leur(s) langue(s), 2eme édition, Alger : 1997, EP Hikma ; p26/27.

(<sup>2</sup>) فطومة سويبي، مقارنة تحليلية بين لغة التحرير ولغة التخاطب بالفصحى، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر: 1988، معهد العلوم اللسانية والصوتية، ص4.



د. التنوع الوضيع يكتسب بشكل طبيعي، إذ هو اللغة الأولى التي يكتسبها الناطقون، في حين أن التنوع الرفيع لا يكتسب إلا في المدرسة. هـ. يرى فرقسون بأن هذه الحالة اللغوية تمتاز بالاستقرار. و. يتّصف التنوع الرفيع بكونه معقداً (خاضع لقواعد ونظام كتابة) على خلاف التنوع الوضيع<sup>1</sup>.

3.1. اللغة العربية والثنائية اللغوية: نشير هنا إلى أنه لا توجد لغة على هيئة واحدة أو على نمط واحد أو على مستوى واحد «وإنما هناك تنوع لغوي وفق معايير علمية خاصة<sup>2</sup>، وتعتبر اللسانيات الاجتماعية العلم القائم بدراسته، وتوجد في معظم اللغات فصيحة معاصرة» وفصيحة تراثية» واللغة العربية ليست بدعا في شيء من ذلك<sup>3</sup> بل هي لغة طبيعية يجري عليها ما يجري على كل اللغات الطبيعية، ولست اللغة العربية الوحيدة التي فيها هذان المستويان (الأعلى والأدنى) فلا بد أن ننبه إلى أنه «لا توجد في الدنيا لغة واحدة إلا وفيها هذان المستويان من التعبير<sup>4</sup> فالثنائية اللغوية ظاهرة في مختلف لغات العالم التي تتنوع وتتفرع إلى لهجات.

وفيما يخصّ أوجه التباين بين اللغة العربية وعامياتها، فتختلف نسبتها من عامية بلد إلى عامية بلد آخر، أما عن حالها في الجزائر، فتتمثل في اختلافها (العامية والفصحى) على مستوى نطق بعض الأصوات، أما بالنسبة للمستوى المعجمي، فإنّ الكثير من الكلمات العامية الفصيحة، وإن كان الجزائري لا يستعملها في حديثه اليومي وفي كتاباته بالفصحى، وقد يكون السبب كما ذكرته أمّنة إبراهيم هو أنّ «المدرسة لم تقدّم له الضمانة بأنّ هذه الكلمات فصيحة، إذ ليس هناك منهجية تعليمية تشجّع المتعلّم على استغلال معجمه الفصيح الذي يوجد في عاميته<sup>5</sup> ولكن النظرة الدقيقة إلى العاميات العربية في العصر الحالي، وفي مختلف البلدان العربية يتفاجأ بالفجوة بين الفصحى وبين اللهجات، ويعود ذلك لأسباب تاريخية مختلفة (كالاستعمار...) وإلى أسباب اجتماعية

(1) محمد يحياتن، التعددية اللسانية من خلال الأبحاث اللسانية الاجتماعية الحديثة، ص 73.

(2) عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، دط، القاهرة: 1996، دار المعرفة الجامعية، ص 32.

(3) نفسه، ص 43/42.

(4) عبد الرحمان الحاج صالح، الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي، مجلة اللغة العربية، عدد خاص بالمنظومة التربوية، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر: 2000، ص 114.

(5) أمّنة إبراهيم، وضع اللغة العربية في المغرب، وصف رصد وتخطيط، ط 1، الرباط: 2007، منشورات زاوية مطبعة الأمنية، ص 98/97.

واقْتصادية» حتى أصبحتا وكأتهما لغتان مختلفتان في أعين كثير من الباحثين<sup>1</sup> ولعلّ المستوى المعجمي من العامية لخير دليل على ذلك، والذي أصبح مزيجاً من اللغات الأجنبية، وأثار لغات المستعمر من إسبانية وتركية....

**2. تعليم اللغة العربية وتعلّمها:** لقد عمد اللسانيون إلى تقسيم اللغات إلى لغات أول ولغات ثوان، وذلك أنّ اللغة الأولى تكتسب دون تلقين ونقصد بها لغة الأم\*، فلا نحتاج إلى التمدريس وتوجيهات معلّم ملقّن، في حين تعتمد اللغة الثانية أساساً على التلقين والتعليم المنظم، ومن هذا المنطلق وضعت طرائق لتعليم اللغات ولكي يكون التعليم ناجحاً لا بدّ من الأخذ بعين الاعتبار مكانة هذه اللغة عند المتعلّم، أي (لغة أم) أم هي لغة ثانية؟ ومنه اختيار الطريقة الملائمة لتعليمها.

وقد اهتمّ المختصون في علم الديداكتيك بهذه القضية مستفيدين من العلوم الأخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع... للمساهمة في تحقيق التعليم والتلقين الجيد للغات، كما ميّزوا بين تعليم لغة الأم وتعليم اللغة الثانية، إذ أثبتت تجارب علم النفس اللغوي (psycholinguistique)، اختلاف سيكولوجية تعلّم اللغة الثانية عن سيكولوجية تعلّم لغة الأم من نواح عدّة، فاللغة سلوك وعادة تكتسب، ثمّ إنّ العادات اللغوية التي يكتسبها الفرد من تعلّم لغته الأم تتأصل فيه، وإذا أراد أن يتعلّم لغة أخرى جديدة تختلف عن لغته الأم في نظامها الصوتي، النحوي... فعليه التخلي عن العادات المكتسبة سابقاً، والتي لها أثر سلبي على تعلّم نظم اللغة الجديدة.

**1. 2. تعليم لغة الأم واللغة الثانية:** يعتبر تعلّم لغة الأم الأداة الرئيسية لتنمية لغة الثقافة الموحدة وصيانتها، وهو ينقل إلى الأجيال القادمة المتحدثين بها الأنماط التي يكفل الحفاظ عليها، وتطويعها الموجه للاحتياجات الاتصالية المتغيرة للجماعة اللغوية، يكفل في النهاية استمرارية لغة مشتركة ملائمة لكل الأغراض، فيتعلّم التلاميذ لغة الأم بدءاً من الصف الأول من المدرسة الابتدائية، وحتى الصف الأخير في المدرسة الثانوية، فالوقت المخصّص لها أكبر من الوقت المخصّص لغيرها»

(1) محمد راجي زغلول، دراسات في اللسانيات الاجتماعية العربية، ص 46.  
\* مصطلح لغة الأم (langue maternelle) له عدّة تعريفات، فقد تكون لغة الأم: اللغة المتقنة أكثر.  
أول لغة مكتسبة؛  
اللغة المكتسبة بطريقة طبيعية.

وتقول لويز دابان: اللغة الأم هي اللغة التي ليست بلغة أجنبية وهذا بالنسبة للناطقين بها، كما يمكن أن تكون لغة الأم هي اللغة الرسمية للدولة مثل اللغة الفرنسية بالنسبة للفرنسيين، ينظر:

Louise Dabène, Repères sociolinguistiques pour l'enseignement des langues, Paris : 1994, Hachette, p8.

ومن المسلم أنه ليس الهدف الوحيد لتعليم لغة الأم أن يتعلّم التلاميذ الحقائق اللغوية وما وراء اللغوية، ولكن يظلّ تعليمهم القواعد والهجاء والأسلوب. في العادة - جزءاً من البرنامج التعليمي إلى غاية التخرّج، بالإضافة إلى أن تاريخ اللغة المذكورة والأدب المكتوب بها يمثلان عنصرتين حيويتين من عناصر البرنامج التعليمي لا غنى عنهما في تكوين وحماية المقدرة اللغوية للفرد، والتي هي مقدرة ثابتة النمط وخلافة معا<sup>1</sup>. ويتمّ التركيز في تعليم لغة الأم على اكتشاف قواعدها وبنائها التي تستعمل بالفعل على نحو عفوي أو سلقوي، وإلى التركيز على الكتابة (نظامها الخطي) والدراسة النظرية التأملية الواعية للقواعد والمقاييس النحوية والاستعمالية.

أمّا منهجية تعليم اللغة الثانية، فترتكز أساساً على اكتساب الملكات التبليغية الأساسية: شفويا وكتابيا، ممّا يضيف تنوعاً في تعليم الثروة الإفرادية في النطق والكتابة والقواعد وما إلى ذلك، للغة غير مستعملة في المحيط الطبيعي والمهني للمتعلمين وحسب ج. بيير كيك «عن هديس» 1978: لا بدّ من خلق منهجية تعليمية خاصة باللغة الثانية والتي تأخذ بعين الاعتبار أنّ متعلّمها يكون بوسعهم معاشتها يومياً خارج ميدان التدريس<sup>2</sup>. ويدعم تعليم اللغة كلغة ثانية استعمالها في الإذاعة والتلفزة والجرائد وهو عكس اللغة الأجنبية التي تتعلم كلغة أجنبية فقط.

فيتمّ تعليم اللغة الثانية من خلال منهجية خاصة تهتمّ أولاً باكتساب بعض ملكاتها الأساسية قبل كلّ شيء ليتمّ فيما بعد التحوّل شيئاً فشيئاً إلى تعلّم جوانبها النحوية والاستعمالية والإملائية وما إلى ذلك من الحرص دائماً على أن تكون تلك المعارف مناسبة لقدرات المتعلّم المعرفية والعقلية، ليتسنى له إدراك المعارف والمعطيات اللغوية النحوية والاستعمالية.

كما يجب أن يتوقّر للمتعلّم المحيط التعليمي خاصة، الذي ينغمس فيه لغوياً، فيصادف كلّ أصناف المشاط اللغوي، ومختلف المحتويات والمضامين اللغوية، لاسيما السائدة منها في الحياة اليومية، خارج المحيط المدرسي، ويجب دعم ذلك من خلال عمل تعاوني يقوم بتوفيره المحيط المدرسي ذاته كمنشآت المحاور، القصص، الأشعار والأناشيد.

ولا يقتصر تعليم اللغة الثانية على تعليم أو اكتساب ملكتها التبليغية والتواصلية في سياقها الاجتماعي، ولكن يجب أن يكون اكتسابها من حيث إنّها أداة

(<sup>1</sup>) فلوريان كلوماس، اللغة والاقتصاد، مجلة عالم المعرفة، تر: أحمد عوض، مر: عبد السلام رضوان، الكويت: 2000، ص 138.

(<sup>2</sup>) الطاهر لوصيف، منهجية تعليم اللغة وتعلّمها، ص 80.

عمل ومعرفة سواء أكانت تلك المعرفة تتعلّق بالعلوم الطبيعية أو بالعلوم اللغوية لاسيما ما يتعلّق منها بمعرفة النواحي المعجمية والنحوية والاستعمالات الأسلوبية والبلاغية الخاصة باللغة موضوع التعلّم، وكذلك ما يتعلّق بها من المعارف المتعلقة بتقنيات التحرير والاختصار.

2. 2. تعليم اللغة العربية: إنّ حديثنا عن طرائق تعليم اللغات يأخذنا للتساؤل عن تعلّم اللغة العربية في الواقع الجزائري. فما هي الظروف التي يتعلّم فيها الطفل الجزائري اللغة العربية؟ أيتعلّمها على أساس أنّها (لغة الأم) أم باعتبارها لغة (ثانية) وفقا لطريقة تعليم اللغات الثوان «أم يتعلّمها كلغة (أولى) بتطبيق طريقة تعليم اللغات الأولى؟

إنّ الطفل العربي عموما والجزائري خصوصا، يتجّه إلى المدرسة حين بلوغه سنّ السادسة ليتعلّم اللغة العربية الفصحى التي يجهلها - ونقول يجهلها لأنّها حقيقة، فلم ينطق بها أوّل ما نطق ولم يسمعها أوّل ما سمع - فلم تكن هي لغة محيطه الأسري (العائلة) ولا لغة محيطه الخارجي (الشارع، اللعب...) وتعمل المدرسة التعليمية على إكسابه المقدرة على التواصل بأنظمة اللغة الفصحى شفويا وكتابيا، وأن يكتسب معايير استخدام هذه اللغة، اللغوية منها والاجتماعية والثقافية، وهكذا يتعلّم التلميذ اللغة العربية الفصحى إلى جانب لغته الأم التي اكتسبها في محيطه والتي قد تكون إحدى العاميات البربرية (قبائلية، شاوية، ميزابية...) أو إحدى العاميات<sup>1</sup> العربية باعتبارها أنظمة لغوية للتواصل قائمة بذاتها ذات نظام صوتي وصرفي تركيبى ودلالي، وهذا عبد القادر الفاسي الفهري يقول: «لا نحتاج إلى كبير عناء لنبيّن أنّ اللغة العربية ليست لغة أولى، فالطفل العربي لا يخرج إلى محيطه ليلتقط لغة فصيحة متداولة في الأفواه، بنفس الكيفية التي يخرج بها الطفل الفرنسي إلى محيطه ليتعلّم الفرنسية، أو الانجليزي ليكتسب الانجليزية. إذن فالعربية الفصيحة ليست لغة أولى في محدداتها النفسية والإدراكية والذاكرية... إلخ<sup>2</sup>.

ولا يعني هذا أنّنا نعتبر اللغة العربية لغة أجنبية ف«الطفل العربي لا يتعلّم العربية الفصحى بنفس المعنى الذي يتعلّم به لغة أجنبية ثانية كالفرنسية والإسبانية<sup>3</sup> لأنّ ملكته في عاميته تكون جزءا مهما من الملكة التي سيكوّنها في اللغة

(1) يعتبر أنيس فريحة من القائلين باستقلالية العاميات عن الفصحى قائلا: «إنّ اللغة بتراكيبها». ينظر أنيس فريحة، نظريات في اللغة والأدب، ط1، لبنان: 1973، دار الكتاب اللبناني المكتبة الجامعية، ص109.

(2) ع/عبد الرّاجي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، ص84.

(3) نفسه، ص84.

الفصحى حسب بعض علماء اللغة ومنهم خولة طالب إبراهيمي إذ تقول: «تعتبر العامية اكتساباً مهماً بالنسبة للطفل - حين دخوله المدرسة - فهي تشكّل عنده وسيلة مراقبة في إنتاج نص<sup>1</sup> ويرى الهادي سعادة عكس ما تراه خولة طالب إبراهيمي كما يوضّح في كتابه اللغات والمدرسة» قائلًا: «تشكّل الاختلافات المعجمية والدلالية بين الفصحى والعامية صعوبات حقيقية لتعلمي اللغة العربية بالمدرسة خصوصاً عندما نعلم أنّ هذه الاختلافات سواء كانت تامّة أو جزئية يحتفظ بها المتكلمون بطريقة غير مباشرة مما يجعلها مصدراً للخلط والصراع الدائم في أساليب الاكتساب اللغوي والمعرفي<sup>2</sup>.

والحقيقة أنّ للعامية أثراً سلبياً وأثراً إيجابياً في تعلّم اللغة العربية إذ نجد ههما تقتربان في بعض الأمور (الألفاظ...) كما تبتعدان في البعض الآخر (التركيب، الابتداء بالساكن في العامية والابتداء بمتحرك في الفصحى...)، فعندما تتقارب الفصحى والعامية يظهر الأثر الحسن في عملية تعليم اللغة العربية أمّا حين تتباينان قد يؤثر سلباً على عملية التعلم وفي الاستيعاب لحقائق العربية من العرب وغير العرب.

وينهي الفاسي الفهري قوله بـ: «العربية الفصحى لغة بين الأولى والثانية في منظورنا<sup>3</sup> بمعنى لا هي لغة أولى إذ اكتسب الطفل العامية أولاً ولا هي لغة ثانية لأنّ العامية تعتبر جزءاً أو فرعاً من اللغة الفصحى. هذا بالنسبة للطفل الناطق بإحدى العاميات العربية كلغة أمّ. ولا ننسى الطفل الناطق بإحدى اللهجات البربرية كلغة أمّ، أو اللغة الفرنسية بالنسبة لأطفال العائلات المثقفة كالأطباء مثلاً الذين يرغبون في تنشئة أولادهم على اللغة الفرنسية والذين يأتون إلى المدرسة لتعلّم اللغة العربية الفصحى، وقد سبق وأن اكتسبوا ملكة أساسية بلغتهم الأم» هي أساساً نظام لغوي مختلف عن العربية الفصحى، هذه الأخيرة يتعلّمها الطفل كلغة جديدة أجنبية وثانية في سلم تعلّمه.

وإنّ تعامل المناهج التعليمية مع اللغة العربية كما لو كانت اللغة الأم يؤثر سلباً على المتعلّم الذي يجد نفسه في وضع سيء سواء أكان ناطقاً بلهجة عربية فهي بعيدة نوعاً ما عن العربية أو ناطقاً بلهجة بربرية فهي أبعد.

(1) In/Cherifa Ghetas, Construction d'un texte narratif chez l'enfant algérien entre 5 et 9 ans, Revue spécialisée éditée par le centre d'enseignement intensif des langues. Université d'Alger : 1998, N°1, p21.

(2) ع/عباس الصوري، في بيداغوجية اللغة، ص 105.

(3) ع/عبده الراجحي، علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية، ص 84.

إنّ ما ذكر أنفا ممّا يعيق العملية التعليمية والذي نضيف إليه سوء استعمال المعلّم للغة العربية، إذ يستعمل العامية في التدريس وهو خطأ فادح يؤدّي إلى نتائج سلبية جدا «فالتدريس باللغة الفصيحة عندما يتحقّق فإنّه يقضي على الازدواجية\* اللغوية التي يعاني منها الناس اجتماعيا وتربويا<sup>1</sup> والعكس صحيح. فضروري جدا أن يسمع الطفل لغة سليمة حتى يتحدّث بلغة سليمة.

نخلص في الأخير إلى ضرورة خلق الانسجام الكامل بين المدرسة

والمجتمع من حولها<sup>2</sup> إن أردنا تعليم العربية الفصحى على أكمل وجه، كما أنّ الوضع الذي تميّز به اللغة قاعدة أساسية لتصور المنهجية التعليمية الكفيلة بتعليمها وتدريبها لمعلّمها<sup>3</sup>. إذن لا بدّ على المشرفين على تعليم اللغة وتدريبها وواضعي برامجها وطرائقها تحديد منزلة اللغة المعنية بالتعليم والتعلّم ومنه رسم منهجية تعليمية للعربية تأخذ بعين الاعتبار الواقع اللغوي الثنائي، المزدوج أو متعدّد اللغات، فيجب أن يتفرّع التعليم «أي يتنوّع بتنوّع البيئات<sup>4</sup> كما يجب الاهتمام قدر الإمكان بكل عنصر من عناصر العملية التعليمية: المعلم، المتعلّم، المحتوى... فأنظمة تعليم وتعلّم لغة ما في وضعية ما داخل مؤسسة؛ معناه القيام باختبارات واتخاذ قرارات أو تلقّمها والتصرف بما يقتضي الموقف ويمكن تمثيل هذه الوضعية بالكيفية الآتية: يرتبط المتعلّمون بعلاقة مع مدرّسهم بتعلّم محتوى محدّد في إطار المؤسسة قصد بلوغ الأهداف المسطرة من خلال القيام بمجموعة من الأفعال المنظمة بالاستعانة بالوسائل المسخّرة لذلك التي من شأنها أن تؤدّي إلى النتائج المرجوة. إذا لا بدّ من مراعاة المتعلّم: ماذا يتعلّم؟ اللغة التي يريد تعلّمها؟ لغة أم؟ لغة ثانية؟ وهذه التحديدات اختيار الطريقة المناسبة والمنهجية الملائمة لاكتساب الطفل الملكة اللغوية الأساسية والتمرّن على استعمالها خاصة أنّ الهدف من تعليم اللغات في عصرنا هذا هو استعمالها وتوظيفها والاستفادة من العلوم الأخرى في التعليم.

ويمكن إدراج ما يعلّمه أستاذ اللغة عبر مجالات اللسانيات العامة،

واللسانيات الاجتماعية، وعلم النفس اللغوي:

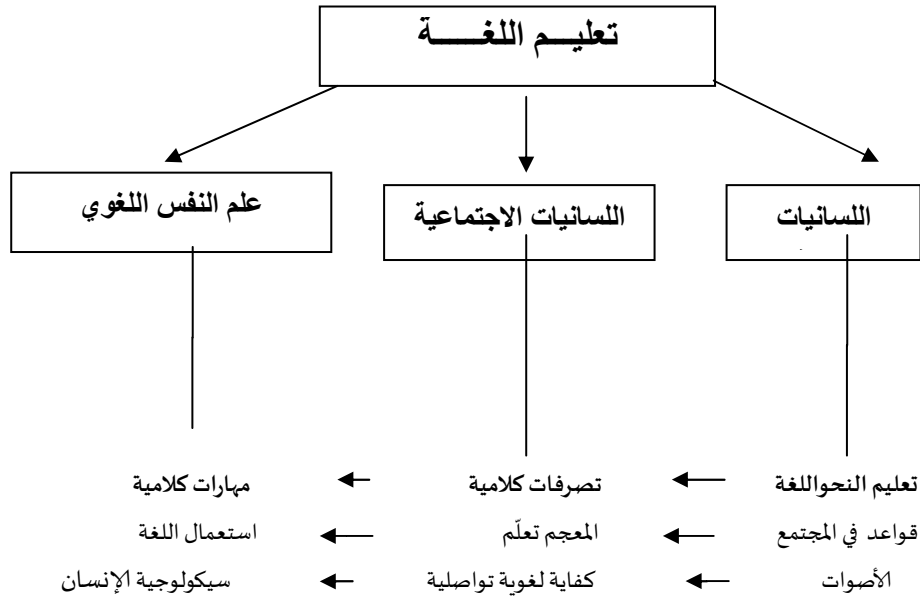
\* يقصد الثنائية اللغوية.

(1) سميح أبو مغلي، التدريس باللغة العربية الفصيحة لجميع المواد في المدارس، ط1، عمان: 1997، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ص46.

(2) عمار السامي، في قضايا اللسان العربي، دط، الجزائر: 2000، دار المعارف للإنتاج والتوزيع، ص106.

(3) الطاهر لوصيف، منهجية تعليم اللغة وتعلّمها، ص68.

(4) عبده الراجعي، علم اللغة التطبيقي، ص64.



وإنّ العلاج يكمن في طرائق التعليم التي لم تقم على أسس علمية ولكونها خاضعة للاجتهادات الفردية في كل قطر عربي ف«من أسباب تعثر أبنائنا في تعلم الفصحى هي قصور مناهج تعليم اللغة العربية عند تقديم المادة اللغوية الاتصالية من ناحية، وقصورها عن تقديم التدريبات النمطية والدلالية والاتصالية التي تساعد على السيطرة الآلية على المهارات اللغوية المختلفة في مجال الأصوات والمفردات والتراكيب واستخدامها في مجالات الحياة<sup>1</sup> فمن الضروري توجيه العناية لتطوير تعليم الفصحى للناطقين باللهجات العربية كما وجهت العناية لتطوير تعليم الفصحى للناطقين بغير العربية والتي تقوم على أسس علمية بالاستفادة من نتائج كل من علم اللسان (اللسانيات)، علم النفس اللغوي، وجميع الدراسات التطبيقية في مجال تعليم

اللغات: أمّا فيما يخصّ الواقع الجزائري، فالطفل حين يتعلم اللغة العربية فهو ذو سابق معرفة بالمستوى الأدنى للغة العربية حسب المنطقة الجغرافية التي يتواجد بها (عامية وهرانية، عاصمية قسنطينية...) فهو اكتسبها بالتعرض لها - بطبيعة الحال - تعرض غير منظم أو يكون ذا سابق معرفة بإحدى اللهجات البربرية فاللغة التي يستعملها بشكل منظم في المدرسة هي لغة ثانية بالنسبة إليه أي اللغة

(1) يوسف الخليفة أبو بكر، أنواع التمارين اللغوية في الكتاب المدرسي، مجلة اللسان العربي، الرباط: 1984، مكتب تنسيق التعريب، العدد 23، ص 58.

العربية ولا تعتبر لغة منشأً للتلاميذ. ومن المؤسف كما تقول لويز دابان: «أنّ المؤسسات التربوية تفرض في الكثير من الحالات لغة مختلفة عن اللغة التي يتعاملون بها في الحياة العائلية واليومية كلغة للتعليم<sup>1</sup> ممّا يؤدي إلى شيء من الصعوبة لدى المتعلّمين كما هو الحال في المستعمرات الانجليزية أو الفرنسية التي تستعمل اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية في قطاع التعليم، أمّا فيما يخص الحياة اليومية فتستعمل لغة الأقليات كالهوسا مثلاً. ولهذا، فإنّ اللغة العربية كلغة ثانية، يجب أن تولى الاعتبار التعليمي المناسب في ميدان تعليمها وتعلّمها في أسرع وقت ممكن ضمن المفاهيم التعليمية الأساسية بدل أن يظلّ الاعتبار السائد هو أنّ اللغة العربية هي لغة منشأً سواء أكان الاعتبار خطأً أو مغالطة، دون نسيان الموقف السياسي الذي يعدّ اللغة العربية لغة وطنية ورسمية، وينظر إليها على أساس أنّها الوعاء المهم الذي تجمع فيه الأبعاد الوطنية والتاريخية والحضارية والدينية، والنظر إلى اللغة العربية كلغة ثانية هو حقيقة وصف موضوعي لواقع لغوي اجتماعي سائد بالفعل فقط أنّ أهمّ دعم هو جهود العلماء في اللسانيات أو التعليمات، وكذا الدّعم السياسي طبعاً كالقرارات السياسية.

(<sup>1</sup>)Louise Dabéne, Repères sociolinguistiques pour l'enseignement des langues, p8.



## مدى قدرة المعلمين على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية

د.لعزيلي فاتح

(جامعة البويرة)

### الملخص:

هدف هذا البحث إلى معرفة الفروق بين المعلمين من حيث الجنس وكذا الخبرة في قدرتهم على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية المتعلقة بالقراءة والكتابة وكذا التعبير بنوعيه الشفوي والكتابي خلال مرحلة الطور الأول من التعليم الابتدائي.

وقد إعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، حيث طبق على عينة عشوائية منتظمة حجمها 80 معلم (ة)، من المجتمع الكلي من 250 معلم(ة) للطور الأول الابتدائي في كل من منطقة بابا حسان، الدارورية، الدويرة، بئر خادم التي تقع كلها غرب الجزائر العاصمة، و منطقة بن فارس و حي عمور وسط مدينة البليدة. وكانت أداة البحث عبارة عن إستبيان قسم إلى محورين

محور أول يتضمن بيانات حول مدى معرفة معلمي الطور الأول من التعليم الابتدائي لصعوبات التعلم التي تظهر لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية، و مدى قدرتهم على استكشافها. ومحور ثان يحتوي على بيانات تمثل العلاقات إن كانت موجودة بين المعلمين والمشرفين التربويين ودورها في اكتسابهم خبرة في هذا المجال.

### خلص البحث إلى النتائج التالية:

- لا توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس.

- لا توجد فروق بين معلمي الطور الأول الابتدائي في استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين.

وبالتالي توصل البحث إلى عدم قدرة المعلمين على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية خلال المرحلة الابتدائية.

### Résumé/

L'objectif de cette recherche est de trouver les différences existantes entre les enseignants par variable sexe, ainsi que l'expérience dans leur capacité à explorer leurs élèves ayant des

difficultés d'apprentissage dans les activités linguistiques liées à la lecture, ainsi que l'expression des deux types de orale et écrite lors de la phase de la première étape de l'enseignement primaire

Cette recherche est basée sur une approche descriptive et analytique, sur un échantillon aléatoire simple composée de 80 enseignant (s), la recherche comprenait la communauté de 250 enseignant (s) pour la première étape de l'enseignement primaire. chaque du quartier Baba Hassan, Draria,douera , Birkhadem qui sont tous situés ouest d'Alger, ainsi que la zone Ben fares,et hai amour qui sont situés a Blida, outil de recherche est une section d'un questionnaire aux deux axes

Le premier axe comprend des données sur l'étendue des connaissances des enseignants de l'enseignement primaire pour les difficultés d'apprentissage qui apparaissent lorsque leurs élèves en langue la phase des activités des enseignants, seconde contient des données représentant les relations qui existaient entre les enseignants et les superviseurs et leur rôle dans l'acquisition de l'expertise dans ce domaine

La recherche a révélé les résultats suivants

il n'existe pas des différences significatives entre les enseignants du primaire de la première phase de l'exploration des difficultés d'apprentissage de la langue parmi leurs élèves par variable sexe

il n'existe pas des différences significatives entre les enseignants du primaire de la première phase de l'exploration des difficultés d'apprentissage de la langue de leurs élèves par variable expérience

Ainsi nous sommes arrivés dans la quatrième de l'absence de la capacité des enseignants à explorer leurs élèves ayant des difficultés d'apprentissage dans les activités linguistiques au cours de la phase primaire

### **Summary/**

The objective of this research is to find the differences

between teachers in terms of gender and experience in their ability to explore their students with learning difficulties in language activities related to reading, as well as expression of both oral and written during the first phase of primary schools.

This research is based on a descriptive and analytical approach, a simple random sample composed of 80 teacher (s), the research included 250 community teacher (s) for the first stage of primary schools. each of Baba Hassan, Draria, Birkhadem all located west of Algiers, and the Ben fares zone and hai amour all located in Blida, search tool is a section of a questionnaire to the two axes

The first area includes data on the extent of knowledge of teachers of primary education for the learning difficulties that appear when their language students Phase activities of teachers, second contains representing the relationship that existed between teachers and supervisors and their role in the acquisition of expertise in this field

The research revealed the following results There are no significant differences between the primary teachers of the first phase of exploration learning difficulties of the language among their students by gender variable

it is no significant differences between the primary teachers of the first phase of exploration learning difficulties of the language of their students experience variable

So we arrived in the fourth of the lack of the ability of teachers to explore their students with learning difficulties in language activities during the primary phase.

\*المقدمة: المعلم هو أحد المكونات الرئيسية في العملية التعليمية التعليمية، وهو المصدر الفاعل في جعلها عنصرا وكائنا متطورا وفاعلا، وحجر الزاوية في تطويرها لما له من تأثير في الموقف التربوي، باعتباره يتعامل مع فئات من التلاميذ يختلفون

فيما بينهم من حيث القدرات والميول ودرجة الإستيعاب للأنشطة التي تجرى

داخل الصف الدراسي، مما يجعله يجد صعوبات في التدريس نتيجة الفروق الفردية الموجودة بين التلاميذ في التعلم. وما دامت مشكلة صعوبات التعلم عامة وصعوبات تعلم اللغة خاصة مطروحة اليوم بكثرة في مدارسنا، فإنه تلقى على عاتق المعلم مسؤولية ملاحظة هؤلاء التلاميذ وتسجيل انخفاضهم في التحصيل الدراسي...

1. مشكلة الدراسة: يؤدي المعلم دورا رئيسيا في عملية التعلم، بحيث تلقى على عاتقه مسؤولية ملاحظة التلاميذ المنخفض تحصيلهم في الصف الدراسي، هذا الانخفاض الذي يكون غالبا على شكل صعوبات في التعلم، والذي يظهر في عدم قدرة بعض التلاميذ على تحقيق الأهداف التعليمية/التعلمية التي تعتبر متطلبات أساسية تبنى عليها متطلبات فرعية لاحقة وبخاصة في وحدات التعلم الأساسية، ونعني بها القراءة والكتابة والتهجئة والتعبير. إذ نعت تلميذا ما بكونه يعاني من صعوبات في التعلم، إذا لم يتحكم في مفهوم ما وبقي الخطأ يتكرر لديه باستمرار ويلزم أدائه، سواء تلقى معالجة تعليمية داخل قسمه أم لم يتلقاها، بحيث يبدأ مشكل صعوبات التعلم تريبا، ثم سرعان ما يتطور إلى ضغوط نفسية واجتماعية تلقي بظلالها قلقا واضطرابا على التلميذ وأسرته وعلى المدرسة والنظام التعليمي ككل.

في هذا السياق توصل بعض الباحثين أمثال: كارل ويزنك، هاكسون، مانشليود... من خلال دراساتهم المختلفة حول صعوبات التعلم إلى العديد من النتائج، إذ وجد طبيب العيون الإنجليزي\* مانشليود\* (الذي عمل مع العديد من تلاميذ المدارس ذوي صعوبات التعلم في القراءة، أن عددا قليلا من هؤلاء التلاميذ كانوا يعانون عجزا بصريا، مما جعله يستنتج أن سبب الفشل لديهم لا يرجع إلى مشكلات بصرية فيزيولوجية).

كما استنتج العديد من الباحثين أمثال: توافر هالهان، تشولين (أن صعوبات التعلم قد تعزى في غالب الأحيان إلى مشكلات إنفعالية وجدانية واجتماعية، وقد ترجع إلى نظام التدريس نفسه أو إلى صعوبات المادة الدراسية وعدم ميل التلميذ لها، وقد ترجع إلى المعلم نفسه).

كما توصل أحمد زكرياء 1993 من خلال دراسته حول: (صعوبات التعلم لدى عينة من تلاميذ المرحلة الابتدائية، إلى نتيجة مفادها أن صعوبات الحساب تأتي في الدرجة الأولى من حيث الكثرة لتلميها الصعوبات المتعلقة بالتعبير، بحيث أكد أنها تعزى إلى نظام التدريس الذي يتبناه المعلم في مختلف الأنشطة الدراسية) وفي

نفس السياق توصل عوض الله سالم 1994 من خلال دراسته حول: (قدرة المعلم على تشخيص صعوبات التعلم و علاقتها بميل التلميذ نحو المواد الدراسية، إلى وجود فروق بين المعلمين القادرين على تشخيص هذه الصعوبات وبين المعلمين غير القادرين على التشخيص من حيث ميل التلاميذ إلى المواد الدراسية).3.

إن الإعتراف بالفروق الفردية بين التلاميذ وما ينتج عنها من تباين في الأداء التعليمي من جهة، وكذا الحرص على تكافؤ الفرص التعليمية ضمن السيرورة الشاملة للفعل التعليمي/التعلمي من جهة أخرى، يقتضي أن ننظر إلى وجود تلاميذ يعانون من صعوبات في التعلم أمرا طبيعيا، لكن من غير الطبيعي ألا تستكشف هذه الصعوبات لدى التلاميذ بدقة، ولا يضع لها المعلمون خططا لمعالجتها إبان ظهورها، حتى لا تتراكم الأخطاء وتتفاقم ويصعب فيما بعد معالجتها.

على هذا الأساس فإن موضوع البحث يطرح إشكالية مدى قدرة المعلمين في مدارسنا الابتدائية على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية، بحيث نسعى من خلاله إلى الإجابة عن التساؤلين التاليين:

أولا: هل توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس؟  
ثانيا: هل توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين؟

## 2. فرضيات الدراسة:

أولا: لا توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس.  
ثانيا: لا توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين.

3. أهمية الدراسة: تكمن أهمية هذه الدراسة في محاولتنا الإطلاع على واقع الممارسة البيداغوجية لدى معلمي الطور الأول الابتدائي من حيث مدى قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم. وكذا الاعتماد على نتائج هذا البحث كأساس للخروج بمقترحات نسعى من خلالها إلى الرفع من مستوى تكوين المعلمين الذي يؤدي بقدر كبير إلى النجاح أو الفشل لدى التلاميذ.

#### 4. أهداف الدراسة: تهدف دراستنا الحالية إلى مايلي:

أولاً: محاولة معرفة إن كان يوجد هناك فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس.

ثانياً: محاولة معرفة إن كان يوجد هناك فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين.

#### 5. تحديد مفاهيم المصطلحات:

1. الاستكشاف: يعرف على أنه الفعل الذي نكشف من خلاله بصفة مبكرة عن الاضطرابات النفسية و الحسية، المعرفية السلوكية وكذا الأكاديمية، لتصحيحها عن طريق علاج ملائم..4

كما يعني الاستكشاف عملية الكشف عن التلاميذ الذين يعانون من صعوبات في التعلم، الذي يعود بالدرجة الأولى إلى معلم القسم الدراسي العادي الذي يزاول فيه التلميذ دراسته، بناءً على علاقته الخاصة التي تربطه به، وعلى دوره كذلك في ضمان إكتساب هذا التلميذ للتعلّمات القاعدية المتعلقة خاصة بالقراءة، الكتابة والتعبير.5

2. المعلم: يعرفه مصطفى زيدان، بأنه عنصر من أهم عناصر المجال الحيوي المتعلق بالموقف التعليمي، له دور كبير في إفادة التلميذ من هذا الموقف أو عدم إفادته منه، فالمعلم الكفاء هو الذي كون فكرة عن أهداف التربية الحديثة ومعناها، وأقتنع بطرق التربية الحديثة وسيطر عليها، أخذاً بعين الاعتبار الفروق الفردية بين تلاميذه، ومالكا لبعض السمات المزاجية والاتجاه العقلي، كما يكون عارفاً بأن التعلم عملية تدريجية.6

3. صعوبات التعلم: هو مفهوم يشير حسب مكتب التربية الأمريكي 1976 إلى تباعد دال إحصائي بين تحصيل الطفل وقدراته العقلية العامة في واحدة أو أكثر من مجالات التعبير الشفهي أو الكتابي أو الفهم الاستماعي أو القرائي، أو المهارات الأساسية للقراءة أو التهجّي، ويتحقق شرطاً التباين الدال وذلك عندما يكون مستوى تحصيل الطفل في واحدة أو أكثر من هذه المجالات 50 بالمائة أو أقل من تحصيله المتوقع، وذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار العمر الزمني والخبرات التعليمية المختلفة لهذا التلميذ.7

كما تعني الصعوبة الخاصة في التعلم حسب السلطات التعليمية

في (الو.م.ا) اضطراب في واحد أو أكثر من العمليات السيكلولوجية الأساسية التي يتطلبها فهم اللغة المكتوبة أو المنطوقة وإستخدامها، وتظهر هذه الاضطرابات في نقص القدرة على السمع أو التفكير أو الكلام أو القراءة أو الكتابة، الهجاء أو العمليات الحسابية...8

4. الأنشطة اللغوية: ونعني بها انخفاض مستوى القراءة، الكتابة، التعبير لدى التلميذ في الطور الأول الابتدائي عن المستوى المتوقع أو المعتاد لدى العاديين، وعن مستوى التحصيل وكذا مستوى الذكاء.9

6. الدراسات السابقة: هناك عدة دراسات تناولت الموضوع الذي نحن بصدد دراسته من زوايا مختلفة نوجزها فيمايلي:

1.6. دراسة توفيق أحمد زكرياء.1993: حول صعوبات التعلم لدى عينة من تلاميذ المرحلة الابتدائية ، هي عبارة عن دراسة مسحية إستخدم فيها الباحث عينة عشوائية حجمها 234 تلميذ(ة) اشتمت من 12 مدرسة ابتدائية شملت الصف الرابع والخامس والسادس ، كما إستخدم اختبار الذكاء المصور لأحمد زكي صالح ودليل المعلم لتحديد صعوبات التعلم الأكاديمية من إعداد الباحث نفسه ، إضافة إلى استخدامه البطاقة المدرسية والسجل الصحي للتلاميذ ، كما طبق الباحث محك الاستبعاد واختبارا في الذكاء لتحديد درجات التحصيل الدراسي في اللغة العربية والحساب. بحيث توصل الباحث إلى أن النسبة المئوية للتلاميذ الذين يعانون من صعوبات في التعلم تتراوح بين 8 و10% ، كما وجد أن نسبة انتشار صعوبات التعلم لدى التلاميذ تختلف باختلاف المستويات الدراسية ، وبإختلاف الجنس كذلك (ذكور. إناث) بحيث وجد أن الصعوبات المتعلقة بالحساب جاءت في المرتبة الأولى بالنسبة للذكور والإناث ، يليها الصعوبات المتعلقة بالتعبير لدى الذكور والكتابة لدى الإناث وأخيرا الصعوبات المتعلقة بالقراءة لدى الذكور والإناث معا. 10

6. 2. دراسة عوض الله سالم محمود.1994: بكلية التربية لجامعة الرقازيق ، حول قدرة المعلم على تشخيص صعوبات التعلم وعلاقتها بميل التلميذ نحو المواد الدراسية، إستخدم فيها الباحث عينة عشوائية من المعلمين والمعلمات حجمها 64 معلم(ة) ممن يقومون بتدريس المواد الاجتماعية والعلوم في الصف الأول الإعدادي وعينة أخرى من التلاميذ الذين يدرسون عند هؤلاء المعلمين لم يحددها ، كما إستخدم الباحث مقياس حول قدرة المعلم على تشخيص صعوبات التعلم من إعدادة ومقياس الميل نحو المواد الدراسية من إعداد فؤاد أبو حطب وتحليل

التباين ذو التصميم العاملي واختبار نيومن كولز لإيجاد الفروق. بحيث توصل الباحث إلى وجود فروق بين المعلمين القادرين على تشخيص هذه الصعوبات وبين المعلمين غير القادرين على التشخيص من حيث ميل التلاميذ إلى المواد الدراسية وذلك لصالح تلاميذ المعلمين القادرين على التشخيص.11

6. 3. دراسة هويدي محمد. 1994: بدولة البحرين، حول العلاقة بين المهارات الإدراكية وصعوبات القراءة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية، تكونت عينة الدراسة من 40 تلميذ(ة) تراوحت أعمارهم بين 7 و9 سنوات كلهم يعانون من صعوبات في تعلم القراءة، تم اختيارهم بناء على ضعف مستوى التحصيل في القراءة لديهم بالمقارنة مع زملائهم في القسم اعتمادا على السجلات المدرسية، أستخدم الباحث اختبار تشخيصي لصعوبات القراءة في المرحلة الابتدائية واختبار مهارات الإدراك السمعي واختبار مهارات الإدراك البصري، بحيث توصل الباحث إلى وجود علاقة إرتباطية ضعيفة بين صعوبات القراءة ومهارات الإدراك البصري وكذلك بين صعوبات القراءة ومهارات الإدراك السمعي، وكشف التحليل العاملي لمصفوفة العلاقات الإرتباطية بين صعوبات القراءة والمهارات الإدراكية عن وجود ثلاثة عوامل هي: عامل صعوبات القراءة، عامل التصور الإدراكي(السمعي البصري) وعامل التذكر السمعي.12

6. 4. دراسة قامت بها لجنة تربية لدى وزارة التربية الوطنية بالجزائر. 2003: حول مدى استكشاف صعوبات التعلم ومعالجتها من قبل معلمي المرحلة الإبتدائية، استخدمت اللجنة عينة مكونة من 164 معلم(ة) في التعليم الإبتدائي من ثماني ولايات هي: الجزائر، بومرداس، سعيدة، ميله، الاغواط، تيبازة، عنابة، الطارف. كما استخدمت اللجنة استبياناً ومقابلات طبقت مع هؤلاء المعلمين، بحيث توصلت إلى نتائج أهمها عدم تمكن أغلب المعلمين من تطبيق المعارف المتعلقة بتحديد طبيعة صعوبات التعلم التي يظهرها التلاميذ. 13

- خلاصة الدراسات السابقة: نستخلص من الدراسات السابقة أنها تتفق مع دراستنا الحالية في عدة جوانب تتعلق بأسلوب اختيار العينة (الأسلوب العشوائي) والمنهج المتبع في الدراسة (المنهج الوصفي) والمرحلة التعليمية التي أجريت حولها الدراسة (المرحلة الابتدائية). بينما تختلف مع دراستنا الحالية في أسلوب طرح المشكلة وفي اختيار أدوات الدراسة. غير أن ما يميز دراستنا عن الدراسات المذكورة ألفا هو تركيزنا على صعوبات التعلم التي تظهر لدى التلاميذ في الأنشطة اللغوية ومدى قدرة المعلمين على استكشافها إبان ظهورها لدى هؤلاء التلاميذ .



7. منهج الدراسة: اعتمدنا في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي، الذي يصف الظاهرة المراد دراستها وصفا علميا دقيقا معتمدا على تحليلها، بحيث يسعى هذا المنهج حسب عدس عبد الرحمان 1992 إلى جمع البيانات سواء لاختبار صحة الفرضيات التي تصف الوضع الحالي للفرد موضوع الدراسة، أو للإجابة عن الأسئلة المتعلقة بذلك. 14

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه محمد شفيق 1998، بحيث بين بأن المنهج الوصفي التحليلي يهدف إلى وصف الظاهرة محل الدراسة وفهمها وتحليلها قصد الوصول إلى المبادئ والقوانين التي تحكمها، حيث لا يقف هذا المنهج عند حد وصف الظاهرة وصفا دقيقا كما هي كائنة، بل يتعداه إلى التفسير والتحليل من أجل استخلاص نتائج نهائية يمكن تعميمها. 15

8. مجتمع الدراسة: يتكون مجتمع الدراسة من جميع المعلمين الذين يدرسون في الطور الأول من التعليم الابتدائي في كل من منطقة بابا حسان، الداراية، الدويرة، بئر خادم التي تقع كلها غرب الجزائر العاصمة، و منطقة بن فارس و حي عمور وسط مدينة البليدة.

8. 1. عينة الدراسة ومواصفاتها: اعتمدنا في هذا البحث على العينة العشوائية المنتظمة، بحيث تعرف بأنها تقوم على العشوائية والانتظام في اختيار المبحوثين، إذ فيها يتم اختيار العينة عن طريق اختيار مفردات من مسافات متساوية على القائمة بعد إعداد المجتمع الأصلي. 16

بحيث تكونت عينة الدراسة من 80 معلم(ة) من المجتمع الكلي من 250 معلم(ة) للطور الأول الابتدائي في كل من منطقة بابا حسان، الداراية، الدويرة، بئر خادم التي تقع كلها غرب الجزائر العاصمة، و منطقة بن فارس و حي عمور وسط مدينة البليدة. وفيما يلي توضيح لمواصفات العينة الدراسة حسب الجنس والخبرة:

الجدول رقم 01 يمثل توزيع أفراد عينة البحث حسب الجنس:

الجنس المستوى المدرس	ذكور	إناث	المجموع
السنة الأولى ابتدائي	14	13	27
السنة الثانية ابتدائي	11	16	27
السنة الثالثة ابتدائي	17	09	26
المجموع	42	38	80

الجدول رقم 02 يمثل توزيع أفراد عينة البحث حسب الخبرة.

الخبرة المستوى المدرس	اقل من 5 سنوات	من 5 إلى 10 سنوات	10 سنوات فما فوق	المجموع
السنة الأولى ابتدائي	05	10	12	27
السنة الثانية ابتدائي	08	09	10	27
السنة الثالثة ابتدائي	06	13	07	26
المجموع	19	32	29	80

6. أدوات الدراسة: استخدمنا في هذا البحث الاستبيان، الذي يمثل وسيلة علمية ملائمة لهذا النوع من الدراسات، بحيث يسمح لنا بالحصول على عدد وفير من المعلومات التي تقتضيها الفرضيات. 17

بحيث يحتوي هذا الاستبيان على 21 عبارة ذات محورين، محور أول يتضمن بيانات حول مدى معرفة معلمي الطور الأول من التعليم الابتدائي لصعوبات التعلم التي تظهر لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية و مدى قدرتهم على استكشافها. (يتكون من 11 عبارة) ومحور ثان يحتوي على بيانات تمثل العلاقات إن كانت موجودة بين المعلمين والمشرفين التربويين ودورها في اكتسابهم خبرة في هذا المجال. (يتكون من 10 عبارات).

5. 1. الخصائص السيكومترية لأداة الدراسة: تم التأكد من صدق أداة الدراسة بالاعتماد على صدق المحكمين، الذي هو عبارة عن عرض لأداة البحث على عدد من المختصين والخبراء في الميدان لإبداء ملاحظاتهم وآرائهم حول المحاور من حيث كفاية فقرات كل محور ودرجة وضوح العبارات ومختلف التعديلات التي يشار إليها. 18

وفي هذا الصدد قمنا بتوزيع أداة الدراسة على عدد من الأساتذة المحكمين في جامعة الجزائر (من قسم علم النفس وعلوم التربية)، بحيث تم تعديل بعض العبارات بناء على الملاحظات التي قدمها لنا هؤلاء الأساتذة.

أما فيما يخص ثبات الأداة فقد اعتمدنا على طريقة التجزئة النصفية في حساب ذلك الذي يعتبر نوعا شائعا لثبات الإتساق الداخلي، وهذه الطريقة لحساب الثبات النصفية تعتبر مناسبة لاسيما مع الاختبارات الطويلة والتي يصعب تطبيقها في مرتين مختلفتين. 19

وفي هذا الصدد اخترنا عينة جزئية من المعلمين شملت 20 معلم (ة) ووزعنا عليهم الاستبيان وقمنا بحساب معامل الثبات بين البنود الفردية و الزوجية بحيث تحصلنا على معامل ثبات قدر ب: 0.65 وبالتالي وجدنا أن أداة الدراسة تتمتع

بمعامل ثبات مرتفع نوعا ما.

7. الأساليب الإحصائية المستخدمة في الدراسة: إتمدنا في تحليل البيانات المتحصل عليها على:

1.7. النسب المئوية: عن طريق تحويل التكرارات إلى نسب مئوية باستخدام القانون التالي:

ن م « مجموع التكرارات عدد العينة

7. 2. اختبار كأي تربيع.  $X^2$ : هو اختبار إحصائي يعكس الفروق الملحوظة بين العينات بالنسبة لمتغيرات الدراسة، كما يوضح الفروق بين التكرارات المشاهدة والتكرارات المتوقعة وفق القانون التالي:

ك2 « مج (ك.ك) ك'

حيث أن: (ك) « التكرارات المشاهدة لكل خانة. و (ك') « التكرارات المتوقعة لكل خانة»

9. تحليل ومناقشة النتائج:

أولا. تحليل ومناقشة نتائج الفرضية الأولى: لا توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الإبتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس.

من خلال البيانات المتحصل عليها من الاستبيان تبين لنا بان غالبية المعلمين بنسبة (60%) من كلا الجنسين أكدوا عدم تلقيهم تكوينا قبل الخدمة حول صعوبات التعلم لدى التلميذ، وبالتالي يستخدمون فقط أسلوب الاحتكاك بالتلميذ للتعرف على صعوباته في التعلم، بينما وجدنا نسبة (30%) منهم يستخدمون أسلوب الملاحظة المباشرة مع التلميذ، في حين وجدنا سوى (10%) منهم يستخدمون أسلوب الملاحظة غير المباشرة في التعرف على تلاميذهم من ذوي صعوبات تعلم اللغة.

كما تبين لنا بأن أغلب المعلمين من كلا الجنسين كذلك بنسبة (48%) يعتمدون على النتائج الدراسية كأداة للتأكد من التلميذ ذوي صعوبات التعلم لديهم، بينما وجدنا نسبة (35%) منهم يعتمدون على المتابعة المستمرة للتأكد من هؤلاء التلاميذ، في حين وجدنا سوى نسبة (17%) من هؤلاء المعلمين يعتمدون على المقابلة واختبار التلميذ للتأكد من صعوبات التعلم لديه، رغم أنها أداة مهمة لاستكشاف صعوبات التعلم لدى التلميذ كونها تجعل المعلم عن قرب مع المشكلة.

وتبين لنا كذلك أن أغلب المعلمين من كلا الجنسين لم يتمكنوا من إظهار صعوبات التعلم التي يعاني منها تلاميذهم في الصف الدراسي، إذ وجدنا نسبة 71% من المعلمين والمعلمات يرون بأن صعوبات تعلم القراءة لدى تلاميذهم تتمثل فقط في القراءة الخاطئة للكلمات، في مقابل 28% منهم يرون أن هذه الصعوبات تتمثل في الخلط بين الحروف أثناء القراءة. ونفس الشيء بالنسبة للكتابة والتعبير، بحيث وجدنا نسبة 59% من هؤلاء المعلمين يرون بأن هذه الصعوبات تتمثل في الكتابة الخاطئة للكلمات وصعوبة في التعبير الشفوي والكتابي. الأمر الذي يبين عدم دراية غالبية المعلمين من كلا الجنسين بخصائص التلاميذ ذوي صعوبات التعلم واللغة والتي تميزهم عن التلاميذ الذين لديهم مشكلات أخرى في التعلم.

كما توصلنا إلى أن غالبية المعلمين من الجنسين وبنسبة 74% ليس لهم دراية بالأساليب المستعملة في الكشف عن صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم في وقت مبكر.

وبالتالي توصل البحث إلى أنه لا توجد فروق بين معلمي الطور الأول الابتدائي في استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الجنس، وهذا ما تؤكد قيمة كأي تربيع المحسوبة من خلال تكرار الإجابات لدى المعلمين والمعلمات على عبارات الاستبيان: (X2. مح «13.86») و(X2. مح «16.81») عند مستوى دلالة 0.05، وهذا ما توصل إليه السيد شعبان أحمد 1994 في دراسته حول تشخيص صعوبات التعلم التي تواجه تلاميذ الحلقة الأولى من التعليم الأساسي وهو أنه من أسباب تفاقم هذه الصعوبات لدى التلميذ تتمثل في عدم قدرة المعلمين على تشخيصها. 20

ثانياً. تحليل ومناقشة نتائج الفرضية الثانية: لا توجد فروق دالة إحصائية بين معلمي الطور الأول الابتدائي في قدرتهم على استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين.

من خلال البيانات المتحصل عليها من الاستبيان دائماً تبين لنا أن نسبة كبيرة من المعلمين تقدر ب: (90%) من كلا الجنسين أجابوا بأن لديهم لقاءات مع مختلف الشركاء التربويين تتبع بدورات تكوينية، بينما هذه اللقاءات والدورات التكوينية تعد غير كافية حسب رأيهم. كونها محدودة وتكون في أوقات غير مناسبة، وتركز أكثر على المقررات الدراسية، كما يطغى عليها الجانب النظري، كما أنها لا تركز على مشاكل وصعوبات عملية التعلم لدى التلميذ من حيث كيفية التعرف عليها ومواجهتها وأساليب علاجها.

هذا وأظهر غالبية المعلمين وبنسبة (87%) عدم تلقيم أي نوع من المساعدة من قبل هؤلاء المشرفين أثناء عملهم تنصب حول أساليب التعرف على صعوبات التعلم لدى تلاميذهم والتأكد من الأشكال التي تظهر فيها خصوصا في الأنشطة المتعلقة بالقراءة والكتابة والتعبير اللغوي، وبالتالي لم يكتسب هؤلاء المعلمين خبرة في هذا المجال تمكنهم فعلا من التعرف على هذه الصعوبات لدى تلاميذهم وكيفية مواجهتها.

كما توصلنا إلى أن غالبية المعلمين من الجنسين وبنسبة (68%) أكدوا بأن خبرتهم في مجال التعليم لم تمكنهم من التعرف فعلا على صعوبات التعلم التي تظهر في الأنشطة اللغوية لدى تلاميذهم، وهذا راجع للنقص الموجود في برامج التكوين أثناء الخدمة

وعدم تلقيم للمساعدة في هذا المجال من قبل المشرفين التربويين. بحيث من جملة الاقتراحات التي خرجت بها اللجنة التربوية لوزارة التربية الوطنية في دراستها حول صعوبات التعلم لدى تلاميذ الطور الابتدائي 2004 ضرورة اشتراك مختلف الشركاء التربويين (المعلمين، المديرين، المفتشين، مستشاري التوجيه المدرسي، الأخصائيين النفسانيين، وكذا الأطباء وأولياء الأمور) في المساعدة لإيجاد الحلول لصعوبات التعلم. 21. وبالتالي توصل البحث إلى أنه لا توجد فروق بين معلمي الطور الأول الابتدائي في استكشاف صعوبات تعلم اللغة لدى تلاميذهم حسب متغير الخبرة في التكوين، وهذا ما تؤكد قيمة كأي تربيع المحسوبة من خلال تكرار الإجابات لدى المعلمين والمعلمات على عبارات الاستبيان: (2x.م «5.04) و (2x.م «9.21) عند مستوى دلالة 0.05 وهذا يتفق مع ما هدف إليه توفيق أحمد زكرياء 1993 في دراسته حول: صعوبات التعلم لدى عينة من تلاميذ المرحلة الابتدائية حول ضرورة التعرف على التلاميذ الذين يعانون من صعوبات في التعلم من خلال تزويد المربين والمعلمين بمرجع بسيط يساعدهم على فهم المشكلة لدى التلاميذ العاديين في قدراتهم وإلقاء الضوء على أبعادها، وبالتالي إكسابهم خبرة في هذا المجال. 22.

10. خاتمة الدراسة: توصل هذا البحث إلى أن التكوين الذي تلقاه المعلمون قبل مزاولتهم لمهنة التدريس يحتوي على نقائص من ضمنها عدم تلقيم تكويننا حول صعوبات التعلم لدى التلاميذ من حيث أساليب وطرق استكشافها وكيفية مواجهتها مع هؤلاء التلاميذ، واتضح لنا هذا من خلال البيانات التي حصلنا عليها في الميدان، والتي تبين أن أغلب المعلمين ليس لهم دراية لا بأدوات وأساليب

استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم، ولا بأنواع وأشكال صعوبات التعلم التي تظهر لدى تلاميذهم في الأنشطة المتعلقة بالقراءة والكتابة وكذا التعبير اللغوي. كما اتضح لنا كذلك أنه حتى عملية التكوين للمعلمين أثناء الخدمة ليست في المستوى المطلوب، بحيث تبين لنا هذا من خلال النقص المسجل في العلاقات بين المعلمين والمشرفين التربويين وعدم مساعدة هؤلاء لهم ومدتهم بالخبرة التي تؤهلهم للتعرف على صعوبات التعلم لدى تلاميذهم، وأساليب استكشافها ومواجهتها في وقت مبكر. وبالتالي توصلنا في الأخير إلى عدم قدرة المعلمين على استكشاف صعوبات التعلم لدى تلاميذهم في الأنشطة اللغوية خلال المرحلة الابتدائية.

10. المقترحات: من خلال النتائج التي توصلنا إليها من هذه الدراسة نقترح ما يلي:

10. 1. ضرورة إعادة النظر في برامج تكوين المعلمين من حيث التركيز على تكوينهم حول طرق وأساليب التعرف على صعوبات التعلم واستكشافها لدى تلاميذهم وأدوات التكفل البيداغوجي بهم.
10. 2. ضرورة الاهتمام بالدورات التكوينية للمعلمين والتركيز في محتواها على أساليب التعرف على المشكلات التعليمية لدى التلاميذ وسبل علاجها.
10. 3. ضرورة الاهتمام باجتماعات المعلمين مع المشرفين التربويين قصد تبادل الأفكار فيما يخص المشكلات التعليمية التي يعاني منها التلاميذ -كصعوبات التعلم. وإيجاد الحلول لها.

#### 9. قائمة الهوامش:

1. وزارة التربية الوطنية (مديرية التعليم المتخصص) 2005: دليل المعلم في استكشاف صعوبات التعلم ومعالجتها، الجزائر، ص 06.
- 2 - السيد عبيد ماجدة 2000: تعليم الأطفال المتخلفين عقليا، ط 1، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان (الأردن)، ص 18
3. مجلة الثقافة النفسية 1994، (ع18)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت (لبنان)، ص 114
4. Maxime, p: dépistage et prévention des inadaptations scolaires, edit, E, S, F. paris, p68
5. وزارة التربية الوطنية (مديرية التعليم المتخصص) المرجع السابق، ص 26
6. زيدان مصطفى 1987: نظريات التعلم وتطبيقاتها التربوية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 92
7. سيد عبد الحميد سليمان السيد: صعوبات التعلم، دار الفكر العربي مصر، ص 105
8. السيد عبد الرحيم فتحي 1998: سيكولوجية الأطفال غير العاديين، (ج2)، دار العلم للنشر والتوزيع الأردن، ص 88

9. عسكر عبد الله 2005: الاضطرابات النفسية للأطفال، ط 1، مكتبة أنجلو المصرية، ص 34
10. الشرقاوي محمد أنور 1996: التعلم وأساليب التعليم، (ج 1)، مكتبة أنجلو المصرية، ص 287
11. مجلة الثقافة النفسية 1994، (ع 18)، المرجع سابق ص 113
12. الشرقاوي محمد أنور 1996: المرجع سابق ص 290
13. وزارة التربية الوطنية (مديرية التعليم المتخصص) 2005، المرجع سابق ص 11. 10
14. عدس عبد الرحمان 1992: أساسيات البحث التربوي، دار الفرقان الأردن، ص 101
15. شفيق محمد 1998: البحث العلمي، المكتب الجامعي الحديث القاهرة، ص 15
16. الرشيد بشير 2000: مناهج البحث التربوي، ط 1، كلية التربية الكويت، ص 120
17. الرشيد بشير، المرجع السابق، ص 154
18. منسي محمد عبد الحلیم 2000: مناهج البحث العلمي، دار المعرفة الجامعية مصر ص 115
19. سعد عبد الرحمان 1998: الإحصاء والقياس النفسي والتربوي، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ص 168.
20. الشرقاوي محمد أنور 1996: المرجع سابق ص 288
21. وزارة التربية الوطنية (مديرية التعليم المتخصص) المرجع السابق، ص 11
22. الشرقاوي محمد أنور، المرجع السابق، ص 288.





## اللغة والتواصل في المدرسة بين العامية والفصحى دراسة ميدانية لمجموعة من أساتذة الابتدائي بولاية البويرة

أ. خالد زعاف<sup>1</sup>

### الملخص:

تعتبر اللغة رمز من رموز الشخصية الاجتماعية للمجتمعات ، و أهم رموز ووسائل التواصل والتفاعل الاجتماعي بين الأفراد والتي من شأنها تقوي روابط التماسك والانتماء الاجتماعي، وعليه فإن أي خلل في لغة التواصل يؤدي إلى اختلال في التوازن الاجتماعي للمجتمع بفقدانه دعامة أساسية من هويته التي تميزه عن باقي مجتمعات العالم.

وانطلاقا من هذه الرؤية حاولنا معرفة لغة التواصل المدرسي في المرحلة الابتدائية بين العامية والأكاديمية، وأثر ذلك على رصيد التلميذ اللغوي والعلمي، وأفاق اللغة الأكاديمية في المدرسة الجزائرية في ظل التحولات الراهنة والمتسارعة بشكل كبير، لهذا حاولنا التقرب من مجموعة من معلمي الابتدائي في مدينة البويرة بطريقة العينة العشوائية البسيطة لرصد آراءهم حول لغة التواصل التي يستخدمونها في إيصال المعلومة العلمية والتربوية للتلميذ، وسبب اختيارهم لهذا النوع من اللغة (عامية او أكاديمية) واثار ذلك على مستقبل التلميذ، المدرسة والمجتمع معا.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الرمز، التفاعل الاجتماعي، التواصل الاجتماعي، المدرسة، اللغة العامية، اللغة الفصحى

### Abstract:

Language is considered as a constitutive aspect of the social persona of a particular society, and codified tool of communication and interaction between individuals, which consolidate social binds and social fit-in. Hence, any linguistic dysfunction effects social homeostasis in society, by privationit from a foundation of its Identity that makes its specificity amongst other societies.

From this point of view, we tried to identify the interaction

---

<sup>1</sup> أستاذ محاضر ب، جامعة البويرة

language used at elementary school (between common and academic) and its influence on syntonic and cognitive patrimony, plus the perspectives of academic language in Algerian school on the light of the current mutations. Therefore we tried to approach a representative group of elementary school teachers working in Bouira, applying a simple random sampling, in order to obtain an opinion poll about the type of language used to communicate pedagogically and academically, and the reason they choose this or that type of language. Plus the impact of that choice on the future of the pupil and the school and society in general.

**Key words:** Language ; symbol ; social interaction; social communication; school; common language; academic language.

#### مقدمة:

لقد اهتم مختلف العلماء والمفكرين على اختلاف تخصصاتهم بلغة الكلام، فالفلاسفة وعلماء المنطق اهتموا بعلاقة الفكر باللغة، واهتم علماء النفس بوصف اللغة كونها أحد ألوان السلوك البشري المهمة التي تكشف عن نفسية الإنسان، عواطفه، وانفعالاته، خلال مختلف مراحل حياته، في حين نجد علماء الاجتماع تتطرقوا لدراسة اللغة كظاهرة اجتماعية اساسية، وبيان وظيفتها الاساسية في المجتمع، من خلال ربطها بالظواهر الاجتماعية الأخرى، وبيان اثرها على الفرد والمجتمع معا، وانطلاقا من الاهمية الكبيرة للغة في مختلف جوانب الحياة العامة والمعرفية فقد ارتأينا التطرق الى اهمية اللغة في التواصل بين المعلم والتلميذ في المدرسة وكيفية انتاج اليات التفاعل وايصال المعلومة العلمية والتربوية بين المعلم والتلميذ ومدى استيعاب هذا الاخير للغة التدريس من جهة ونمط اللغة التي يستخدمها المعلم في ايصال المعلومة للتلميذ وتفسيرها له من جهة اخرى.

#### أولا - الاشكالية:

تعتبر اللغة ظاهرة انسانية اجتماعية في نفس الوقت، حيث ان لكل مجتمع مصطلحات لغوية خاصة به وتسهل التواصل فيما بين الاقراد وتمنحهم ميزة مستقلة عن المجتمعات الأخرى، لذلك فان أي خلل او سوء استخدام للمصطلحات اللغوية مع سوء فهمها يؤدي الى أزمة تواصل بين المتحدثين، ولهذا

تسعى مختلف الهيئات التعليمية من مدارس وجامعات الى الحرص على استخدام اللغة الرسمية في الدروس التعليمية والتربوية للحفاظ على المصطلحات وضمن التواصل السلس بين المعلم و التلميذ، خاصة وان المرحلة الابتدائية تعد الركيزة الاساسية التي يبني عليها الفرد بقية معارفه واتجاهاته الاخرى، فهي مرحلة حساسة في بناء الرصيد اللغوي للتلميذ ولعل أزمة اللغة الاجنبية التي يعاني منها طلبتنا وكذا بعض من الاساتذة هي نتيجة سوء التأطير اللغوي في المراحل الاولى من التعليم خاصة منها المرحلة الابتدائية، إلا اننا لاحظنا في الأونة الاخيرة أزمة لغة عربية ايضا إذ لاحظنا انتشار ظاهرة استخدام اللغة العامية (الدارجة) في المدارس الجزائرية مما افقد اللغة العربية مكانتها في المؤسسات الاجتماعية والاكاديمية المحلية وهو ما اثر على مكانة اللغة العربية في العالم، وانطلاقا من هنا نتساءل عن سبب اتجاه الاساتذة والمعلمين لاستخدام اللغة العامية للتواصل مع التلاميذ في المدرسة،

-هل ان اللغة العربية وتركيباتها الادبية ليست كفيلا بإيصال المعلومة للتلميذ؟ بالتالي نتساءل عن مستقبل وفاق اللغة العربية في المدرسة، الجامعة والمجتمع بكل مؤسساته؟

- هل انخفاض مستوى التكوين اللغوي لدى المعلم هو ما يجعله يستخدم العامية عوض اللغة الاكاديمية لعدم اتقانه لها، ام ان ضعف مستوى التلميذ اللغوي هو ما يجعل المعلم يستخدم العامية لإيصال الفكرة له؟

- أمان للبيئة والمحيط الاجتماعي للمدرسة اثر في اتجاه المعلم و التلميذ لاستعمال العامية بدل الفصحى؟

#### فرضيات البحث:

- الفرضية الاولى: انخفاض مستوى التكوين اللغوي للمعلم والتلميذ معا ادى الى استخدام العامية بدل الفصحى.

- الفرضية الثالثة: البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة تؤثر على نمط التدريس بها، حيث يغلب الجانب القيمي للعلاقات الاجتماعية في المنطقة على المدرسة، بمعنى درجة ارتباط الفرد بالمجتمع من خلال الحفاظ على لغته يعكس اهمية اللغة في المدرسة.

ثانيا - تحديد المفاهيم:

#### 1- مفهوم اللغة:

يعرفها " لالاندLalande " بقوله : " كل نسق من الإشارات يمكن أن

يستعمل للتواصل "و هناك من يعرفها على انها : "إنها تلك القابلية التي يتوفر عليها الإنسان لاختراع واستخدام الرموز بكيفية متعددة"<sup>1</sup> وبهذا المعنى تكون اللغة خاصة بالإنسان دون غيره من الكائنات الأخرى. وهي كما عرفها ابن جني "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"<sup>2</sup> فهي أصوات ذات معنى، وهي ظاهرة اجتماعية توجد حيث يوجد اجتماع الناس، تستخدمها كل جماعة للتعبير عن حاجاتها وأغراضها.

بالتالي اللغة من حيث هي كلام لا يمكن أن تكون إلا خاصة بالإنسان، فهو الكائن القادر على إنتاج الفكر و التعبير عنه كلاميا .

## 2- مفهوم التواصل الاجتماعي:

التواصل لغة من فعل "وصل" يشير إلى ضم الشيء إلى شيء آخر حتى يعلقه<sup>3</sup> والوصل في اللغة ضد الهجران<sup>4</sup> فالتواصل لغة هو الاقتران، الاتصال والجمع بين شيئين وكذا الاعلام<sup>5</sup>

و هو سلوك تفاعلي ووسيلة لنقل وتبادل المعلومات، المعاني والاحاسيس بين الافراد والجماعات، يتبعها الفرد في محاولة التأثير على افكار الاخر واقناعه بأفكاره واتجاهاته الخاصة<sup>6</sup>، ويكون التواصل إما لغويا من خلال الكلام او بطريقة غير لغوية<sup>7</sup>

فالتواصل نشاط انساني يقوم به الفرد يوميا للتواصل مع غيره من بني البشر، لتبادل المعلومات، يمتاز بالاستمرارية بمعنى ان التواصل بين الافراد غير منقطع وهو ميزة الحياة البشرية الاجتماعية<sup>8</sup>

## 3- مفهوم التفاعل الاجتماعي:

<sup>1</sup> أبو خلدون ساطع الحصري : اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1985، ص 82

<sup>2</sup> ميشال زكريا : الألسنية وعلم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983، ص 180

<sup>3</sup> منيرة حلبي، التفاعل الاجتماعي، الانجلو المصرية ، القاهرة 2006، ص 60

<sup>4</sup> نفس المرجع، ص 62

<sup>5</sup> محمد بن احمد الأزهرى، الهروي ابو منصور، تهذيب اللغة، ط1، ج 12، دار احياء التراث العربي، بيروت 2001، ص 165

<sup>6</sup> عصام سليمان الموسى، الاتصال الجماهيري، مكتبة الكتاني، العراق 1998، ص 22

<sup>7</sup> نفس المرجع، ص 25

<sup>8</sup> محمود حسن اسماعيل، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العالمية للنشر والتوزيع، بيروت 2003، ص 30

التفاعل الاجتماعي يتضمن مجموعة توقعات من جانب كل من المشتركين فيه<sup>1</sup> ، وكذلك يتضمن التفاعل الاجتماعي ادراك الفرد الاجتماعي وسلوك الفرد في ضوء المعايير عن طريق اللغة والرموز والإشارات وتكون الثقافة للفرد والجماعة نمط التفاعل الاجتماعي<sup>2</sup> وحينما تستقر أنماط التفاعل تأخذ أشكالاً منتظمة فإنها تتحول إلى علاقات اجتماعية كعلاقات الأبوة والأخوة والزمانة<sup>3</sup>. وانطلاقاً من التعريف السابق لكل من التواصل والتفاعل الاجتماعي يتبين لنا ان المفهومين لهما نفس المعنى، الا اننا نجد الفرق بينها في ان التواصل قد يكون بين طرفين دون تفاعل بمعنى او اصل روتيني لكن التفاعل هو الاحساس بتلك الصلة وعمق العلاقة بين الطرفين.

#### 4- مفهوم المدرسة:

لذلك تعددت تعريفات المدرسة باختلاف الاتجاهات النظرية و سنستعرض مجموعة من التعريفات التي تؤكد على وظيفتها، فالمدرسة هي " المؤسسة الخطيرة التي أنشأها المجتمع لتتولى تربية نشئه الطالع وهي تلك المؤسسة القيمة على الحضارة الإنسانية هي الأداة التي تعمل مع الأسرة على تربية الطفل"<sup>4</sup>.

ويرى أحمد محمد "أن المدرسة بناء اجتماعي يستمد مقوماته المؤسسية من التكوين الاجتماعي العام، تستمد منه هذه المؤسسة فلسفتها وسياساتها وأهدافها وتسعى إلى تحقيقها من خلال الوظائف والأدوار التي تقوم بها"<sup>5</sup> من خلال تلك التعريفات نجد أن المدرسة نظام متكامل له وظائف اجتماعية محددة في إطار الحياة الاجتماعية بالإضافة إلى وظائف رئيسة تقوم بها المدرسة.

#### 5- مفهوم الرموز:

الرموز هي معاني مكثفة ومركزة تعبر عن آراء الناس وإرادتهم وميولهم. فهي ذات موقع مركزي<sup>6</sup>، حيث ان التواصل الاجتماعي يتم عن طريق هذه الرموز<sup>7</sup>، فالحياة الاجتماعية ماهي الا عمليات تواصل وتبادل للمواقف التي تتم من خلال قيم معينة ولأجل قيم معينة. ان للتواصل قيما ومحددات واساليب توجهها.

<sup>1</sup> منيرة حلبي، نفس المرجع السابق، ص 86

<sup>2</sup> حسين عبد العزيز الدبريني، المدخل إلى علم النفس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1983، ص 98

<sup>3</sup> نفس المرجع، 102

<sup>4</sup> ناصر إبراهيم، أسس التربية، ط 2، دار عمار، عمان، ص 171

<sup>5</sup> الفينيش أحمد، أصول التربية، ط 3، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2004، ص 242

<sup>6</sup> محمد سعيد فرح، الشخصية القومية، دار المعارف، الإسكندرية 1981، ص 102

<sup>7</sup> محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، مطبعة الانتصار، الاسكندرية، 1988، ص 110

فاللغة تتكون من حروف وكلمات ومعاني وهي جميعا رموز تعبر عن شيء يريد ان يوضحه الانسان "فكرة، عمل، امر، موافقة، رفض<sup>1</sup> وقد تكون اللغة منطوقة او مكتوبة والرموز عبارة عن كلمات منطوقة او اشارات او حتى قيم ومعايير اجتماعية متفق عليها من الجماعة.

## 6- مفهوم اللغة العامية:

تعتبر ازدواجية اللغة من حيث استعمال اللغة او اللهجة العامية إلى جانب العربية الفصحى، ظاهرة لغوية منتشرة في جميع دول العالم، ولكل منهما مجالاته واستعمالاته، وتعرف اللهجة العامية بأنها طريقة الحديث التي يستخدمها السواد الأعظم من الناس، وتجري بها كافة تعاملاتهم الكلامية، وهي عادة لغوية في بيئة خاصة تكون هذه العادة صوتية في غالب الأحيان<sup>2</sup>

## 7- مفهوم اللغة الفصحى:

تعرف اللغة الفصحى بأنها لغة الكتابة التي تدون بها المؤلفات والصحف والمجلات، وشؤون القضاء والتشريع والإدارة، ويؤلف بها الشعر والنثر الفني، وتستخدم في الخطابة والتدريس والمحاضرات، وفي تفاهم العامة إذا كانوا بصدد موضوع يمت بصلة إلى الآداب والعلوم<sup>3</sup>، ومن ميزاتها انها لغة اشتقاق قائمة على الفعل الثلاثي "فعل" ولها تراكيب خاضة لا توجد في أي لغة اخرى من لغات العالم<sup>4</sup>

ثانيا - منهجية البحث وتقنيات البحث: المنهج هو يعني الطريقة في سعيه للكشف عن الحقيقة<sup>5</sup>يراعي خصائص الموضوع المدروس، واعتمادا على طبيعة الموضوع وأهدافه من خلال الفرضيات المذكورة أعلاه اعتمدنا على المنهج الوصفي الذي يساعد في رصد وضعية اللغة الفصحى في المدرسة الجزائرية، وظروف ظهور اللغة العامية في المدرسة واثرها على مستقبل وفاق اللغة في المؤسسات التعليمية خاصة والمجتمع ككل، من خلال رصد آراء القائمين على تعليم اللغة في المدارس

<sup>1</sup>قيس النوري، الانثروبولوجية النفسية، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1990، ص378

<sup>2</sup>علي عبد الواحد وافي، "فقه اللغة"، ط7، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة1972، ص153

<sup>3</sup>مجد البرازي، مشكلات اللغة العربية المعاصرة"، ط1، مكتبة الرسالة، عمان1989، ص55

<sup>4</sup>أنور الجندي، "الفصحى لغة القران"، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، ص188

<sup>5</sup>Madeleine Grawitz, Méthodes des sciences sociales, edition11, Dalloz paris 2000, p30

الابتدائية.

## 1- مجتمع البحث:

اخترنا المدارس الابتدائية في مدينة البويرة للقيام بالبحث الميداني نظرا لانتمائنا لهذه الأخيرة بالتالي امكانية وسهولة التواصل مع هذه المدارس ومقابلة المعلمين في المدارس الابتدائية بها بسهولة ومرونة، حيث قمنا باختيار عينة عشوائية من معلمي ثلاث مدارس ابتدائية بمدينة البويرة، وراعينا في ذلك طبيعة المنطقة او الحي الذي تتواجد به المدرسة، لمعرفة مدى اثر البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة على المنهج المتبع في التعليم المدرسي، حيث اخترنا مدرسة من منطقة شبه ريفية، مدرسة أخرى من منطقة شعبية في المدينة، والمدرسة الثالثة من حي راقي.

بما أننا من سكان منطقة البويرة فان هذا قد ساعدنا كثيرا في جلب اكبر عدد ممكن من المبحوثين، حيث تم استجواب اكثر 50 معلم ومعلمة من هذه المدارس الثلاث ومختلف المدارس الاخرى في المدينة، للإحاطة اكثر بالموضوع، إلا أننا اكتفينا بتحليل 40 مقابلة فقط نظرا لتشابه أقوال المبحوثين وتكرار نفس الآراء وهو ما يسمى منهجيا ببلوغ نقطة التشبع.

## 2- أدوات جمع البيانات:

هي عبارة عن تقنيات منهجية يعتمد عليها الباحث في جمع المعلومات المراد الحصول عليها، وفي بحثنا هذا موضوع الدراسة اعتمدنا على تقنيتان لجمع المعلومات وهي الملاحظة، والمقابلة، وذلك لتناسب هذه التقنيات مع خصائص عينة البحث وأهدافه.

## 3- الملاحظة:1

حيث تم توظيف الملاحظة منذ بداية العمل بحكم أننا بالجامعة وملاحظ ظاهرة استعمال العامية بدل الفصحى حتى على مستوى الجامعة، بالإضافة إلى الاحتكاك مع مجموعة من المعلمين الذين يواصلون دراستهم بالجامعة بالتالي كونت فكرة عن حجم الظاهرة نوعا ما.

## 4- المقابلة:2

<sup>1</sup> صلاح الدين شروخ، منهجية البحث العلمي. دار العلوم للنشر والتوزيع. الجزائر 2003. ص 92  
<sup>2</sup> نفس المرجع، ص 105

اما في ما يخص تحليل البيانات المحصل عليها بطبيعة الحال اعتمدنا على تحليل محتوى المقابلات من خلال ربط نتائج المقابلات بمتغيرات فرضيات البحث للوصول الى استخلاص النتائج النهائية للبحث.

حيث قسمنا دليل المقابلة إلى محورين رئيسيين، حيث خصصنا كل محور لفرضية من فرضيات البحث تناولنا في المحور الأول رأي المعلمين حول مكانة اللغة العربية بالمدرسة والمجتمع الجزائري في ظل تسارع وتسايق الافراد لتعلم لغات اجنبية والتعامل بها في مختلف مجالات الحياة العامة، العلمية والمهنية في مجال البحث العلمي ومدى قدرتها على مواكبة التطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة، لمعرفة مدى في ما خصصنا المحور الثاني لمعرفة تأثير البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة على انماط التدريس لاسيما استخدام اللغة الفصحى في التدريس من المعلمين والتلاميذ معا.

### ثالثا- نتائج البحث:

بعد القيام بالمقابلات مع افراد العينة المختارة بعد تفريغ محتواها حيث تراوحت مدة المقابلة من 30 دقيقة الى ساعة، تم اجراءها ما بين شهر ابريل ومايو من السنة الجارية (2016)، حيث تم الاتصال بالأساتذة مسبقا وبعد اخذ الموافقة حددنا موعد لإجراء المقابلة، حيث وبحكم عملنا في الجامعة فقد اخترنا الجامعة كمكان لإجراء المقابلة الذي تم اقتراحها من قبلنا واستحسنه افراد العينة، وبعد تفريغ محتوى المقابلات التي تم تسجيلها بجهاز تسجيل خاص، ومن خلال تحليل محتوى الفرضيات على ضوء محتوى المقابلات توصلنا الى النتائج التالية، والتي سنحاول عرضها حسب الفرضيات بالترتيب:

- نتائج تحليل محتوى الفرضية الاولى: انخفاض مستوى التكوين اللغوي للمعلم والتلميذ معا ادى الى استخدام العامية بدل الفصحى.

1- اكثر من 60% من افراد العينة، حملوا مسؤولية عدم اتقان اللغة الفصحى لدى التلاميذ للأسرة، باعتبارها المسؤول الاول عن تعليم الطفل اللغة، من خلال تبني الاسرة فكرة ان العصرية في اتقان اللغات الاجنبية، والتعامل بها في الحياة اليومية ادى إلى فقدان العربية بريقها، حيث اصبح الطفل في الابتدائي يتقن الفرنسية والانجليزية في بعض الاحيان، نتيجة تعوده على التواصل بها مع اسرته واصدقائه، بالتالي فانه عندما يلتحق بالمدرسة والاحتكاك لأول مرة باللغة العربية يصعب عليه استيعابها، وبما أن التلميذ الابتدائي مازال في مرحلة الطفولة



فالمعلم يلجأ إلى مساندة التلميذ ومخاطبته باللغة التي يتقنها وهي اللغة العامية الاقرب إلى الفصحى عوض استخدام اللغات الأجنبية، من هنا تظهر لنا من جديد اهمية التنشئة الاسرية للطفل وضرورة مراعاة الاسرة للقيم و الرموز الاجتماعية للمجتمع في تربية الطفل لتجنب وقوع تصادم او صراع قيمي و لغوي في المستقبل، وبما ان اللغة رمز من رموز الهوية الوطنية والاجتماعية فقد يؤدي صراع اللغات إلى صراع هويات.

2- لاحظنا نسبة 70% من عينة البحث، لا تعتبر ان استخدام اللغة العامية في المدارس ظاهرة اجتماعية تستدعي الدراسة، وقد برروا ذلك في كون أن استخدام المعلم للغة العامية يكون فقط في شرح الدروس، وذلك كاستراتيجية من استراتيجيات التعليم والتعلم، ومن اجل ايصال الفكرة والمعلومة لأكبر عدد ممكن من التلاميذ بشكل سهل مبسط، لكن تبقى الدروس المكتوبة، الامتحانات والاجابة على الاسئلة الكتابية باللغة الفصحى، بالتالي فلا اشكال في الموضوع حسب افراد العينة، بالتالي نلاحظ ان القائمين على تعليم اللغة لا يشعرون بحجم الاشكال وهو ما يزيد من انتشار الظاهرة واتساعها حيث اصبح استخدام اللغة العامية حتى في الجامعات في التعليم، المناقشات وحتى الملتقيات العلمية، وذلك لسلسلة الحوار والتفاعل بالعامية اكثر من بالفصحى.

3- لاحظنا في النقطة الأولى ان افراد عينة البحث حملوا الاسرة جزء من مسؤولية استخدام التلميذ للغة العامية عوض الفصحى في المدرسة، ومن جهة أخرى نجد 55% من افراد عينة البحث تحمل مؤسسة أخرى من المؤسسات الاجتماعية التعليمية مسؤولية فقدان اللغة الفصحى لمكانتها في المدرسة والجامعة الجزائرية، وذلك من خلال التكوين الجامعي للأساتذة إذ ان معلمي الابتدائية ليسوا بالضرورة ليسانس لغات وانما يشمل كل التخصصات وهو ما يفسر ضعف المستوى اللغوي لبعض المعلمين مما يجعلهم يتجهون للعامية في شرح الدروس والتواصل مع التلاميذ، لتغطية النقص اللغوي لديه امام التلاميذ، بالتالي فان مستوى التكوين اللغوي للمعلم دور مهم في الحفاظ على اللغة الفصحى في التفاعل والتواصل التعليمي في المدرسة.

4- من خلال تصريح افراد العينة عن أن اتجاه الاولياء لتعليم ابناءهم اللغات الأجنبية بدل العربية الفصحى مما اثر على درجة استيعاب و اتقان التلميذ للفصحى في المدرسة وهو ما جعل المعلم يتجه هو الاخر إلى استخدام العامية في التواصل المدرسي، تساءلنا عن رأي أفراد العينة وتفسيرهم لهذه الظاهرة، وما إذا كانت اللغة العربية بعيدة عن التطور العلمي والتكنولوجي

المعاصر وهو ما جعل الافراد يتجهون لتعلم اللغات الاجنبية، فكان رد العينة بنسبة 55% ان العربية لها من المفردات والتراكيب اللغوية ما يخولها لمنافسة أي لغة اجنبية علمية أخرى، وبالرغم من أن معظم البحوث والتطورات التكنولوجية الحديثة تجرى باللغة الاجنبية الانجليزية إلا أن للعربية مفردات تواكب مختلف هذه التطورات، لكن الاشكال هو في الفهم الخاطئ للعصرنة والتقدم لدى الفرد والمجتمع الجزائري في كون العصرنة هي في التواصل والتفاعل الاجتماعي باللغات الاجنبية عوض اللغة الام هو ما افقد العربية الفصحى بريقها ومكانتها في المجتمع و مختلف مؤسساته.

تجدر الاشارة إلى ان 65% من افراد عينة البحث وهم من المعلمين الابتدائيين قد استخدموا اللغة العامية في المقابلة، بالتالي نقول ان ضعف التكوين اللغوي الجامعي للمعلم هو ما يدفعه لاستعمال العامية بدل الفصحى في المدرسة لإخفاء ضعفه اللغوي، متحججا في ذلك بمراعاة مستوى التلميذ اللغوي الذي لا يسمح له باستيعاب الدروس بالفصحى بسبب التربية اللغوية الاجنبية التي تلقاها في الاسرة مشيرا إلى اثر الغزو الثقافي اللغوي الغربي واثره في اتجاه الافراد إلى تبني هذه اللغات سعيا إلى العصرنة والحداثة وهو ما اثر على التنشئة اللغوية للأبناء، حيث نجد اطفال في سن السادسة والسابعة يتكلمون الفرنسية مع اسرهم عوض اللغة المحلية، وهو ما سيؤثر في على الطفل مستقبلا في المدرسة حيث يجد نفسه ملزما على التعامل بالعربية وعدم اتقانه لها يدفعه للتعامل بالعامية، وهو ما يضطر المعلم لاستعمال العامية لإيصال المعلومة للتلميذ، لكننا نتساءل هنا عن دور المدرسة كمؤسسة تعليمية مكتملة للتربية الاسرية لاسيما منها الجانب التعليمي لاسيما الابتدائية كأول مؤسسة يتعامل معها الطفل بعد الاسرة؟ وهنا يظهر من جديد ضعف المعلم اللغوي حين صرح افراد العينة عن دور الجامعة إلى حد كبير في التكوين اللغوي الضعيف للمعلم، مما يشير إلى ان ظاهرة استخدام العامية في المؤسسات التربوية والتعليمية تجاوزت المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، مما يستدعي من الباحثين إلى المزيد من البحوث والدراسات حول هذه الظاهرة لمعرفة اسبابها خاصة وانها تمس بركيزة من ركائز الهوية الوطنية الا وهي اللغة ومؤسسة من اهم مؤسسات التربية والتعليم الا وهي المدرسة.

**نتائج تحليل الفرضية الثالثة: البيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة تؤثر على نمط التدريس بها، حيث يغلب الجانب القيمي للعلاقات الاجتماعية في المنطقة على المدرسة، بمعنى درجة ارتباط الفرد بالمجتمع من خلال الحفاظ على لغته يعكس اهمية اللغة في المدرسة.**

لقد سبق وان اشرنا الى اننا قمنا ببحث ميداني في ثلاث مدارس ابتدائية من مناطق مختلف لمدينة البويرة لمعرفة اثر البيئة الاجتماعية على المدرسة، خاصة واننا قد توصلنا في الفرضية الاولى الى انه من اسباب استخدام اللغة العامية في المدارس هي ضعف مستوى التلميذ اللغوي في العربية الفصحى مقارنة باللغات الاجنبية، وحاولنا معرفة ما إذا هذا السبب عام أم أنه خاص فقط بالمناطق الراقية للمجتمع وهناك اسباب اخرى مرتبطة بالبيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة وكانت نتيجة البحث كالتالي:

1- لاحظنا في المنطقة الاولى وهي منطقة شبه ريفية بالضواحي الشرقية لمدينة البويرة، وهي ابتدائية تتوسط قرية زراعية، أن 60% من افراد العينة صرحت بأن التلاميذ من أسر متوسطة من الناحية المادية والعلمية بالتالي فإن اغلبية التلاميذ لم تسمح لهم الفرصة للتعليم بالحضانة أو المدارس التحضيرية الخاصة، وهو ما يفسر ضعف التلاميذ لغويا مما يدفع المعلم الى استخدام العامية للتواصل أكثر مع التلاميذ ومحاولة تدارك النقص اللغوي بزيادة نسبة الاستيعاب لدى التلميذ لمختلف الدروس التي يتلقاها حتى وان كان باللغة العامية، فالمهم بالنسبة لهؤلاء هو ايصال الفكرة والمعلومة المعرفية للتلميذ، حيث صرح افراد العينة من معلمي المدرسة أن التلاميذ ضعفهم اللغوي ينطبق ايضا على اللغات الاجنبية، وهو ما يصعب من المهمة التعليمية لأساتذة اللغات، حيث صرح هؤلاء انهم يستخدمون العربية العامية وحتى القبائلية في التدريس للوصول للهدف.

2- المدرسة الثانية وتتواجد في منطقة حضرية شعبية، حيث تمتاز هذه المدرسة بالاحتفاظ في الاقسام وكثرة التلاميذ، وكثرة الاحتفاظ غالبا ما يسبب التوتر و ضعف الضبط والتحكم في الفصل وتسييره بشكل جيد، وهو ما يجعل المعلم يركز فقط على كيفية تقديم الدرس للتلاميذ وايصال المعلومات له بغض النظر عن اللغة التي يستخدمها لذلك، وهو ما صرح به افراد العينة من هذه المدرسة، بالتالي فإن المعلم يستعمل أبلغا يفهمها التلاميذ والحرص على شرح المادة العلمية أكثر من لغة التواصل، وقد علمنا من افراد العينة ان اغلبية تلاميذ المدرسة تلقوا تعليما تحضيريا بالمدرسة نفسها إذ ان المدرسة تتوفر على اقسام تحضيرية للأطفال دون 5 سنوات، إلا أن هذه الاقسام حسب افراد العينة لم يعطى لها الاهمية المطلوبة اذ انها غالبا ما يكلف بها معلمين مبتدئين لا خبرة مهنية لهم بالتالي لا يعرفون طرق واستراتيجيات التواصل مع التلميذ المبتدئ، مما يدفع المعلم للنزول لمستوى التلميذ خاصة لغويا من أجل السيطرة على الفصل وتحقيق

الهدف من المواد التعليمية بنسبة 65%، مقابل 35% من افراد العينة ممن اعتبر ان استخدام اللغة العامية اختيار شخصي لتسهيل التواصل غالبا ما يكون بسبب الضعف اللغوي للمعلم.

3- المدرسة الثالثة وهي من منطقة راقية بولاية البويرة ة اغلب تلامذة المدرسة من اثرياء المدينة، والحقيقة ان معلمي المدرسة أشاروا الى نوع من المستوى الجيد من الوعي العلمي والتربوي لدى التلاميذ، سواء من حيث العلوم او من حيث المستوى اللغوي في مختلف اللغات الفصحى او اللغات الاجنبية، الا اننا لاحظنا ان افراد العينة استعملوا معنا اللغة العامية اثناء اجراءنا للمقابلة معهم، فتساءلنا عن نوع لغة التواصل التي يستخدمونها في شرح الدروس والتواصل مع التلاميذ، فكانت اجاباتهم بنسبة 45% بأنهم يستخدمون اللغة العامية في شرح الدروس لاسيما العلمية منها كشرح التجارب العلمية مثلا لتبسيط الدرس للتلاميذ، 30% قالوا انهم يستخدمون العامية في اغلب الدروس إلا في دروس اللغة العربية نفسها وذلك من اجل التواصل والانفعال بعفوية مع التلاميذ واعطاء فرص للتلاميذ الذين لا يتقنون الفصحى جيدا في فهم الدرس والتفاعل مع الفصل ايضا، في حين نجد 25% من باقي افراد العينة من المدرسة يستخدمون اللغة الفصحى بشكل واسع في المدرسة رغم ان معظم الطلبة يستخدمون العامية لكنهم يحاولون تعويد التلاميذ على الفصحى.

#### الخاتمة:

بالتالي فإن للبيئة الاجتماعية المحيطة بالمدرسة دور كبير في تحديد مستوى التلميذ وأن توفر وسائل التربية والتعليم الحديثة تساعد الى حد ما من التقليل من الصعوبات اللغوية للتلميذ في المدرسة ويسهل من مهمة المعلم التعليمية ، الا أن لمؤسسات التنشئة الاجتماعية والمؤسسات التربوية والتعليمية للمجتمع دور اكبر في اعطاء اللغة العربية الفصحى دورها ومكانتها الفعلية في المدرسة والمجتمع ككل، من خلال تربية الأبناء على اصول اللغة الفصحى في المدارس تعليم الابناء أن اللغة العربية هي لغة المجتمع الجزائري واتقانها والارتباط بها انما هو ارتباط بهوية المجتمع.

## المراجع:

- أبو خلدون ساطع الحصري : اللغة والأدب وعلاقتها بالقومية. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1985
- أنور الجندي، "الفصحى لغة القران"، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982
- حسين عبد العزيز الدريفي، المدخل إلى علم النفس، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة 1983
- صلاح الدين شروخ، منهجية البحث العلمي. دار العلوم للنشر والتوزيع. الجزائر 2003
- علي عبد الواحد وافي، "فقه اللغة"، ط7، دار النهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة 1972
- عصام سليمان الموسى، الاتصال الجماهيري، مكتبة الكتاني، العراق 1998
- الفنیش أحمد، أصول التربية ، ط 3، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت 2004
- قيس النوري، الأنثروبولوجيا النفسية، دار الحكمة للطباعة والنشر، الموصل، 1990
- مجد البرازي. "مشكلات اللغة العربية المعاصرة". ط1، مكتبة الرسالة، عمان 1989
- محمد بن احمد الازهري، الهروي ابو منصور، تهذيب اللغة، ط1، ج12، دار احياء التراث العربي، بيروت 2001
- محمد سعيد فرح، الشخصية القومية، دار المعارف، الإسكندرية 1981
- محمد عاطف غيث، قاموسي علم الاجتماع، مطبعة الانتصار، الاسكندرية، 1988
- محمود حسن اسماعيل، مبادئ علم الاتصال ونظريات التأثير، الدار العالمية للنشر والتوزيع، بيروت 2003
- منيرة حلبي، التفاعل الاجتماعي، الانجلو المصرية، القاهرة 2006
- ميشال زكريا، الألسنية وعلم اللغة الحديث، المبادئ والأعلام، بيروت، المؤسسة

الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1983.

- ناصر إبراهيم، أسس التربية، ط 2، دار عمار، عمان، د.س.

Madeleine Grawitz, Méthodes des sciences sociales, -

edition 11, Dalloz paris 2000, p30

## البيئة العباسية وأثرها على اللغة الشعرية العباسية

د.محمد محمود علي العمرو

د.عماد علي سليم الخطيب

جامعة العلوم الإسلامية العالمية عمان

### الملخص:

يعد الشعر العباسي نقطة تحول في الشعر العربي القديم ، وقد واجه الشاعر العباسي صعوبة كبيرة في باب الاعتراف بطريقته الشعرية ، ولا سيما مع النقاد الذين راحوا يؤلفون كتباً حول أخطائهم ، فجاءت دراستنا محاولة إثبات أن الشعر العباسي يحتل شكلاً من أشكال التأثير بالبيئة العباسية ، فالشاعر إنما يحاكي جميع أشكال البيئة العباسية من حضارية وثقافية وعلمية واجتماعية ومعمارية وطبيعية ، وجميع أشكال العلوم ، وحاولنا إثبات ذلك من خلال شاعرين من شعراء البديع هما: أبي تمام ، وابن المعتز ، فحاولنا من خلال لغتهما إثبات أن لغتهما لصيقة بالبيئة العباسية.

### Abstract

Abbassi poetry considered as a turning point in the classical Arabic poetry. The Abbassi poet had faced a big problem in verifying his method in writing poetry especially with these criticals whom started writing books talking about Abbassi poetry falls. This study is an attempt to prove that the Abbassi poetry is one of the effects of Abbassi lifestyle.

The poet goes with the all Abbassi lifestyles ، civilization, education, science, social, architects and natural. And all types of sciences. The researcher tries to prove that by studying the poetries of two Abbassipiets: Abu Tammany and IbnAlmuataz.the researcher tries to prove that their language is very close to the Abbassi lifestyle.

- المقدمة: يعد العصر العباسي عصر ازدهار ثقافي وعلمي وحضاري ، قد تجلت هذه الأركان في جميع أشكال الحياة العباسية ، حيث الشكل المعماري والتفنن في تزيين المنازل والحدائق الملحقة بالمنازل وماحوت من نوا فير وأنهر ماء تجر إليها ، وقد رأينا أثر المدنية الناتجة عن الحضارة الجديدة تصل إلى جميع

أشكال الحياة حتى اللغة ، إذ بات المجتمع العباسي بتطوره لا يطبق اللغة البدوية بما فيها من وحشي ووحشي ، حتى أن الشاعر العباسي بدأ يثور على شكل القصيدة العربية التي ترتبط بالبداءة والصحراء ، فراح يستبدل الطلل بالبساتين والخمريات وغيرها بما يتناسب مع طبيعة الحياة العباسية ، فهل أثرت هذه الحياة بنمطها الجديد على اللغة العباسي التي راحت تكثر من فن أطلقوا عليه اسم البديع؟

لقد تناولنا في بحثنا هذا عرضاً مجملاً للحياة الاجتماعية العباسية ، وما طرأ عليه من تطور بسبب انصهار الأمم والشعوب فيها ، وانعكاس ذلك على الحضارة العربية والإسلامية ، في جميع أشكال الحياة العلمية والثقافية والحضارية ، ثم تعرضنا إلى اثر هذه الحياة بنمطاتها ونسيجها على الشكل اللغوي في القصيدة ، ولا سيما قصيدة البديع التي راحت تهز المجتمع العباسي بطريقتها الجديدة ، واحتدام بسببها الصراع بين النقاد والشعراء ، وكان على رأسهم شاعرنا الذي تناولناه في القسم التطبيقي ، وهو أبو تمام ، بالإضافة إلى شاعر عاش في خضم هذه البيئة العباسية المترفة ، وهو الشاعر الأمير ابن المعتز .

. ملامح الحياة الاجتماعية في بغداد:

انتقلت الخلافة إلى البيت العباسي بواسطة زعامة الفرقة الكيسانية التي أسسها محمد بن الحنفية ، وبعد وفاته آلت إلى ابنه أبي هاشم الذي توطدت العلاقة بينه وبين ابن عمه محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ، وحين دنت وفاته أوصى بخلافة الفرقة إلى محمد بن علي ، وبهذا الشكل انتقلت زعامة

. الفرقة من البيت العلوي إلى البيت العباسي<sup>(1)</sup>.

لقد اختار محمد بن علي بن عبدالله بن العباس أن يكون مقر دعوته في خراسان ، وذلك لأن القلوب فيها خالية من حب أي قائد من قادة المسلمين الكبار ، كأبي بكر وعمر . رضي الله عنهما . اللذين استحوذا على قلوب المسلمين في مكة والمدينة ، وسواهما من العالم الإسلامي ، أضف إلى ما سبق انزعاج أهل خراسان وسائر الأعاجم من حكم بني أمية الذي كان يقرب العرب ويقصي الأعاجم ، وبذلك استطاع العباسيون الوصول إلى الحكم ، وجعلوا حاضرتهم في العراق<sup>(2)</sup>.

(1) انظر: شوقي ضيف العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ص15.

(2) انظر: المرجع السابق ، ص 15 ، وانظر كذلك: محمد الخضري ، الدولة العباسية ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ص 16 ، 17 ، وانظر كذلك: حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البوليسية ، بيروت ، ط12 ، 1987م ، ص 349.



لقد قام العباسيون بإطلاق أيدي الخرسانيين في الحكم ، وقد كان هذا الإطلاق شكلاً من أشكال رد الجميل لهم ، إذ أصبح الوزير الفارسي صاحب سيادة ورياسة ، أما العنصر العربي فقد تأخر ، وبذلك كانت الدولة العباسية من هذه الوجهة مغايرة للدولة الأموية ، وأصبح العرب كسائر الأعراق التي شكلت الدولة العباسية من حيث المكانة ، إذ لا فضل لهم ، وتحولت بذلك وجهة الدولة من البحر المتوسط إلى شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء العباسيين في بغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن<sup>(1)</sup>.

لقد أصبحت الدولة العباسية في زمن وجيز تمتد من إفريقيا غرباً إلى الهند والصين شرقاً ، وبدأ الموالي يعتزون بأنفسهم ، وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم لأنهم أقدم حضارة وأعرق نسباً وسلطاناً ، وأخذت شوكتهم تقوى حتى ظهرت حركة الشعوبية عند الفرس<sup>(2)</sup>.

وقد قسم الأعاجم المجتمع العباسي إلى طبقات ، احتل الفرس فيها الطبقة الأولى بادي الأمر ، حيث كانوا عماد الدولة ، وعماد النظام السياسي والإداري وكانت لهم منزلة رفيعة ، وتلاههم الأتراك ، ولا سيما بعد أن قربهم المعتصم واصطفاهم ، فزاد خطرهم ، وأصبحوا أصحاب نفوذ في الخلافة ، على أنهم لم يتميزوا إلا بسمعة النظافة والجمال ، وحب الجنديّة والفروسية<sup>(3)</sup> ، وخير من وصف الأتراك الجاحظ في رسائله حيث قال: وإذا سار الترك في غير عساكر الترك ، فسار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلاً ، لأنه ينقطع عن العسكر يمناً ويسرة ، ويسرع في ذرى الجبال ، ويستبطن قعور الأودية في طلب الصيد ، وهو بذلك يرمي ما دبّ ودرج وطار ووقع<sup>(4)</sup>.

ثم يأتي الروم الذين كثروا في بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلمان والجواري ، وأخيراً الزوج الذين يحضرون من سواحل أفريقيا الشرقية ، وكانوا يجلبون للعمل في الزراعة والصناعة وبيوت الطبقة الوسطى<sup>(5)</sup>.

(1) انظر: حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 350.

(2) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 74 ، 75 ، وانظر كذلك: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، دار الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م ، ص 25.

(3) انظر: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص 26.

(4) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1991م ، ج 1 ، ص 49.

(5) انظر: أمين أبو الليل ، ومحمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص 26.

لقد شهدت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي امتزاجاً كبيراً بين الحضارات والأعراق من جهة ، ومن جهة أخرى اتسم هذا العصر بالحضارة والثراء والترف ، ولا سيما في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة ، إذ حملت الأموال إلى خزائن الدولة من كل الجهات ، وكانت تلك الأموال المعين المغدق الذي ينصب ، وقد هيأت هذه الأموال كل وسائل الترف في مناحي الحياة ، وظهر أثر ذلك واضحاً على الأدباء عامة والشعراء خاصة ، إذ لبسوا الوشي والمقطعات الحريرية ، ولبس المغنون قطوع الديباج والخز ، واستكثروا جميعاً من العطور وأنواع الطيب الغالية ، وبالغت المرأة في زينتها وأناقتها ، ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زبيدة زوج الرشيد<sup>(1)</sup> وانتشرت العادات الفارسية في المجتمع من حيث تنسيق البيوت وبناء حجرات الجلوس والنوم والمعيشة ، حتى أن العرب احتفت بأعياد الفرس ، كالنيروز ، ويوم المهرجان<sup>(2)</sup>.

أما البيت البغدادي فأبرز ما يميزه كثرة الشرفات التي تلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك ، وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلى بالنقوش ، وتصنع النوافذ من الزجاج الملون ، وتزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأزهار ، وقد يذهب السقف والأبواب وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير ، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء أما الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية ، ومناضد الأبنوس ، وتمائيل العقيان<sup>(3)</sup>.

وإذا ما انتقلنا إلى نوعية الطعام والشراب ، فجل تلك الأصناف كانت فارسية ، وقد حشد الجاحظ في كتاب البخلاء عدداً كبيراً من الأطعمة كالسباج ، وهو لحم يطبخ بخل مع شيء من الزعفران لتطيب رائحته ، والطبايح وهو لحم وبيض وبصل ، أما الحلوى فمنها الفانيذ ، وهي مكونة من الدقيق والسكر والسمن ، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر<sup>(4)</sup>.

ومقابل هذا الحياة المترفة عند الطبقة العليا في المجتمع العباسي ، فقد عبر أبو العتاهية عن حياة شعب بئس يئن تحت أثقال الفقر وشظف الحياة<sup>(5)</sup>، يقول

(1) انظر: سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العباسي ، دار المسيرة ، عمان ، 2011م ، ص 21.

(2) انظر: أمين أبو الليل ، مجدي ربيع ، العصر العباسي الأول ، ص 27.

(3) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 45.

(4) انظر: الجاحظ ، البخلاء ، اعتنى به: مصطفى شح مصطفى ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، 2006م ، ص 180.

(5) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 250. 251.

يقول أبو العتاهية:<sup>(1)</sup>

أسعار الرعية غالية	إني أرى الأسعار
وأرى الضرورة غاشية	وأرى المكاسب نزرة
ثحة تمر وغادية	وأرى غموم الدهر
مل في البيوت الخالية	وأرى اليتامى والأرا
يسمو إليك وراجيه	من بين راج لم يزل
تمسى وتصبح طاوية	من مصيبات جوع
ت وللجسوم العارية	من البطون

يتضح من شعر أبي العتاهية أن الشعب يعيش حياة الفقر والجوع ،

وهذا الجوع كان عاماً حتى أنه طال اليتامى والأرامل ، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على مقدار ما وصل إليه المجتمع العباسي من طبقيّة مقبّية ، إضافة إلى عدم وجود نظام تكافل اجتماعي يضمن لليتامى والأرامل حق العيش الكريم ، ويشير أيضاً إلى عدم تحقيق أهداف الثورة العباسية التي كانت تدعو إلى المساواة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن العصر العباسي قد شهد اهتماماً كبيراً بالجواري ، فقد تم تعليمهن وثقيفهن ، وجرت العادة أن يقوم الخلفاء بامتحان ثقافتهم ، فاشتهرن بنبوغ الشعر وسرعة الجواب وحضور البديهة ، ولقد ساهمن إلى جانب ما مضى في نشر المجون والخلاعة ، حتى قيل إن بعض الجواري قد سيطرن على بعض الخلفاء ، وتدخلن في شؤون السياسة<sup>(2)</sup>.

ونظراً لما سبق فلا غرابة إذن أن نجد جلّ خلفاء بني العباس هجناً أبناء إماء وجوار ، فالمنصور أمه بربرية ، والمأمون أمه فارسية ، والمعتمد والواثق والمتوكل والمستعين من أمهات تركيات ، حتى إن هناك من قال: إنه ليس هناك في خلفاء بني العباس من أبناء الحرائر إلاّ السفاح والأمين ، أما سائر الخلفاء فأبناء إماء<sup>(3)</sup>.

لقد كانت هذه طبيعة الحياة العباسية ، فكيف إذا عرفت أن بعض خلفاء بني عباس الذين كانوا يعيشون في نعيم الحياة التي ذكرنا بعضاً من خصائصها

(1) أبو العتاهية ، الديوان ، دار صادر دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1964 ، ص 487.

(2) انظر: مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، دار اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009 ، ص 244 وما بعدها.

(3) انظر: المرجع السابق ، ص 244.

ينظمون الشعر؟ وكيف نتوقع أن تكون لغتهم؟ وكيف إذا عرفنا أن الجوّاري هن المحرك للمشاعر الدافعات لنظم الشعر؟

لا شك أن هذه الحياة المترفة التي انعكست بطبيعتها على جميع شؤون الحياة المعمارية والتجميلية التزيينية ، إضافة إلى الحياة العلمية والثقافية التي انعكست بجمالياتها على جماليات الأدب العباسي ، ولا سيما لغة البديع الذي يعد شكلاً من أشكال تطور اللغة العباسية ، وواحداً من أبرز خصائصها.

أما الجوّاري فقد شغف بهن كل من الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة إضافة إلى الشعراء ، فقد تمكّن من قلوبهم جميعاً ، وتركّن فيهم أبلغ الأثر من أحاسيس متباينة ، من حب وكره ، وصدود وإقبال ، وألم الشوق ولذة الوصال ، لوعة والفراق وفرحة التلاقي ، ونحن في هذا الصدد نجد كثيراً من تلك الأشعار بسبب هذه الحوادث المختلفة<sup>(1)</sup> ، فقد كان للمهدي جارية شغف بها وهي كذلك إلا أنها تتحاماه كثيراً ، فدرس إليها من عرف ما في نفسها ، فقالت: أخاف أن يملّني ويدعني فأموت ، فقال المهدي في ذلك:<sup>(2)</sup>

ظفرت بالقلب مني	غادةً مثل الهلال
كلما صح لها ود	ي جاءت باعتلال
لا لحب الهجر مني	والتأني عن وصال
بل لإبقاء على حبي	لها خوف اعتلال

لقد اشتهر من الجوّاري بنبوغ الشعر جارية المأمون تتريف ، فكانت من مولدات البصرة بارعة الجمال والحسن ، بديعة الظرف موصوفة بالكمال ، وكانت تقول الشعر ، فوصفت للمأمون فاشتراها فوقعت بقلبه وقدمها على سائر حظاياها ، ولما مات المأمون وفت له ، وقصرت نفسها على البكاء عليه واشتد جزعها ، وأقبلت ترثيه وتنوح عليه حتى ماتت<sup>(3)</sup> ومن شعرها:<sup>(4)</sup>

(1) انظر: المرجع السابق ، ص 265.

(2) جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق: ياسر رمضان ، ومحمد سيف ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2006م ، ص 178.

(3) انظر: مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، ص 256.

(4) جلال الدين السيوطي ، المستطرف من أخبار الجوّاري ، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1991م ، ص 65.

إن الزمان سقانا من مراراته  
أبدى لنا تارة منه فأضحكنا  
بعد الحلاوة أنفاساً فأروانا  
ثم أتى تارة أخرى فأبكانا  
إنا إلى الله فيما لا يزال لنا  
من القضاء ومن تلوين دنيانا

وينبغي علينا الإشارة في هذا الباب إلى الثقافة التي ضمتها الدولة العباسية ، فدولة ضمت بين جناحيها أمماً وأعراقاً كثيرة لا بد لها من حياة علمية وثقافية وحضارية مزدهرة ، ويكفي أن ننظر إلى العلوم والآداب التي نقلت إلى العربية ، لنعلم الحالة العلمية والثقافية والحضارية السائدة في هذا العصر ، وكيف انصهرت في بوتقة عربية إسلامية؟

لقد ساهمت ثلاثة حضارات في صياغة الثقافة العباسية ، فكان العقل اليوناني هو أول عقل ساهم فيها ، وكان ميالاً إلى فلسفة التحليل والتعليل ، وكذلك كان يميل إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات ، لذلك كان يذهب إلى التعمق والعلم ، أما العقل الثاني فقد كان الهندي وكان يميل إلى التأمل فهو شعري أكثر مما هو علمي. ففكره تصويري خيالي تمثيلي ، شديد الاتصال بالعاطفة ، لهذا كان العقل الهندي من البواعث الكبرى على الحكمة والمجاري الزهدية والقصصية عند العرب ، أما العقل الفارسي فهو وعاء حوا العالم القديم كله تقريباً ، فكان مؤلفاً من عنصر فارسي ويوناني وهندي ، والأثر الهندي في الثقافة الفارسية أوسع من الأثر اليوناني ، إلا أن المادة قد غلبت على الحضارة الفارسية ، فكان العقل الفارسي من البواعث الكبرى على الزخرف والتضخيم وإطناب في الكلام والكتابة ، وتوسيع حقل الموسيقى والآنها ، وكان أثر الفرس واضحاً جلياً في الحضارة العباسية<sup>(1)</sup>.

لقد كان العصر العباسي عصر امتزاج الثقافات الأجنبية بالثقافة العربية ، لهذا اهتم الدارسون والباحثون في دراسة دور الفرس في الثقافة العربية ، فاتفقوا على دور الفرس الاجتماعي والسياسي ، لكنهم اختلفوا في دورهم الثقافي ، وقد صنف يوسف بكار الدارسين لأثر الثقافة الفارسية في الثقافة العربية في ثلاث فئات ، الفئة الأولى: لا ترى للأدب الفارسي أثراً بعيداً في الأدب العربي ، وبرز من يمثلها طه حسين الذي يعد المسألة أسطورة قائمة على خطأ شنيع ، لأن العرب في العصر العباسي لم يكونوا تلاميذاً للفرس في كل شيء ، مع العلم أنه لم ينكر أثر

(1) انظر: حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 356.

الفرس في الحياة العربية<sup>(1)</sup> ، يقول طه حسين: ولكنني مضطر أن أعترف أننا حين نبحث عن الأدب الفارسي الذي أثر في الأدب العربي لا نكاد نجد شيئاً ، ... فأين الكتب التي ترجمت إلى العربية ، وأين الشعر الفارسي الذي ترجم وأثره في الشعر العربي؟<sup>(2)</sup> .

ويمثل الفئة الثانية أحمد الشايب ومحمد مصطفى ، الأول أرجع كلَّ شيء إلى الفرس يقول: إن هذا النفوذ الفارسي السياسي يسَّر للثقافة الفارسية أن تتسرب إلى العقلية العربية الإسلامية ، فأخذت تبسط سلطانها حتى صار الأدب العباسي عامة أدباً جديداً ليس للعرب فيه إلا اللغة ، وأما موضوعاته وأساليبه وصوره فقد أخذت تستحيل في ظل السلطان الجديد وصار الأدب أجنبياً<sup>(3)</sup> ، أما الفئة الأخيرة فيمثلها أحمد أمين وشوقي ضيف ، وكانت هذه الفئة أكثر الفئات اعتدالاً ، فقد بين كلَّ منهما ما للعرب من ثقافة وما للفرس أيضاً ، وقد ركز شوقي ضيف على أثر الثقافة اليونانية واعتبرها أهم الثقافات التي أثرت في الفكر العباسي<sup>(4)</sup> .

لقد أدت العوامل السالفة الذكر إلى انفتاح الآفاق الثقافية والأدبية والشعرية ، ونشأ ما يعرف بالنزعة التجديدية ، وتجلت في هذا العصر مواضيع جديدة ، كالهجاء والزهد والشعر التعليمي ، ووصف الخمرة والثورة على القصيدة العربية التقليدية ، وأبرزت أيضاً قضايا جديدة مثل البديع الشعري ، الذي لا نكاد نشك في أثر الحياة التي تحدثنا عنها في ظهوره.

.البديع :

- البديع لغة: بدع الشيء وبيدعه بدعاً: أنشأه وبدأه ، والبديع: المحدث العجيب ، والبديع: المُبدع وأبدعت الشيء: أي اخترعته لا على مثال ، المبتدع بالفتح والكسر وأبدع الشاعر جاء بالبديع ، وهذه المعاني تنتهي إلى أمرين:

الأول: الجودة التي تدل عليها إنشاء الشيء ابتداء وعلى غير مثال سابق.

الثاني: البراعة والغرابة التي يدل عليها العجيب<sup>(5)</sup> .

(1) انظر: يوسف بكار ، نحن وتراث فارس ، منشورات المستشارة الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية ، دمشق ، 2000م ، ص9.

(2) طه حسين ، من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة ، ص18.

(3) أحمد الشايب ، العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، 1960م ، ص25.

(4) انظر: يوسف بكار ، نحن وتراث فارس ، ص11 .12.

(5) انظر: ابن منظور ، لسان العرب ، مادة بدع

أما البديع اصطلاحاً: فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية وضوح الدلالة<sup>(1)</sup>.

أما البديع العباسي فيعد شكلاً من أشكال البلاغة العربية ، فالعربية ليست نحواً وصرفاً ، وإنما بيان وبديع ، وقد راح هذا الشكل الفني يأخذ شكلاً إبداعياً في العربية بعد انشغال العرب بالإعجاز القرآني ، ويعودونه شكلاً من أشكال الإعجاز الأمر الذي دفع عبد القاهر الجرجاني لتأليف أسرار البلاغة وإعجاز القرآن ، حتى باتت البلاغة أدوات منضبطة ، تتحول في يد الفنان إلى أساليب فنية تحمل طريقته في تشكيل مادته حسبما تسمح به خبرته الفنية التي هي موهبة وثقافة زمان ومكان وتجربة وممارسة ورؤية تبلور كل هذه العناصر مع مراعاة لخصوصية هذه الأدوات وطاقات كل منها<sup>(2)</sup>.

وبما أننا نتحدث عن العصر العباسي فلا بد أن نجد أثر البيئة العباسية واضحاً في الشعراء والأدباء كيف لا؟ وقد ارتبط هؤلاء المبدعون ببيئتهم العباسية زمانياً ومكانياً ، وانعكاس ذلك على لغة الأديب التي راحت تبلور تجارب الشاعر وممارساته ، ولا سيما أن اللغة ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على أية ، ظاهرة أخرى من نشوء وارتقاء أو بقاء وفناء ، وهي كائن حي مرن يتشكل بحسب حاجة المتكلمين بها ، وأن التطور الحضاري ، وهو الذي يثري اللغة بالمفردات ويقوم التوليد والاشتقاق والتعريب بدور مهم في هذا المجال<sup>(3)</sup> وعليه فإننا نعتزف بأن اللغة ليست ألفاظاً تنطق ، بل هي رموز تحمل تاريخ المجتمع وقيمه وعاداته ، وتقاليدته ، ومشاعره ، ومن هنا تكتسب اللغة حياتها ونموها وتطورها<sup>(4)</sup> والدليل على أنها رموز لأن الرمز قابل للتغيير عبر العصور ، وهذه خاصية تشكل اللغة العربية التي حفظها لنا القرآن الكريم فإننا نجد القرآن قد حفظ لنا اللغة بأساليبها وبلاغتها ونحوها وصرفها وأبقى لنا حق التجديد بما يتفق مع طبيعة حياتنا الاجتماعية التي تواكب عصرنا مع ضبطه ، ذلك لأن الإنسان كائن ينطبق عليه ما ينطبق على الكائنات من حيث الحياة والموت.

- بديع أبو تمام والبيئة البغدادية : يعد أبو تمام من شعراء العصر العباسي

(1) مختار عطية ، علم البديع ودلالات الاعتراف في شعر البحتري ، دار الوفاء لندنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر ، ص 39.

(2) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ص 18.

(3) المرجع السابق ، ص 360.

(4) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، ص 360.361.

الذين عرفوا بطريقتهم الغنية الإبداعية في نظم الشعر ، وقد دارت حوله معارك نقدية وأدبية كبيرة وقد ألف في طريقته الشعرية مؤلفات كثيرة تناولت أشعاره وبديعه ، وتحدثت عن أخطائه في صورته ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي أبو تمام شاعر العربية المتفوق المبدع صاحب طريقة عرف بها ، واستطاع أن يثبت هذه الطريقة ويجعل لها أنصاراً ومؤيدين ، فهل كانت هذه الطريقة الشعرية وليدة الصدفة أم هي وليدة بيئة عباسية حضارية فنية معمارية؟

لم يكن الشعر في هذه الفترة مترفعاً عن الناس ، أو معزولاً عن العالم ، وإنما كان كالمعمار وكالمنجزات العقلية ، يعطى اللمسة الشخصية للعصر والحضارة لقد كان الشعر أشبه بالعصر ، وبالتأمل وبالناس ، فكما كانت هناك مشقة للناس ، كانت هناك صياغة منسقة للشعر ، ولعل هذا هو الذي أعطاه ظاهرة التآني ، ومن ثم كانت ظاهرة الإكثار من البديع<sup>(1)</sup> فلم يكن البديع زخرفة أو تهمة أو لعثمة ، وإنما هي لظروف خاصة بالحضارة والفترة من صميم البيئة الفنية<sup>(2)</sup>

وكما أشرنا فإن أبا تمام خير من يمثل هذا الاتجاه من حيث منهج القصيدة بل من حيث كيانها كله ، فحتى الصورة والموسيقى تبدو كأنها تشير إلى شيء رائع وإلى غاية لا تنتهي ، المهم أنها تحمل وجهة نظر الحضارة في بلاد الإسلام<sup>(3)</sup> فالشعر العباسي ما هو إلا شكل من أشكال الانعكاس الطبيعي للحضارة العباسية ، حتى باتت هذه اللغة وكأنها إنسان أو كائن تحمل في ثناياها صفحة الإحساس والحركة ، وكأنها أحياناً إنسان مرهف ، أو ثوب جميل أو أي مشهد من مشاهد الحضارة العباسية ، يقول أبو تمام:<sup>(4)</sup>

فَتُحُ الْفَتْوحُ تَعَالَى أَنْ يُحِيطَ بِهِ      نَظْمٌ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الْخَطْبِ  
فَتُحُّ نَفْتَحُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ لَهُ      وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَبْرَادِهَا الْقَشْبِ

لقد بنى أبو تمام النصر بناءً ، وجعل هذا البناء عالياً ، فارتفع ، وسما حتى بات الكلام بأطرافه الفنية المختلفة . شعراً ونثراً . تتقاصر أمام هذا البناء العظيم ، الذي راحت أبواب السماء تتفتح لشموخه ، والأرض تتيه فخراً به ، وتلبس أجمل ما عندها من ثياب جميلة ، لقد أخرج أبو تمام الكلمات من الدائرة

(1) عبده بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، الهيئة المصرية العامة ، 1985 ، ص 10.9.

(2) المرجع السابق ، ص 6.

(3) المرجع السابق ، ص 7.

(4) أبو تمام ، ديوان أبو تمام ، تحقيق: شاهين عطية ، مراجعة: يونس الموصللي ، مكتبة الفؤاد الطلاب ، وشركة الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 1 ، 1968م ، ص 14.



المعجمية التي تعارفت عليها الناس ، وعرفت بها اللغة إلى دائرة استخدام فني بدا فيها أثر الحضارة العباسية جليّ ، وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه لا يستشعر الجمال ، وإنما يدركه إدراكاً حاسماً وسريعاً<sup>(1)</sup> وعليه فإن اللغة ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على أية ظاهرة أخرى من نشوء وارتقاء وفناء ، وهي كائن حي مرن يتشكل بحسب حاجة المتكلمين بها ، وأن التطور الحضاري هو الذي يثري اللغة بالمفردات<sup>(2)</sup>

لقد لعبت البلاغة في هذا العصر دوراً كبيراً في تشكيل المعاني وإبداعها ، بل وفي إخراجها من دائرة عادية تعبيرية إلى دائرة جمالية ، «فقد أصبحت البلاغة في هذا العصر أدوات منضبطة تتحول في يد الفنان إلى أساليب فنية تحمل طريقة في تشكيل مادتها حسبما تسمح به خبرته الفنية التي هي موهبة وثقافة زمان ومكان ، وتجربة وممارسة ، ورؤية تبلور كل هذه العناصر مع مراعاة خصوصية هذه الأدوات ، وطاقت كل منها<sup>(3)</sup> ، وارتباط الموهبة بالثقافة وارتباطها بالزمان والمكان ، وانعكاس ذلك على لغة الأديب التي راحت تشكل تجارب الشاعر وممارساته ، يقول الشاعر:<sup>(4)</sup>

كم بين حيطانها من فارس بطل      قاني الذوائب من أني دم شرب  
بُسْنَةَ السيف والحناء من دمه      لا سُنَّةَ الدين والإسلام مُخْتَضِبِ

إن الممعن في هذه اللوحة الشعرية يرى فيها أثر الرسم من جهة ، وأثر البيئة العباسية الهندسية واللغوية من جهة أخرى ، لقد شكل الشاعر لوحة فنية إبداعية بلغة عباسية ، جعل من العناصر المشكلة للمعركة أدوات وألواناً مشكلة لهذه الصورة الفنية ، وإن كانت . حسب ظني . أن التشكيل سريالياً ، لأن الشاعر قام بتوظيف هذه العناصر التي استخدمت بالعربية لتشير إلى صورة جميلة في شكلها ومضمونها ، إلا أن الشاعر أخرجها من المضمون وإن كان الشكل واحد ، فالحناء صورة ايجابية ، وشكل من أشكال الفرح والتزيين ، وكذلك في مضمونها ، لكن الشاعر جعل من صورة الحناء الجميلة في شكلها تحمل مضموناً متافياً لهذا الشكل إذ جعلها تشير إلى رؤوس المقاتلين وقد خضبت بدمائها رؤوس الأسنة ، أي أنه مشاهد من مشاهد القتل ، وقد جاء الانحراف اللغوي ليبيّن لنا كيف الأسنة في

(1) عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص 168.

(2) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ، ص 360.

(3) المرجع السابق ، ص 18.

(4) أبو تمام ، الديوان ، ص 15.

الحروب كانت ممدداً للدم الذي يشرب ، كناية عن كثرة القتل؟

لقد أخذ الشاعر في العصر العباسي طابع الرسم حيث وضع فيه تماماً عنصراً الزمان والحركة<sup>(1)</sup> فالشاعر يصور المعركة محدداً مكانها وجاعلها بين حيطانها ، أي أن المعركة كانت في مدينة وهذه إشارة منه إلى مقدار ما لقي الفارس من صعوبة في نزع الانتصار ، ثم بدأ يرسم هذه الصورة حركياً من خلال تصويره لمشهد القتلى وهم مجعدلون في ساحة المعركة ، وقد خضبت ذوائهم بالدم وقد خص جيش العدو بهذا المشهد الذي أبرز ألوانه في البيت الثاني ، حينما قال بسنة السيف لأسنة الإسلام ، وقد برزت هذه الروح العباسية في قوله:<sup>(2)</sup>

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً      يَشُلُّه وسُطها صبحٌ من اللهب

حتى كأن جلا بين الدجى رغبت      عن لونها وكأن الشمس لم تغب

فالشمس طالعةً من ذا وقد أفلت      والشمس واجبة ولم تجب

لو نظرنا إلى توظيف أبي تمام للتضاد في رسم لوحته الشعرية ، وأثرها في شاعرية الصورة لأدركنا مقدار تأثير الشاعر العباسية بالحياة العلمية العباسية ، فالشاعر يصور ليل المكان بعد المعركة وقد أصبح ضحى ، فليل المكان أصبح ضحى بالانتصار فالتضاد متمثل بهيم الليل ، وربما استخدمه الشاعر ليشير إلى الهزيمة ، فلا شك أن الصورة التي تتشكل في ذهن المهزوم هي صورة الظلمة ، وهذه عكس الصورة التي تتشكل على مخيلة المنتصر ، فهي وإن كان الزمان ليلاً ، فإن جمال الانتصار يحوله إلى ضحى. وقد بين أبو تمام أن هذا الضحى هو ضحى ناتج عن اللهب الذي خلفته المعركة في هذا المكان ، وقد بالغ في ذلك ، فقال وكأن الليل الذي يرتدي الأسود من الثياب راح يرغب عن هذا اللون ، ويريك من سروره أن الشمس .شمس الانتصار .قد رغبت عن المغيب بسبب اشتعال نار الحرب ، والتضاد عنده أيضاً حينما قال: والشمس واجبه غير يادية على الرغم من وجودها ، فهي محتجة بسبب دخان المعركة الذي تصاعد فأخفاها.

لقد شكل أبو تمام لوحته بطريقة معقدة استمدتها من الجانب الهندسي الذي يعبر عن الحضارة الجديدة ، بالإضافة إلى روح التجريد ، ومن هنا كانت وقفهم عند الموسيقى اللفظية المتناسقة والموجودة أساساً في البديع<sup>(3)</sup> وعلينا أن نعترف بأن اللغة ليست ألفاظاً تنطق بل هي رموز تحمل تاريخ المجتمع وقيمه

(1) عبود بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص 11.

(2) أبو تمام ، الديوان ، ص 15.

(3) انظر: عبود بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، ص 167.

وعاداته وتقاليده ومشاعره ، ومن هنا تكتسب اللغة حياتها ونموها وتطورها (1) ومن هنا اتخذت المفردات «أبعداً أعمق ومعاني أبعده وخيالاً أرحب ، وظلالاً وجمالاً ورمزاً» (2)

لقد انعكست طبيعة الحياة الحضارية الراقية على هندسة اللغة العباسية وهذه الهندسة اللغوية لا بد أنها مستمدة من طبيعة الفن المعماري العباسي ، أو هندسة الديكور مثلاً بتزيين جدران المنازل ، ناهيك عن البيئة العلمية التي بدأت تأثر على معاني الشاعر وصوره ، ولا عجب إذا لمست هذا الإبداع بفن الخمریات وبسواه من فنون العصر العباسي كالكتابة والرسم بكل أنواعه (3) ، وبما أن الشعر أحد هذه الفنون فلا بد أنه قد استفاد من هذا الفن الإسلامي ، ومن هذه البيئة البديعية لفظاً ومضموناً ، يقول أبو تمام: (4)

عنبية ذهبية سبكت لها	ذهب المعاني صاغه الشعراء
صعبت وراض المزاج سيء خلقها	فتعلمت من حسن خلق الماء
خرقاء يلعب بالعقول حباها	كتلاعب الأفعال بالأسماء
وضعية فإذا أصابت فرصة	قتلت كذلك قدرة الضعفاء
جهمية الأوصاف إلا أنهم	قد لقبوها جوهر الأشياء
وكان بهجتها وبهجة كأسها	نار ونو قيّدا بوعاء
أو درة بيضاء بكر اطبقت	حملاً على ياقوتة حمراء
يخفي الزجاج لونها فكأنها	في الكف قائمة بغير إناء
ولها نسيم كالرياض تنفست	في أوجه الأرواح بالأثراء
ومسافة كمسافة الحجر ارتقى	في صدر باقي الحب والبرحاء

لقد تجلت البيئة العباسية في اللوحة الخمرية أولاً ، ثم باللغة التي راحت تحاكي البيئة البغدادية ولا سيما البيئة التزيينية أو الطبيعية ، وهذا يظهر من خلال التشخيص الذي كان يزين الجدران والمباني ، والذي دخل فن صناعة

(1) منير سلطان ، تشبيهات المتنبي ومجازاته ، ص 360.361.

(2) انظر: المرجع السابق ، ص 473.

(3) انظر: ايناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي. الأوروبي ، عالم المعرفة ، ع 366 ، أغسطس ، 2009م ، ص 7.

(4) أبو تمام ، الديوان ، ص 11.

الكتّاب ، وأصبح يعرف بفن المنمنمات (1).

فالمعاني ذهب صيغت من قبل الشعراء تماماً كالبيت العباسي الذي رُين بالأقمشة الموشاة بالذهب (2) ، فاتخذ من الجمال لغة صاغ مفرداتها عبر تلك الرؤية الجديدة ، محاولاً أن يوجد لنفسه فناً ذا خصوصية ، لا تحكمه غير شروط عالمه الذاتي ، وتلك .لا شك .كانت ثورة على القيم الفنية السائدة آنذاك (3).

وترى إلى جانب الهندسة العباسية في المقدمة الخمرية أيضاً أثراً للتشخيص ، فحين تقرأ المعاني التي صاغ منها معاني الخمر ، يجعلك تشعر وكأنك تقف أمام إنسان يحمل في ثناياه صفاته ومشاعره (4) ، وهذا الصفات والراقي بالمشاعر لا شك أن الشاعر قد صاغها بمساعدة الحياة التي شكلت هذا الفكر الراقي عند الشاعر الذي تثقف بعلوم عصره ، فلم يكتف بالموهبة التي كانت أحد أهم أركان الشعر في العصور السابقة للعصر العباسي.

وقد بدت ثقافة الشاعر اللغوية والحضارية من خلال المعاني التي صاغها ، مستفيداً من علوم عصره ، فالعصر العباسي عصر ارتقت فيه علوم العربية ، وعرف هذا العصر بوجود علماء لغة كبار ، دفع وجودهم نحو الانشغال بعلوم العربية ، وهذا واضح من خلال قول الشاعر كتلاعب الأسماء بالأفعال ، وكذلك يبدو تأثره بما شاع بالفكر العباسي ولا سيما عند الشعوبيين من معاني دينية قديمة تمثلت بأهبة النار والنور ، وقد تزينت هذه المعاني بالرياض العباسية التي مدت الشاعر العباسي بهذه المعاني التي عدت ثورة على المعاني العربية القديمة ، كقوله مثلاً: (5)

يا خاطباً مدحي إليه بجوده

ولقد حطبت قليلة الخطّاب

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى

والليل أسود رقعت الجلباب

لقد أصبح المدح أنثى تخطب ، ومهرها الجود ، وهذه الأنثى ليست كغيرها من المطلوبات ، فهي غالية ، لأجل ذلك كان خطأها أقل ، وهي ليست سهلة عند صاحبها ، فهي بناء أقامه على الفكر المهذب الذي راح صاحبه يقيم الليل باحثاً

(1) إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي الأوربي ، ص 7.

(2) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، عالم المعرفة ، مصر ، ط 2 ، ص 67.

(3) إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي الأوربي ، ص 9.

(4) أنظر: منير سلطان ، بديع التراكيب في شعر أبي تمام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ط 4 ، 2002م ، ج 2 ، ص 130.

(5) أبو تمام ، الديوان ، ص 25.

عنه حتى خرج بهذه المعاني الجميلة ، فالشعر إذاً كالبناء يحتاج إلى تعب ومشقة وإعمال فكر ، فهو ليس موهبة خالصة وإنما هذه الموهبة قد غدّيت بعلوم العصر وفنونه ، وهكذا نجد نمطاً فنياً جديداً يختلف عن النمط الذي ساد العالم الإسلامي في ظل الخلافة الأموية<sup>(1)</sup> «حيث بدأت تظهر الملامح الفنية العراقية القديمة التي تمت خلال مرحلة الفن الساساني ، وكانت هي البذرة الأولى التي ترعرعت في سامراء و امتدت غرباً إلى مصر<sup>(2)</sup> وعلى مستوى تخطيط المدن . وأثر هذا الفن على هذا البديع اللغوي الذي شاع في هذا العصر . ظهر لأول مرة التصميم الدائري في العصر الإسلامي ، حيث كلف الخليفة أبو جعفر المنصور مهندساً فارسياً بمهمة تشييد عاصمته الجديدة ، فاختار لها تصميماً على شكل دائرة كاملة<sup>(3)</sup> وينسب التصميم الدائري لبغداد إلى العمارة الإسلامية<sup>(4)</sup>.

وأخيراً لقد عمد العباسي شاعر أو مهندس أو سواهما إلى الغرابة ، لأن الشيء من غير معرفة أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبعد<sup>(5)</sup> لأجل ذلك شاع هذا الفن المبدع الغريب في هذا العصر.

بديع ابن المعتز والبيئة :

يعد ابن المعتز من الشعراء العباسيين الذين تأثروا بهذه البيئة ، كيف لا وهو أمير يعيش في خضم الرفاهية العباسية من قصور وزهور وأنهار وجنات وحرير؟ فقد لعبت البيئة الملوكية التي نشأ فيها ابن المعتز دوراً في هذه الطريقة التي أبدع فيها ، والتي أمدته بالكثير من التشبيهات<sup>(6)</sup>.

أما من حيث المعجم الشعري فقد بقي ابن المعتز مسائراً للاتجاه العام الذي غلب على الشعر العباسي من الليونة ورقة المعاني ودماثتها وبعدها عن

(1) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، عالم المعرفة ، ع 304 ، يونيو . 2004 ، ص 68 ، وانظر كذلك أبو صالح الألفي ، الفن الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 172.

(2) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، ص 68.

(3) يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، ص 69.

(4) المرجع السابق ، ص 69.

(5) الجاحظ ، البيان والتبيين ، تقديم علي أبو ملحم ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2009م ، ج 1 ، ص 93.

(6) انظر: توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، 1984م ، ص 33.

المعجم القديم<sup>(1)</sup> ، أنظر إليه مثلاً في قوله:<sup>(2)</sup>

أين التَّوْرُوعُ من قلب بهيم إلى	حانات قَطْرُ بُلٍ والعود والناء
وصوت فتانة التغريد ناظرة	بعين ظبي تريد النوم حوراء
جزت ذيول الثياب حين مشت	كالشمس مسبلة أذيال لألاء
وقرع ناقوس ديري على شرف	مسبح في سواد الليل دعاء
وكأس حيرية شكت بمزليها	أحشاء مشعرة بالقار جوفاء
جادت لها حقل الأنمار يانعة	بطير ناباذ أو كوئي وسوراء
ترفو الظلال بأغصان مفرطة	سود العناقيد في خضراء لفاء
أجرى الفرات إليها من سلسله	نهرأ تمشي على جرعاء ميثاء

إننا لا نكاد نجد لفظاً غريباً باستثناء بعض الأسماء التي تشير إلى مدن ليست عربية ، والملمح الثاني من ملامح البيئة العباسية في الأبيات السابقة ، تتمثل بتصوير الحانات وما فيها من لهو وغناء بصوت مغنية فتانة الجمال والصوت ، وقد جعل جمال الظبية الحوراء التي أصابها النعاس معادلاً موضوعياً لهذه المغنية ، ثم استرسل في توصيف هذه الجميلة فصورها بثوبها التي تجره خلفها ، وكأنها ملكة تشبه الشمس في علوها وترفعها وجمالها وتألؤها ، فأين هذه المعاني وأين بيئة ابن المعتز؟ ألا نجد البيئة الأميرية تتألاً في وصفه واختياره للتشبيهاً؟<sup>(3)</sup>

ثم يتساءل عن جلساته وسمره في هذه الحانات على نغم قرع قوس عابد قائم في سواد الليل يدعوره ، وكذلك البيئة العباسية تظهر من خلال هذه الصورة المتناقضة ، فبينما العباد يتهددون ويعبدون ، نجد الطبقة المترفة تقيم الليل بشرب الخمر وسماع الغناء ، وهذه صورة من صور المجتمع العباسي<sup>(4)</sup> ثم يذهب إلى تصوير هذه الخمرة والبيئة التي أحضرتها ، وهي بلا شك فارسية ، وهذه صفة الخمرة في هذا العصر.

وقد فطن ابن الرومي إلى ما لبيئة ابن المعتز من الأثر في تشكيل فنه ، حين

(1) انظر: المرجع السابق ، ص 233.

(2) ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز ، صنعه: أبو بكر الصولي ، تحقيق: يونس السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 1 ، 1997 ، ص 7.6.

(3) انظر توفيق الفيصل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 233.

(4) انظر: شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، ص 71 ، و انظر كذلك: شوقي ضيف العصر العباسي الثاني ، ص 68.69.

طلب إليه أن يأتي بتشبيهات ابن المعتز في وصف الهلال ، فصاح ابن الرومي وغوثاه ، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعون بيته ، وأنا أي شيء أصف<sup>(1)</sup>.

لقد كانت حياة ابن المعتز بالغناء واللهو ، حتى راح يملُّ من هذا الحياة ، وقد صور لنا هذا البيئة بنفسه حينما قال:<sup>(2)</sup>

ذهب لذة الحياة فما يُع	جبني روفةً ولا أدباء
لا ولا في الغناء لذة عيش	ولقد كان جُلَّ عيشي الغناء
ليس لي لذة سوى بنت كرم	لم يشبها قطُّ ماء

تبين لنا هذه المقطوعة حياة ابن المعتز وبيئته بصدق ، فقد راح يملُّ من حياة الشعر والأدباء ، وكذلك الأمر بالنسبة للغناء ، فهو في هذه المعاني يبين لنا مقدار خفض الحياة التي يعيشها ، وهذا يعيدنا إلى قول ابن الرومي السابق ، حينما قال إنما يصف حياته ، وليس هذا المهم بقدر ما هو مهم وصفه للبيئة العباسية عامة وبيئته خاصة حينما قال وكانت معظم حياتي في الغناء ، والإنسان لا يمل طراز حياة إلا إن صارت بالنسبة له سرمدًا والنفس بطبيعتها تحب التجديد ، والغريب أن جديد ابن المعتز كان في الخمر ، فقد وصفها ووصف كل ما يتعلق بها ، وكانت أوصافه لها تأتي في مقطعات أو قصائد أو أجزاء من قصائد ،<sup>(3)</sup> فخرته هذه صرفة لم تمزج بماء.

وقد صور لنا حال المجتمع العباسي في شهر الصيام ، وما فيه من التزام بالصلاة والصيام وأخلاق الإسلام ، حتى إذا انقضى شهر الصيام وجدناه يعود إلى حياته المعتادة ، وهذه الطبيعة مثلاً لا نجدتها في العصور الإسلامية السالفة ، ذلك لأثر الحياة الفارسية بالحياة والبيئة العباسية ، يقول ابن المعتز:<sup>(4)</sup>

أهلاً وسهلاً بالناي والعود	وكأس ساقٍ كالغصن مقدود
قد انقضت دولة الصيام وقد	بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغرٍ شره	يفتح فاه لأكل العنقود

تتجلى البيئة العباسية في اللغة ، فالصيام دولة ، وحتى دولة الصيام فلا

(1) انظر: توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 234.

(2) ابن المعتز ، الديوان ، ص 15.

(3) انظر: توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 234.

(4) ابن المعتز ، الديوان ، ص 95.94.

بد أن يصبح البدر هلالاً إلا أن الهلال أصبح سقيماً عند ابن المعتز فقوة الدولة مرتبطة بحجمها وانقضاء الصيام مرتبط بضعف وسقم الهلال ، وهذه الصورة استقاها ابن المعتز لمعناه المراد من سقم الهلال وذهاب دولة الصيام من بيئته المترفة التي تستثقل الصيام.

إن العلاقة بين دولة الصيام وابن المعتز علاقة عكسية ، فكلما كانت دولة الصيام قوية كان طلب ابن المعتز للشهوات سقيم ، وكلما سقم الهلال كان ابن المعتز قوياً ، وبذلك يكون عنده العيد عيدين ، الأول عيد المسلمين ، والثاني عيد ابن المعتز ممثلاً بعودته إلى شهواته من غناء وشراب وساق كالغصن المقدود.

ويبني علاقة غاية في الروعة حينما يصور هذا الهلال السقيم بالفم ، والعلاقة بينهما علاقة طردية ، فالهلال نصف دائرة وهذا الأكل الشره يفتح فمه بشدة ، فحركة فم الشره تشبه نحول الهلال ، وعلى ما يبدو أن هذا هو حال ابن المعتز ، فأظنه هو الشره الذي يفتح فمه منتظراً سقم الهلال لتذهب دولة الصيام ، ويلتهم هو العنقود أو ابنه العنقود<sup>(1)</sup> وهذا الذي أشار إليه في البيت الأول.

لقد أكثر ابن المعتز من وصف البساتين التي هي جزء من بيئته في القصود ، وربما انعكست هذه لا على ألفاظه فحسب بل ربما على صياغته من حيث البديع ، يقول ابن المعتز<sup>(2)</sup>

وأما ترى البستان	ونشر المنثورُ برداً أصفرا
وضحك الورد إلى	واعتنق القَطْرُ اعتناق وامق
في روضة كحلة	وخرّم كهامة الطاووس
وياسمين في ذرى	منظماً كقطع العقيان
والسّرُ مثل قصبٍ	قد استمد من تربٍ ندى
على رياض وثرى	وجدول كالمبرد المجلي
وفُرج الخشخاش	كأنه مصاحفٌ بيضُ الورق
حتى إذا انتشرت	وكاد أن ينأد رياً ساقه

يبين لنا ابن المعتز صورة من صور الطبيعة ، ولا سيما في موسم الربيع ، فهو يقف أمام مشاهد الطبيعة ، عاكساً السمة الحضارية في عصر الشاعر<sup>(3)</sup>

(1) انظر: المرجع السابق ، الديوان ، ص 95.

(2) المرجع السابق ، ص 490 .491.

(3) انظر توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 241.



والبديع أنك تجد بديعاً في تشكيل المعاني حينما يذهب إلى أن الورد يضحك إلى الشقائق وكأن بينهما علاقة توافق ، فعلاقة ابن المعتز مع بيئته كعلاقة الورد بالشقائق ، وانظر إليه بعد هذه الاستعارة البديعة يعود إلى التشبيه الغريب حينما يجعل من الروضة حُلَّة ، وليست أي حُلَّة ، وإنما حلت عروس ، وهذا المعنى لا بد وأن نفس ابن المعتز المرحمة المترفة قد لعبت دوراً في تشكيل خيوطها ، كيف لا؟ وهو أمير قد جعل من زهور الروضة ثوباً جميلاً قد صيغ لعروس ، وله خرّم كهام الطاووس ، وهذه الصورة أيضاً صاغها خيال ابن المعتز الأمير ، وقد كان اختياره للطاووس موافقاً لمكانته ، فبينه وبين الطاووس تلاق ، فكلاهما يشعر بمكانته وبفضله عن سواه بما يلبس ، واللباس الخارجي ليس شرطاً ، فربما يكون اللباس الاجتماعي.

ثم يصور لنا ابن المعتز هذا المشهد الطبيعي لهذا البستان في فصل الربيع ، وما فيه من ياسمين وقد تسلق هذا الياصمين على ذرى الأغصان ، فإنك لا تجد جملة عنده إلا وقد بناها على اللغة العباسية البديعية ، وانظر إلى السرو وكيف استحال إلى الزبرجد؟ فالدرّ والذهب وبقية الجواهر من الأمور التي تدور في كثير من تشبيهات ابن المعتز.<sup>(1)</sup>

ثم يختم مقطوعته بتصوير هذه الروضة الغنية بتربتها ، وبالجدول الذي يغذيها وهو لامع كأنه مجلي ، وفرج الخشخاش كأنها مصاحف ذات ورق ابيض ، وهذا البستان انتشرت أوراقه واشتدت سيقانه.

لقد لعبت بيئة ابن المعتز الصغيرة والكبيرة دوراً كبيراً في تشكيل المعنى عند ابن المعتز فما تكاد تقرأ قوله:<sup>(2)</sup>

يصوغ عليها الماء شباك فضة لها حَلَقٌ بيضٌ تحلُّ وتعقد إلا وتقول هذا عباسي أولاً ثم هذه المعاني لا يصوغها إلا من عاش فيها ، فيكون ابن المعتز بذلك قد استحال الشعر عنده إلى فينٍ ارسنقراطي متميز<sup>(3)</sup>

#### الخاتمة:

لقد راح الشاعر العباسي يحاكي بيئته بمختلف أشكالها ، لا الطبيعة فحسب ، وإنما العلمية والثقافية والحضارية والمعمارية والفلسفية حتى إنك لا

(1) المرجع السابق ، ص 241.

(2) ابن المعتز ، الديوان ، ص 93.

(3) انظر: توفيق الفيصل ، القيم المستحدثة في الشعر العباسي ، ص 245.

تكاد تجد بيتاً إلا وفيه سمة من سمات الحضارة العباسية ، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على تأثر الشعر العباسي بلغته ومعانيه ودلالاته ببيئته حتى أتى الشعر العباسي قطعة من قلب البيئة العباسية ، فما تكاد تقرأ أبا تمام حتى تجد أثر صنعته وفلسفته ظاهرتين في شعره ، وما تكاد تذهب إلى ابن المعتز حتى تجد البيئة العباسية العامة وبيئة ابن المعتز الخاصة ماثلة بين يديك ، ولا سيما أنه أمير وأن لغته لا تقل عن لغة أبي تمام من حيث التشبيهات الاستعارات والأوصاف ، وعندنا أمن الغرابة أن نجد لغة عباسية خاصة ، وأدباً عباسياً متميزاً يطلق عليه المحدث أو البديعي؟

### قائمة المصادر والمراجع

1. احمد الشايب ، العامل السياسي في أدب العصر العباسي الأول ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، 1960م.
2. أمين أبو الليل ، محمد ربيع ، العصر العباسي الأول ، دار الوراق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م.
3. إيناس حسني ، التلامس الحضاري الإسلامي .الأوروبي ، عالم المعرفة ، 3664 ، أغسطس ، 2009م.
4. أبو تمام ، ديوان أبي تمام ، تحقيق: شاهين عطية ، مراجعة: يونس الموصللي ، مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط 1 ، 1968م.
5. توفيق الفيل ، القيم الفنية المستحدثة في الشعر العباسي ، مطبوعات جامعة الكويت ، الكويت ، 1984م.
6. الجاحظ ، البيان والتبيين ، تقديم: علي أبو ملح ، منشورات وزارة الثقافة الأردنية ، 2009م.
7. الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، تحقيق: عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، 1991م.
8. الجاحظ ، البلاء ، اعطني به: مصطفى شيخ مصطفى ، مؤسسة الرسالة ناشرون ، بيروت ، 2006م.
9. جلال الدين السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، تحقيق: ياسر رمضان ، محمد سيف ، دار عالم الثقافة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2006م.
10. جلال الدين السيوطي ، المستظرف من أخبار الجوّاري ، تحقيق: احمد عبد الفتاح تمام ، شركة الشهاب ، الجزائر ، 1991م.
11. حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، منشورات المكتبة البوليسية ، بيروت ، ط 2 ، 1987م.
12. سامي يوسف أبو زيد ، الأدب العباسي ، دار المسيرة ، عمان ، 2011م.
13. شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، د.ت.
14. شوقي ضيف ، العصر العباسي الثاني ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 2 ، د.ت.
15. أبو صالح الألفي ، الفن الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
16. طه حسين ، من حيث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت.
17. أبو العتاهية ، ديوان أبو العتاهية ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1964م.

18. عبدو بدوي ، أبو تمام وقضية التجديد في الشعر ، الهيئة المصرية العامة  
1985م
19. محمد الخضري ، الدولة العباسية ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ، ، د.ت.
20. مختار عطية ، علم البديع ودلالات الاعتراض في شعر البحثري ، دار  
الوفاء لندنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، مصر ، د.ت.
21. ابن المعتز ، ديوان ابن المعتز ، صنفه: أبو بكر الصولي ، تحقيق: يونس  
السامرائي ، عالم الكتب ، بيروت ، ط 1 ، د.ت.
22. مصطفى بشير القط ، مجالس الأدب في قصور الخلفاء العباسيين ، دار  
اليازوردي العلمية للنشر والتوزيع ، عمان ، 2009م.
23. ابن منظور ، لسان العرب ، دار جاد ، بيروت ، د.ت.
24. منير سلطان ، تشبيهات ومجازاته ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، مصدر  
، د.ت.
25. منير سلطان ، بديع التراكيب في شعر أبي تمام ، منشأة المعارف ،  
الإسكندرية ، ط 4 ، 2002م.
26. يحيى الوزيري ، العمارة الإسلامية والبيئة ، عالم المعرفة ، ع 304 ،  
يونيو ، 2004م.
27. يوسف بكار ، نحت وتراث فارس ، منشورات المستشارية الثقافية  
لجمهورية الإسلامية الإيرانية ، دمشق ، 2000م.



## ظواهر أسلوبية بين الشعر والقرآن من خلال شرح ديوان الحماسة للمرزوقي

د/قادة يعقوب

قسم اللغة والأدب العربي

جامعة البويرة

يعرض هذا المقال مجموعة من الظواهر الأسلوبية المشتركة بين الشعر العربي القديم والقرآن الكريم، درسها المرزوقي في شرح ديوان الحماسة، واستعمل في تحليلها الشاهد من الآيات القرآنية ليبرهن على صحة استنتاجاته، ويثبت اشتراك الشعر العربي القديم والقرآن الكريم في ظواهر أسلوبية مثلت سنن العرب في القول البليغ، كما يناقش المقال دور شارحي الشعر، ومفسري القرآن في إمداد التحليل الأسلوبي بالإجراءات التطبيقية التي توضح مبدأي الاختيار والإنزياح المحددين للظاهرة الأسلوبية، وقد أبان كل ذلك عن سبل تلقي النص الشعري والنص القرآني، والعلاقة الرابطة بينهما، كما أفصح، باستخدام المقارنة الأسلوبية، عن كيفية تحوّل الاستعمال اللغوي إلى ظاهرة أسلوبية، والسياقات التي تفرض هذا التحوّل.

### Abstract

Stylistic Phenomena between Poetry and Qur'an through the Explanation of "Diwan Al-Hamassa" by Al-Marzugui

This paper represents a number of stylistic phenomena shared by ancient Arabic poetry and the Holy Qur'an studied by Al-Marzugui in "Sharh Diwan Al-Hamassa". He illustrated his analysis with Qur'anic verses to demonstrate his results accuracy and to prove that ancient Arabic poetry and the Holy Qur'an share stylistic phenomena which reflect the Arabs' habit in pronouncing rhetorical utterances.

This paper also discusses the poetry interpreter's role and that of the exegete of Qur'an in providing stylistic analysis with practical techniques which clarify the two principles *option* and *deviation*, -the two principles determining the stylistic

*phenomenon*. All that has shown the ways of poetic and Qur'anic texts reception and the relationship between these two texts ; it has also shown, through comparative stylistics, how the linguistic usage has been transformed into a stylistic phenomenon as well as the contexts which impose this transformation.

### Résumé

Les phénomènes stylistiques entre la poésie et le Coran à travers l'explication de « Diwan El-Hamassa » par El-Merzougui

Cette recherche représente un nombre de phénomènes stylistiques qui se trouvent dans l'ancienne poésie arabe et le sacré Coran étudiés par El-merzougui dans « Charh Diwan El-Hamassa ». Il a illustré son analyse à travers des versés Coraniques afin de démontrer l'exactitude de ses résultats et de prouver que l'ancienne poésie arabe et le sacré Coran ont des phénomènes stylistiques communs qui reflètent les habitudes des personnes arabes dans la production des énoncés rhétoriques.

Cette recherche discute également le rôle des interprètes de la poésie et celui des exégètes du Coran pour introduire dans l'analyse stylistique des techniques efficaces susceptibles de clarifier les deux principes : l'option et la déviation –ces deux principes qui déterminent le phénomène stylistique.

Nous avons montré à travers cette étude les méthodes de la réception du texte poétique et celle du texte coranique ainsi que la relation entre ces deux textes. Nous avons également montré par le biais de la stylistique comparée comment l'usage linguistique s'est transformé en phénomène linguistique et les contextes qui imposent cette transformation.

تتحدّد الظاهرة الأسلوبية بالاستخدام الأدبي للغة الذي يُقصد به أداء اللغة لوظيفتي الاتصال والتأثير معا، وقد دفع هذا الازدواج في وظيفة اللغة الدارسين إلى مقارنة الظاهرة الأسلوبية الممثلة لتحوّل اللغة، إذ رأوا أنّ الاختيار

والانزياح مفهومان يسهمان في إيضاح الظواهر الأسلوبية، ومن ثمّة اتّخذوهما إجراءات تحلّل في ضوءها خصائص الاستعمال الأدبي للغة<sup>1</sup>، وهو ما قادهم إلى التفرقة بين الظاهرة اللغوية والظاهرة الأسلوبية، فأرأوا أنّه كلّما قويت مبررات التوظيف تحوّلت الظاهرة اللغوية إلى ظاهرة أسلوبية<sup>2</sup>

ولا شك أنّ هذا التحديد قد أدى إلى الإفصاح عن الظروف المحيطة باستخدام اللغة، ولم يكن ذلك ممكناً إلا عن طريق تحويل مفهومي الاختيار والانزياح إلى إجراءات تطبيقية تُفسّر بهما الظاهرة الأسلوبية، ومن ثمّة أخذت علوم اللغة مكانها في إيضاح الوجه التطبيقي لظاهرة الأسلوب، كما غدت مهمّة الدّارس الأسلوبية الأساسية هي الإتيان بالتمّودج الذي يستوفي شروط حدود المفهوم، فالاختيار سمة توفرت في لغة التواصل اليومي ما جعل مقارنة الظاهرة الأسلوبية من خلاله أمراً يتعسّر، إذ يتعدّد معرفة السّمات التي تعيّن الاستعمال الأدبي.

وإذا كان الاستعمال الأدبي للغة يعرّف انطلاقاً من عملية الاختيار التي يقوم بها المستخدم للغة، فإنّ الانزياح مرتبط بالأساس بقدرات المستخدم على الاختيار من امكانات اللغة، فكّلما ضعفت امكانات الاختيار قويت امكانات الانزياح، وعلى هذا يمثل الانزياح الوجه الثاني للظاهرة الأسلوبية، ويحتاج الدّارس الأسلوبية إلى دربة لغوية واسعة، وأطلاع كبير على كفاءات تعامل المستخدم النموذجي للغة حتّى يستوعب مظاهر الأسلوب التي يتقاسمها مفهوم الاختيار والانزياح الأمر الذي انتهى بالدّارسين إلى استخلاص مجموعة من النتائج عند إجراء هذه المقارنة، خلصوا من خلالها إلى أهم الفروق المتمثلة في جانبيها الكمي، ذلك أنّ الاختيار يخلق الأطرّاد في النّص الأدبي، فيلقى قبولا لدى المتلقي، فإذا ما حدث خروج عن هذا الأطرّاد عدّ انزياحاً، وعليه يستخدم الدّارس الأسلوبية مفهوم الاختيار كمعيار يحدّد في ضوءه الانزياح. ومن ثمّة يصبح كلّ من الاختيار والانزياح مفهومين أساسيين ينطلق منهما الدّارس الأسلوب إلى تحديد الظاهرة الأسلوبية الكامنة في النّص الأدبي.

<sup>1</sup> ينظر: شكري محمد عياد، اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي، الطبعة الأولى 1988، ص 67-96. ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، ص 130. (ربط بين تحديد نظرية الأسلوب والظاهرة الأسلوبية). وينظر أيضاً: المرجع نفسه، ص 137. «تصور الأسلوب كظاهرة منبثقة عن النّص لا يزال يتردّد في كثير من التحليلات الأسلوبية»

<sup>2</sup> ينظر: محمد الهادي الطرابلسي، «توظيف الإسم العلم في النّص الشعري»، حوليات الجامعة التونسية، ع 45، 2001، ص 25.

لقد حدّد الدّارسون للظاهرة الأسلوبية شروطا تستوعبها، إذ استوجبوا في التركيب اللّغوي كي يكون متضمنا لها أن يكون بارزا بخصائص تركيبية، وأخرى سياقية إذا ما قوبل بالاستخدام اللّغوي المطرد، ذلك أنّ مفهومها في علم الأسلوب يركّز على الملمح التعبيري البارز الذي يضطلع بأداء وظيفة دلالية تفوق دوره اللّغوي<sup>1</sup>، وأنّه كلّما تواترت أنتجت قيمة أسلوبية<sup>2</sup>. وتؤدي هذه القيمة دورا حاسما في تحديدها، إذ تمكننا من التعرّف عليها بالمقارنة بين الاستخدام اللّغوي الأدبي المتميز بانزياحه الدلالي، والاستعمال اللّغوي الذي يكون لمجرد الاتّصال، رغم ذلك يرى بعض الدّارسين أنّ جوهر الأثر الأدبي لا يمكن الإحاطة بمكوناته إلاّ عبر صياغاته الإبلاغية<sup>3</sup>

ومن كلّ ما سبق يمكن أن نستنتج بأنّ مفهوم الظاهرة هو نتاج استخدام اللّغة المزدوج، فهي تحوّل في وظائف اللّغة، إذ يلقي هذا التحوّل بوقعه على حساسية متلقي النصوص بشقّي أشكالها.

لقد دُرّس الشّعر القديم من جهة ارتباطه بالقرآن الكريم، فتعددت طرق إيضاح اتّصاله به، من لغوية إلى تركيبية إلى أسلوبية، فرضتها سياقات البحث عن المعنى في الشّعر والقرآن على حد سواء، وسياقات المقارنة بين ملامباتهما التي استدعتها وظيفة كلّ نصّ، فإنّنا إذا نظرنا إلى بدايات تفسير القرآن نجده سابقا لشرح الشّعر، لكنّ هذا السبق لا يعني أنّ شروح الشّعر لم تكن تتزامن مع تفسير القرآن لأنّها نصوص مصاحبة له اعتمدت في الاحتجاج على توفر الظواهر الأسلوبية في التركيب القرآني، على اعتبار أنّ المستهدف بالتحليل هو التركيب القرآني غير أنّ المفسّر لم يهمل توجيه الظاهرة الأسلوبية في التركيب الشّعري أيضا، وعليه يمكن أن نفترض احتواء التفسير لشرح الشّعر، ولعلّ ما يعضد هذا الافتراض أنّنا نجد كثيرا من المفسّرين كما ألفوا في تفسير القرآن ألفوا في شرح الشّعر، فأبو عبيدة مَعْمَرُ بن المثنى [ت:209هـ] حلّل في كتابه «مجاز القرآن» التراكيب القرآنية وفق ما يفرض منهج عصره من اعتماد لعلوم اللّغة، واستشهاد بالشّعر الفصيح. وقد عدّ علماء عصره «مجاز القرآن» تفسيرا بالرأي للقرآن

<sup>1</sup> صلاح فضل، «ظواهر أسلوبية في شعر شوقي»، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد الأوّل، العدد الرابع، عام 1981، ص 210.

<sup>2</sup> بيار غيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، الطبعة الثانية 1994، ص 133.

<sup>3</sup> ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية 1982، ص 34، 35. وينظر أيضا: «محاولات في الأسلوبية الهيكلية»، حوليات الجامعة التونسية، ص 282. أين جعل ظاهرة الأسلوب هي نفسها الظاهرة الأسلوبية.



الكريم، وهو تعبير عن رفضهم لمنهجه في المقارنة بين أسلوب القرآن الكريم، وأسلوب الشعر العربي.

كما ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى أيضا كتابا في شرح الشعر، أوضح فيه أخبار شعراء النقائص، والملابس التي أحاطت بأشعارهم، عنوانه بـ«شرح نقائص جرير والفرزدق»، ويعطينا هذا المؤلف نظرة واسعة عن طبيعة شروح الشعر في بدايتها، إذ كانت جمعا للأخبار، والمناسبات التي قيلت عن إثرها القصائد، وشرحا للكلمات في سياق الأبيات.

وقد اطرّد هذا التأليف المزدوج في تفسير القرآن وشرح الشعر في التراث العربي، ما يوضّح الصلة الوثيقة التي تجمع بين النصين، وهي أنّ العلماء اتخذوا الشعر معيارا أسلوبيا يفسّرون في ضوئه الظواهر الأسلوبية المتوفرة في القرآن انطلاقا من تصوّرهم بأنّ القرآن الكريم نزل بلسان العرب، واحتوى سننها في تصريف فنون القول، غير أنّ شارحي الشعر ما لبثوا أن اتخذوا الظواهر الأسلوبية المتوفرة في النصّ القرآني معيارا أسلوبيا تُشرح في ضوئه الظواهر الأسلوبية التي احتواها الشعر<sup>1</sup>، وهنا يبرز اقتدار شارحي الشعر على تحليل التراكم اللغوي المحتوية على هذه الظواهر الأسلوبية، إذ الشائع أنّ الشعر الجاهلي سابق من حيث الوجود لدى العرب عن القرآن الكريم، وقد جرت العادة أن تقاس الظواهر الأسلوبية الواردة القرآن بنظيراتها في الشعر العربي القديم، معنى ذلك أنّ الظاهرة الأسلوبية القرآنية هيمنت سواء بوفرتها، أو بفتيتها، أو بخصائص أخرى جعلتها معجزة أسلوبية، وتحوّلت بهذه الهيمنة إلى معيار أسلوبى تقاس في ضوئه ظواهر الأسلوب في الشعر، وما لبث أن انتقلت الظاهرة الأسلوبية القرآنية إلى إبداع الشعراء إذ تمثّلوها في أشعارهم، وإن كان احتمال تأثرهم بأشعار القدماء واردة إلا أنّ احتمال تأثرهم بالظواهر الأسلوبية القرآنية أكثر، وقد تتضح هذه الفكرة إذا أخذنا نظرة عن تقسيم شعراء ديوان الحماسة بحسب العصور التي عبّر عنها الشارح في وصف اختيار الشعر من أقوال الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين والمولدين، ويتحكّم في هذا التوزيع للأشعار الظواهر الفنية التي مثلت التقاليد الشعرية التي ترسخت لدى العرب عبر العصور.

ذلك أنّ أبا تمام لما جمع التصوص الشعرية في ديوان الحماسة لم

<sup>1</sup> لقد توفر هذا الاتجاه في النقد القديم إذ طالما احتج الشعراء في مسالكهم الأسلوبية بالظواهر الأسلوبية القرآنية. كما صنع أبو تمام، والمتنبي وغيرهما.

يقتصر على الشّعر القديم، بل ضمّتها شعر معاصريه،<sup>1</sup> الأمر الذي يوضّح توجّه المرزوقي في شرحه إلى القياس على الظواهر الأسلوبية القرآنية، والملاحظ أنّ هذا التوجّه في التحليل أطرد أكثر ليصبح منهجاً في تحليل أسلوب الإبداع الأدبي عموماً، إذ نجد الميداني في كتابه «مجمع الأمثال» يستشهد بالقرآن الكريم في شرح المثل المأثور عن العرب، على اعتبار أنّ الجامع بينهما هو التركيب المشترك والسياق الواحد، وذلك عندما ذكر قولهم في الحرب: «نَارُ الْحَرْبِ أَسْعَرُ»<sup>2</sup> أو قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: 64]،<sup>2</sup> فبالملاحظة البسيطة يمكن استنتاج الكلمات المشتركة بين المثل والآية القرآنية، ولعل هذا المشترك كان دافعاً، من جملة الدوافع الأخرى، إلى الاستشهاد بالآية القرآنية.

لقد أورد المرزوقي في خاتمة شرح ديوان الحماسة ملخصاً أبرز فيه المجهود الذي قام به في إجادته شرحه للشعر المختار في ديوان الحماسة، وتخليصه من الاستطراد إلى العلوم التي توصف بأنّها مقحمة فيه، إذ طالما شتت هدف الشّارح، وهو الخلوص إلى معنى الشعر باستشفاف خصائصه الفنية الكامنة في تراكيبه اللغوية.

وقد وضّح المرزوقي منهجه في شرح الشعر الذي بنى عليه مؤلفه، حيث قال: «تيقن أنّي أملت هذا الشرح مستعملاً أرفق الآلات في اختراعه، وأوفق الألفاظ في تصويره وبيانه، ومستحضراً من الشواهد والمثُل ما لم يكمل إلا بتعاونه وحضوره، ولو عدلت عن نهج التقريب مشتغلاً بأبواب الإعراب والغريب إلى غيرهما مما يعد في الفضول، لتضاعفت المؤن، وضاعت في غمارها النكت»<sup>3</sup>

وعلى هذا يؤكد أنّ الاستشهاد آلة هامّة تسهم في شرح الشعر، وتجلي الأسرار الجمالية الكامنة في أسلوبه، وفكرة الاستشهاد عنده قائمة على المقارنة بين النصوص المشتركة في الظاهرة الأسلوبية، وهي من تقاليد شروح الشّعر عامّة، وشروح ديوان الحماسة خاصّة، إذ نجد النّمري الحسين بن علي [ت: 385هـ] في كتابه «معاني أبيات الحماسة» قد اتّبع الإجراء نفسه في المقارنة بين الشّعر والقرآن

<sup>1</sup> ينظر: البشر بن عمر، «في مقاييس اختيار الشّعر ووظائفه من خلال باب الحماسة من ديوان الحماسة لأبي تمام»، حوليات الجامعة التونسية، العدد 46، عام 2002، ص 467. أحصى الدّارس 214 شاعر في باب الحماسة، مقسّمين على بالطريقة الآتية: العصر الجاهلي (72)، المخضرمون (14)، الإسلاميون (62)، المجهولون (60)، شاعرات (06).

<sup>2</sup> الميداني، أبو الفضل محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، (د.ط)، ج 02، ص 346.

<sup>3</sup> المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2003، ص 1320.

المشتركين الظاهرة الأسلوبية الواحدة،<sup>1</sup> ولا شك أنّ هذا الإجراء يحوِّله من الدّراسة اللّغوية إلى التحليل الأسلوبي المبني في جوهره على المقارنة.<sup>2</sup>

لقد أعرض المرزوقي عن أبواب الإعراب والغريب وغيرهما مركزاً على التّكت الأسلوبية، وإن كانت كلمة الأسلوب لم ترد في مؤلفه إلاّ مرة واحدة، وذلك عندما عرض لصناعة الشعر، وما يدور حولها من نقد، حيث قال: «إنّ أبا تمام معروف المذهب فيما يقرضه، مألوف المسلك لما ينظمه، نازع في الإبداع إلى كلّ غاية، حامل في الاستعارات كلّ مشقة، متواصل إلى الظّفر بمطلوب الصنعة أين اعتسف وبماذا عثر متغلغل إلى توغير اللفظ وتغميض المعنى أتى تأتى له وقدر؛ وهو عادل فيما أنتجه في المجموع في سلوك معاطف ميدانه، ومرتب ما لم يكن فيما يصوغه من أمره وشأنه، فقد فليته فلم أجد فيه ما يوافق ذلك الأسلوب إلاّ اليسير»<sup>3</sup>

وقد شرح محمد الطاهر بن عاشور كلمة «أسلوب» الواردة في مقدمة المرزوقي بقوله: «والأسلوب بضّمّ الهمزة الطريق، وهو في الاصطلاح منقول للطريقة المخصوصة من الكلام البليغ كقولهم في الالتفات إنّهُ انتقال من أسلوب إلى أسلوب أي من طريقة الخطاب إلى طريقة الغيبة»<sup>4</sup> والعلامة محمد الطاهر بن عاشور من المشتغلين بالتّفسر في العصر الحديث حيث أكثر من الاستشهاد بأبيات ديوان الحماسة لأبي تمام في تفسيره التحرير والتنوير، فقد ذكر فيه مراراً شرح المرزوقي،<sup>5</sup> ولعل اهتمام المفسّرين بشرح ديوان الحماسة عائد إلى هذا الاختيار البديع الذي كاد يصبح صاحبه حجة في الفصاحة؛ تؤخذ عنه العربية، كما ذهب إلى ذلك الزمخشري الذي نوّه بإتقان أبي تمام لرواية الشعر التي أكسبته ثقة العلماء حتّى كادوا يحتجون بشعره، حيث قال: «وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد

<sup>1</sup> ينظر: النمري أبو عبد الله الحسين بن علي، معاني أبيات الحماسة، تح: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مطبعة المدني، السعودية، الطبعة الأولى 1983، ص 171، ومعاني أبيات الحماسة، ص 175.

<sup>2</sup> ينظر: صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1998، ص 143.

<sup>3</sup> مقدمة شرح ديوان الحماسة، ج 01، ص 08.

<sup>4</sup> محمد الطاهر ابن عاشور، شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978، ص 15.

<sup>5</sup> ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، السدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى 1984، ج 01، ص 383. وج 02، ص 55. وج 02، ص 94. وج 02، ص 107. وج 02، ص 269. وج 03، ص 119. وج 03، ص 292. وج 04، ص 75. وج 05، ص 115. وج 05، ص 236. وج 09، ص 219. وج 09، ص 290. وج 12، ص 140. وج 12، ص 259. وج 21، ص 10. وج 21، ص 291. وج 22، ص 270. وج 27، ص 334. وج 28، ص 70. وج 29، ص 167.

بشعره في اللّغة، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويّه. ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه»<sup>1</sup>

وأحسب أنّ هذه الإشادة مرجعها إلى الاختيار الذي شمل عصر الفصاحة، ومردّه أيضا إلى دراية أبي تمام بفنون القول الشعري وضروبه، كلّ ذلك أكسبه ثقة العلماء، فكان أن جعلوا ما يقول من شعر، وهو المحدث، في منزلة ما يروي من الأشعار الفصيحة.

ومن خلال شرح ديوان الحماسة يظهر المرزوقي مستوعبا لخصائص النصوص الشعرية التي يواجهها فهو يعاملها على أنّها وليدة إبداعين: إبداع الشعراء على مرّ الأيام، وإبداع الاختيار على مرّ المطالعة والانتقاء؛ فهو اختيار أبي تمام الشاعر الذي يعرف دروب الشعر ومسالكه؛ وقد لخص هذه النظرة في استيعاب الاختيار لفئات الشعراء المختلفين، وفي جودة الأشعار المختارة بقوله: «جمع ما يوافق نظمه ويخالفه؛ لأنّ ضروب الاختيار لم تخف عليه، وطرق الإحسان والاستحسان لم تستر عنه، حتّى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفضلة تشينه، فيجبر نقيصته من عنده، وتبدل الكلمة بأختها في نقده»<sup>2</sup>

ولنا أن نستنتج أنّ أبا تمام قد أبدع في حماسته مرتين: الأولى عندما جمع هذه الأشعار وفق خبرته بالشعر وذوقه به، وخبرته بأفنانين القول فيه، وقد لقيت هذه المزية من المرزوقي القبول والإعجاب فأثنى عليها، وبين دورها في اختيار أشعار ديوان الحماسة، والثانية ولا تقل أهمية عن الأولى، وهي قدرة أبي تمام وهو يختار الأشعار على انتقاد الأشعار بتبيين مواطن الضعف فيها فيعمد إلى التغيير في ألفاظها القلقة الخارجة عن النظم الجيد.<sup>3</sup>

وإذا ما نظرنا في المنهج الذي اتبعه المرزوقي في شرح الحماسة علمنا أنّه كان يقصد إلى إدراك معاني أبيات ديوان الحماسة، بتذوق أسرار الجمال الكامنة في أسلوبها، وكأنّ المرزوقي يشير إلى قضية نقدية تتعلق بأدبية الأدب، فشهرة ديوان الحماسة ناتجة من إقبال القراء على تلقيه عبر العصور، لما توفر عليه من

<sup>1</sup> الزمخشري محمود بن عمر أبو القاسم، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ، ج 01، ص 87.

<sup>2</sup> مقدمة شرح ديوان الحماسة، ج 01، ص 14. ينظر: شرح ديوان الحماسة، ج 01، ص 33.

<sup>3</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 703. [ورأيت الأستاذ الرئيس أبا الفضل ابن العميد يقول: إنني لأتعجب من أبي تمام مع تكلفه رغم جوانب ما يختاره من الأبيات، وغسله من درن بشع الألفاظ، كيف ترك تأمل قوله فليأت نسوتنا. وهذه لفظة شنيعة]

خصائص فنية لعل أهمها أسلوبها الذي مثل سرّ الجمال فيها؛ ذلك أنّ الأسلوب يعبر عن وظيفة الجمال في اللغة، فهو محور تلقي النصوص الأدبية؛ وقد رأى النقاد أنّ النصّ الأدبي: «إنّما هو أدبي بحكم صياغته وأسلوبه، وطريقته، ووظيفة اللغة فيه»<sup>1</sup>

وما يدعم هذا الرأي هو أنّ هناك مختارات شعرية نافست ديوان الحماسة لتحظى برضى شارحي الشعر، لكنّها لم تنل القبول لديهم إذ اتّجهوا إلى شرح ديوان الحماسة الذي ألفه أبو تمام وفق مقياس جمالي روعي فيه المعاني والأغراض<sup>2</sup>. وتزداد الفكرة رسوخا إذا وضعنا في حسابنا أنّ الحماسة نالت إقبالا كبيرا من الشارحين، وهذه الاستمرارية في تلقي الحماسة تجعل منها نصا أدبيا تعددت قراءاته في شكل شروح متنوعة عبرت عن ميولات أصحابها، وأغراضهم.

وإذا كان الأسلوب هو أحد المميزات الأساسية التي تجمع هذا الأثر المختارة في ديوان الحماسة، وإذا كان للمعنى الدور الهام في إبراز خصائص هذا الأسلوب، أمكن لنا إجراء مقارنة بين شرح ديوان الحماسة، وما أحدثه من أثر في درس البلاغي والنقدي، بما يقابله من تحليلات الدارسين الغربيين الذين أوضحوا أثر شروح الشعر في إيضاح خاصية تفرد النصوص الشعرية، وذلك عندما اجتهد الشارحون في تتبع المعنى من خلال تحليلهم للعلاقات العمودية والعلاقات الأفقية في التراكيب اللغوية، فكان اكتشافهم لوظائف هذه العلاقات، ودورها في تحديد أدبية الأدب، إنّ هذه الخصائص هي التي تعطي النصّ الأدبي صفة التفرد<sup>3</sup>، وبالنتيجة تتأكد الصلة الوثيقة بين تقاليد شرح النصّ، ودراسة الأسلوب<sup>4</sup>.

كما لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا هذا التوجه في شرح ديوان الحماسة من باب مقارنة النصوص الأدبية التي تقدّم خدمة قيمة للدراسات الأسلوبية، فقد نوّه (ديلوفر) بهذه الطريقة، وعدّها وسيلة هامة لإدراك الأسلوب<sup>5</sup>. ولما كانت

<sup>1</sup> حسين الواد، «من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل»، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، عام 1984، ص 113.

<sup>2</sup> ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، حماسة أبي تمام وشروحها دراسة وتحليل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت)، (د.ط)، ص 35. مدار الاختيار عند أبي تمام الجودة والاستحسان. وينظر أيضا: «في مقاييس اختيار الشعر ووظائفه من خلال باب الحماسة من ديوان الحماسة لأبي تمام»، حوليات الجامعية التونسية، العدد 46، عام 2002، ص 482-483.

<sup>3</sup> CRESSOT, Marcel, Le style et ses techniques précis d'analyse stylistique, presses universitaires de France, Paris, 6eme éd 1969, p60.

<sup>4</sup> ينظر: بيار غيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، ص 87، 88.

<sup>5</sup> DELOFFRE, Frédéric, stylistique et poétique françaises, SEDES, Paris, 1985, p26.

الأسلوبية في نظره وسيلة لإثراء قراءة النصوص الأدبية، وأداة لتلقي النصوص حتى تدرك معانيها، فإن شرح الحماسة قد أدى هذا الدور بامتياز قديما وحديثا،<sup>1</sup> بل إن معظم الشروح اضطلعت بهذا الدور، فضلا على إسهامها البين في الدراسات الأسلوبية الحديثة التي تروم دراسة الأسلوب في النصوص الشعرية القديمة.<sup>2</sup>

لقد حفل شرح ديوان الحماسة بالآيات القرآنية التي استشهد بها المرزوقي في توجيهه لمعنى الأبيات الشعرية،<sup>3</sup> ولم يكن هذا الاهتمام بإيراد الآيات في هذه المواطن إلا لما للنصين من تقارب بينهما خاصة على المستوى اللغوي والمستوى الأسلوبي، وقد تعددت مواطن الاستشهاد بالآية القرآنية، ولكن غالبا ما يأتي هذا الاستشهاد يشفعُ الشارح به صحة ما ذهب إليه من توجيه المعنى في البيت الشعري، وصحة فهمه للتراكيب اللغوية؛ فهل وفق المرزوقي في توظيف الآيات القرآنية باعتبارها مقياسا أسلوبيا تقاس به التراكيب البليغة؟

لم تقتصر المقارنات الأسلوبية على الأبيات الشعرية بالآيات القرآنية، بل شملت المقارنة بين الأبيات الشعرية المشتركة في المعنى والأسلوب، ختمها المرزوقي باختيار الأجود من الأبيات اعتمادا على الخصائص التركيبية واضطلاعها بالمعنى في أسلوب البيت المختار. وعليه نكتشف أن المقارنة الأسلوبية منهج أتبعه المرزوقي في تحديد جمال التعبير في أبيات الحماسة.

لقد قارن المرزوقي بين الأبيات الشعرية المشتركة في بناء البيت الشعري، والتراكيب اللغوية، مفاضلا بينها عن طريق مقابلة الخصائص التركيبية التي يتميز بها كل بيت، إيماناً منه أن هذه المقارنة تجلي المعنى، وتوضح الخصائص الأسلوبية التي احتوته، كما هو الشأن في الموازنة بين بيت بشامة بن الغدير، وبيت طرفة بن عبد، والبيت الذي يقارنهما من حيث التركيب والمعنى، وتجدر الإشارة إلى أن منهج المرزوقي في شرح الشعر تأخذ المقارنة فيه نصيبها الوافر، وتكشف لنا عن دور المقياس الأسلوبي في إجراء هذه المقارنات، حيث قال المرزوقي:»

لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارِسٌ خَالَهْمُ إِيَّاهُ يَعْغُونَا

يعني بقوله فدعوا أعلنوا الاستغاثة بيالفلان، ومن فتى، وما أشبهه. ويقال

<sup>1</sup> stylistique et poétique françaises, p.25.

<sup>2</sup> ينظر: الهادي الجطلاوي، «خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام»، فصول في النقد والأدب، ج.06، ع.01، 1985، ص.137.

<sup>3</sup> ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص.1323-1341.

خلته أخاله خيلاً ومخيلةً وخیلاناً. وهذا مثل قول طرفة:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خَلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدْ

وقد زاد هذا عليه بقوله لو كان في الألف مناً واحداً. لأن ذلك قال: إذا القوم قالوا من فتى، فنصب نفسه مع قومه؛ وهذا جعله منضمماً مع الكثرة إلى الغرباء. وإنما قال: من فارس فنكر، كما قال طرفة: من فتى فنكر. ولم يعرف واحداً، منهما، لأن السؤال بالمنكر لشدة إبهامه يكون أشمل لتناوله واحداً واحداً لاسيما وليس القصد في الاستفهام إلى معهود معين، ولا إلى الجنس فيقال: من الفتى، ومن الفارس. وفي هذه الطريقة قول الآخر:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى لِعَظِيمَةٍ فَمَا كُلُّهُمْ يُدْعَى وَلَكِنَّهُ الْفَتَى

وبيت بشامة أجود الثلاثة»<sup>1</sup>

والمستنتج هو أنّ الطريقة التي انتهجها المرزوقي في المقارنة بين الأبيات لم تتوقف عند المعنى بل تعدته إلى طريقة عرض المعنى، ومن ثمة ركّز على الأسرار الكامنة في التركيب اللغوي، ممّا أسهم في إصدار حكم على الأسلوب في هذه الأبيات. وقد مثل الاستشهاد بالآيات القرآنية نسبة هامة تستدعي الدراسة، خاصة إذا علمنا أنّ هذا الاستشهاد غلب عليه طابع الموازنة الأسلوبية التي تؤدي إلى إدراك الظاهرة الأسلوبية المضمنة في النص الشعري. وكانت نتيجة هذه المقارنات أن بيّنت أثر الظواهر الأسلوبية في أداء المعنى الواحد بطرق مختلفة، وهو تحديد ضمني لمفهوم الاختيار الأسلوبي.

لقد تأثرت شروح الشعر بالدّرس النحوي تأثراً من شأنه أن يكشف ما لسلطة النّحاة على الإبداع الشعري من توجيه في استعمال اللّغة، الأمر الذي جعل شروحه خاضعة لحكمهم على الظاهرة الأسلوبية، ورغم أنّ المرزوقي أعلن عن تنزيه شرحه من أثر هذه السلطة التي أثقلت شروح الشعر قبله، لأنّ من شأن ذلك أن يحيد بشروح الشعر عن الهدف المقصود، وهو تتبّع العناصر اللّغوية المنتجة للمعاني، وتحديد مدى كفاءتها في الاضطلاع بأدائها، فإنّ تحليلاته لأسلوب أبيات الحماسة لم تتخلص من إجراءات النّحاة في تفصيل التراكيب اللّغوية إلى عناصرها التي تمثّل الظاهرة الأسلوبية فصيرها محور المقارنات الأسلوبية القائمة بين الظاهرة الشعريّة والظاهرة القرآنية. وهو ما يوضّح الصراع الذي يتجاذب توجيه الظاهرة الأسلوبية، إذ انتصرت فئة النّحاة واللّغويين لتحليلها، وانتصرت فئة

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، ج.01، ص.81.

الشعراء والنقاد لتحليلها من جهة ثانية.

لقد تعددت الظواهر الأسلوبية التي استوجبت من المرزوقي وقفة تحليلية دفعته إلى الاحتجاج بالشاهد القرآني حتى يبين وجهة ورودها في التراكيب الشعرية، فمنها ما تعلق بحروف المعاني، ومنها ما اتصل باللفظ، ومنها ما ارتبط بالتراكيب والأساليب، واستخدم المرزوقي في توجيهها ما وفرته بيئة اللغويين، والنحاة، والمفسرين، والنقاد. ومثلت كل هذه المقاييس مجتمعة منظومة إجرائية مكنت الشارح من تحليل الظاهرة اللغوية التي تحولت بفعل الاستعمال إلى ظاهرة أسلوبية.

تؤدي حروف المعاني في الكلام وظيفة الربط بين الجمل، وللمتكلم أن يتصرف فيها بحسب ما تقتضيه الدلالة، فمما استرعى انتباه المرزوقي العطف ب(ثم) في قول الشاعر جعفر بن عتبة الحارثي:

لَا يَكْشِفُ الْعَمَاءُ إِلَّا ابْنَ حُرَّةٍ يَرَى عَمْرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُرُّوَهَا

حيث وجه دلالتها بقوله: «فإن قيل: لِمَ عطف الزيارة على رؤية الغمرات بحرف المهلة، وهلا جعلها عقيب الرؤية؟ قلت: إن ثم إن كان في عطفه المفرد على المفرد يدل على التراخي فإنه في عطفه الجملة على الجملة ليس كذلك. ألا ترى قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ، فَكُ رَقَبَةً، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: 12-17]، لا يجوز تراخي الإيمان عن شيء مما عدده وذكره»<sup>1</sup>

لقد استنتج النحاة من الاستعمال الفصيح أن عطف المفرد على المفرد ب(ثم) يفيد التراخي، لكن عطف الجملة على الجملة ليس كذلك، وقد تبين المرزوقي هذا الحكم، فاستشهد على وجاهته بالآيات من سورة البلد التي استخدم فيها حرف العطف (ثم) دون أن يفيد التراخي، لكن المفسرين رأوا أنها تفيد المهلة، واستنتجوا من التركيب القرآني أن مضمون الجملة المعطوف بها أرقى رتبة في الغرض المسوق له الكلام من مضمون الكلام المعطوف عليه،<sup>2</sup> كما جعلوا معناها استبعاد مضمون ما بعدها عن مضمون ما قبلها، وعدم مناسبتها له.<sup>3</sup>

وما يمكن أن نستنتجه من هذا الاستشهاد هو إحالته على الظاهرة الأسلوبية المتوفرة في الأسلوب القرآني، وبالتالي إحالة إلى توجيه المفسرين لهذا

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، ج 01، ص 39، 40.

<sup>2</sup> ينظر: التحرير والتنوير، ج 30، ص 360.

<sup>3</sup> دراسات لأسلوب القرآن، مج 01، ج 01، ص 64.



الأسلوب المطّرد في التراكيب القرآنية، ومن ثمّة فقد أدى الاستشهاد بالآية دور توجيه معنى البيت الشعري إذ اتّضح بالمفاضلة بين المعنيين، وتفاوتهما في المرتبة، وأحسب أنّ اكتفاء الشّارح بهذه الإحالات دون استخلاص سرّ اختيار حرف العطف ثم ودلالته يفصح عن سعيه الدائب إلى تخليص شرحه مما ينقله.

أمّا العطف بالواو وأثره في ترتيب المعاني، فقد وجّه المرزوقي استخدامه في قول الشّاعر أبي الطمحان القيبي:

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ صَدْحِ النَّوَائِحِ وَقَبْلَ ائْتِقَاءِ النَّفْسِ فَوْقَ الْجَوَانِحِ  
وَقَبْلَ غَدِّ يَالْهَيْفَ نَفْسِي عَلَى غَدِّ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ

بقوله: «إن قيل: كيف قدم ذكر صدح النوائح على ذكر الموت، وإنما يكون بعده؟ قلت: إنّ العطف بالواو لا يوجب ترتيباً. ألا ترى أن الله تعالى قال: ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: 43]، والركوع قبل السجود في ترتيب أفعال الصلاة»<sup>1</sup>

لكنّ المفسرين رأوا لاستخدام العطف بالواو دلالة إضافية، فتقديم السجود في الآية أدخل في باب الشكر، والمقام مقام الشكر<sup>2</sup>. وإذا قسنا على هذا التوجيه بدا لنا أنّ الشّاعر قدّم «صدح النوائح» لأنّه المشهد الذي وقع في نفسه موقعا مؤثرا، وكأنّه في موقف الوصية الذي يوجب هذا التقديم.

ومن الظواهر الأسلوبية التي حلّ لها المرزوقي التراكيب الشعرية التي حذف فيها حرف العطف الواو، كما في قول المثلّم بن رباح:

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي سِنَانًا رَسَالَةً وَشَجَنَةً أَنْ قُومًا خُذَا الْحَقَّ أَوْ دَعَا

حيث قال: «لو قال قوما وخذا الحق، فأتى بحرف العطف كما قال الله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ. وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: 02-03] كان أفصح. وقد جاء مثله بغير العاطف كثيراً»<sup>3</sup>

نلمس في هذا التوجيه مفاضلة الشّارح بين تركيب البيت الشعري وتركيب الآية، حيث جعل الأفصح هو ما جاء عليه الأسلوب القرآني، لأنّ الأجود في الجمع بين الفعلين في باب الأمر أن يدخل الثاني حرف العطف.<sup>4</sup>

أمّا حروف الجرّ فقد حلّل المرزوقي التراكيب التي احتوتها مركّزا على دلالتها

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، ج 03، ص 887، 888.

<sup>2</sup> ينظر: التحرير والتنوير، ج 03، ص 244.

<sup>3</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 276، 277.

<sup>4</sup> ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص 1093.

بتعدية الفعل، أو حذفها مع بعض الأفعال، ففي شرح قول الشاعر:

وَلَقَدْ هَدَيْتُ الرُّكْبَ فِي دَيْمُومَةٍ فِيهَا الدَّلِيلُ يَعُضُّ بِالْخَمْسِ

بيّن أنّ في قوله: «يَعُضُّ بِالْخَمْسِ» تعدية الفعل بحرف الجر الباء، فاستخلص منه أنّ الشاعر جعل الدليل يفعل ذلك لخوفه الهلاك، والضلال على نفسه ومن معه. ثمّ استشهد بقوله تعالى: ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: 119] ليؤكد أنّ هذه التعدية لها أثرها في دلالة العبارة.<sup>1</sup>  
أما حذفها فقد أوضح وروده في الشعر، وفي القرآن الكريم على حدّ سواء، ففي شرحه لقول جَزء بن ضرار:

تَصَامَمْتُه حَتَّى أَتَانِي يَقِينُهُ وَأَفْرَعَ مِنْهُ مُخْطِئٌ وَمُصِيبٌ

بيّن دلالة حذف حرف الجر «عن» بقوله: «معنى البيت: تكلفت الصمم عن ذلك الخبر حتى جاء ما لم يمكن رده، لكون الشبه منتفية عنه، واتفق المخطئ والمصيب على تصحيحه، وصادفا الفزع فيه، أو أفزعا الغير منه... وفي القرآن: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 03]، يريد كالوا عليهم أو وزنوا عليهم»<sup>2</sup>

وقد علّل المفسّرون حذف الجر «اللام» في مثل هذه الأفعال بكثرة الدوران على الألسنة، وطلبها للخفة؛ قال محمد الطاهر بن عاشور في تفسير الآية: «وتعدية «كالوا»، و«وزنوا» إلى الضميرين على حذف لام الجر. وأصله كالوا لهم ووزنوا لهم، كما حذف اللام في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [البقرة: 233] أي تسترضعوا لأولادكم، وقولهم في المثل «الحريص يصيدك لا الجواد» أي الحريص يصيد لك. وهو حذف كثير مثل قولهم: نصحتك وشكرتك، أصلهما نصحت لك وشكرت لك، لأنّ فعل كال وفعل وزن لا يتعديان بأنفسهما إلّا إلى الشيء المكيل أو الموزون يقال: كال له طعاما ووزن له فضة، ولكثرة دورانه على اللسان خففوه فقالوا: كاله ووزنه طعاما على الحذف والإيصال»<sup>3</sup>

وقد قارن المرزوقي بين استخدام الشعر للأفعال الناقصة بورودها في القرآن، فأوضح أنّ دلالتها تخضع لمفهوم الاتساع في الاستعمال، وذلك في شرحه لقول شهل بن شيبان الزماني:

فَلَمَّا صَرَخَ الشَّرُّ فَأَمْسَى وَهُوَ عُزَيَانُ

<sup>1</sup> ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص 1274.

<sup>2</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 249، 250.

<sup>3</sup> التحرير والتنوير، ج 30، ص 191.

بيّن أنّ: «فائدة أمسى وأصبح وظلّ وبات في مثل هذا المكان على حدّ الفائدة في صار لو وقع موقعها، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:58]، والبشارة بالأنثى تقع ليلاً ونهاراً. وكذلك تقول: أصبحوا خاسرين، وأمسوا نادمين، وإن كانوا في كلّ أوقاتهم على ذلك»<sup>1</sup>

دلالة اختيار الفعل «أمسى» في البيت الشعري جلبت انتباه الشّارح، فمعناه استمرار الفعل في زمن المساء، غير أنّ هذا التخصيص في البيت الشعري اتّسع ليشمل جميع الأوقات الأخرى كفعل أصبح وظلّ وبات، وكى يبرهن على صحة توجيهه لهذا الاختيار استشهد بالآية القرآنية، لكنّ الزمخشري عندما فسّر الآية أوضح أنّ اختيار الفعل «ظَلَّ» في هذه الآية جاز لأنّها بمعنى الصيرورة، وهو معنى مشترك بين الأفعال بات وأصبح وأمسى وغيرها، ما يحتمل أن يستخدم كل فعل من الأفعال المذكورة مكان الآخر، ثمّ خصّص فرأى أنّ اختيار هذا الفعل خاضع للدلالة المقامية، فإذا علمنا أنّ أكثر الوضع يكون ليلاً كان من الضروري استخدام هذا الفعل الدال على الصيرورة في النهار. وخلص بعض المفسّرين إلى أنّ اختيار الفعل «ظلّ» دلّ على معنى المبالغة.<sup>2</sup>

وقد جعل المرزوقي اختيار الفعل «ظلّ» أيضاً من قبيل الاتساع في الاستعمال عندما شرح قول العديل بن الفرخ العجلي:

ظَلَلْتُ أَسَاقِي الْهَمِّ إِخْوَتِي الْأُولَىٰ أَبُوهُمْ أَبِي عِنْدَ الْمَرْاحِ وَفِي الْجَدِّ

حيث قال: «يقال: ظلّ يفعل كذا، إذا فعله نهاراً، ثمّ يتوسعون فيه، ويجري مجرى صار يفعل كذا يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل:58] ألا ترى أن البشارة بالأنثى تتفق كل وقت من ليلٍ ونهارٍ»<sup>3</sup> وأكّد هذا التوجيه حيث جعل الفعل دالاً على كلّ الأوقات بقوله: «أصل الظلول المكث في النهار، ولكنّه يتوسع فيه فيجعل للأوقات كلّها»<sup>4</sup>

ومن الظواهر الأسلوبية المرتبطة بالفعل دلالة «برح» المستخدم في قول الشاعر:

وَمَا بَرِحَ التَّيْمُ يَعْتَزُّونَ وَزُرُّ قُ الْخَطِّ تَشْفِي السَّقِيمَ مِنْ سَقَمِهِ

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، ص28.

<sup>2</sup> الكشاف، ج02، ص612.

<sup>3</sup> شرح ديوان الحماسة، ص519.

<sup>4</sup> شرح ديوان الحماسة، ص746.

فقد وجّه المرزوقي دلالة «مَا بَرَحَ» بقوله: «ما برح وما زال بمعنى، وليس هذا من البراح من المكان. ألا ترى أن الله قال: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف:60] ومحال أن يبلغ هذا الموضع، وهو لم يبرح من مكانه. وكأنّ الكلمة في اللّغة تدل على معنى المجاوزة»<sup>1</sup>، فإذا كان المرزوقي أورد الآية دليلاً على صحّة تخريجه فإنّ المفسّرين لم يكن لهم بدّ من الاحتكام إلى آراء النّحاة في دلالة الفعل «مَا بَرَحَ»، قال السّمين الحلبي: «قوله: «لَا أَبْرَحُ» يجوز فيه وجهان، أحدهما: أن تكون ناقصة فتحتاج إلى خبر. والثاني: أن تكون تامة فلا تحتاج إليه»<sup>2</sup>.

وقد أجرى المرزوقي مفاضلة بين اختيار فعل «استجاب» بدلاً «أجاب» عندما شرح قول عتبة بن بجير الحارثي:

وَنَادَيْتُ شِبْلًا فَاسْتَجَابَ وَرُبَّمَا ضَمِنَّا قِرَىٰ عَشْرًا لِمَنْ لَا نَصَافِحُ

حيث حكم بأن: «ذكر استجاب ها هنا أحسن من أجاب، وذلك أن قول القائل: دعوت زيداً فأجابني، كقوله: أمرته فأطاعني. وقوله: دعوته فاستجاب لي، أي تقبل ما قلته وطاوعني فيه. وعلى هذا يفسر أصحاب المعاني قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة:186]»<sup>3</sup>

وقد ذكر السّمين الحلبي في الدرّ المصون أنّ الرّماني فرق بين أجاب واستجاب: بأنّ استجاب لا يكون إلّا فيما فيه قبول لما دُعي إليه نحو: ﴿فاستجبنا له﴾ [الأنبياء:76] ﴿فاستجاب لهم ربهم﴾ [آل عمران:195]، وأمّا أجاب فأعمّ لأنّه قد يُجيب بالمخالفة، فجعّل بينهما عموماً وخصوصاً<sup>4</sup>.

ولتوجيه ظواهر الأسلوب المرتبطة بالفعل بما يضارعه في التركيب استخدم المرزوقي مفهوم المشاكلة<sup>5</sup> عندما شرح قول شهل بن شيبان الزماني:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا نِ دِنَاهُمْ كَمَا دَانُوا

إذ ذكّر أنّ قوله دناهم كما دانوا، رغم أنّ الأول ليس بجزء، هو من باب ميلهم إلى المطابقة والموافقة، وإخراج اللفظ في معرض صاحبه ليعلم أنّه جزاؤه

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، ص242.

<sup>2</sup> السّمين الحلبي أحمد بن يوسف، الدرّ المصون في علم الكتاب المكنون، تج: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ط.)، (د.ت.)، ج07، ص517.

<sup>3</sup> شرح ديوان الحماسة، ص1090، 1091.

<sup>4</sup> السّمين الحلبي، الدرّ المصون في علوم الكتاب المكنون، ج02، ص291.

<sup>5</sup> ينظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية 2007، ص621-623. وقد عرّفها في السكاكي بقوله: «وهي أن تذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبتته» مفتاح العلوم، ص424.

على حده وقدره أو ابتداؤه. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142] و﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: 15] وما أشبهه<sup>1</sup>

وفي هذا تأكيد من المرزوقي على أنّ استخدام الفعل بهذه الصفة هو أسلوب مطّرد لدى العرب الفصحاء، وقد توفّر في الأسلوب القرآني، غير أنّ المفسّرين وجّهوا الظاهرة بطرق شتى راعوا فيها مصدر القرآن الكريم، فقد قال الطبري: «قالوا: فكذلك استهزاء الله جل ثناؤه بمن استهزأ به من أهل النفاق والكفر به: إمّا إهلاكه إياهم وتدميره بهم، وإمّا إملاؤه لهم ليأخذهم في حال أمّتهم عند أنفسهم بغتة، أو توبيخه لهم ولأنتمته إياهم. قالوا: وكذلك معنى المكر منه والخديعة والسخرية. وقال آخرون قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [سورة النساء: 142] على الجواب، كقول الرجل لمن كان يخدعه إذا ظفر به: أنا الذي خدعتك، ولم تكن منه خديعة، ولكن قال ذلك إذ صار الأمر إليه. قالوا: وكذلك قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: 54]، و«اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»، على الجواب. والله لا يكون منه المكر ولا الهزء، والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم.»<sup>2</sup>

والملاحظ أنّ المفسّرين قد استنتجوا تعدّد دلالة المشاكلة بين الأفعال في التركيب الواحد، وهو نابع من طبيعة الأسلوب القرآني المعجز. أمّا المرزوقي فقد وجّه هذا الأسلوب بحسب سياقات وروده، فعند شرحه لقول أوس بن حبناء، ركّز على دلالة الفعل «أولى» الذي مثل استعماله مفارقة دلالية لأنّه دل على المعنى وضده:

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأَوْلِهِ هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوْاصِرِهِ

قال: «حقيقة أولاك كذا: جعله مما يليك، لكنّه اشتهر في الإحسان، وقد يستعمل في الإساءة، كما فعله هذا الشاعر. ومثله بشرته في معنى تناوله الشر، وإن كان اشتهاره في الخير. ألا ترى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]. يقول: قابل معاملك بمثل ما يرصده لك، فإن الأفعال بين الناس قروض، وشرط القروض الوفاء بها، والخروج من ذممها، فمن أهانك فأهنه وإن قربت عواطف أرحامه، وشوابك أسبابه، ولا توجب له إلا مثل ما يوجب»

<sup>1</sup> ينظر: شرح الحماسة، ج 01، ص 29.

<sup>2</sup> الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تج: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى 2000، ج 02، ص 302.

لك.»<sup>1</sup>

أما المفسرون فقد حكّموا التركيب في تحديد دلالة الفعل «بَشَّرَ»، فإذا كان غير مقيد دلّ على كلّ أمر محبوب، أمّا إذا قيّد دل على الشرّ، قال أبو حيّان الأندلسي: «ومعنى: بشر أخير، وجاء بلفظ بشر على سبيل التهكم بهم نحو قوله: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21] أي القائم لهم مقام البشارة. وقال ابن عطية: جاءت البشارة هنا مصرحاً بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه. ومتى جاءت مطلقة فإنّما عرفها في المحبوب.»<sup>2</sup>

ومن الظواهر الأسلوبية التي نبّه إليها المرزوقي في المقارنات التي أجراها بين الشعر والقرآن إسناد الفعل إلى الظرف الذي وقع فيه، وذلك لما شرح قول أبي كبير الهذلي:

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُؤَادِ مُبْطِنًا سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهَوْجَلِ

إذ رأى أنّ في قوله: نام ليل الهوجل، إسناد الفعل إلى الليل، لوقوعه فيه. والمقصود نام الهوجل في ليله،<sup>3</sup> ووجه هذا الأسلوب بأن جعله من باب المجاز والاتساع، ثمّ أوضح أثره في التركيب بقوله: «الأكثر في المجاز والاتساع أن ينسب الفعل إلى الوقت فيؤتى به على أنّه فاعل، كما قيل: بهاره صائمٌ، وليله قائمٌ. وحسن هذا لأنّ الظرف قد يقدر تقدير المفعول الصحيح، بأن ينزع منه معنى في»<sup>4</sup>، ويمكن أن نستنتج من هذا التحليل اعتماد الشاعر على المقارنة بين تركيبين، الأوّل ما عبّر عن الحقيقة تعبيراً مباشراً، والثاني ما احتوى دلالة مجازية.

وقد اطّرد استخدام المرزوقي لمفهوم المجاز والاتساع في توجيه التراكيب التي تعتمد على إضافة الفعل، أو ما يقع موقعه إلى الظرف، ففي شرحه لقول الشاعر:

وَاللّهِ مَا يَدْرِي أَمْرٌ دُوَّ جَنَابَةٍ وَلَا جَارٍ بَيْتِ أَيُّ يَوْمِيكَ أَجْوَدُ

ذكر أنّه: «أقسم بالله - عز وجل - أنّه لا الغريب المجانب ولا القريب المجاور يعلم أي يومي هذا المسموح أكثر سخاء وأتمّ إفضالاً. وجعل الجود لليوم على طريقة قوله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: 33] لما كان فيهما. وعلى حد قول

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 464.

<sup>2</sup> البحر المحيط في التفسير، ج 04، ص 101.

<sup>3</sup> ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص 67.

<sup>4</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 66.

النّاس:نهاره صائئم، وليله قائم»<sup>1</sup>

أمّا المفسّرون فرأوا في التركيب أن يكون دالاً على المصدر المضاف إلى المرفوع، أو الاتّساع في الظرف، فالسّمين الحلبي فسّر عبارة «مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» بقوله: «وإضافة المَكْرُ إلى الليل والنّهار: إمّا على الإسناد المجازي كقولهم: ليلٌ ماکرٌ، فيكون مصدراً مضافاً لمرفوعه، وإمّا على الاتّساع في الظرف فجعل كالمفعول به، فيكون مضافاً لمنصوبه. وهذا أحسن من قول من قال: إنّ الإضافة بمعنى «في» أي: في الليل؛ لأنّ ذلك لم يثبت في غير محلّ النزاع»<sup>2</sup>

ومن ظواهر الأسلوب التي شرحها المرزوقي في ضوء مفهوم المجاز والاتّساع قول ابن دارة سالم بن مسافع:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوُدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا

حيث وجّه دلالته بقوله: «قوله: إلى الأمر الذي كان أحزماً، جعل الحزم للأمر كما جعل له العزم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: 21]، فكل ذلك مجازٌ واتّساع»<sup>3</sup>، فحزم الأمر وعزمه تركيب جعله المفسّرون مجازاً لأن أصله عزم أصحاب الأمر.<sup>4</sup>

وقد استنتج المرزوقي أثر هذا التركيب المبني على الإضافة في المعنى عندما شرح قول القتال الكلابي:

إِذَا جَاعَ لَمْ يَفْرَحْ بِأَكْلَةِ سَاعَةٍ وَلَمْ يَبْتَسِسْ مِنْ فَقْدِهَا وَهُوَ سَاغِبٌ

فأوضحه بقوله: «والشاعر يصف كرم نفسه، وحسن صبره على تقلب الأحوال، فالشبعة لا تطغيه، والجوع لا تؤيسه فتريده... وأضف الأكلة إلى ساعة تقصيراً بها وإزراءً، وإن كان ذلك وقتاً لها. وقوله من فقدها يريد من فقدها لها، والمصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول جميعاً، على هذا قوله تعالى: ﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: 49]»<sup>5</sup>

أمّا محمد الطاهر بن عاشور فقد وسّع من دلالة التركيب انطلاقاً من توجيه النّحاة إلى توجيهه البلاغي، حيث قال في تفسير عبارة «مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ»: «الدعاء: أصله الطلب بالقول، وهو هنا مجاز في الطلب مطلقاً فتكون

<sup>1</sup> شرح ديوان الحماسة، 1249.

<sup>2</sup> الدر المصون، ج. 09، ص. 191.

<sup>3</sup> شرح ديوان الحماسة، ص. 284.

<sup>4</sup> ينظر: الدرّ المصون، ج. 09، ص. 700، 701.

<sup>5</sup> شرح ديوان الحماسة، ص. 463.

إضافته إلى الخير من إضافة المصدر إلى ما في معنى المفعول، أي الدعاء بالخير أو طلب الخير. ويجوز أن يكون الدعاء استعارة مكنية، شبه الخير بعامل يسأله الإنسان أن يقبل عليه، فإضافة الدعاء من إضافة المصدر إلى مفعوله.<sup>1</sup>

وكما تأثر المرزوقي بتحليلات النحاة للتركيب أخذ أيضاً من تحليلات البلاغيين، ففي شرحه لقول غلاق بن مروان:

فَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوا لِأُخْرَى مَكَانَهَا وَلَمْ تَلِدِي شَيْئاً مِنَ الْقَوْمِ فَاطِمَا

أوضح أن: «البيت على كلامين: صدره إخبارٌ، وعجزه خطابٌ لفاطمة، وهي أختُ لهم. ومثله في أنه كلامين قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف: 29]. والشاعر قصده إلى إظهار التوجع من الحال، فيقول متمنياً: بودي أن يكونوا لوصلةٍ وقرابةٍ غير وصلتهم وقرابتهم، حتى لا يبلغ الجفاء من جهتهم مبالغة في نفوسنا، لأن ظلم ذوي القربى أشد تأثيراً. والشر إذا ورد على الإنسان من مظنة الخير كان أنفذ تحزيراً»<sup>2</sup>

أما المفسرون فقد عدوا هذا التركيب من الالتفات لأن فيه تغييراً للخطاب من الخبر إلى الإنشاء، وجعلوه عزيزاً في الكلام البليغ،<sup>3</sup> وجعل المرزوقي هذا الأسلوب من سنن العرب في كلامها حيث قال: «والعرب قد تجمع في الخطاب أو الإخبار بين عدة، ثم تقبل أو تلتفت من بينهم إلى واحد لكونه أكبرهم، أو أحسنهم سماعاً لما يلقي إليه، أو أخصهم بالحال التي تنطق بالشكوى بينهم، فتفرده بكلام»<sup>4</sup>

ومن الظواهر الأسلوبية التي حللها المرزوقي دلالة الخبر على الإنشاء والعكس، ما ورد في شرحه لقول خفاف بن ندبة:

وَأَبْغَضُ إِلَيَّ بِإِتْيَانِهَا إِذَا أَنَا لَمْ أَنْسَهَا أَدْفَعُ

ذكر أن: «قوله وأبغض إليّ بإتيانها استعير فيه بناء الأمر للخبر، لأن معناه التعجب، والتعجب خبرٌ، وهم يستعرون المباني للمعاني، كما يستعرون الجمل والمفردات. وهذا كما يستعار بناء الخبر للأمر كقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: 228]»<sup>5</sup>

أما المفسرون فأروا أن التركيب يحتمل توجيهين، حيث قال أبو حيان

<sup>1</sup> التحرير والتنوير، ج 25، ص 10.

<sup>2</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 327.

<sup>3</sup> ينظر: التحرير والتنوير، ج 12، ص 259.

<sup>4</sup> شرح ديوان المرزوقي، ص 181.

<sup>5</sup> شرح ديوان الحماسة، ص 447. ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص 113. «لفظه لفظ الخبر، والمعنى الدعاء».



الأندلسي: «والمطلقات مبتدأ ويترصن خبر عن المبتدأ، وصورته صورة الخبر، وهو أمر من حيث المعنى، وقيل: هو أمر لفظاً ومعنى على إضمار اللام أي: ليرصن»<sup>1</sup>  
ومن ظواهر الأسلوب في التراكيب الشعرية التي أثارت انتباه المرزوقي مخالفة المطابقة حيث وجهها بطرق متنوعة، منها فكرة الحمل على اللفظ، والحمل على المعنى، ففي شرحه لقول الشاعر:

مَمَّنْ حَمَلَنَ بِهِ وَهَنَّ عَوَاقِدُ حُبِّكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلٍ

وجه المطابقة بين «من» والضمير «الهاء» بقوله: «وإنما قيل: ممن حملن به، لأنه رد الضمير على لفظ من، ولورد على المعنى لقال بهم. وفي القرآن في موضع: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: 25]، وفي آخر: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: 42]»<sup>2</sup>

وهو بذلك يتفق مع المفسرين في توجيههم للظاهرة الأسلوبية التي توفرت في أسلوب القرآن الكريم، إذ جعلها الطبري لغة مشهورة من لغات العرب، «ذلك أن العرب ترد خبر «من» أحياناً على لفظها، فتوجد وتذكر، وأحياناً على معناها كما قال جل ثناؤه: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾\* وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: 42، 43] فجمع مرة للمعنى ووحده أخرى للفظ»<sup>3</sup>

أما محمد الطاهر بن عاشور فقد رأى في العدول عن الجمع في صلة «من» هو من قبيل التفتن وكراهة إعادة صياغة الجمع لثقلها، أو لعل اختلاف الصيغتين للمناسبة مع مادة فعلي (يستمع) و(ينظر). ففعل (ينظر) لا تلائمه صيغة الجمع لأن حروفه أثقل من حروف (يستمع) فيكون العدول استقصاء لمقتضى الفصاحة<sup>4</sup>

ومن ظواهر الأسلوب التي رصدها المرزوقي العدول في البنية الصرفية للكلمة التي يقتضيها التركيب، وقد أوضح ذلك لما شرح قول ربعة بن مقوم:

وَلَكِنِّي وَصَلْتُ الْحَبْلَ مِثِّي مُوَاصِلَةً بِحَبْلِ أَبِي بَيَّانٍ

حيث ذكر أن قوله (مواصله) يجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال، أي مواصلاً، ويجوز أن يكون موضوعاً موضع صلة فيكون مصدراً من غير لفظه، مثل

<sup>1</sup> أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تخ: صديقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة 1420هـ، ج 02، ص 453.  
<sup>2</sup> شرح ديوان الحماسة، 65.  
<sup>3</sup> جامع البيان عن تأويل أي القرآن، ج 20، ص 257.  
<sup>4</sup> ينظر: التحرير والتنوير، ج 11، ص 180.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17]<sup>1</sup>

وقد علّل المفسّرون هذا الاستخدام «نباتًا» بدلا من «إنباتًا» بالاستناد على مفهوم الفصاحة والملاءمة بين عناصر التركيب، وهو ما أوضحه محمد الطاهر بن عاشور بقوله: «لأنّ نباتا أخف فلما تسنى الإتيان به لأنه مستعمل فصيح لم يعدل عنه إلى الثّقل كما لا في الفصاحة، بخلاف قوله بعده إخراجا فإنّه لم يعدل عنه إلى: خروجا، لعدم ملاءمته لألفاظ»<sup>2</sup>

وما يمكن أن نستنتجه أنّ التحليل اللّغوي التّحوي الذي طبّقه المرزوقي في شرحه لديوان الحماسة على ظواهر الأسلوب في التراكيب الشعريّة تحوّل إلى تحليل للأسلوب عندما انتقل إلى المقارنة بين التراكيب الشعريّة، والتراكيب في القرآن الكريم، ولم يخرج المرزوقي عن منهج المفسّرين في تحليل ظواهر الأسلوب في التراكيب القرآنيّة الذين غالبا ما يستندون على الشاهد الشعري، وهذا ما يؤكّد على تبادل الشاهد بين شرح الشّعر وتفسير القرآن الذي تتحكّم فيه الظاهرة الأسلوبية.

## 1-المصادر

- 1- المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، الأصفهاني، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2003.
- 2- محمد الطاهر ابن عاشور، شرح المقدمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1978.
- 3- النمري أبو عبد الله الحسين بن علي، معاني أبيات الحماسة، تح: عبد الله عبد الرحيم عسيلان، مطبعة المدني، السعودية، الطبعة الأولى 1983.

## 2-المراجع

- 1- أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة 1420هـ.
- 2- الزمخشري محمود بن عمر أبو القاسم، الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعبون الأقاويل في وجوه التّأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة 1407هـ.
- 3- السمين الحلبي أحمد بن يوسف، الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، (د.ط.)، (د.ت.).
- 4- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى 2000.

<sup>1</sup> ينظر: شرح ديوان الحماسة، ص 797.

<sup>2</sup> التحرير والتنوير، ج 29، ص 204.

- 5- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى 1984.
- 6- الميداني، أبو الفضل محمد بن إبراهيم، مجمع الأمثال، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، (د.ط).
- 7- بيار غيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، الطبعة الثانية 1994.
- 8- عبد الله عبد الرحيم عسيلان، حماسة أبي تمام وشروحا دراسة وتحليل، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت)، (د.ط).
- 9- شكري محمد عياد، اللغة والإبداع مبادئ علم الأسلوب العربي، الطبعة الأولى 1988.
- 10- صلاح فضل، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى 1998.
- 11- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، الطبعة الثانية 1982.
- 11- أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الثانية 2007.
- 3- المقالات
- 1- البشر بن عمر، «في مقاييس اختيار الشعر ووظائفه من خلال باب الحماسة من ديوان الحماسة لأبي تمام»، حوليات الجامعة التونسية، العدد 46.
- 2- حسين الواد، «من قراءة النشأة إلى قراءة التقبل»، مجلة فصول، المجلد الخامس، العدد الأول، عام 1984.
- 3- صلاح فضل، «ظواهر أسلوبية في شعر شوقي»، فصول مجلة النقد الأدبي، المجلد الأول، العدد الرابع 1981.
- 4- محمد الهادي الطرابلسي، «توظيف الإسم العلم في النص الشعري»، حوليات الجامعة التونسية، ع 45، 2001.
- 5- الهادي الجطلاوي، «خصائص الشروح العربية على ديوان أبي تمام»، فصول في النقد والأدب، ج 06، ع 01، 1985.
- 4- المراجع باللغة الفرنسية
- 1- CRESSOT, Marcel, Le style et ses techniques précis d'analyse stylistique, presses universitaires de France, Paris, 6eme éd 1969.
- 2- DELOFFRE, Frédéric, stylistique et poétique françaises, SEDES, Paris, 1985.



## جليات لسانيات النص في علوم القرآن

د. فاتح بوزرى

جامعة الجزائر- 2 -

### ملخص:

نهج القرآن الكريم نهجا فريدا، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها؛ فتجد الآية متسقة الكلمات، متآزرة مع أخواتها، وتلتقي السورة بالتي بعدها والتي قبلها برابط لا يجعل منها جنسا غريبا عنها؛ فكان بذلك معجزا بنظمه، بديعا في اتساقه، متناسبا في آياته وسوره وأجزائه، وجاء هذا المقال ليبيّن معنى المناسبة وأقسامها وأنواعها وبعدها النصي، معتمدا في ذلك على لسانيات النص.

### Abstract:

The Quran has a unique approach, taking into account the relationship between its verses founded in the texts' sequence. In other words, the words of the verses are coherent with each other which in its turn make "the Sura" coherent as well. The Quran is unique in its cohesion, there are no contradictions between its components, Suras and verses and therefore, no one could ever write like it. This article aims at clarifying the meaning of "appropriateness", its types, kinds and its textual context depending on textual linguistics.

### مقدمة:

تعدّ النصوص أداة مهمّة لدى البشر لامتلاك الواقع والسيطرة عليه، وتعتبر أساسا جوهريا للتطور البشري وتكامله في كلّ مجتمع؛ فبالنصوص تترابط النشاطات الإنسانية، ويتمّ الإعداد لأحداث كثيرة وتنفيذها، وتوجيه السلوك الاجتماعي عند الآخرين إلى أهداف محدّدة، كما تُلهم أعضاء أيّ مجموعة لغوية تجارب ومواقف وقيما أخلاقية، وتصبح العمليات الذهنية ملموسة وميسرة وفي متناول الآخرين؛ لهذا تعني العلوم المختلفة والتخصصات العلمية الكثيرة<sup>1</sup>

1- علم الشعر والبلاغة، والتفسير واللاهوت، والقانون وعلوم الاتصال الحديثة والسميولوجيا وعلم الدلالة والحجاج والسوسيولوجيا واللسانيات النفسية.

بوصف التّصوّص وتحليلها<sup>1</sup> وفهم مضمونها، إذ هي المادة المشتركة بينها جميعا طبقا لمناهجها ووجهات نظرها وطرق تحليلها وكيفية توظيفها، واستخلاص النتائج منها.

ولا خلاف بين الباحثين حول صعوبة البحث النَّصي؛ لأنَّ السّمة الجوهرية الفارقة له عن البحوث الأخرى تكمن في التّداخل المعرفي<sup>2</sup> (inter disciplines)، وهذا يعني أنّ تحليل النَّص يتطلب دراية واسعة في فروع معرفية مختلفة، حيث تشعبت المناهج التي استقى منها مفاهيمه وتصوراتها ومناهجه، وآتسم هو نفسه بقدره فائقة على استيعاب كلّ ذلك الخليط المتباين؛ بل وتشكيل بنية منسجمة قادرة على الحفاظ على ذلك التّداخل من جهة، وإبراز جوانب الاختلاف بينه وبين العلوم الأخرى من جهة ثانية<sup>3</sup>؛ بإيجاز إنّه يختلف عنها جميعا في الوصف والتّحليل وفي المناهج والأهداف، إنّه الميدان الذي استطاع أن يجمع بين عناصر لغوية، وغير لغوية لتفسير النَّص تفسيرا علميا<sup>4</sup>.

فهل يمكن أن نجد في التّراث العربي المرتبط أساسا بالممارسة النَّصية أمورا قابلة لأن تدرج في لسانيات النَّص بصفة عامّة، وفي انسجام الخطاب بصفة

MardgaA. Deuxième édition. p9.

<sup>1</sup> «تقسيم بنية النَّص إلى وحدات أساسية وفق رؤية منهجية محددة سلفا»، ينظر: نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان الأردن، 2009م، ص 96.

<sup>2</sup> أشار باختين (Michael Bakhtine) أنّه: «ليس بالإمكان الحديث عن النَّص لا من قبل اللّساني ولا عالم الأصوات ولا عالم الأدب، ولكنه (باختين) يحدّد مقترحه في المنطقة التي تتشابك فيها هذه المعارف وتتقاطع». المرجع نفسه، ص 11، «يظل النَّص هدف البحث في علم اللّغة النَّصي ونقطة انطلاقه، ومن الجائز حقا تضافر العلوم في معالجة النَّص اليوم بوصفه شرطا ضروريا لإسهام منهجي واعد، دون مبالغة في تناول جوانب الموضوع. ويكون النَّص نفسه الأساس المبدئي الأصلي في علم النَّص، وهي المهمّة الأساسيّة لعلم اللّغة النَّصي على الإطلاق»، فولفجانج هاينته من وديتر فميفيجر، مدخل إلى علم اللّغة النَّصي، ترفالغ بن شيبب العجبي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، 1999م، ص 11.

<sup>3</sup> سعيد حسن بحيري، علم اللّغة النَّصي المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، 1969م، ص أ.

<sup>4</sup> «اتسع علم لغة النَّص في الأساس بضمه تلك القواعد والنماذج والاستراتيجيات المتاحة وتجاوزها إلى إمكانات أخرى، توفرت له من خلال الامتداد المعرفي واتساع الأفق والتداخل التصوري، ومكنته نظريته الشمولية من تخطي الامتداد الأفقي إلى أبعاد دلالية وإحالية وإيحائية تستعصي على النَّظر المحدّد، بل استعانت بما يدور فيما وراء اللّغة في التحليل والتفسير، حين وضع في الاعتبار مستويات القراءة وأحوالهم النَّفسية والاجتماعية وتعدّد القراءة، وأشكال التّواصل، ودرجات الفهم والاستيعاب، وطرق التّدكر والاستعادة، وإمكانات التّأليف، وكيفيات التّرابط الدّهني، وغير ذلك من أدوات وإجراءات وعمليات لم يتح لعلم من قبل أن ينظم بينها ويفيد منها، كما أتيح لعلم لغة النَّص». ينظر: المرجع السابق، ص 9.

خاصة؟

## 1.لسانيات النَّص (Linguistique textuelle):

استفادت لسانيات النَّص من لسانيات الجملة بمختلف توجهاتها، وحاولت أن تتجاوز قصور هذه الأخيرة، لأنها لم تعد كافية لكلِّ مسائل الوصف اللغوي من حيث الدلالة والتداول؛ وبعبارة أخرى: حُددت للسانيات النَّص مهام لا يمكن أن تنجزها بدقّة إذا التزمت حدّ الجملة، وهي الاهتمام بدراسة الظواهر التركيبية المختلفة للنص، والتي لا يمكن تفسيرها تفسيراً دقيقاً إلا من خلال وحدة النص الكلية، وكذا الجوانب غير اللغوية للنص؛ - الناحية التداولية - المتمثلة في الاتصال اللغوي وسياقه (أطراف مشاركة) وشروط هذا الاتصال وقواعده ومميزاته وأثاره وأشكال التفاعل، ومستويات الاستخدام اللغوي، وأوجه التأثير التي تحقّقها الأشكال النصية في المتلقي، وأنواع المتلقين، وصور التلقي، وغير ذلك من انفتاح النَّص وتعدد قراءاته وتأويلاته.

يبدو أنّ هذا التطور الكبير والتحول الهائل - معرفياً وإجرائياً - أدى إلى أن تصبح مشكلات تحليل النصوص وأهدافها الموزعة على فروع علمية مختلفة، موضوعاً لدراسة واحدة متكاملة، شكّلت بصورة حتمية موضوعاً جديداً سي بلسانيات النص<sup>1</sup>، هذه الأخيرة تؤكد أنّ المعنى الكلي للنص والمعلومات التي يتضمنها أكبر من مجرد مجموع المعاني الجزئية للجمل التي تكوّنه، فلا تتقرر الدلالة الحقيقية لكلّ جملة داخل ما يسمى بكلية النص إلا بمراعاة الدلالات السابقة واللاحقة في ذلك التسلسل (التتابع الجملي)، ولا يُنظر إلى الامتداد الطولي؛ ولكن ينظر إلى الأبنية الكبرى المتلاحمة داخلياً على أساس أنّها وحدات مترابطة الأجزاء؛ لأنّ النص لا يجيز وجوداً مستقلاً لعناصره، فلا تكون القيم الجزئية ذات اعتبار كبير إلا باشتراكها في القيمة الكبرى المتكوّنة من ذلك التكوين الأكبر؛ وهكذا يتحدّد المعنى من خلال النص الكلي الذي تتضامن أجزاؤه وتتأزر من خلال حركة جدلية أو تفاعل مستمر بين أجزائه.

1- "نحو النص" الذي استعمله أحمد عفيفي لا يختلف عن لسانيات النص الذي استعمله محمد خطابي وتمام حسان، وبشير إبرير واستعمل سعيد حسن بحيري وإلهام أبو غزالة وعلي خليل محمد علم لغة النص، واستعمل صلاح فضل، وجميل عبد المجيد علم النص، أمّا صبحي إبراهيم وفالح بن شبيب العجمي فقد استعمل مصطلح علم اللغة النصي، أمّا إبراهيم خليل فاستعمل نظرية النص. وقد اصطلح عليه في البداية "نحو النص" (Grammaire de texte)، ثم أطلق عليه مصطلحات كثيرة مثل: أجرومية النص؛

Gilles siouffi et Dan van Raemdonck: 100 fiches pour comprendre la linguistique, Bréal, Rosny, 1999,

وتنظر لسانيات النص في اتساق<sup>1</sup> النص وانسجامه باعتباره بنية كلية: وتأخذ بعين الاعتبار محاولة استخراج المعايير التي تتحقق بها النصية (textualité)، وتوضح: كيف تُنتج النصوص؟ وكيف تستقبل؟ وكيف تستخدم في سياق ما؟ كما تسعى إلى دراسة المظاهر المتنوعة لأشكال الاستعمال اللغوي (المحادثات اليومية، والمواد الصحفية، والحكايات، والقصص، والقصائد، والخطب.. إلخ)؛ إذ ليس النص بناء لغويا فحسب ولا تتابعا لجملة، بل هو بناء يدخل في سياق تفاعلي بين متكلم ومخاطب في موقف ما، فكل رسالة عبارة عن شبكة من العلاقات النحوية والدلالية والتداولية: لها قصدها وموقفها وظروف تلقيها (تأثيرات معرفية ووجدانية عبر الإجراءات والاستراتيجيات).

وتعنى أيضا بالشروط اللازمة للملائمة بين أفعال الكلام كي تكون موفقة<sup>2</sup> في الموقف التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم، حيث تتحكم في إنتاج النص عدّة عمليات: لغوية ونفسية واجتماعية ومعرفية، تُشكّل من الأجزاء وحدة منسجمة قائمة على علاقات تركيبية ودلالية وتداولية معاً<sup>3</sup>، ويؤدي الفصل بين هذه الآليات أو الاكتفاء بقسم منها إلى خلل حتمي في الدراسة، ف«لم يعد يُكتفى بعلم يدرس العناصر اللغوية فحسب، بل لوحظ أنّ العناصر غير اللغوية لا تقل أهمية عن العناصر اللغوية، وبالتالي يجب إدراجها في الوصف، ولا يتوقف علم النص على ما يقدمه النحو من وصف دقيق للنظام اللغوي المجرد، بل يبحث عن كيفية اكتساب هذا النظام، وتحديد القواعد، والعمليات المعرفية التي يتم ذلك من خلالها، ويبحث أيضا عن القواعد والاستراتيجيات التي تحكم عمليات إنتاج النصوص وفهمها، ويراعى في دراسة الأشكال النصية جوانب اتصالية وتداولية وأسلوبية ونحوية بصورة حتمية»<sup>4</sup>.

## 2. التناسب مفهومه:

1- مصطلح مترجم من الكلمة الإنجليزية Cohésion وقد وقع في ترجمته بعض من الاختلاف كالعادة في عملية انتقال المصطلحات العلمية إلى: السبك / النضام / الترابط / الالتئام / الالتحام / التماسك الشكلي.

2- ينظر: جاك موشلر وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر مجموعة من الباحثين إشراف عز الدين مجدوب، دار النشر سيناترا تونس، ط2، 2010م، ص 57.

- هكذا شكّلت الخواص التركيبية (نظم الكلمات في وحدات لسانية وترتيب الجمل وفق نظام لغوي معين / نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص، ص 94) والدلالية والاتصالية للنصوص صلب الدراسة النصية، فلا يخرج منها البحث إلا ليعود إليها؛ حيث يتنقل محلّل النصّ بينها مع الاستناد إلى تصورات ومفاهيم وقيود اصطلاحية ومعرفية، تتأزر فيها هذه المستويات لتقدم تفسيراً متكاملًا.

4- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات، ص 148.



نهج القرآن الكريم نهجا فريدا، لا تسأم النفوس هديه ولا تستثقل حديثه، مراعيًا في تسلسل نصوصه أن يقارب بين أفرادها فتجد الآية متمسقة بالكلمات، متآزرًا مع أخواتها، وتلتقي السورة بالتي بعدها والتي قبلها برابط لا يجعل منها جنسًا غريبًا عنها، بل تبدو فيه كعقد نظمت حباته، ورتبت أبداع ترتيب؛ فكان بذلك معجزًا بنظمه، بديعًا في اتساقه، متناسبا في آياته وسوره وأجزائه.

إنّ ترتيب الترتيل (\*) من أهمّ القضايا التي لقيت اهتماما كبيرا من الدارسين عربا ومستشرقين، حيث يُخفي وراءه انسجاما بديعا، يمكن الكشف عنه من خلال الاستفادة من المناهج اللسانية التي تفتح آفاقًا جديدةً للباحث تحفزه لخدمة كتاب الله، والردّ على الطاعنين فيه<sup>1</sup>، ولا يعني ذلك إسقاط المناهج الغربية التي قامت على أسس فكرية، وفلسفية متباينة - تُعبّر عن روح المجتمع الغربي - على نصّ إلهي مقدس لأنّ دراستي هذه ستستند أكثر على التراث العربي الإسلامي، خاصة كتب التفسير التي تبحث في طريقة الربط بين الآيات والسور.

كان العلماء والمفسرون الأجلاء - سواء في كتب التفسير أم علوم القرآن وما تفرع عنها من كتب الإعجاز القرآني ومصنفات التناسب - يقفون عند كلّ آية وكلمة وحرف من كتاب الله تعالى، ليتعرفوا الحكمة من وضعها في مواضعها، ويبحثون عن علاقة هذه الآية بسابقتها وللاحقتها، وعن العلاقات داخل الآية الواحدة، ولمّ ذيلت هذه الآية بالعزيم الحكيم؟ وذيلت أختها بالغفور الرحيم؟ ولم يكتفوا بذلك وإنما كانوا يتتبعون الخيط الذي يربط آيات السورة من أولها إلى آخرها ومحورها الرئيس، وعلاقة مطلعها بخاتمتها، واسمها بمحورها؛ وتطرقوا إلى دراسة التناسب بين السورة والسورة التي تسبقها وتلك التي تليها، بل والمناسبة بين السورة في أول المصحف ونظيرتها في آخره، ممّا يوجب تبرير موقع الآية من سالفاتها، ولأجل ذلك يلجأ المفسرون تارة إلى أسباب النزول، وأخرى إلى شروح مطولة، على خلاف ما يفعلون حين تكون العلاقة متجلية في سطح النصّ؛ وإن كانت المناسبة لا تعني أليا البحث عن العلاقة في المقام، وإنما قد تستعمل ويقصد بها مجرد العلاقة بين آيتين

\* المناسبة بين الآيات والسور يتجاوز الترتيب التاريخي لأجزاء النصّ، ليجت في أوجه الترابط بين الآيات والسور في الترتيب الحالي للنصّ، وهو ما يطلق عليه "ترتيب التلاوة" في مقابل "ترتيب التنزيل".

<sup>1</sup> - لأنّ البعض منهم يرى أن القرآن الكريم كتاب غير منسجم، يفقد بذلك أهم أسس نصيته حيث يتميز - حسبهم - بما يأتي:

1. تعدد مواضع السورة الواحدة. / 2. تكرار المواضيع نفسها عبر سور مختلفة دون هدف. / 3. اختلاف ترتيب الترتيل عن ترتيب التنزيل. / 4. العلاقة بين السور والعناوين علاقة اعتباطية. / 5. كثرة الفجوات بين الآيات بسبب الانتقال المفاجئ. / 5. تناقض المحتوى بين بعض الآيات في السور.

دونما استحواذ بالمقام.

## 1.2. تعريف التَّنَاسِب:

إذا حاولت الرجوع إلى القواميس وأمات الكتب العربية باحثاً عن الدلالات التي يمكن أن يأخذها الجذر (ن، س، ب) (\*) فإنك تجده يدور حول المفاهيم الآتية: الاتّصال والترابط والتّواصل؛ إذ هي العلاقة التي تربط الفرع بأصله، «اتّصال شيء بشيء، منه النسب سمي لاتّصاله وللاتّصال به، والنسب؛ الطريق المستقيم لاتّصال بعضه من بعض<sup>1</sup>»، وقيل: «القرباة»: فهو في الآباء خاصّة؛ وقيل: النّسبُ يكون إلى الآباء، ويكون إلى البلاد، ويكون في الصّناعة، ونسبه عزاه؛ وقيل: هو الطّريقُ الواضحُ المُستدقُّ، كطريق النّمل، وطريق حُمُر الوَحش إلى مواردها، ومن المجاز: المناسبة المشاكلة<sup>2</sup>، أي المماثلة والمشابهة والموافقة والمشاركة؛ تقول: هذا شكل هذا أي مثله، ومن أشبه أباه فما ظلم.

تطورت دلالة كلمة "نَسَب" فاستعملت بمعنيين متقاربين هما:

الأول: المشاكلة، وهو معنى أخصّ من معنى أصحاب الرأي الثّاني، إذ تعني الاتّصال على جهة المشاكلة فقط؛ قال به الجوهري: «ليس بينهما مناسبة، أي مشاكلة»<sup>3</sup> والزبيدي، والفيروز آبادي، وابن منظور، والرازي، وآخرون.

الثاني: الاتّصال؛ ويشمل ما فيه أدنى رابطة، حيث يدخل كلّ تعلق فيها، أو ترابط بين شيئين بأيّ وجه من الوجوه؛ فهو اتصال أعمّ من كونه مشاكلة يقول ابن فارس: «النسب سمي لاتّصاله وللاتّصال به»<sup>4</sup>، والراغب الأصفهاني<sup>5</sup>،

\* ذكرت هذه الكلمة في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنّة نسبا﴾ [الصافات158]، وقوله: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ [المؤمنون، 101]، وقوله: ﴿وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا﴾ [الفرقان، 54]، محمد بسام رشيد الرّين، محمد عدنان سالم، المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، دار الفكر المعاصرة، دار الفكر دمشق، سورية، ط 1، 1995م، ج 2، ص 1218.

<sup>1</sup> أبو الحسن أحمد بن فارس أحمد بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللّغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1979م، ج 5، ص 424.

<sup>2</sup> أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح مجموعة من المحققين، دار الهداية (د ت ن)، ج 4، ص 265.

<sup>3</sup> أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللّغة وصرح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 4، 1987م، ج 1، ص 224.

<sup>4</sup> ابن فارس معجم مقاييس اللّغة، ج 5، ص 423.

<sup>5</sup> أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، لبنان، ط 1، 1412هـ، ج 1، ص 801.

والجرجاني: «النسبة هي إيقاع التعلق بين الشئيين»<sup>1</sup>.

لعلّ المعنى الثّاني هو الراجح لاحتوائه كلّ اتصال سواء أكان من وجه واحد أم من أوجه متعددة؛ ومنه قوله عليه السّلام «الولاء لِحمة كُحمة النَّسب»<sup>2</sup>، فالمناسبة تعني إذًا: المشاكلة والتلاؤم والتّرابط والتّجانس، ويدخل فيها ما يعرف باسم النّظم والعلاقة.

## 2.2. التّناسب عند البلاغيين:

تفطنّ علماء البلاغة لمبدأ التّناسب في حسن البيان، فجعلوه من شروط فصاحة الكلام وقواعد بلاغته، غير أنّ تصوّرهم لمفهومه وحقيقته وحدوده مختلف، فجعله فريق منهم مبدأ بيانياً كبيراً، يشمل العديد من أساليب البيان والكثير من فنون الصياغة اللفظية ونظم المعاني؛ من هؤلاء: حازم القرطاجني وأبو محمد السجلماسي وابن سنان الخفاجي الذي يقول: «من شروط الفصاحة المناسبة بين اللفظين وهي على ضربين: مناسبة بين اللفظين من طريق الصيغة، ومناسبة بينهما من طريق المعنى، وأمّا المناسبة بينهما من طريق الصيغة فلها تأثير في الفصاحة»<sup>3</sup> وهكذا جعل التّناسب بوجهيه اللفظي والمعنوي من شروط فصاحة الكلام وأسراره<sup>4</sup>.

ومال فريق آخر إلى توضيح مفهومه وحصص حقيقته في نوع واحد من أنواع البديع، الذي يتعلق بتناسب مقاطع الكلام المزدوج والمقابلة ومراعاة النظير وتشابه الأطراف؛ وهم عامّة علماء البديع<sup>5</sup>، وقد نهجوا في دراسة البديع وأساليبه نهجاً تفرّيعياً، همهم الإكثار من أبواب البديع وأساليبه، فتنافسوا في التّقسيم والتّفرّيع،

<sup>1</sup> - علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1983م، ص 241.

<sup>2</sup> - أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، سنن الدارمي، تح فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي، قديمي كتب خانة مقابل آرام باغ كراچي، ج 2، ص 490، رقم الحديث 3159.

<sup>3</sup> - أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1982م، ص 169 / 170.

<sup>4</sup> - هي: السّجع والازدواج، والترصيع وتوازن اللفظين، وحمل اللفظ على اللفظ في التّرتيب، والتّناسب في المقدار، والمجانس؛ وهو المسعى بالمجانس. أمّا التّناسب بين الألفاظ من طريق المعنى: فكأن يكون معنى أحد اللفظين مقارباً للآخر، أو مضاداً له أو مقارباً من المضاد؛ وهكذا جعلها من مقاييس صحّة المعاني المقاربة، وصحّة النّسق والنّظم وحسن التخلّص من معنى إلى معنى، وشرح صحّة النّسق والنّظم بقوله: «أن يستمر في المعنى الواحد، وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلّص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه» ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص 268.

<sup>5</sup> - منهم: ابن أبي الإصبع، وابن قيم الجوزية، والخطيب القزويني وغيرهم كثير.

وجعلوا كلّ فرع - ولو كان لا يتعلق إلاّ بجزئية صغيرة - قسما قائما بنفسه له عنوانه ومصطلحاته الخاصّة.

### 3.2. التّناسب في الدّراسات القرآنية:

إذا بحث الباحث عن استعمال هذا المفهوم في بعده الاصطلاحي يجد أن بعض الدّراسات القرآنية قد قامت على النّظرة الكلية للنّصّ القرآني إلى درجة اعتباره كلمة واحدة؛ وفي هذا تحوّل للاهتمامات اللّغوية من الجملة إلى النّصّ بوصفه الوحدة الكبرى في التحليل والدراسة النّصيّة، وسأحاول أن أقدم بعضا من التعريفات من خلال استعراض أقوال السّابقين:

قال الشّيخ أبو الحسن الشهراباني: «وكان يقول (أبو بكر النّيسابوري) على الكرسي إذا قرئ عليه الآية، لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السّورة إلى جنب هذه السّورة؟ وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»<sup>1</sup>، فهو بهذه الأسئلة يبحث عن وجود المناسبة بين الآيات وبين السّور، ممّا يوصل في النّهاية إلى إبراز ترابطها وتماسكها، إذ تقوم المناسبة بين الآيات والسّور على أساس أنّ النّصّ وحدة بنائية مترابطة الأجزاء، ومهام المفسّر محاولة اكتشاف التّناسب الذي يربط بين الآية والآية من جهة، وبين السّورة والسّورة من جهة أخرى، وبديهي أنّ اكتشاف المناسبة يعتمد على الفهم؛ وعملية الفهم شيء موجود في النّاس لا في اللّغة، فالنّاس هم الذين يحددون معنى ما يقرأون وما يسمعون، فهم يحاولون الوصول إلى تفسير منسجم مع خبرتهم بالكون، وفي الواقع لا تمثل قدرتنا على تفهم ما نقرأ إلاّ جزءا يسيرا من قدرتنا العامّة على تفهم ما ندركه وما نكتسبه في الحياة<sup>2</sup>.

وقد يعتمد مفسّر ما على طريقة معينة من التّفسير ليكشف عن بعض علاقات التّناسب، بينما يعتمد مفسر آخر على نوع آخر فيكشف ضربا آخر، فهذا التنوع عبارة عن «خاصية دلالية للخطاب قائمة على تأويل كلّ جملة مفردة مع تعلقها بتأويل جملة أخرى»<sup>3</sup>، وعرض المؤلفان براون (Brown) ويول (Yule)

<sup>1</sup> - بدر الدين الزركشي أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهار، البرهان في علوم القرآن، تع مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2007م، ج 1، ص 49.

<sup>2</sup> - جورج يول، معرفة اللّغة، تر محمود فراج عبد الحافظ، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، (د ت ن) ص 146.

<sup>3</sup> - فان دايك، النّصّ والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000م، ص 137.

لطبيعة التحليل النصي من خلال عدة آراء أكدت ضرورة دراسة اللغة في ضوء العلاقة بين المتحدث والسامع / الكاتب والقارئ والعالم المحيط أو السياق.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين: «ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون الكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني»<sup>1</sup>، يعتمد هذا التعريف على بيان ترابط الآي ومن ثم ترابط الجمل في النص مع بعضها البعض بوسائل معينة سواء أكانت شكلية أم معنوية، ذكر دافيد كريستال (Crystal David) أنّ هذه الأدوات تفسر كيفية ترابط جمل النص فيما بينها، وأنها تسهم في بناء تتابع الجمل في صورتها الكبرى<sup>2</sup>؛ لأنّ الترابط النصي هو العملية التفاعلية لكلّ من الاتساق والانسجام والتي تؤدي في النهاية إلى التناسب العام للنص؛ وعلى هذا النحو يمكن أن يشبّه النص القرآني بسلسلة تنشّد حلقاتها بعضها إلى بعض ممّا يضمن تلاحمه كنصّ لا تني العلاقات بين أجزائه تقوى كلّما تقدمنا في قراءته، وثبات النص بوصفه نظاما يرجع إلى استمرارية الأقوال، وفكرة الاستمرارية هذه قائمة على افتراض أنّ الأقوال المختلفة في النص والسياقات المحيطة، يربط كلّ منها الآخر، فكلّ قول يساعد في الوصول إلى بعض الأقوال الأخر.

قال الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام: «المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر»<sup>3</sup>، أصبح للتناسب حضور واجب في أيّ نصّ، ذلك أنّ كلّ سورة وآية تجتمع في علاقة ما تربط بين أطرافها كما أنّ كلّ «جملة تمتلك بعض أشكال التماسك عادة مع الجملة السابقة مباشرة؛ من جهة أخرى، كلّ جملة تحتوي - على الأقلّ - على رابطة واحدة تربطها بما حدث مقدّما، وبعض آخر من الجمل يمكن أن يحتوي على رابطة تربطها بما سوف يأتي لكن هذه نادرة جدا، وليست ضرورية لتعيين النصّ»<sup>4</sup>، لأنّ النصّ إذا خلا من هذه الأدوات، يصبح جملا متراصة لا يربط بينهما رابط، ويصبح النصّ

<sup>1</sup>-ينظر: بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 49.

<sup>2</sup>- صبيح إبراهيم الفقى، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م، ج1، ص 65.

<sup>3</sup>- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 49.

<sup>4</sup>- M.A.Halliday R. Hassan. Cohesion in English. LONGMAN .GROUP LIMITED. LONDON. First published-1976.

جسدا بلا روح؛ فهذه العلاقات الشكلية والدلالية التي توجد داخل النص هي التي تجعله نصًا.

يقول الزركشي: «كذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها والله أعلم إلى معنى ما رابط بينهما عام أو خاص عقلي أو حسي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدّين ونحوه، أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتب الوجود»<sup>1</sup>، أبان الزركشي ضرورة وجود معنى يربط بين المتناسبين من أي أو سور أو مقاطع، حيث هي علاقات مختلفة أو احتمالات أو تأويلات<sup>2</sup> ممكنة على المفسر أن يحاول اكتشافها وتحديدها في كلّ جزء من أجزاء النص، كما سيأتي تفصيل ذلك كلّه لاحقاً في معرض الدراسة؛ وجاء في موضع آخر: «والذي ينبغي في كلّ آية أن يبحث أوّل كلّ شيء عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علم جمّ وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له»<sup>3</sup>، فالمناسبة تتجاوز حدود التعامل مع الروابط الشكلية بين الآيات إلى روابط أخرى تتأسس على نظرة أوسع، فتؤدّي إلى الاتساق والانسجام النصّي في القرآن الكريم.

ووافق السيوطي الزركشي فيما ذكره عن المناسبة مضيفاً زيادة لفظ المشاكلة والإتيان بمرجع المناسبة لكنّه ألحق بما تقدم قوله: «وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها أخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء»<sup>4</sup>، وهنا تتجلى وظيفة المناسبة في جعل النصّ القرآني متسقاً ومنسجماً حتى يصير كالكلمة الواحدة، ثم أتبع ذلك بقوله: «ذكر الآية بعد الأخرى إمّا أن يكون ظاهر الارتباط لتعلّق الكلم ببعضه ببعض وعدم تمامه بالأوّل فواضح، وإمّا أن لا يظهر الارتباط»<sup>5</sup> حيث أرشد إلى البحث عن جامع أو عن دعامة تؤدّن بالاتصال؛ ولما كانت المناسبة دائماً تقتضي وجود علاقة

<sup>1</sup> بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 48.

<sup>2</sup> التّأويل: من أوّل وهو الرجوع إلى الأصل، وذكّرت له معان عدّة يمكن تصنيفها ضمن ثلاثة مجاميع وهي: أوّل: ردّ الشيء إلى الغاية المراد منه، أورده البيان إلى غايته المقصودة، ثانياً: تفسير وبيان الغاية من شيء أو كلام، الثالثة: حقيقة أو معنى الشيء أو الكلام.

<sup>3</sup> بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 1، ص 50.

<sup>4</sup> عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح فهدى الزواوي، دار الغد الجديد، القاهرة، المنصورة، ط 1، 2006م، ج 3، ص 262.

<sup>5</sup> المرجع نفسه، ج 3، ص 262.

بين المتناسبين سواء أكانت ظاهرة أم خفية، فإنّ هذه العلاقة تقتضي بدورها وجود مرجعية من أحد المتناسبين إلى الآخر، وحيثما تحققت هذه المرجعية تحقق التماسك بينهما، ومن ثمّ تظهر العلاقة بين المناسبة والاتساق النصي وانسجامه.

أما البقاعي فقد جعل المناسبة علمًا تعرف منه علل الترتيب أي ما يعرف بسببه لم قدّم هذا على هذا، ولم كان هذا سابقا وهذا لاحقا، فهو علم تعرف منه علل الترتيب، وهذا التعريف جامع إذ يشمل مناسبة الآية والمقطع والسورة<sup>1</sup>، ولعلّه اعتمد على تعريف الزركشي لتأكيد على ضرورة وجود رابط يربط بينهما.

وممن مال من المعاصرين إلى هذا التعريف محمد أحمد القاسم حيث قال: «علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل الترتيب بين أجزائه بعضها إثر بعض، وهو سرّ من أسرار بلاغته؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة معانيه لما يقتضيه الحال»<sup>2</sup>.

أما مصطفى<sup>3</sup> مسلم فقد عرفها بقوله: «هي الرابطة بين شيئين بأيّ وجه من الوجوه، وفي كتاب الله: تعني ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها، وفي الآيات: تعني وجه الارتباط في كلّ آية بما قبلها وما بعدها»<sup>3</sup>، ويلاحظ أنّه قد بدأ بتعريف عام للمناسبة راعى فيه التعريف اللغوي وجعله اصطلاحاً علمياً، ثمّ ثنى بتعريف خاص في كتاب الله.

إنّ المناسبة بين أي القرآن ومقاطعته وسوره عبارة عن رابط شكلي أو معنوي تتلقاه العقول بالقبول، مع العلم أن العقول تختلف والأفهام تتباين والمعارف تتفاضل، إلاّ أنّه «لابدّ لكلّ كلام تستحسنه ولفظ تستجده، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلّة معقولة»<sup>4</sup>، فلا بدّ من وجود وجه يربط بين أجزاء الآية، أو بين الآية والآية، ولا بدّ أن يكون الوجه معقولا مقبولا يتمّ به ترابط الكلام، وهو ما يعرف بوجه المناسبة أو الجهة الجامعة، والتي بين الزركشي

<sup>1</sup>- أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكاتب الإسلامي بالقاهرة، (د ت ن)، ج 1، ص 36.

<sup>2</sup>- محمد أحمد يوسف القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم، دار المطبوعات الدولية الأولى، ط 1، 1399 هـ ص 31.

<sup>3</sup>- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1989 م، ص 58.

<sup>4</sup>- عبد القاهر الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط 3، 1992 م، ص 41.

والسّيوطي أنّها ترجع إليهما.

في التعريفات المذكورة إشارة إلى:

- ✓ الترابط النصي من خلال فكرة جعل عناصر الكلام بعضها أخذا بأعناق بعض، أي تعلق الآيات والسور ببعضها حيث تستند كلّ منها إلى سابقتها، فيزيد ذلك النص انسجاما.
  - ✓ نظرة العلماء إلى النص كلّ؛ إلى الآيات ما يسبقها وإلى العلاقات والترابط القائم بينها؛ بل تعداه الأمر إلى النظر في كلّ السور.
  - ✓ نظرة التناسب إلى (النظام) الرابطة بين أجزاء السورة جميعها بل يمتدّ إلى القرآن كلّ، ومن ثمّ فإنّ من تمام بلاغة القرآن، أن يتعامل معه باعتباره وحدة واحدة، وهذا ما تؤكّده بعض التعريفات السابقة وهو تعبير في غاية البيان للوحدة الموضوعية للقرآن.
- بعد هذه التعريفات سأحاول بيان أنواع المناسبات بالاستناد إلى تقسيمات عدّة منها تقسيم ابن أبي الأصبع المصري، الذي جعلها على نوعين: مناسبة في المعاني ومناسبة في المباني<sup>1</sup>، كما نجد التقسيم نفسه عند السّيوطي<sup>2</sup>.

### 3. أقسام التناسب القرآني:

#### 3.1. هناك تقسيم آخر لأنواع المناسبات وهو كالآتي:

النوع الأوّل: المناسبات الداخليّة وهي:

- ✓ مناسبات ترتيب آيات السورة الواحدة، وارتباطها وتناسقها.
- ✓ مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقت له.
- ✓ مناسبة ختام السورة لمطلعها.
- ✓ مناسبة فواصل الآي للآية التي ختمت بها.

النوع الثّاني: المناسبات الخارجيّة وهي:

- ✓ مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها.

1- ابن أبي الأصبع المصري، بديع القرآن، تح حفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ن، ص 145.

2- ينظر: جلال الدين السّيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، تح عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1986 م، المقدمة ص 54.



✓ مناسبة ختام السّورة لمطلع السّورة التّالية لها.

✓ مناسبة مطلع السّورة لمقطع السّورة التي تليها.

2.3. وهناك نوع آخر يدخل بين القسمين، ولا ينظر فيه إلى سورة بمفردها مع سورة أخرى، ولا إلى آية بمفردها مع آية أخرى، وهو مناسبة مجموعة من السّور لمجموعة من السّور أو لسورة، ومناسبة موضوع مقطع من الآيات في السّورة لمقطع آخر.

3.3. وهنا نجد تقسيما آخر للمناسبة وهو: تناسب الآي، وتناسب السور.

اشتغل بكلّ من هذين النوعين جمع كبير من العلماء، فألّف بعضهم مؤلفات تضمّ النوعين كالبقاعي في "نظم الدرر" والسيوطي في "أسرار التنزيل"، وألّف بعضهم في تناسب السّور خاصة: ك"البرهان في تناسب القرآن" لابن الزبير الثقفي، وتناول جمع من المفسرين مناسبات الآيات منهم السيوطي الذي ذكر الأنواع الدّاخلية، وأوصلها إلى بضعة عشر نوعا.

4.3. وبعض هذه التقسيمات المتقدّمة تقسيمات بحسب المواضيع التي تكون عليها الآيات والسّور، ويمكن جعله قسيما لنوع آخر اهتم به العلماء المتأخرون، وإن وُجدت الإشارة إليه من قِبَل السّابقين، وهو مناسبة الموضوع، فيكون التقسيم الثّاني كالآتي:

الأوّل: مناسبات موضوعية كما تقدم ذكرها.

الثّاني: مناسبات موضوعية؛ وهي ما يتناول موضوعا واحدا، حيث يتكامل الحديث عن الموضوع الواحد بجمع آيات القرآن من مواضعها التي تتناسب فيه مع ما جاورها من آيات، لأنّ السّورة تشتمل على موضوعات، ولها محور تدور عليه هذه الموضوعات جميعا.

5.3. كما قسّموا المناسبة من حيث الخفاء والوضوح إلى: جليّة وخفيّة ومتوسطة.

الجليّة: هي التي يلتفت الدّهن إليها في أوّل سماع الكلام؛ وتبنى على الصّلات القريبة الواضحة؛ بأن تكون الثّانية مكّملة للأولى وصلتها بها ظاهرة والأمر واضح والعلاقة بيّنة، ويدخل في هذا ما ذكره الرّكشي؛ إذا كانت الثّانية للأولى على جهة التّأكيد والتّفسير والاعتراض، وزاد السيوطي البديل واتفقا على أنّ هذا القسم

واضح لا يحتاج إلى كلام<sup>1</sup>.

المناسبة الخفية وهي بخلاف الأولى ومثلوا لها بقوله تعالى ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151)﴾ [البقرة]، عقب قوله تعالى ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (150)﴾ [البقرة].<sup>2</sup>

ومناسبة تتوسط بين الخفاء والوضوح ويمثل لها بالسؤال عن الأهلة<sup>3</sup>.

4.أنواع التناسب القرآني: وبعد هذا العرض لأقسام المناسبات في النص القرآني سأذكر أنواعها التي ركز العلماء عليها في تفاسيرهم وكتبهم.

1.4. مناسبة اسم السورة للسورة: وهي ما يحيط بفضاء النص، وأول ما يواجهه مفسره أو متلقيه، إذ هو مفتاح لمعاني النص<sup>4</sup> ودلالاته، التي يستخدمها القارئ مصباحا يضيء به المقاطع المستعصية فهمها.

2.4. مناسبة افتتاح السور بالحروف المقطعة: لم يقف أمر التفسير عند حدّ الجملة الأولى فحسب، بل امتدت - معرفة القدماء لأهمية الجملة الأولى - إلى الحروف المقطعة في بداية السورة «وهي حروف هجائية، عربية، مقطعة تقطيعا منمّطا بأنماط مختلفة، جيء بها في استهلاكية بعض سور القرآن تحديًا وإعجازًا»<sup>5</sup>.

3.4. المناسبة بين الفواتح والخواتم<sup>6</sup>: وهي الملاءمة بين أطراف الكلام صدرا وعجزا، وتحقيق التوازن في بناء جملي الأول والآخر، فلا يُنظر في إتقان جملة البدء وحسن انتظامها بمعزل عن حسن الانتظام في جملة الختام، بل مناط البلاغة هو

<sup>1</sup> - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 51/ 52. والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج3، ص 262/ 263.

<sup>2</sup> - فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، مفاتيح التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، ج4، ص ص 118.

<sup>3</sup> - عائشة محمد علي عبد الرحمن بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، ط3، (د ت ن)، ص 466.

<sup>4</sup> - سعيد، محمد رأفت، سورة لقمان بين كلمة التنزيل وتناسب الترتيب، دار المنار، القاهرة، د ط، 1992م، ص13.

<sup>5</sup> - عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، سوريا حلب، ط 1، 2002م، ص 268.

<sup>6</sup> - كما أنّ جملة الختام هي مخاض سياق الابتداء والوسط، وفهم المقاصد بمعزل عنها فهم تنقصه الوحدة والتكامل، لأنّ المقصد الكلي يتشكل من خلال النسب المنعقدة بين الخاتمة والفتحة، مع تنظيمها لعناصر السورة وما اختلف فيها من أغراض، فتأتي الخاتمة لتصهر جميع المقاصد: ممّا يحتاج إلى نظرة شمولية تتسع لتتقصى جميع أجزاء الكلام وتحيط بأفاقه.

التلاؤم بين الأول والأخير، واشتباههما في الحسن والمزية لفظاً ومعنى ونسجاً.

4.4. مناسبة أول السورة وخاتمة ما قبلها، وخاتمة السورة لفاتحة التي بعدها: بيان الجهة الجامعة بينها لـ«يحدّد الخيط الرفيع الغائر في ضمير الكلام، فيجمع أوله وآخره، وهل انخرط في هذا الخيط حبات من أجناس متباعدة وهل وقع هذا البعيد في سياقه مع موقع القريب المأنوس فقبله السياق وتشربه النص»<sup>1</sup>، فيضبط بذلك صلات الآيات في سياقاتها المتباعدة، ويردّ كل آية إلى أصلها وجذرها المتفرّعة عنها، ويتنبه على موقعها في بيان ما قبلها يقول ابن الأنباري إن: «اتساق السور كاتساق الآيات والحروف .. فمن قدّم سورة أو آخرها فقد أفسد نظم الآيات»<sup>2</sup>.

5.4. مناسبة السورة لما قبلها ولما بعدها: وهو دليل على حسن تجاورها وصحة ترتيبها؛ وأنه ليس بالإمكان وضع غيرها موضعها، ممّا يبيّن الانسجام، وتماسك أجزاء القرآن وتداخل آياته وسوره حتى أصبح على تعدد سوره واختلاف مقاصده كالسورة الواحدة.

6.4. المناسبة بين القصص (في السورة الواحدة / في السور المتعددة) والمناسبة بين القصص وموضوع السورة.

7.4. المناسبة في التذييل<sup>3</sup>: هو ذلك الجزء أو المقطع الذي يأتي في ختام الآية أو السورة متضمّناً معنى مناسباً لمعناها، مع زيادة في البيان ومحافظة على وحدة نسق السورة.

8.4. مناسبة الفواصل: التزام الفاصلة في جميع آياته التزاماً مطّرداً لا يختلف طيلة السورة كأنّها القافية في الشعر.

9.4. التّساوي ومناسبة المقدار: يشمل ما يكون بين آيتين أو أكثر من تعادل في عدد الكلمات، أو في أوزانها الصرفية، وفي عدد المقاطع الممدودة والمقصورة.

خاتمة:

كان هذا عرض قصير لعلم المناسبات، الذي يهتم أكثر بالنظر في سور

<sup>1</sup> - محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 6، 1425هـ، ص 268.

<sup>2</sup> - محمد بن محمد بن سويلم أبو شيبة، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبة السنة، القاهرة، 2003م، ص 226

<sup>3</sup> - هذه التعقيبات تزيد معاني الآيات بيانا وإيضاحا، وتمهّد للتناسب الإيقاعي في رؤوس الآيات وفي فواصلها، بمعنى أنّها تجمع بين وظائف معنوية وأخرى جمالية.

القرآن الكريم وآياته، وبيان وجوه التعالق والترابط والاتساق والانسجام فيما بينها، وقد تعين مثل هذه الدراسات العريقة في التراث العربي الإسلامي إلى الوصول لإلى قراءة نصية للنص القرآني.

وقد خرجت هذا العرض بمجموعة من النتائج نجملها فيما يأتي:  
وعى العرب القدماء بخصائص النص، وأدوات الربط التي تحقق نصية النص.

وعلى الرغم من أن العرب لم يعرفوا لسانيات النص من قبل إلا أن معالجتهم هذه كانت ممارسة عملية، إذ وجد فيها توظيف الكثير من أدواته.

للنص القرآني هيكل ثابت، يميزه عن غيره من النصوص، هو نفسه الذي عرفه القدماء بالنظم الخارجي، ويعرف بالبنية العليا.

اهتمام القدماء بالمعايير النصية دراسة تطبيقية، من حيث الاهتمام: بالاتساق، والانسجام، والتناسق، والسياق، والقصد، والقبول ...

بيان هذا العلم للنص القرآني بأنه نص متكامل، ومراعاة تناسب أجزائه في أثناء القراءة والتحليل، مما أدى إلى دراسة نصية واعية، لا تختلف كثيرا عما يقوم به الباحثون في لسانيات النص.

الاهتمام بأوجه الربط الكثيرة: الاتساق وآياته الكثيرة: (الاتساق النحوي: الاستبدال، الحذف، الإحالة) (والاتساق المعجمي: التقابل، والتلازم، والتكرار)، وكذا الانسجام وأدواته العديدة.

## قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن أبي الأصعب المصري، بديع القرآن، تح حفي محمد شرف، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د ت ن.
2. أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي برهان الدين البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكاتب الإسلامي بالقاهرة، (د ت ن).
3. أبو الحسن أحمد بن فارس أحمد بن زكريا القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط 1979 م.
4. أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح مجموعة من المحققين، دار الهداية (د ت ن).
5. أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، لبنان، ط 1، 1412 هـ.
6. أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، سنن الدارمي، تح فواز أحمد زمزلي وخالد السبع العلمي، قديهي كتب خانه مقابل آرام باغ كراچي.
7. أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، سرّ الفصاحة، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط 1، 1982 م.
8. أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 4، 1987 م.
9. بدر الدين الزركشي أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهار، البرهان في علوم القرآن، تع مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2007 م.
10. جاك موشر وأن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر مجموعة من الباحثين إشراف عز الدين مجدوب، دار النشر سيناترا تونس، ط 2، 2010 م.
11. جلال الدين السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، تح عبد

- القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1986م.
12. جورج يول، معرفة اللغة، تر محمود فراج عبد الحافظ، الناشر دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، مصر، (د ت ن).
13. سعيد حسن بحيري، علم اللّغة النّصي المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر لونغمان، 1969م.
14. سعيد محمد رأفت، سورة لقمان بين كلمة التنزيل وتناسب الترتيب، دار المنار، القاهرة، د ط، 1992م.
15. صبحي إبراهيم الفقى، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق - دراسة تطبيقية على السور المكية - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000م.
16. عائشة محمد علي عبد الرحمن بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، ط3، (د ت ن).
17. عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح فهبي الزواوي، دار الغد الجديد، القاهرة، المنصورة، ط1، 2006م.
18. عبد القادر منصور، موسوعة علوم القرآن، دار القلم العربي، سوريا حلب، ط1، 2002م.
19. عبد القاهر الجرجاني أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تح محمود محمد شاکر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة، ط3، 1992م.
20. علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1983م.
21. فان دايك، النّص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، 2000م.
22. فخر الدين الرازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، مفاتيح التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.
23. فولفجانج هاينه من وديتر فهفيجر، مدخل إلى علم اللغة النصي، تر فالح بن شبيب العجمي، النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك

سعود، 1999م.

24. محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 6، 1425هـ.
25. محمد أحمد يوسف القاسم، الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن الكريم، دار المطبوعات الدولية الأولى، ط 1، 1399هـ.
26. محمد بسام رشيد الزين، محمد عدنان سالم، المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، دار الفكر المعاصرة، دار الفكر دمشق، سورية، ط 1، 1995م.
27. محمد بن محمد بن سويلم أبو شيبه، المدخل لدراسة القرآن الكريم، مكتبة السنة، القاهرة، 2003م.
28. مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط 1، 1989م.
29. نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، دراسة معجمية، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان الأردن، 2009م.

## المراجع باللغة الأجنبية:

1. Gilles siouffi et Dan van Raemdonck: 100 fiches pour comprendre la linguistique, Bréal, Rosny, 1999, p138.
2. Jean - Michel Adam, éléments de linguistique textuelle. Théorie et pratique de l'analyse textuelle. MardgaA. Deuxième édition.
3. M.A.Halliday R. Hassan. Cohesion in English. LONGMAN .GROUP LIMITED. LONDON. First published. 1976.





غواية الاختلاف وسجن المسابقات: قراءة في نصوص رحليّة غربيّة.

د. جموعي سعدي\*<sup>1</sup>

### الملخص:

يعتبر خطاب الرّحلة -في الثّقافة الغربيّة الحديثة- ضرباً من أضرب الخطاب الاستشراقي، وواحداً من أبرز مجالاته، وأشهر أنماطه، وتبعاً لذلك فقد قاسمه دوافعه، وكان محكوماً بموجهاته؛ فتجلّت فيه إرادة المعرفة، ونزوع الهيمنة، عبر ما استبطنه هذا الخطاب -الخطاب الرّحلي- من استراتيجيات النّفي والتّغريب، وآليات الإبادة والاتباع، ومساعي فرض القيم والمعايير الثقافيّة والأخلاقيّة الغربيّة على الآخر. يحاول هذا المقال فحص أشكال الولوج بالمغاير والغريب والمختلف، ورصد حتّى استعادة الأفكار الجاهزة، واستدعاء الصور النمطيّة، وفضح أشكال الازتهان للأحكام المسبقة، في الخطاب الرّحلي الغربي، منتهياً إلى استخلاص نتائج ذلك على علاقة الأنا بالآخر.

### Résumé:

Le discours du voyage représente dans la conception culturelle occidentale moderne, un mode de discours orientaliste, et l'un de ses principaux champs et de ses modes les plus courants, par conséquent il a dû partager avec lui ces motivations, et été déterminé à lui faire face; ce discours incarna la volonté du savoir, et la tendance de dominance, à travers le contenu de ce discours - Le discours du voyage – comme stratégies de négation et d'occidentalisation, et mécanisme de neutralisation et de soumission, afin d'imposer les valeurs et les normes culturelles et morales occidentales sur l'autre. Le présent article essaye d'examiner les formes de l'obsession du différent et d'étranger, et le rappel des idées stéréotypes, et d'exposer la soumission aux préjugés au sein du discours de voyage en arrivant à déduire les relations du Soi sur l'Autre.

---

<sup>1</sup> أستاذ محاضر ب، جامعة سوق هراس.

**Abstract:**

The speech of the trip is in modern Western cultural concept, a way of Orientalist discourse, and one of its main fields and its most common modes, so he had to share with him these motivations, and he was determined to face; this speech embodied the will of knowledge, and the dominance of trend through the content of this speech - speech of the trip - as negation strategies and Westernization, and neutralization and submission mechanism to impose values and Western cultural and moral norms on the other. This article attempts to examine the forms of obsession different and foreign, and recall of ideas stereotypes, and expose the submission to the bias in the travel speech arriving to infer relationships of the ego the other.

**على سبيل التقديم:**

ليست الرحلة انتقالاً عبر الأقاليم الجغرافية، بقدر ما هي انتقالٌ عبر الأقاليم الثقافية، والنظم الاجتماعية. فالرحلة معاينة، اكتشافٌ ومعايشةٌ للآخر المختلف على جميع الأصعدة والمستويات، بدءاً بجغرافيته، ولغته، وعقيدته، وقيمه، وإجمالاً وانتهاءً عند أنساق ثقافته.

والرحلة مرتبطةٌ بإشكالات تستعصي على الحل، انطلاقاً من أول قضاياها؛ والمتعلقة بالتمييز الواجب والضروري بين الرحلة كتجربة، والرحلة كخطاب (نص)، فاكتشافنا للآخر استناداً للتجربة الرحلية، قائمٌ على استثمار حواسنا وأحاسيسنا في معاينة هذا الآخر ومعايشته في تنوعه وتعدد أبعاده ومستوياته. أمّا الرحلة كخطاب فهي العمل على تمثيل الآخر، وما يحيل عليه التمثيل من تدخل للذاكرة والوعي والنسق الثقافي.

وقد حاول دانييل هنري باجو أن يجمل المآزق التي ترتبط بالكتابة الرحلية، والإشكاليات المتفرعة عنها، فيما يأتي: اختلاط الملاحظة والخيال، التداخل بين الذات/ الأنا الكاتبة، والذات المسافرة، والمرحلة، الاندماج الحاصل بين الذات والفضاء المرتحل إليه. إضافة إلى هيمنة التصورات المسبقة، والاسترجاعات. دون أن ننسى أنّ الرحلة كتابةٌ ذاتيةٌ بامتياز؛ تعبر عن حساسية

كاتبها، التي يشكّلها إنتماؤه إلى جيل وعصر محدّدين.(1)

فالرحلة في المحصّلة الأخيرة مواجهةً بين ثقافتين: ثقافة ناظرة، وأخرى منظورة؛ تسفر عن صياغة صورةٍ للآخر عن طريق السرد، وهذه الصياغة تتحكّم فيها معطياتٌ موضوعيّةٌ مرتبطةٌ بتجربة الرحلة في حدّ ذاتها، وبمعايينة الآخر واكتشافه، ومعايشته. وأخرى ذاتيّة يتحكّم فيها المؤلف بوجهة نظره، وحساسيته، بخلفياته الفكرية، ومرجعياته الثقافية، وهذا ما يشير إليه الباحث التونسي منذر الكيلاني بـ "المسبقات" التي توجّه الملاحظة الأنثروبولوجيّة والتي: «لها قدرة حقيقيّة على تغيير وجه الآخر».(2)

وبذلك فالرحلة من منظور ظاهراتي هي صياغة الآخر وتشكيله انطلاقاً من وعينا به والوعي محكومٌ بشروطٍ وملابسات، ويستند إلى معطيات وآليات معيّنة. وعليه فالآخر في المرحلة الأخيرة يختزل في وعي الذات به، وإدراكها له؛ ليفقد بذلك كلّ امتداداته التاريخيّة وسياقاته الاجتماعيّة والثقافيّة، ويُترنّن في الصياغة السردية والتّمثيل المجازي، عبر ما قامت به الذات/الأنا من عمليّة إنشاء. فصورة الآخر: «ليست هي الآخر؛ صورة الآخر بناءً في المخيال وفي الخطاب. الصّورة ليست الواقع حتى وإن كان الصّراع حولها من رهانات الواقع. ولأنّها كذلك فهي اختراع».(3) ورغم بديهية أنّ صورة الآخر ليست هي الآخر في حدّ ذاتها؛ فإنّ هذا التّمييز لا يحلّ مشكل "الشّعف" بالآخر-الصّورة على حساب الآخر-الواقع.(4)

وعلى هذا التّحوّل طالما تشابكت صورة الآخر، بصورة الأنا وتماهت معها، ونقلت بعضاً من أبعادها، مثلما يستنتج باجو، ومن وجهة نظره: «من المستحيل تجنب ألاّ تبدو صورة الآخر، على مستوى فردي (كاتب)، وجماعي (مجتمع، أو بلد، أو أمة)، ونصف جماعي (عائلة فكرية، رأي، أدب) نفيّاً للآخر أيضاً، وتتمّةً وتعميقاً (للأنا) وفضائها. تريد (الأنا) الحديث إلى الآخر -لأسباب ضروريّة ومعقّدة غالباً- ولكن في حديثها إلى الآخر، تصل إلى نفيه، وتحادث نفسها».(5)

(1): دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997، ص 54.

(2): الطّاهر لبيب وآخرون: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1999، ص 21.

(3): المرجع السّابق، ص 21.

(4): المرجع نفسه، ص 24.

(5): دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص 93.

وعلى هذا الأساس كان استنباء صورة الآخر يتمّ دوماً في ذهن الأنا، وصياغتها تعتمل في تضاعيف مخيلتها، ضمن ما يمكن أن نسميه بجدلية الذات والآخر، أو اختراع الآخر، وبناء الأخرية. وصورة الآخر لا تعدو أن تكون إما: «مبنية بشكل قبلي داخل اللاوعي الجمعي للثقافة، وهي صورة فورية كونتها عناصر تاريخية واجتماعية وسياسية متعاقبة، وإما صورة تقوم على أساس اختيار العناصر المطابقة للعناصر القبلية ومحاولة تقريبها وفرضها بالقوة»<sup>(1)</sup> وإن لم تكن صورة الآخر جوهرية ثابتة وسرمديّة؛ فإنها تحتكم في تغييرها لمصالح الأنا التي أنشأتها، أكثر من احتكامها للمعطيات التاريخية، والأبعاد الواقعية للآخر في حد ذاته.

وبذلك يصبح الآخر ذلك الشخص الذي كان الحلم به وتخيّله سابقين على اكتشافه، فلم يتم إدراك الواقع بشكل مباشر، إنّما تمّ هذا الإدراك من خلال الصّور التي تحملها الثقافة والنتائج الأدبية المتنوعة، وبواسطتها.<sup>(2)</sup>

### 1- الشّرق موضوعاً للتّمثيل، ومخزناً للصّور:

#### 1-1: هيمنة المسبقات:

لئن تنوّعت دوافع التجربة الرّحلية الغربيّة، وتنازعتها الأيديولوجيا الدينيّة التبشيريّة والأيديولوجيا الاستعماريّة والسياسيّة؛ فإنّها لم تتخلّص في يوم من الأيام من الاتّكاء على دافع الفضول، واستبطان توقّي للمغامرة واستكشاف الآخر الغريب والمجهول والمختلف. وعلى الرّغم من حضور هذا الدّافع الأخير بأشكالٍ ونسبٍ مختلفة ومتفاوتةٍ من رحلةٍ إلى أخرى، وعند رحالةٍ وآخر، ممّا كان يستدعي نوعاً من الصّفاء الذهني لاستقبال هذا الآخر وتلقّيه، في خلوٍ من الأحكام المسبقة، والأفكار القبليّة، إلّا أنّ ذلك لم يتحقّق إلّا نادراً.

يصف الأمير ردولف استعداده لرحلته، وتحضيره لها بالقول: «أتخذت القرار للقيام برحلةٍ لبلاد الشّرق بسرعة. وعلى عجلٍ تمّ الإعداد لها. فتصفّحت تصفّحاً غير وثيد كتباً عن الرّحلات لبلاد الشّرق...»<sup>(3)</sup>

فعلى الرّغم من أنّ ردولف لا يصرّح بالدّوافع الرّسميّة الكامنة وراء

<sup>(1)</sup>: بيير جوردا: الرّحلة إلى الشّرق، تر: مي عبد الكريم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2000، ص 07.

<sup>(2)</sup>: المرجع نفسه، ص 15، 16.

<sup>(3)</sup>: الأمير ردولف: رحلة الأمير ردولف إلى الشّرق، تر: عبد الرحمن عبد الله الشّيخ، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1995، ج 01، ص 31.

رحلته، ويكتفي بالحديث عن الدوافع الفردية للرحلة؛ فإنه يحيل على حقيقة استناد الرحلات دائماً وأبداً إلى موروث سابق، خلفه الرحالة الأوائل، وعلى ركام من المرويّات التي استند مؤلفوها من بين ما استندوا إليه في نسجها على الخيال. وهذا ما أتاح دوماً استمرار الأفكار المسبقة والأحكام القبلية والصّور النمطية، والكليشيهات الجاهزة.

وفي مواضع أخرى من نصّ الرحلة، تتجلى هذه المسبقات بشكل أكثر وضوحاً، كاشفة عن اندساس نوع من الرؤية والخيال والذاكرة الجمعية في أصقاعها، وتطريزها سطورها؛ يقول ردولف: «لقد كانت كلّ هذه الحوادث التاريخية منذ أيام الإسلام حاضرة في فكرنا ونحن ندخل الجامع الأزهر الذي تحوّل إلى جامعة... ولا زال الجامع الأزهر هو أكثر الجامعات شهرةً في الشرق وهو بمثابة معمل لتفريخ التعصّب الإسلامي.»<sup>(1)</sup> فعلى حدّ تعبير علي بهداد، مؤلّف "الرحالة المتأخرون"، من غير الممكن بأيّ وجه من الوجوه: «تجنّب "حقيبة" المعرفة الاستشراقية التي تتوسّط الرغبة في إنتاج خطاب آخر حول الشرق.»<sup>(2)</sup>

ولئن كانت الأزمنة القديمة -زمن الفتوحات الإسلامية، والحروب الصليبية- هي السياقات التي تشكّلت في كنفها واستناداً إلى معطياتها صورة الإسلام في المخيلة الغربية، ولمّا لم تكن الظروف ولا الوسائل ولا طرائق المقاربة سانحةً -في القديم- لتعديل هي الصورة، وتخليصها ممّا شابهها من أشكال التحريف والتشويه، وما خالطها من زيف، وما علق بها من استيهامات؛ إلاّ أنّه: «رغم تطوّر الرّؤى والمقاربات، فإنّ بعض الثّوابت القديمة مستمرة في خطاب المستشرق الجديد أو عالم الاجتماع المختصّ في الشرق.»<sup>(3)</sup>

## 2-1: الشرق فردوساً أرضياً؛

لئن كنّا قد أشرنا إلى جانب من المسبقات، من حيث ارتباطها بالرؤية السياسية، والملايسات التاريخية، والرغبة الاستعمارية، والتي نتج عنها تنميط الشرق واختزاله، وتثبيته في صورة جوهرية لا تكاد تتغيّر؛ فإنه لا بدّ من التأكيد على أنّ المسبقات قد تنهض على مرويّات، ومتون أدبية، وحكايات خيالية،

(1): المصدر نفسه ، ص 79.

(2): علي بهداد: الرحالة المتأخرون، تر: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربية المتحدة، 2013، ص 47.

(3): الطاهر لبيب وآخرون: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 28.

ونصوص هامشيّة، تستند إليها، وتشدّ بها عضدها، وتدعم بها فرضياتها، وعلى رأي مؤلّف "قافلة الحبر" فقد كان هناك: «أكثر من نداءٍ استجاب له هؤلاء القادمون من قلب الحضارة الأوروبيّة إلى الأرض البعيدة في مقلب البحر الأحمر والرّبع الخالي وبحر العرب. كان هناك أوّلاً نداء الإسلام. ثمّ كان هناك نداء الصّحراء. ثمّ كانت هناك صورة "العربيّ الفارس" أو "العرق العربيّ الصّافي" في نجد. وكانت هناك آلاف القصص والأساطير والحكايات التي اجتذبت الحالمين والرومانسيين إلى بلاد السّندباد وطائر الرّخ ومصباح علاء الدّين.» (1)

إنّ أبرز المرويّات والنّصوص التي قولبت صورة الشّرق في المتخيّل الغربيّ: هي حكايات الليالي العربيّة، والسّندباد البحري، وطائر الرّخ، ومصباح علاء الدّين؛ والتي يتّضح أثرها في قول ردولف: «لقد آتخذنا لنا مجلساً بسرعة ورحنا نمتح عبق الحياة الشّرقية ببهجة. لقد كان ترتيب المكان والشّرفات الجذّابة والعطور المنبعثة من زهور الحديقة والهواء المنعش يذكّرنا بالحكايات الخياليّة الشّرقية.» (2) فعلى حدّ تعبير علي بهداد: «أنّ تكتب عن الشّرق يستلزم، لا محالة، علاقةً تناصبيّةً يعتمد فيها النّص "الجديد" في اقتصاده التّمثيلي على نصّ سابقٍ بالضرّورة.» (3)

إنّ الحكايات الخياليّة الشّرقية التي لا يكاد يخلو نصّ رحلي غربي واحد من الإشارة إليها، باعتبارها الحكايات/ المرويّات المؤسّسة للمتخيّل الغربي عن الشّرق، ذات فعاليّة حاسمة في تنميط صورة الشّرق. ولعلّ صورة الشّرق الحالم، والفنان، موطن السّحر والغرائبيّة والخيال، الشّرق بوصفه فردوساً أرضيّاً، تجد لها سنداً في هذه المرويّات.

يتواتر تصوير الشّرق في المتون الرّحليّة الغربيّة، بوصفه موطناً للسّحر والغرائبيّة والخيال، تواتراً عجيباً، إلى درجة يشكّل معها ظاهرةً وملحاً بارزاً في هذه المتون، ولعلّ ما يفسّر ذلك هو ما سبقت الإشارة إليه من أنّ بناء الآخر هو في شكلي من الأشكال استكمالاً وتعميقاً لبناء الأنا، وهذا ما يؤكّده باجو؛ إذ يعتبر صورة الآخر: «إعادة تقديم واقع ثقافي يكشف من خلاله الفرد والجماعة الذين شكّلوه (أو الذين يتقاسمونّه أو ينشرونه)، ويترجمون الفضاء الاجتماعي، والثّقافي والأيدولوجي، والخيالي الذي يريدون أن يتموضعوا ضمنه.» (4)

(1): سمير عطا الله: قافلة الحبر، دار السّاق، بيروت، 1994، ص 08.

(2): الأمير ردولف: الرّحلة، ص 71.

(3): علي بهداد: الرّحالة المتأخرون، ص 62.

(4): دانييل هنري باجو: الأدب العام والمقارن، ص 91.

إنّ الآخر وما نضيفه عليه من خصائص وميزات، لا تخرج عن أحد احتمالين، أولهما، أن يكون الآخر تجسيداً لما تفتقده الذات، وما تتوق إلى تحقيقه، والوصول إليه؛ وإما أن يكون الآخر تجسيداً للجانب المظلم والملعون من الأنا، والذي تتوق إلى التخلّص من شروره وويلاته، فتعمل على الحطّ من شأنه، وتشويهه، وشيطنة صورته. وهذا يفسّر التحوّلات الحاصلة في صورة الشّرق في المخيال الغربي.

ومن الأمثلة الدّالة على التّ نظر إلى الشّرق بوصفه الفردوس الأرضي، موطن السّحر والغرائبيّة والخيال، في مقابل الغرب موطن العقل والمنطق والمادّيّات؛ النصوص الآتية:

يقول الأمير ردولف: «وفي التّاسع من شهر فبراير تجمّعت مجموعتنا المسافرة في المحطة الجنوبية في فيينا Vienna في مساء يوم شتاء قارس البرودة فالجليد يغطّي الطّرقات والسّحب الكثيفة تحجب السّماء إنّه جوّ كثيب لكنّه ملائمٌ للإبحار، فجنسنا الأوروبي البائس تعودّ في غالب الأحيان- على تحمّل هذا المناخ الغادر. وكنت قد عدت من رحلةٍ سريعةٍ وطويلةٍ للغرب الأوروبي البعيد منذ يومين لأودّع صديقاً صديقاً صدوقاً لمثواه الأخير. وهذه الأفكار الحزينة خطوت لأركب حافتي. لقد خيمَ البرد الشّديد الذي نتحمّله الآن وحدنا أملاً بأنّ نستمتع عمّا قريب بدفء الشّرق المتوهّج. وتحركّ القطار نافئاً دحّانه فودّعنا ليلٌ كالقار، وجليدٌ متساقطٌ ورقائقٌ تلجّ غطّت كلّ شيءٍ وعواصف...»(1)

لقد غدا الشّرق صنو الحلم والخيال، وأضحى الفردوس الأرضيّ المفقود، الذي ما فتئ -بغموضه واستعصائه على الوصف- يمارس سحره وجاذبيّته على مخيّلّة الرّحالة والأدباء الرّومانسيين، الذين انبهروا به، وجعلوا منه موطن الغرائبيّة والسّحر، والخيال والأساطير تقول ماري لويز دفرنوا ( Marie Louise Dufronoy) «بقي مفهوم الشّرق المجمل بالأحلام المتبلورة حول الفردوس الأرضي، غامضاً لأمدٍ طويلٍ فشجّع على الإبداع الحرّ للصّور الغرائبيّة والخلابة في نفوس الفنّانين والرّوائيين...»(2)

فالشّرق يضيء سحره وتأثيره حتى على المقولات الفيزيائيّة، كمقولة

(1): الأمير ردولف: الرّحلة، ص 31، 32.

(2): مي عبد الكريم محمود: تائهون في صحراء الإسلام، ط 01، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2003، ص 06.

الرّمن. فلصباحات الشّرق نكمتها الخاصّة، وعند حلول المساء: «كان يمكن رؤية نجومٍ متألّقة هنا وهناك فالشرق وحده -ومصر خاصّة- مشهورٌ بأضوائه وضلاله التي تترك في النّفس فعلاً كفعل السّحر.»(1)

وعلى هذا النّحو فقد ظلّت صورة الشّرق، وإلى أمدٍ طويل، تنضح بمدلولات الحلم والسّحر والخيال، والإغراء والجاذبيّة، والإغواء؛ واستناداً إلى هذه المجازات والاستيهامات التي علقّت بصورة هذا الشّرق في المخيلة الغربيّة، جزم كثير من الدّارسين بأنّ: «الشّرق الذي خلقه الغرب في أدبه، ليس شرقاً حقيقياً... إنّما كان منطقةً لتصعيد الخيال الغربي عبر القرون المختلفة، ووسيلةً لتفجير صورةٍ ثابتةٍ منمّطةٍ، والتّعامل معها.»(2)

وفي موضعٍ آخر من رحلة الأمير ردولف، تتكاثف مدلولات الحلم والسّحر، والإغراء والجاذبيّة، والإغواء، وتجتمع في أسطر قليلة، مكوّنة الاستعارة الكبرى؛ يقول رودولف: «وامتلأت السّماء بنجومٍ لا حصر لها، وأنعش الهواء الدّافئ النّاعم وجوه الأوروبيّين البائسين. لقد كانت ليلةً إفريقيّةً حقيقيّةً في الغاية من الرّوعة، إذ ينبغي على المرء أن يدرك السّحر اللّذيد لهذه البلاد السّعيدة، ليفهم جاذبيّتها التي تفوق الوصف وفتنتها التي لا حدود لها، والشّوق الشّديد لكلّ من عاش فيها ليعود إليها. ففي هذه البلاد فقط ولا سواها يمكن أن يكون مهدّ البشريّة حيث الشّرق المزهر الباسم، والصّيف الواضح غير الكئيب، لا في بلاد الشّمال الباردة الجرداء العابسة.»(3)

وإذا كنّا قد اعتبرنا ولع الغربيين بالشّرق، وافتتانهم به، وتوقهم للارتحال إليه، والانغماس فيه وتوصيفه، والرّغبة في إزاحة الحجب عن غموضه، واستكشاف مجاهيله؛ هروباً من عقلانيّة الحضارة الغربيّة، ومادّيّتها، وما انتهت إليه من مظاهر العدميّة والسّأم. ويصدق ذلك على الأدباء والرّحالة الرّومانسيين على الأقل؛ فلا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الدّراسين -علي بهداد على سبيل المثال- قد فسّر ذلك تفسيراً مغايراً لما نظّره، وطرح ما أسماه "تقليداً متعيّاً" -استناداً إلى مبدأ المتعة- واعتبره واحداً من الدّوافع المحرّكة للاستشراق، والرّحلة كخطاب استشراقي، ورأى في السّفر إلى الشّرق: «خروجاً ماتعاً من الواقع المألوف للوطن

(1): الأمير ردولف: الرّحلة، ص 64.

(2): بيير جوردا: الرّحلة إلى الشّرق، ص 11، 12.

(3): الأمير ردولف: الرّحلة، ص 102.



الأوروبي» (1) وتخفّفاً: «من الضّجر الثّقافي المصاحب للحياة اليوميّة» (2)

### 1-3: الشّرق المدنّس: أسطورة الشّرق والاستيهامات الغربيّة:

#### 1-3-1: التّخلف والدّونيّة:

وعلى طرف نقيض لصورة الشّرق التي سبق فحصها، ومعاينتها، وتملّي بعض أبعادها في خطاب الرّحلات الغربيّة؛ والتي كانت صورةً جدّابة، بالغت المخيلة الغربيّة في تنميقها، وتزيين فضاءاتها، وبهجرة سطوحها، يصطدم قارئ الرّحلات الغربيّة للشّرق، بصورة نقيضة، ربّما تقاسمت مع الصّورة السّابقة النّص / الفضاء الرّحلي ذاته؛ إنّها صورة الشّرق المدنّس، والمشيطان والملعون؛ شرق الشّرور والبلايا والويلات.

ومن أمثلة تصوير الشّرق على هذا النّحو: «وأول ما لاحظته تلك الحشرات التي لا حصر لها. ملايين من الدّباب الكبير الأسود تملأ الشّوارع وتخلّق حول الشّرقين، فلا يذنبها الواحد منهم بعيداً عن وجهه بل يسمح لها أن تحطّ على وجهه فتكاد تغطّيه. وهذا الدّباب يحمل القاذورات والعدوى إلى العيون وهذا يفسّر أنّ عدداً من الأشخاص مصابون بالعمى وآخرون مصابون بأمراض عيون تجعل مناظرهم تدعو للقرف والاشمئزاز... وبشكلٍ عامّ فإنّ المرء يرى في الشّوارع العرج والمشلولين... وأناساً مصابين بعاهاات وأمراض وتشوّهات بعضها لا يخطر على بال أوروبي» (3)

ففي كثير من النّصوص الرّحليّة كانت تتجلّى نظرة استعلائيّة، وخطاب وصاية لا تخطؤهما العين، وقد لازما المستشرقين، واستحوذا على عقولهم وألبابهم، وظلاً يغدّيان كتاباتهم بأحكام تبخيسيّة، عملت على تشويه صورة الآخر، وشيطنته، واعتباره مثلاً للتّخلف والدّونيّة، والعنف والهمجيّة، والفسق والشّبيقيّة. ويبدو أنّ ثمة تواطؤاً وتقليداً قرائياً كان يرعى هذه العادة والنّمط في الكتابة ويستديمها.

ونسوق النّص الآتي مثلاً على السّخريّة من الآخر / الشّرق، وتجريده من كلّ فضيلة من الفضائل الانسانيّة، واحتقار منظومة قيمه، ومعايير الأخلاقية،

(1): علي بهداد: الرّحالة المتأخرون، ص 63.

(2): المرجع نفسه، الصّفحة نفسها. وينظر بخصوص الفرضيّة المشار إليها، الفصل الثّاني من كتاب علي بهداد "الرّحالة المتأخرون".

(3): الأمير ردولف: الرّحلة، ص 85، 86.

وأنساقه الثقافية، ونماذجه الفكرية، حتى ليخيّل إلينا أنّ هذا الشّرقي لم يلج بعد دائرة الثّقافي! يقول ردولف: «يجلس المعلّمون (المشايخ) على مقاعد مرتفعة في سقائف صغيرة مصنوعة من جريد مشبّك ومضقّر. إنّ منظرهم مضحك للغاية، فمعظمهم طاعنون في السنّ وغالبيهم من أصحاب العاهات وقد لبسوا الملابس الشّرقية ووضعوا العمائم على رؤوسهم والنظّارات متدلّية على أنوفهم. وهم يصرخون بصوت عالٍ أثناء إلقاء محاضراتهم على سامعيهم ويومنون ويشيرون إشارات لم أر أسخف منها. وليس أمام هؤلاء الأساتذة (المشايخ) إلاّ نسخ قديمة متربة من القرآن مصدر المعرفة الشّرقية التقليديّة، ويستعينون بعضا طويلة من الغاب (البوص) لحفظ النّظام بين طلبتهم ودفعهم للانتباه، ويتحلّق حول كلّ مدرّس (شيخ) شبابٌ فاترون لا يبدو عليهم الاهتمام وقد تربّعوا أو جلسوا القرفصاء أو اضطجعوا فوق التّراب. وبعضهم يصغي وآخرون يكرّرون بصوت عالٍ خلف مدرّسهم (شيخهم). ويمكنك أن تتصوّر مدى الإزعاج في هذه المؤسّسة التي تسمّى جامعة أو مدرسة عليا. إنّهُ مشهد مربكٌ حقّا بالنّسبة لأيّ أوروبيّ، فمن الصّعب علينا نحن الأوروبيّين أن نتصوّر أنّ الأمور تجري على هذا النّحو في جامعة القاهرة (المقصود الأزهر) ذات الشّهرة العريضة في العالم كلّهُ.»<sup>(1)</sup>

ففي النّص المثبت أعلاه، يتحوّل الشّرقي إلى مجرد موضوع معروض أمام العين/ الذات الغربيّة الفاحصة، وتتحوّل نماذجه الفكرية وأنساقه الثقافية ومنظومته القيمية والأخلاقية، إلى موضوعات للسّخرية، والفضول الأوروبيّ، وتجرد من كلّ معانيها وأبعادها، وتعالقاتها بالذّات/ الإنسان الذي أبدعها؛ وليس ثمة ممارسة أكثر تحقيراً وخطأً لقدرة الإنسان من ذلك.

ومرّة أخرى يعود ردولف لوصف مظاهر الحياة الشّرقيّة، متناولاً الجوانب المعماريّة، ونظام المدينة الشّرقيّة، ملتقطاً ومركّزاً فقط على ما ينسجم مع غايات تحقيريّة وأغراض انتقاصيّة، ومقاصد تبخيّسيّة؛ يقول: «فشارع الموسكي يقطع المدينة العربيّة القديمة، ويبدأ هذا الشّارع من ميدان العتبة الخضراء ويستمرّ حتىّ مقابر الخلفاء. وهذا الشّارع هو عصب حياة القاهريين ذات الطّابع الشّرقي. فهذا الشّارع يقدّم لنا صورةً صادقةً للعاصمة الشّرقيّة، فهو ليس عريضاً، ومبانيه غير منتظمة كما أنّه غير مرصوف، ورطب، وتتجمّع فيه الأوساخ من كلّ نوع، وهو مسرحٌ لمعارك بين ما لا حصر له من الكلاب الشّرسة وقد سقّف الشّارع بالحصر، ويعجّ بضوضاء تجلب الصّمم، وتنبعث منه روائح ننتهت تثير

(1): المصدر السابق، ص 81، 82.

القرف والاشمئزاز.»(1)

### 1-3-2: التوحش والبربرية:

إذا كنا قد وقفنا مع النصوص المقتبسة من رحلة الأمير ردولف على تصوير الشرق في الأدبيات الغربية مثلاً للتخلف والدونية، والسداجة والبدائية؛ فسنقف مع نصوص نقتبسها من رحلة "نرفال" على صورة الشرق مثلاً للعنف والهمجية، والتوحش والبربرية؛ يقول نرفال: «هل كان مقدراً لي أن أشهد الفصل الأخير من التعصب والبربرية التي تمارس بمقتضى العادات الإسلامية القديمة؟... وفي عشر دقائق بلغنا السلم المقابل الذي يتصل بسوق السمك وهنا شهدنا منظرًا فريداً. فلدى إحدى نقط التقاطع الضيقة بالسوق كان جمعٌ غفيرٌ من الناس قد التقوا في دائرة. فظننا لأول وهلة أن الأمر يتعلق بعرضٍ للحوّة أو برقص الدببة. ولما شققنا الجمع رأينا جسداً مقطوع الرأس ملقى على الأرض وقد ارتدى سترة وسروالاً من لون أزرق. وكانت الرأس مغطاة وموضوعة بين الساقين المنفرجتين قليلاً. والتفت إلينا أحد الأتراك وقال لنا وقد عرف أننا فرنسيون: "يبدو أنهم هنا يقطعون هكذا من يرتدون القبعات."»(2)

إنّ هذا المشهد الذي يصوره نرفال، يستدي إلى الذهن منظومةً كاملةً من الصور التي شاعت في الخطابات الغربية عن الشرق، والتي تجد لها خلفيّة في نصوص حكاية شرقية، كنصّ ألف ليلة ونية، وشخصية شهريار تحديداً، والتي اتسمت بالقسوة والعنف. كما أنّ هذا الوصف والتصوير يقترب إلى حدّ التّطابق مع لوحة تندرج ضمن ما يعرف بالفنّ الاستشراقي؛ هي لوحة "إعدام دون محاكمة" لهنري رينو 1849.1871 Henri Regnault والتي تصوّر قسوة الرّجل الشرقي، وعنفه ووحشيته.

ولئن كانت جزيرة العرب، قد ابتليت بظروف قاسية، وعملت الشمس طوال عشرين ألف عام على تحويلها إلى صخر ورمل، كما يقول "بيتر برنت"(3)، فمن هذه الجزيرة نفسها: «طلعت أكثر الهجرات خصوبةً في تاريخ العالم، ومنها طلعت تلك الدعوة المشرقة المليئة بالإيمان لدرجة أنّ التّجاوب الذي أثارته غير

(1): المصدر السابق، ص 83.

(2): جيرار دي نرفال: الرحلة إلى الشرق، تر: كوثر عبد السلام البحيري، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، مصر، 1969، ج 03، ص 05، 06.

(3): سمير عطا الله: قافلة الجبر، ص 08.

التاريخ في ثلاث قارات.»(1) فإنَّ بيرتون يصبر على أن: «هذه الأرض الشرسة قد ابتليت بالحيوانات المتوحشة، والبشر الأكثر توحشاً.»(2)

### 3-3-1: المكر والخديعة:

إنَّ فوييا الآخر، الغريب والأجنبي، ومشاعر الخوف والرهبية والتوجس منه، واعتباره خطراً محدقاً بالذات، يتهدد وجودها في كلِّ حين وأن، كانت تلازم الرخالة، وتوجه تحركاتهم، وتضبط ردود أفعالهم؛ وهذه المشاعر هي التي جرّت إلى تصوير الآخر مثلاً للمكر والخديعة والغدر، وفي ذلك نفي للانسانية عن هذا الآخر؛ يقول ردولف: «يتابعون الغريب بنظرات متفحصة لمعرفة هدفه، فإذا ما أدركوا أنه جاهلٌ أو ليس له مُعين ولا يدرك طرق الخداع الشرقيّة... راحوا يتحدثون بحريّة بلغتهم ليفرضوا عليه أعلى البضائع، ويضيع الأوروبيّ التّعس إذا لم يدركه المترجم الماهر بمددٍ من العون، فقد يعود الأوروبيّ لوطنه محملاً ببضائع قد تكون مغشوشة، وبها -بالتأكيد- بعض العيوب بعد أن يكون قد خسر ماله كلّهُ.»(3)

### 4-3-1: رجال شهبانيون، نساء شبقيات:

لئن كان بعض الدارسين قد رأى في رحلة نرفال مثلاً على التخلّص من المسبقات، وتسليم النفس لتلقي الشّرق في خلوٍ منها، ورأى أنّ نرفال قد حاول التخلّص من النظرة العلوية والرؤية المحايدة، وعمل على التماهي مع الشّرق والانغاس فيه، لتكون ملاحظاته عفويةً وصادقة؛ فإنَّ قراءة رحلته تكشف عن استعادته لجانب من الصّور النمطيّة التي علقته بهذا الشّرق، ولعلّه لم يكتف باستعادتها، بل أسهم في بنائها، وكرّسها، والصّور النمطيّة التي كان نرفال مهووساً بها، مولعاً بالتقاطها، هي تلك المتمحورة حول شبقية الشّرق وشهبانية الشّرق، وعالم الحرّيم.

يتحدّث نرفال عن الشّرقيات، واصفاً شبقيتنّ، ونزوعهن للاغواء؛ يقول: «... فقد لاحظنا أنّ حبّ التأنق يدفعهنّ أحياناً إلى الكشف عن وجوههنّ للرجال على أنّ يكون ذلك دائماً كما لو كان من قبيل الصدفة. فمن أعلى شرفات منازلهنّ أو من خلال الحواجز يظهرن كما لو كنّ ينظرن إلى ما يدور حولهنّ ومن

(1): المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

(2): بيرتون: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، تر: عبد الرحمن عبد الله الشّيخ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1994، ج 01، ص 127.

(3): الأمير ردولف: الرحلة، ص 84، 85.

محاولة التدخّل. ولكنهنّ كثيراً ما يكشفن عن وجوههنّ مع وجود النية المبيّنة لديهنّ للكشف عن مفاتهنّ.»<sup>(1)</sup>

ولا يسلم الرجال بدورهم من أن يلبسهم نرفال أوصافاً، وأن يسحب عليهم أحكاماً، هي أقرب إلى أن تكون مستوحاة، ومنتزعة من ألف ليلة وليلة؛ فهم شهوانيون مغتلمون، لا همّ لهم غير الحصول على النساء، ومواقعتهنّ، يقول نرفال: «ونجد الكثيرين في مصر قد تزوّجوا من عشرين أو ثلاثين امرأة في مدّة عشر سنوات. وليس من التّادر أن ترى نساءً مازلن في ريعان الشّباب كنّ زوجات شرعيّات على التّوالي لاثني عشر رجلاً. وثمة رجال يتزوّجون كلّ شهر بزوجة جديدة.»<sup>(2)</sup>

ولعلّ ما يثبت ويؤكّد أنّ المصدر الوحيد لتلك الأوصاف هي مخيلة نرفال الخصبة، والتي غدّتها صور التقطتها من قراءتها التّهمة للنصوص الخياليّة، في الشّرق والغرب على حدّ سواء؛ أنّ نرفال ينسب للشّرقيات إتقان ما نسّميه اليوم بفنّ أو فنون الإغواء، وأنّ هذا الاتقان ليس وليد الفطرة، إنّما هو ثمرة دراسة وتعلّم؛ يقول: «...وتدرس نساء الطبقات العليا والمتوسّطة دراسةً خاصّة فنّ الحصول على إعجاب الأزواج والاستحواذ عليهم بما لا حدّ له من الاهتمام والمضايقات. ويلاحظ المرء دلّالهنّ حتّى في مشيتهنّ. وحينما يخرجن يعرفن كيف يعطين لأجسامهنّ حركةً متموّجةً خاصّة يسمّيهنّ المصريون "بالغنّج"»<sup>(3)</sup>

إنّ احتجاب الشّرق وتستره، وانغلاقه على نفسه، واختبائه في شرنقته، الذي تعبّر عنه تيمات عديدة، لعلّ من أبرزها، تيمة الحريم الشّرقية؛ لا يصدّ رغبة المستشرق/ الرّخالة، بل على العكس من ذلك، فهو يثير فضوله، ويذكي رغبته في هتك حجب المستور، واقتحام أسوار الغامض؛ ولعلّ ذلك ما يفسّر الطّريقة السّافرة في وصف المرأة الشّرقية، ومحاولة الغوص وراء المستور والمحتجب لاكتشاف المخبوء، وتعرية الممنوع؛ والتي تتجلّى بوضوح في عديد المتون الرّحليّة الغربيّة. وبذلك: «فالحجاب الشّرقية لا يلغي رغبة الدّات، بل يستثير فضول الرّؤية لديها لتجاوز ما يعيقها.»<sup>(4)</sup>

(1): جبرار دي نرفال: الرحلة إلى الشّرق، ج 03، ص 238.

(2): المصدر نفسه، ج 03، ص 241.

(3): المصدر نفسه، ج 03، ص 246.

(4): علي بهداد: الرّخالة المتأخرون، ص 71.

### 1-3-5: كسل الشّرق و خموله:

وثمة صورة نمطيّة أخرى كثيراً ما تجلّت على أديم المتون الرّحليّة، وطفحت بها صفحاتها، آثرنا أن نقف عندها، لنختتم بها هذا العنصر؛ تلك هي صورة كسل الشّرق و خموله؛ فالشّرق وفق فرضيّة الخطاب الاستشراقي، على اختلاف مجالاته، وتنوّع أنماطه، عالم طفولي يسكنه الخمول ويطوّقه السّكون والثّبات، ولا مجال فيه للحركة والحيويّة والنّشاط الايجابي.

يقارن بيرتون بين الغرب والشّرق اسناداً إلى فرضيّة حيويّة الحياة الغربيّة، وإيقاعها السّريع، ويطى دورة الحياة الشّريقيّة، ورتابتها؛ يقول: «ما أعجب التناقض بين السّفينة التي أقلّتنا إلى رأس الطّين، وتلك الفيلاً على ترعة المحمودية؟! ففي هذه الفيلاً تتمثّل النّقلة الفجائيّة بين الحياة ذات الإيقاع السّريع، والحياة ذات الإيقاع البطيء ففي ثلاثة عشر يوماً انتقلنا من ضباب بارد رمادي دبق هو مناخ الصّناعة الذي جعلنا على شفا جزيرة الكائن الحيّ (نحيا بالكاد)، إلى أفضل هواء يزقه لنا البحر المتوسّط بزرقته الرّائعة وضبابه الرّقيق الأرواني الذي ينشر فتنته وجماله حتّى على الملامح الشّمطاء للشّممال الإفريقي. وها نحن الآن نجلس صامتين بلا حراك نستمتع إلى ألحان الشّرق الرّنيبة...»<sup>(1)</sup>

وما دام الأمر يتعلّق بمناقشة مقولتي الزّمان والمكان، في إطار فهمنا لهما، وعلاقتنا بهما، وطريقتنا في عيشهما وتقديرهما، واختلاف ذلك من ثقافة إلى أخرى؛ فإنّه لا بدّ من التّأكيد على أنّه لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون مفهوم/ فكرة الزّمان والمكان مجرداً ومعزولاً عن التجربة الإنسانيّة والملابسات الاجتماعيّة، والرّحالة إذ يتناول الفكرتين كان في أغلب الأحوال ينطلق من المفهوم الغربي لهما، ولكن طالما كانت هناك ثقافات أخرى: «فمن المحتمل إذاً أن تكون هناك طريقة أخرى لعيش المكان والزّمان، ولتكوين تصوّر مجرد لهذين المفهومين.»<sup>(2)</sup>

ومن هذا المنظور كانت منظوماتنا الاجتماعيّة وأنساقنا الثقافيّة وشروط تكويننا وظروف عيشنا هي العامل الحاسم في صياغتنا لمفهوم/ فكرة الزّمان والمكان. يؤكّد أندريه إيتيانو ذلك بالقول: «لكلّ مجتمع تصوّر خاصّ للزّمان يرتبط بطريقة عيشه وبنظم تربيته وثقافته الخاصّة. وكلّ تصوّر من هذه

(1): بيرتون: الرّحلة، ج 01، ص 22.

(2): مجموعة من المفكرين: الزّمان والمكان اليوم، تر: محمّد وائل بشير الأناسي، دمشق، ص 235.

التصوّرات يشكّل بحدّ ذاته كلاً يصعب جدّاً أن نعرض له بسرعة»<sup>(1)</sup> وفي موضع آخر يتحدث بيرتون عمّا سيسمّيه "المزاج" أو "الكيف" الشّرقي، صادراً عن تصوّر أو منظور غربي، ورغم أنّه يصل إلى رصد اختلافات جذريّة بين أمزجة الغربيين وأمزجة الشّرقيين -بغضّ النظر عن دقّة وسلامة هذه الاختلافات من عدمها- غير أنّ تبنيّه منظوراً أحادياً محتكماً إلى مرجيّة بعينها، وأسيرها، لم يسمح له بأنّ يعترف بهذا الاختلاف، وأنّ يسلمّ به، إنّما قاده ذلك إلى استهجانها وتحقيره ومحاولة المصادرة عليه؛ يقول: «هذا المزاج (الكيف) Kayf العربي السّعادة الحقيقية في المعاني المجرّدة، والكسل المصحوب بالسّرور، والسّكون الحالم وبناء القلاع في الهواء (أحلام اليقظة)، كلّ هذا يغني في آسيا عن الحياة الخصبة المتأجّجة في أوروبا. وذلك نتيجة طبيعة الشّرق الحيوية والهائجة ونتيجة الأعصاب المرهفة، ممّا يؤدّي إلى القدرة على إبهاج الحواس، ومثل ذلك لا تعرفه المناطق الشّمالية حيث السّعادة هي استثمار القوى الفعلية والحسيّة وحيث "الرّزين هو العي" وحيث الأرض غير المعطاء تتطلّب كدحاً دائماً للعرق، وحيث الهواء البارد الذي يبعث على القشعريرة، فكلّ ذلك يبعث على العمل والتغيير والمغامرة والإنفاق، ابتغاء الوصول لما هو أفضل. وفي الشّرق لا يبتغي الشّخص سوى الرّاحة والظلّ عند مجرى جدول رقيق أو تحت عريشة ذات ظلّ ظليل لشجرة مزهرة، يدخّن الشيشة أو يرتشف فنجاناً من القهوة أو يشرب كوباً من «الشّربات»، والأهمّ من ذلك أن يريح بدنه ويعطّل عقله بقدر الإمكان. فما تسبّب المناقشات من إزعاج، وإعمال الدّاعة لتذكر ما هو غير سار، وإرهاق العقل بالتّفكير كلّ هذا من أكثر الأمور التي تعكّر مزاج الشّرقي وتفسد كيفه his kayf»<sup>(2)</sup>

يعرض الإثنولوجي الفرنسي أندريه إيتيانو لقضية اختلاف التصوّر الغربي لفكرتي الزّمان والمكان عن تصوّرات الثّقافات الأخرى للفكرتين من خلال مثال عن تصوّر المجتمع الأوروكمي (سكان القسم الجنوبي من غينيا الجديدة وهي جزيرة تقع شمال أستراليا) ليخلص إلى وجود تعارضات عديدة بين التصوّر لعنّ أبرزها: «أنّ مجتمعا (يقصد المجتمع الغربي) يفهم الزّمن بشكلين وهذان الشّكلان يتمازجان ويتراثبان تدريجياً: الشّكل الأول مفتوحٌ وهو زمن الصّيرورة زمن المستقبل

(1): المرجع السّابق، الصّفحة نفسها.

(2): بيرتون: الرّحلة، ج 01، ص 22.

زمن التاريخ زمن اللاتكرار. والثاني مغلقٌ ودوري وهو زمن التكرار زمن الطقوس الدينية والمراسم السياسية زمن الفصول زمن الزرع. وزمن الصبرورة بالنسبة لنا هو الزمن الأهم. وهو الزمن الأعلى قيمة ومرتبة من زمن التكرار المطلق الذي تتضاءل مكانته في عصرنا في جميع الميادين. والأمر على عكس ذلك عند أوروكييفا البابوازي حيث تنعكس علاقة التبعية (أو الترتيب) بين الزمنين... لأن ما يتكرّر عند الأوروكييفا هو صاحب القيمة الأسمى»<sup>(1)</sup>

إن هذه الصور المتخيّلة والاستيهامية عن الشرق والتي هي طرف في ثنائيات ضدية- هي تمهيد وتوسيع للهيمنة الاستعمارية، ومبرر يحدّد الرسالة التي يحملها الرجل الأبيض القادم إلى هذه العوالم -عوالم الآخر- والذي ستصبح مهمته هي تحضير هذا البدائي، وترويض هذا المتوحش، وثقيف هذا الساذج والدوني، ونشر العقلانية في بيئة هذا الصوفي الحالم والخيالي. وعلى ذلك فكلّ معاقل الحضارة أينما كانت، أسسها : «حجاج/ قديسون... تجشّموا مخاطر الإبحار في المحيط ابتغاء مرضاة الله ونزولاً على إرادته. وأن هذه البلاد لم تكن قبل مجيء الإنسان الأبيض إلاّ مجاهل تسكنها الوحوش وكائنات ما دون البشر لا تختلف عن تلك الوحوش. لهذا اعتدت على رسل الحضارة الذين تميّزوا بالنبل والخير والشجاعة، وكانوا مثلاً يحتذى في تنفيذ إرادة الله»<sup>(2)</sup>

## 2- الأخر ونوستالوجيا الغرابة/ وتجذير الاختلاف:

لقد كان أدب الرحلات بوصفه فرعاً أو مجالاً من مجالات الاستشراق، خاضعاً لطبيعة العلاقات السياسية بين الثقافات، مؤطراً وموجهاً أيديولوجياً وعقدياً، تبعاً للتوترات، والتشنجات، الحاصلة بين الأنا والآخر؛ ذلك أن: «العلاقة بين الشرق والغرب ليست علاقةً بريئةً وإنما علاقةً من علاقات القوة والسلطة والسيطرة وبدرجاتٍ متناقضةٍ من الهيمنة المعقدة والمتشابكة»<sup>(3)</sup>

ولعل ذلك ما يفسّر كثيراً من خصائص هذا الخطاب وميزاته، من مثل الانتقائية والاختزال، واستعادة الصور النمطية، والاسقاط، والسعي وراء مظاهر الاختلاف وتجلياته، ونزع كلّ مظاهر الألفة عن الآخر، وسريلته بما هو عجيب وقصي وغرائبي؛ لتجذير الهوية بين الأنا والآخر؛ والتّركيز على الاختلاف لا يفضي إلى: «المساواة بين الثقافات -كما تدّعي أنثروبولوجيا ما بعد الحداثة- لأنّ النّظر إلى

(1): مجموعة من المفكرين: الزمان والمكان اليوم، ص 237.

(2): منير العكش: أمريكا والإبادات الثقافية: رياض الرئيس للكتب والنشر، بيروت، 2009، ص 17.

(3): بيير جوردا: الرحلة إلى الشرق، ص 06.



الآخر باعتباره مختلفاً يحيل، بالضرورة، على الترتاب.»(1) حتى لكأن الآخر يصبح حتى على المستوى البيولوجي والفيزيائي مختلفاً اختلافاً جذرياً عن الأنا؛ ولنا أن نتأمل هذه الخصائص في نص بيرتون الآتي:

«لقد قضيت أربع عشرة ليلة مفيدة في التآلف مع العادات الشرقية، لأن ما قاله السيد شسترفيلد Chesterfield المهذب عن الاختلاف بين الشخص ونقيضه يمكن أن ينطبق بشكل ملحوظ على أحوال الرجل الشرقي من ناحية والغربي من ناحية أخرى، فقد يؤدي كلا الرجلين العمل نفسه أو يؤديان الدور نفسه في الحياة، لكن طريقة أداء كل منهما تختلف اختلافاً واضحاً جداً. انظر على سبيل المثال للمسلم الهندي وهو يشرب كوب ماء. إن شرب كوب ماء بالنسبة لنا في أوروبا مسألة بسيطة في الغاية من البساطة، لكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للمسلم الهندي، إنها عملية بالنسبة له تشتمل على ما لا يقل عن خمسة أمور غير مألوفة لنا.»(2)

يكشف هذا النص عن نوع من الهوس الذي كان يسكن الرحالة، ويدفعهم، ويغريهم بالتقاط العناصر الغربية، ورصد مظاهر الاختلاف والتباعد والتنافر بين الذات والآخر؛ ولعل هذا ما استنتجه بيير جوردا، وخلص إليه من فحصه لعدد من المتون الرحلية الغربية؛ يقول: «لقد كان الهم الأساس الذي يوجه الرحالة ويصوغ عمله هو عملية النقل المنظم والمباشر للصورة المخالفة والمعارضة للثقافة التي أنتجته، أي نقل المشاهد والحالات التي لم يألفها، والغريبة عليه في الإطار التصويري الاجتماعي والسياسي لثقافته، وإن عملية النقل بحد ذاتها لا يمكنها أن تكون خالية من التأويل أو التمثيل الذي يجد مبرره في نظام من التعسف، والتحيز، أو الإسقاط.»(3)

ولعل تصوير بيرتون لطريقة شرب الشرقي، يكشف بجلاء هاجس التقاط الغريب، ومطاردته، ونشده، والولع بتصويره عند الرحالة، وعدم التنكف عن اختراعه من العدم، إن لم يجد به الواقع؛ يقول بيرتون: «فبادئ ذي بدء نجده يقبض على كوبه قبضاً غليظاً كما لو كان يقبض رقبة عدوه، ثم يقول بقوة بسم الله الرحمن الرحيم، قبل أن يبلل شفثيه، ثم يشرب الماء مبتلعاً إياه ولا

(1): الطاهر لبيب وآخرون: صورة الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 21.

(2): بيرتون: الرحلة، ج 01، ص 20.

(3): بيير جوردا: الرحلة إلى الشرق، ص 09.

يرشفه رشفاً كما ينبغي أن يكون الشرب، ثم ينهي شربه بأن يتجشأ تجشؤ الرضى، ثم إنه قبل أن يضع الكوب يتهدّ قائلاً الحمد لله، وعليك أن تدرك أن لهذه الكلمات معنى عميقاً. (1)

في هذا النص تتجلى مظاهر التعسّف بوضوح، وإلى درجة تصل حدّ حرمان الآخر من واقعيته، وبالتالي من إنسانيته، عبر نزع الألفة عنه، وإضفاء طابع أسطوري عليه، وفي ذلك من مظاهر الذاتيّة واللاعقلانيّة ما فيه. وهذا ما يعبر عنه ليفي شتراوس بالقول: «إننا في الغالب نذهب إلى حدود حرمان الغريب من هذا الحدّ الأدنى من الواقعيّة عندما نحولّه إلى شبحٍ أو تجلٍ». (2)

فقد كان الرّحالة في كثير من الأحيان يتحوّل إلى جمركي، أو إلى حارس حدود، فيقصر مهمّته على مراقبة الحواجز والحدود ألا تخترق أو تداس، وصيانة الخطوط المانزة، والأسوار الفاصلة، ألا تنمحي أو تنهار. وهذا يتقاطع مع ما يستنجه نادر كاظم - وإن بشكل أكثر شموليّة وتعميماً - من أنّ الثّقافات تسعى، في إطار الحفاظ على هويّاتها نقيّة، وصيانتها ممّا قد يخالطها، ويشوبها من عناصر غريبة، وأجنبيّة؛ إلى: «تعميق الهوة بينها وبين الآخرين، وذلك من خلال تحديد الخطوط الفاصلة بينها وبينهم، وهي الخطوط التي ربّما تعرّضت للمحو والغموض والالتباس، فيلزم عندئذٍ القيام بتجديد رسوم ما أمحى من هذه الخطوط، وكشف ما غمض والتبس منها؛ لتكون الحدود واضحةً وبارزةً وناقضة بحيث لا تترك مجالاً للتداخل والاختلاط». (3)

ولمّا كان للثقافات في الغالب: «نزعةٌ للاختزال تعرّف الآخر بأنّه مختلفٌ بشكلٍ أساس عن "نحن"، فقد كان الآخر بالنسبة إلى أرسطو؛ الغريب الذي لم يتمكّن من استخدام وفهم اللّغة المشتركة، فصيرّ عبداً». (4) فقد تمّ التأسيس شيئاً فشيئاً لأسطورة التعارض بين الشرق والغرب، وإقامة شرخٍ أزلي بينهما.

ففي أغلب حالات المواجهة بين ثقافة ناظرة، وأخرى منظورة، نكون أمام نوعٍ من التّقابل بين نسقين ثقافيين، ومنظومتين قيميتين، مختلفتين تمام

(1): بيرتون: الرّحلة، ج 01، ص 20.

(2): محمّد الهلالي وعزيز لزرقي: الغير (ضمن سلسلة دفاتر فلسفيّة)، ط 01، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006، ص 40.

(3): نادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط، ط 01، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2004، ص 46.

(4): مجموعة من الأكاديميين: موسوعة الإستشراق، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص

الإختلاف، وقلّما كان يسمح المجال بسيادة فكر الاختلاف، وتبلور رؤية وموقف قائم على التسامح، والتعاضد، وتقابل الآخر، على العكس من ذلك، كتنّا نصطدم دائماً بأشكال التمرکز والتّحيّز، والتّعصّب، والتّهميش والإقصاء والنّفى والإلغاء.

إنّ أشكال التّمرکز، ومظاهر التعصّب، في نظر إدغار موران تهدّد الآخر: «من كلّ حدبٍ وصوبٍ، بعدم فهم كلامه، وعدم فهم أفكاره، وعدم فهم رؤيته للعالم، ومن بين العوائق التي تحول دون فهم الآخر، نزعة التّمرکز حول الذات، أو حول العرق، أو حول المجتمع.»<sup>(1)</sup>

ولعلّ القاسم المشترك بين الأشكال المختلفة من التّمرکز، هو أنها جميعاً تصدر عن إحلال/ موقعة الذات في مركز العالم، واعتبار كلّ ما هو غريبٌ أو بعيدٌ شيئاً هامشياً، لا معنى له، أو اعتباره معادياً لها.<sup>(2)</sup> وهذا ما يفسّر رفضنا: «الخالص والبسيط للأشكال الثقافيّة: الأخلاقيّة، والدينيّة، والاجتماعيّة، والجماليّة، التي تكون بعيدة جدّاً عن تلك الأشكال التي نتماهى معها.»<sup>(3)</sup> كما يفسّر في نظر شتراوس نفورنا وردود أفعالنا الفظة تجاه أنماط العيش، والاعتقاد، والتفكير، الغريبة عنا.<sup>(4)</sup> وهوسنا بـ «أن نرمي خارج الثقافة، في الطبيعة، كلّ ما لا يتوافق مع القواعد التي نعيش في ظلّها.»<sup>(5)</sup>

إن أشكال العنف المستشرية كالسرطانات، في بقع شتّى من المعمورة، والتي تقف في وجه الانفتاح والتكامل، والاندماج والتلاحم بين الشرائح والأطراف المكوّنة للأمم والمجتمعات؛ لمي في جانب منها سلبية هذه الأفكار، ووليدة هذه التصورات، التي استندت إلى سياقات وظروف وملابسات حكمها الصّراع والعدائيّة، أكثر ممّا حكمها الحوار والتّسامح. ولعلّ فحص وتفكيك هذه التصوّرات التي اتخذت من الخطاب الرّحلي، ومن غيره من المجالات - التي صدرت عن رؤية استشراقيّة - بؤرة للتّجليّ ومسرحاً للافصاح، يندرج في سياق إعادة الأشياء إلى نصابها.

<sup>(1)</sup>: إدغار موران: تربية المستقبل، تر: عزيز لوزق ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2002، ص 89.

<sup>(2)</sup>: المرجع نفسه: ص 89، 90.

<sup>(3)</sup>: كلود ليفي شتراوس: العرق والتّاريخ، تر: سليم حدّاد، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت، ص 13.

<sup>(4)</sup>: المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

<sup>(5)</sup>: المرجع نفسه، ص 14.

المصادر والمراجع:

أ: المصادر:

- 01:** بيرتون: رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز، تر: عبد الرحمن عبد الله الشّيح، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1994، ج 01.
- 02:** دي نرفال جيرار: الرّحلة إلى الشّرق، تر: كوثر عبد السّلام البحيري، دار الكاتب العربي للطباعة والنّشر، مصر، 1969، ج 03.
- 03:** الأمير ردولف: رحلة الأمير ردولف إلى الشّرق، تر: عبد الرحمن عبد الله الشّيح، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1995، ج 01.
- ب: المراجع:
- 04:** باجو دانييل هنري: الأدب العام والمقارن، تر: غسان السّيد، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1997.
- 05:** بهداد علي: الرّحالة المتأخّرون، تر: ناصر مصطفى أبو الهيجاء، منشورات هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الإمارات العربيّة المتحدّة، 2013.
- 06:** جوردا بيير: الرّحلة إلى الشّرق، تر: مي عبد الكريم، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2000.
- 07:** شتراوس كلود ليفي: العرق والتّاريخ، تر: سليم حدّاد، المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع، بيروت.
- 08:** عطا الله سمير: قافلة الحبر، دار السّاق، بيروت، 1994.
- 09:** العكش منير: أمريكا والإبادات الثقافيّة: رياض الرّيس للكتب والنّشر، بيروت، 2009.
- 10:** كاظم نادر: تمثيلات الآخر: صورة السّود في المتخيّل العربي الوسيط، ط 01، المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، بيروت، 2004.
- 11:** لبيب الطّاهر وآخرون: صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، 1999.
- 12:** مجموعة من الأكاديميين: موسوعة الإستشراق، ابن النديم للنشر والتّوزيع، الجزائر، 2015.
- 13:** مجموعة من المفكّرين: الرّمان والمكان اليوم، تر: محمّد وائل بشير

الأتاسي، دمشق.

- 14:** محمود مي عبد الكريم: تائهون في صحراء الإسلام، ط 01، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2003.
- 15:** موران إدغار: تربية المستقبل، تر: عزيز لزرقي ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2002.
- 16:** الهلالي محمد ولزرقي عزيز: الغير (ضمن سلسلة دفاتر فلسفية)، ط 01، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2006.



## ارتحالات المعنى من النسق الثقافي إلى النسق الخطابي "عينية لقيط بن يعمر الأيادي" نموذجاً

خميسي أدامي.  
جامعة عباس لغرور خنشلة.

### الملخص:

تسعى هذه المقاربة المنشغلة نصياً بقصيدة لقيط بن يعمر الإيادي "العينية"، إلى الكشف عن كيفية ارتحال وانتقال المعنى الثقافي، باعتبار الثقافة برنامجاً ونسقاً ناظماً للوعي، إلى النص باعتباره التجلي الفني والجمالي والمعرفي، المعبر عن التفاعل الثقافي داخل الجماعة، والكاشف عن وعي المبدع لهذا التفاعل.

وتأتي قصيدة لقيط بن يعمر الأيادي لتمثل لهذا الجدل بين الثقافي والإبداعي من خلال تحول الدوال اللسانية إلى علامات ثقافية، وكانت مقدمة قصيدته أكثر الشرائح النصية اتساعاً وتمثلاً لهذا الجدل، والمعبرة عن الرغبة في التأسيس لوجود اجتماعي وحضاري أكثر تماسكاً واكتمالاً وخلوداً.  
الكلمات المفتاحية: عينية لقيط بن يعمر الأيادي – الثقافة – الدلالة الثقافية – الدلالة الإبداعية- الأنساق الثقافية والمعرفية- ارتحال المعنى.

### LE RESUME:

AVEC LE POEME DE LAKIT BEN YAAMOR EL IYADI, "EL-AYNIYA", RETENU COMME CORPUS, LE PRESENT ARTICLE CHERCHE A DEVOILER LA MANIERE DE LA TRANSMISSION ET LA MIGRATION DE LA SIGNIFICATION CULTURELLE VERS UN TEXTE CONSIDERE COMME UNE MANIFESTATION ARTISTIQUE ESTHETIQUE ET COGNITIF CAPABLE D'EXPRIMER L'INTERACTION CULTURELLE AU SEIN D'UN GROUPE ET D'EN DEVOILER LA CONSCIENCE CREATRICE. LA CULTURE EST ICI COMPRISE COMME UN PROGRAMME ET UN FORMAT STRUCTURANT LA CONSCIENCE.

LE POEME CHOISI EST LE PARFAIT EXEMPLE CAPABLE D'ILLUSTRER LA DIALECTIQUE OPPOSANT LE CULTUREL AU CREATIF A TRAVERS LA TRANSFORMATION DES SIGNIFIANTS LINGUISTIQUES EN MARQUEURS

CULTURELS. LE DEBUT DE CE POEME EST PARTICULIEREMENT REPRESENTATIF PUISQU'IL EXPRIME LE DESIR DE L'INCORPORATION D'UNE PRESENCE SOCIALE ET CULTURELLE PLUS COHERENTE, COMPLETE ET ETERNELLE.

MOTS-CLES : AYNIYAT LAKIT BEN YAAMOR – LA CULTURE – LA SIGNIFICATION CULTURELLE – LA SIGNIFICATION CREATRICE – FORMATS CULTURELS ET COGNITIFS –MIGRATION DE LA SIGNIFICATION. .

**ABSTRACT:**

THROUGH LAKIT BEN YAMOR EL IYADI'S EL-AYNIYA, THE PRESENT PAPER, WITH A TEXTUAL APPROACH TO THE POEM, SEEKS TO UNCOVER THE FASHION WITH WHICH CULTURAL MEANING GETS MIGRATED AND TRANSMITTED TOWARDS THE TEXT WHICH IS CONSIDERED AS THE ARTISTIC, AESTHETIC AND COGNITIVE MANIFESTATION EXPRESSING A COMMUNITY'S CULTURAL INTERACTION AND DISPLAYING THE ARTIST'S CONSCIENCE OF THAT INTERACTION.

THIS POEM ILLUSTRATES THIS DIALECTICS BETWEEN THE CULTURAL AND THE CREATIVE, THROUGH THE TRANSFORMATION OF THE LINGUISTIC SIGNIFIERS INTO CULTURAL DENOTATORS. THE BEGINNING OF THE POEM APPEARS TO BE PARTICULARLY REPRESENTATIVE OF THAT DIALECTIC, REFLECTING A DESIRE TO LAY FOUNDATION FOR A MORE SOLID, COMPLETE AND ETERNAL SOCIAL AND CULTURAL ENTITY.

**KEYWORDS:**

LAKIT BEN YAMOR EL IYADI'S EL-AYNIYA, CULTURE, CULTURAL SIGNIFICANCE, CREATIVE SIGNIFICANCE, CULTURAL AND COGNITIVE SYSTEMS, MEANING MIGRATION.

تتوزع في ديوان الشعر العربي القديم جملة من النصوص، تنهض على استثنائية إبداعية خاصة، وعلى فرادة خطابية متميزة، لا لأنها تخرق المتداول



والمعروف فحسب، بل لأنها تمتلك فاعلية بارزة في التأسيس لخطاب مغاير، إبداعيا وثقافيا.

إنها نصوص تراوغ وتختال، حين تتبدى في قراءة أولى وفيه لتقاليد القصيدة العربية القديمة، مخلصه لنسقتها، طائعة لها في الرؤيا والبناء. ولكنها -في قراءة ثانية- تمارس خلخلة بادية في أنظمة الخطاب، وتحريكا واعيا لسواكن الثقافي والمجتمعي. ويكفي أن تمتد يد المراجعة إلى كثير من النصوص الشعرية والنثرية العربية القديمة، كالنصوص النسوية\* وحكم وخطب أكثم بن صيفي\*\*، والقصائد المنصفات\*\*\*، وغيرها من النصوص التي ظلت تعيش على الهامش، في ظل قائم ثقافي يمنح الشرعية والمركزية لبعض النصوص، ويقصي بعضها الآخر. فالمركزي في الثقافة... نزاع إلى تحقيق سلطته الفحولية، وتأسيس أنساقه الثقافية الخاصة بكل ما أوتي من قوة، لكي يصبح نخبوا مهيمنا مقابل دونية الشعبي والهامشي.(1)

وتحاول هذه الأوراق أن تقترب من عينية "لقيط بن يعمر الأيادي"، واستجواب منظومة علاماتها الخطابية، وتأمل سطوحها الظاهرة، قصد النفاذ إلى تلك المنطقة التي يمارس فيها المعنى ارتحالاته وإبدالاته من النسق الثقافي إلى النسق الإبداعي، وفق قراءة ثقافية، لا تهمل النص بعده نتاجا فنيا وجماليا، يلفت إلى نفسه، ولكنها تظل أيضا مشغولة به، بعده "معطى ثقافيا وسيرورة نسقية".(2)، ففي "النهاية لا بد للتحليل الثقافي الكامل أن يذهب إلى ما هو أبعد من النص ليحدد الروابط بين النص والقيم من جهة، والمؤسسات والممارسات الأخرى في الثقافة من جهة أخرى".(3)، ولعل النص الأدبي أن يكون أكثر قدرة على البوح بالخلفيات التي تثوي وراءه، والترسبات الثقافية التي تستقر داخله، بما يسمح للتحليل الثقافي أن يكتسب مشروعيته المنهجية وفاعليته الإجرائية، وهو يحاول استعادة القيم الثقافية التي امتصها النص الأدبي، الذي -على عكس النصوص الأخرى- يستطيع أن يستوعب بداخله السياق الذي تم إنتاجه من خلاله(4).

إن السؤال الأساسي الذي تحاول هذه الأوراق أن تطرحه، وتسعى أن تجيبه هو: كيف استطاعت عينية لقيط بن يعمر الإيادي أن تستوعب هما فرديا وجماعيا قبلها، ليرتفع هذا الهم في قراءة معينة إلى هم حضاري؟ وكيف استطاع النص أن يحول منظومة علاماته وإشاراته إلى مرسلات لغوية، ولكن أيضا ثقافية؟ أين يتوقف الإبداعي ليبدأ الثقافي؟ ثم أخيرا، كيف تمتص مكونات النص النسق الثقافي الذي يغذيها ويحتضنها في الآن نفسه؟

وتتوسم هذه الدراسة أن إجابة هذه الأسئلة، أو قل شرف محاولتها، يمكن أن تتحقق عبر المداخل الآتية:

1- السياق الخارجي:

1-1 - في حياة الشاعر ومناه الاسم:

منذ أن أطلق (رولان بارت ROLAND BARTHES) قوله المعروفة عن موت المؤلف، تأكيداً لمقولة قديمة لمواطنه (بول فاليري PAUL VALÉRY): "المؤلف تفصيل لا أهمية له" (5)، وأنه بالتعريف كائن غائب (6)، شرع الدرس النقدي يشيخ بنظره عن المؤلف. غير أن الدراسات الثقافية والنقد الثقافي سعياً، نزولاً عند طبيعة منهجها، وآليات التحليل التي يقترحها، إلى إعادة النظر في غياب المؤلف وحضوره أيضاً. وتعتبر هذا الحضور ضرورياً، فالمؤلف في منظور القراءة الثقافية يبدع وينتج، وهو قادر على إدراك ووعي السياقات الثقافية ووظائفها، ومن ثم تغدو معرفة تكوينه الثقافي، وحضوره الطبقي الاجتماعي، وطبيعة علاقاته مع المؤسسات والسلط مهمة للكشف عن الفاعليات النسقية في الخطاب الإبداعي (7).

ولعل الحديث عن الشاعر لقيط بن يعمر الإيادي في بداية هذه الدراسة، إنما يستمد بعض وجهته من هذا المنطلق.

يقول محقق ديوانه عبد المعين خان: "يعد لقيط من المقدمين من شعراء الجاهلية ولكن الذين ترجموا له أغفلوا الحديث عن حياته وشعره إلا نتفا سيرة" (8). ثم يورد اختلاف القدماء وتعارض الروايات إلى حد التناقض حول اسمه، وحياته، والمناسبة التي قال فيها عينيته. فهو لقيط الإيادي مرة، وهو لقيط بن معبد في مرة ثانية، وابن يعمر أو معمر أو بكر في مرات أخرى (9).

فهل يمكن القول بأن هذا التعارض والاختلاف في ضبط الاسم هما التجلي الذي يلبس شعور الشاعر منذ البداية بمأزق الهوية، وسعيه إلى تجاوزه من خلال حرصه الشديد على تشييد نموذج قبلي/قومي، يحارب الفناء والعدم، وينهد إلى البقاء والحياة والخلود؟

ويذهب محقق الديوان دائماً، بعد أن قابل بين جملة من الروايات والأخبار، التي يناقض بعضها بعضاً في أغلب الأحيان، إلى أن لقيطاً ينتمي إلى قبيلة إياد، التي هي فرع رابع منتسب إلى نزار بن معبد بن عدنان بعد ربعة ومضر وأنمار (10)، وأن كتب السير والتراجم والأخبار لا تكاد تذكر شيئاً عن أجداده ومولده ونشأته، وخلاصة ما وصلت إليه، أنه شاعر جاهلي مقل، ولا يكاد يعرف له غير العينية وبعض المقطوعات الشعرية. وأنه كان كاتباً للمراسلات في ديوان كسرى (11).

وإذا كانت تفاصيل حياته، لا تكاد تتسق في رواية موثقة متماسكة، فإن قصة موته لا تختلف تضاربا وتعارضاً عن ذلك. فقد قال البكري في "معجم ما استعجم": "ولما بلغ كسرى شعر لقيط قتله" (12)، وقيل: سخط عليه، وقطع لسانه ثم قتله" (13).

وأهم ما يمكن الخلوص إليه، أن لقيطا شاعر جاهلي "عاش في فترة عصبية من تاريخ العرب حين اتحدت قبائل الحيرة العربية لأول مرة واثارت على الحكم الفارسي" (14)، وأنه كان من عمال ديوان كسرى، الذي كان يضم شرا لقبيلته لأسباب عديدة مبثوثة في كتب التراث، وأنه مات حتف قصيدة، قالها وأرسلها إلى قومه منذرا ومحدرا.

وقصة الخوف من "النص"، واللجوء إلى قطع لسان صاحبه، قصة تكررت في حياة أكثر من شاعر قديم، ولعلها حاضرة في كل عصر، وإن بصيغ متنوعة ومختلفة (15)، وفي المفضليات حديث عن الشاعر عبد يغوث بن الحرث يقول: "وكانوا شدوا لسانه لئلا يهجوهم، فلما لم يجد من القتل بدا طلب إليهم أن يطلقوا عن لسانه، ليذم أصحابه وينوح على نفسه، وأن يقتلوه قتلة كريمة، فأجابوه، وسقوه الخمر وقطعوا له عرقا يقال له الأكل، وتركوه ينزف حتى مات (16). ومطلع قصيدته (17):

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا وما لكما في اللوم خير ولا ليا

وبصرف النظر عن واقعية الحادثة من عدمها، فإنها تضمّر نسقا ثقافيا يتوجس الخوف من القول/الكتابة/النص، ويسعى إلى مصادرة المعنى/الفكرة، عبر الإجهاز على حاملها، فينكسر الحامل والمحمول معا.

## 1-2- القبيلة وتيه الصحراء:

لا يريد هذا العنوان أن يستحضر فعلي الهجرة والارتحال، لتأكيد حركة القبيلة العربية في الزمان والمكان، فقيام حياة القبيلة وجودا واستمرارا على الارتحال، حقيقة معروفة ليست بحاجة إلى إثبات اتساقا مع المعيش في البيئة الصحراوية المجدية. ولكنه عنوان يريد أن يؤكد أن قبيلة إياد التي ينتهي إليها الشاعر، كان قدرها أن تعيش على الحواف، وأن ترحل وهي تتوجس خوفا وتهديدا حقيقيا لوجودها، لا من البيئة الصحراوية وحدها، ولكن أيضا من الانقسامات التي هزت أصولها، وضربت فروع هذا الأصل، ثم من موجات القحط والمجاعة، ثم من الخطر الفارسي الذي ظل مترصا بها، حتى لتبدو في أحيان وكأنها قبيلة وجدت

لتصارع. ولعل الشاعر كان قد استحضر كل هذا التاريخ من التهديدات، وأن الإحساس الحاد بالفناء كان يفعل فعله في شعوره ولا شعوره معا، وأن فعل الانتماء كان يكابد عنده تجربة موت قاسية.

وتتأرجح في كتب التراث العربي جملة كبيرة من الأخبار المتعلقة بقبيلة إياد، ولكنها جميعا تتجه إلى أن مسيرتها كانت تتقاذفها الأخطار، فقد اضطرت أن تنفصل عن أصلها نزار بن معد بن عدنان(18)، وأن تغادر تهامة إلى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية، بسبب حالة القحط(19)، وقيل بسبب حرب دامية هزمت فيها أمام مضر وربيعة المنحدرتين معها من أصل واحد، ثم نفتها الجيوش الفارسية عن العراق كله(20)، كما قيل إن مجاعة شديدة بددتها إلى فرق؛ ذهبت الأولى نحو البحر وهلكت، واتجهت الثانية إلى اليمن، بينما ذهبت الثالثة إلى ديار بكر بن وائل(21)، لتلاقي الطرد من قبل الجيوش الفارسية(22).

إن هذا الحديث التاريخي المضطرب، ليس مقصودا لذاته، بل إنه قد يكون منكورا بمقاييس النقد المعاصر، ولكن هذا البحث يروم من خلاله أن يلامس هذا اليأس العدمي الذي تحضر دواله بقوة في نص لقيط بن يعمر، وأن يكشف وعي الشاعر لأبعاد المأزق، لا الفردي أو الجماعي القبلي فحسب، بل الحضاري أيضا.

إن قبيلة إياد تقدم نموذجا دالا على جماعة مجتمعية، مفارقة في وعيها، تركز مفهوم التحدي بدلالاته الحضارية، فهي قبيلة شغلت نفسها بالزراعة، ردا على المجاعة التي بددت اجتماعها، والشاعر يشير إلى بعض ذلك في القصيدة وإن بتهكم وسخرية، وهي قبيلة تخلت أو تخلصت بفعل احتكاكها بالآخر الفارسي من بعض بداوتها، وانتحلت شيئا من الحضارة كما عبر محقق الديوان(23)، وهي قبيلة بدأ وعيها السياسي في التشكل وفق منظومة مغايرة للسائد العربي حينها. وفي عينية الشاعر دعوة إلى ترشيح قائد ذي موصفات قيادية دالة. فهل كان الشاعر سيدعو إلى ذلك لو لم يكن وعي القبيلة قادرا على استيعاب هذه الفكرة، بعيدا عن أعراف القيادة القبلية المعروفة. الناهضة على الأرومة الصافية، والتجذر في العراقة والنسب ووفرة المال والولد، ثم هي، أخيرا، قبيلة ينحدر منها شعراء مشهورون، وخطباء معدودون، والأهم من ذلك كله، كتاب عن الملوك كثيرون.

إن الكتابة فعل ثقافي، ينخرط بالمجموعة البشرية في عالم الرمز؛ أي عالم التاريخ الفعلي الذي يكتبه الإنسان بوعيه ومغامرته، فيكف عن الانتماء إلى عالم الطبيعة الأصم. إن الكتابة هي "دولة العقل" (24)، حد تعبير (ويل ديوراننت WILLIAM JAMES DURANT). فهل يمكن القول إن كسرى كبير الفرس

وحكيمهم، كان يفكر في كل ذلك، أو بعض ذلك، حين جهز جيشه لإبادة قبيلة إباد، بعد أن قطع لسان شاعرها ثم قتله؟

## 2- في النسق النصي:

### 1- الدال الإبداعي والمدلول الثقافي في المقدمة الطللية:

يقدم النص العربي القديم، والجاهلي منه خصوصا، نموذجا حيا لهذه النصوص الراحلة عبر التاريخ، والتي تظل تستدعي فعل القراءة في نهم متزايد، ذهابا نحو المزيد من الكشف والاستبصار. فللشعر الجاهلي " في الثقافة العربية قيمة الجذر الحضاري، فهو يسري كالنسغ في مختلف النصوص والخطابات لغة وأخلاقا وأخيلة" (25)، "بل إنه يشكل القاعدة التي شيد عليها البناء الشعري العربي، وأكثر من ذلك، يحتل في مجال الشعر العالمي مكانة متفردة تماما." (26)، وأغلب الظن أن هذه المكانة إنما هي نتيجة طبيعية لقيمة هذا الشعر في مستوياته اللغوية والإبداعية والمعرفية.

وتثير عينية لقيط بن يعمر جملة من الأسئلة في هذه المستويات جميعها، ولعل أكثر هذه الأسئلة إلحاحا، هو ما اتصل بمقدمتها، والتي تمتد نصيا على مسافة ستة أبيات، يقول فيها الشاعر (27):

يا دارَ عمرة من محتلها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا  
 تامت فؤادي بذات الجزع خرعبة مرت تريد بذات العذبة البيعا  
 جرت لما بيننا حبل الشموس فلا ياسا مبينا ترى منها ولا طمعا  
 فما أزال على حط يؤرقني طيف تعمد رحلي حيثما وضعا  
 إني بعيني إذ أمت حملهم بطن السلوطح لا ينظرن من تبعا  
 طورا أراهم وطورا لا أبينهم إذا تواضع خدر ساعة لمعا

فالمتأمل لهذه المقدمة الطللية، يلحظ اندراجها في النسق العام للمقدمات الطللية التي تستحضر المكان (دار- الجرع)، والحببية (عمرة)، ومناخات الحزن والكآبة (هاجت لي الهم والأحزان والوجع)، وتشير إلى تمنع هذه الحببية (فلا ياسا مبينا ترى منها ولا طمعا)، وتحولها إلى طيف سارب يلاحق الشاعر (طيف تعمد رحلي حيثما وضعا)، وإمعانها أخيرا في رحلة ظاعنة داخل خيوط السراب (طورا أراهم وطورا لا أبينهم).

تلك هي تفاصيل وجزئيات هذه المقدمة، فهل تسعفنا هذه القراءة

السطحية في إدراك لعبة المخاتلة الإبداعية التي يجرنا الشاعر إليها؟ وهل يكفي القول إن هذه المقدمة مازالت تعلن وفاءها لتقاليد القصيدة السائدة؟

إن انزلاقاً نسقياً خفياً يستوطن هذه المقدمة، ويتلبس بدوالها، باعتبارها التحقق الملفوظي المنجز، عبر التمظهر الخطي الذي تشكله هذه الدوال (28)، غير أن اللامرئي المتمثل في المدلولات يظل مجالاً مفتوحاً للقراءة والمكاشفة، انطلاقاً من الحوار الذي يدور دائماً بين الدوال الشعرية والمدلولات الثقافية داخل النص.

لذلك فإن صورة المرأة/ الحبيبة، لا تلتفت إلى نفسها، ولا تحيل إلى تجربة عاطفية متعينة، ولكنها صورة تتلبس بصورة القبيلة، أو قل إن النسق القبلي بعده منظومة ثقافية، أو إطاراً اجتماعياً وسياسياً، وقطباً جاذباً يحتل بؤرة الوعي واللاوعي معاً، يقفز ليكون خلفية لصورة المرأة التي تتبدى على ظاهر وسطح المقدمة الطللية.

تنفتح المقدمة على بنية أسلوبية هي النداء (يا دار عمرة)، باستخدام (يا)، التي درج النحويون والبلاغيون على القول إنها تستخدم لنداء البعيد، وفي البنية الندائية ما يؤشر على التحام وحميمية العلاقة بين طرفيها. والحال أن العكس هو الذي كان منتظراً، فسواء كانت المرأة هي المعنية أم كانت القبيلة، فكلاهما يفترض أن تكون قريبة من الشاعر، لصيقة بوجدانه، ثم لماذا يبدو الشاعر مهموماً بالدار لا بعمرة؟

إن الدار هنا ليست مجرد اندياح جغرافي يخاطبه الشاعر عن بعد، ولكنها إحالة على موطن تفجر الحب، واتساع القلب لعمرة. إنها مكان الانتماء. ألا يمكن القول - والحال تلك - إن عمرة هنا هي القبيلة؟ ثم ألا يثير اسم "عمرة" في الذهن دلالة العمران والخصوبة والبناء؟ فالقبيلة - في ذهن الشاعر العربي القديم - أكبر من مجرد تجمع للأهل والعشيرة، وأكبر من مجرد ملاذ آمن يحتوي به الفرد، إنها نسق فكري يؤكد تصوراً ذهنياً لما ينبغي أن تكون عليه الحياة" (29).

إن البيت الأول في هذه المقدمة قائم على مفارقة دالة بين شطريه، ففي الشطر الأول: "دار" وهي كما سلف دوران على دلالات الولاء والانتماء، و"عمرة" وهي كما سلف أيضاً، عمران وبناء ونماء، وفيها أيضاً "الجرع"، وهي مفردة ملتبسة، تتباين دلالتها، ففي لسان العرب: "الجرعة و الجرعة والأجرع والجرعاء: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل، وقيل هي السهلة المستوية،

وقيل هي: الدعص لا تنبت شيئاً. والجرعة عندهم: الرملة العذاة الطيبة المنبت التي لا وعوثة فيها. وقيل: الأجرع كثيب، جانب منه رمل وجانب حجارة." (30)

إنها مفردة تحيل على وجهين: وجه ترتفع فيه دلالات الصلابة والحزونة والجذب، ووجه تنكشف فيه دلالات الليونة والاستواء والخصوبة، جانب منه رمل وجانب حجارة، كما في لسان العرب. وتلك ثنائية ليست بريئة في عينية لقيط، إنها من الأشكال الرملية الطاغية الحضور في فضاء الصحراء، والتي تظل مثيرة بأمواجها الرملية، وامتدادها اللانهائي صورا للبحر، وإن وراء تلك الليونة، وذلك الصفاء تختفي صور الغدر والخيانة، وتترى أسباب المنايا بكل مرتحل. (31)

فإذا تضافرت "الدار" و"عمرة" و"الجرع" لتحقيق دلالة الانتماء الممهور خصوبة وعمرانا وليونة، فإن الشطر الثاني (32):

هاجت لي الهم والأحزان والوجعا .....

يقف على نقيض ذلك تماما، فدواله "هاجت" الهم "الأحزان" و"الوجع"، تشكل صورة الداخل / الذات، وهي تتملى الخصوبة والعمران والليونة تتحول إلى عقم وخراب وقساوة. إن السؤال هنا هو سؤال العمران يتهده التهم، وتلك دلالة تؤشر أن "عمرة" التي انفتح عليها نص الشاعر ليست امرأة متعينة، ارتحلت على غفلة أو يقظة من الشاعر، بل هي قبيلته، ينتظر منها الشاعر نهوضا، ولكنها لا تفعل. ويتوسم منها إقبالا، ولكنها تدبر. إنها قبيلة تصر، نتيجة جهلها لسؤال المصير، أن تنقطع عن الشاعر (33):

جرت لما بيننا حبل الشموس فلا ياسا مبينا ترى منها ولا طمعا

وتعمه في غفلة حضارية، لا ترى فيها بروق الموت، وسواطع النهاية (34):

مالي أراكم نياما في بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

إن "القبيلة تاريخ لا وطن، وهي زمان وليست مكانا." (35) لذلك سرعان ما تحولت إلى طيف يخترق الأمكنة، وينتهب المسافات، ويؤرق الشاعر في كل آن (36):

فما أزال على شحط يؤرقني طيف تعمد رحلي حيثما وضعنا

إن كل العلامات التي تنهض عليها هذه المقدمة الطللية، لا تحضر باعتبارها مكونات نصية لسانية، تلفت إلى نفسها، في نسق إبداعي خطابي، منغلق على نفسه داخل نظام الفن، والتقليد الشعري المتوارث، ولكنها تحضر أيضا بعدها مكونات نسق ثقافي، توسل الفن ليعلن عن نفسه، فالمرأة التي تامت فؤاد الشاعر، لا تحيل على مرجعيتها الحقيقية إلا بقدر ما تتكشف علاميتها لتغدو رمزا للقبيلة، وبقدر ما يتحول ترددها الخاضع، أو تمنعها العنيد، إلى رمز لغفلة القبيلة عن مصيرها الذي تهدده الأخطار بالمحو والإبادة، ولإن حقيقة هذا المصير لا تنكشف إلا للبصير. فقد

جند الشاعر حاسة البصر وحدها لتتابع رحلة الطعينة(37):

إني بعيني إذ أمت حمولهم بطن السلوطح لا ينظرن من تبعها  
 إن وعي الشاعر وعي رائد، بصير ومراقب، لذلك كانت "حمول الظاعنين"  
 نصب عينيه، يلحظ حركة القبيلة التي التبست بصورة المرأة الطاعنة ويتابع تهاديها  
 في عرض الصحراء، مؤثرة المكان الغائر المنخفض، "بطن السلوطح"، فهل كلمة  
 "بطن" هنا تصلح أن تكون إشارة إلى حالة الغياب والاختفاء التي تغرق فيها القبيلة،  
 غير واعية بعين الشاعر التي تتبع وتراقب (لا ينظرن من تبعها)، ولا بالخطر الفارسي  
 يزحف جرادا مخربا(38):

ألا تخافون قوما لا أبالكم أمسوا كأمثال الدبا سرعا  
 لو أن جمعهم راموا بهدته شم الشماريخ من ثملان لانصدعا  
 في كل يوم يسنون الحراب لكم لا يهجعون إذا ما غافل هجها  
 إن زيف وعي القبيلة، وانسحابها من مجرى الفعل التاريخي، هما اللذان  
 صيراهما في خاتمة أبيات المقدمة إلى ما يشبه السراب، إنها موجودة بالضرورة لا  
 بالفعل، ولذلك يعلن الشاعر في نبرة شبه يائسة(39):

طورا أراهم وطورا لا أبينهم إذا تواضع خدر ساعة لمعا  
 إن بريق الخدر من بعيد، يظل وحده المحفز على رغبة الشاعر في نقل وعيه  
 المتحفز، المسكون بالحياة والقوة واليقظة إلى قبيلته، إذ بريقها هنا هو علامة ما  
 تبقى فيها من حياة، ولأجل تلك الحياة اليقظة وحدها تأتي المرسلات الشعرية: (40)  
 بل أيها الراكب المزجي على عجل نحو الجزيرة مرتادا ومنتجعا  
 أبلغ إيادا و خلل في سراتهم إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا  
 لقد مات الشاعر حتف قصيدته هذه، وفي قصة موته كما في قصيدته  
 يتبدى صراع الأنساق واضحاً، لكنه صراع يأخذ هذه المرة وجهة أخرى، إنه صراع  
 يتجاوز إطار الثقافة الواحدة، إلى ثقافتين مختلفتين؛ أي العربية والفارسية. ويمكن  
 الكشف عن أوجه هذا الصراع الثقافي النسقي في نقطتين أساسيتين:

1- تتصل النقطة الأولى بقبيلة الشاعر "إياد"، وهي حسب ما يمكن  
 استقراؤه من كتب الأخبار والتاريخ، تمثل نمودجا دالا لجماعة اجتماعية مفارقة في  
 وعيها، فمسيرتها منذ البداية كانت مسيرة اجتماعية وحضارية عسيرة، فقد انفصلت  
 عن أصلها القبلي الأم "نزار بن معد بن عدنان"(41)، وطوح بها القحط في مناطق  
 مختلفة من الجزيرة العربية (42)، وخاضت حرباً دامية مع قبيلتي مضر وربيعة



المنحدرتين معها من أصل واحد، ثم – وهذا هو الأهم- ظلت في تناوش وصراع مستمرين مع جيوش كسرى، تغير ويغار عليها، على خطوط التماس بين الجزيرة العربية والدولة الفارسية.

لكن القبيلة على الرغم من ذلك كله، - وهنا يبدأ الصراع النسقي والحضاري- انصرفت إلى الانشغال بالزراعة، والشاعر نفسه يشير إلى بعض ذلك في القصيدة وإن بهكم وسخرية(43):

وَأَنْتُمْ تَحْرَثُونَ الْأَرْضَ عَنْ سَفْهِ فِي كُلِّ مَعْتَمَلٍ تَبْغُونَ مَزْدَرَعًا  
وَتَلْقَحُونَ حِيَالَ الشُّوْلِ أَوْنَةً وَتَنْتَجُونَ بَدَارَ الْقَلْعَةِ الرَّبْعَا

وهي قبيلة تخلت أو تخلصت، بفعل احتكاكها مع الآخر الفارسي من بعض بداوتها، وانتحلت شيئا من الحضارة، كما عبر محقق ديوان الشاعر(44)، وهي أخيرا قبيلة، بدأ وعيها السياسي في التكون والتشكل، بما يغير ويخالف السائد العربي حينها، وربما كان بعض وعيها المتفوق سببا من الأسباب التي سرعت عملية اتحاد قبائل الحيرة العربية لأول مرة لتثور على الحكم الفارسي.(45).

فهل كان إصرار كسرى الفارسي على إبادة هذه القبيلة، لمجرد أنها كانت تقلق أمن وسلامة جيوشه على الحدود؟ أم لأن العقل الفارسي كان خائفا من قبيلة تمارس الزراعة، بكل ما يحيل عليه هذا النمط من الحياة من استقرار وقوة ومنعة وتفوق؟ ومذعورا من قبيلة انتحلت شيئا من الحضارة، بكل ما يحيل عليه ذلك دائما من توازن في السلطة، ومنافسة سياسية وثقافية وحضارية، لم يكن الفرس يرضون لها أن تقوم على حدودهم.

2- أما النقطة الثانية فتتعلق بالشاعر نفسه، لا بطبيعة انتمائه الطبقي والاجتماعي فحسب، بل بطبيعة الأداة الثقافية التي امتلكها، وهي "الكتابة"، والتي لم تكن مقصورة عليه، فكتب التراث والأخبار تشير إلى أن قبيلة إياد، انحدرت منها مجموعة من الخطباء المعدودين، وكتاب عن الملوك كثيرين(46)، كما تشير في سياق متصل إلى أن الشاعر لقيط بن يعمر يكون قد قتل من قبل كسرى بعد أن قطع لسانه(47).

فالقبيلة التي أريدت لها الإبادة، هي نفسها القبيلة التي أراد الشاعر أن يستنهضها من غفلتها، ولكنه دفع ثمن ذلك باهظا، لأنه كان يناضل من أجل أن يحقق وجودا حرا وكريما، في لحظة زمنية وحضارية متأزمة من تاريخ القبيلة العربية، التي كانت تنازع في عسر للخروج من اللاتاريخ، نحو التاريخ الفعلي، الذي لا

يكتب بغير الرؤية الصافية، والإرادة النافذة، والوعي المتفوق المتجاوز لسكونيته.

لقد حاولت هذه المقاربة أن تتلمس كيفية ارتحالات المعنى من النسق الثقافي إلى النسق الإبداعي، متخذة المقدمة الطللية في عينية لقيط بن يعمر الإيادي، كمدخل لامتحان هذه الفكرة، ويمكن أن نلخص نتائجها فيما يلي:

1- أن المقدمة الطللية شريحة نصية، والقصيدة العربية القديمة بنية نصية عامة، ليستا خاضعتين خضوعاً امتثالياً لتقاليد موروثه في القول، ولا لصيغ ناجزة قارة في الإنجاز، وأن النظر إليها من زاوية الجدل بين الأنساق الظاهرة والمضمرة، يمكن

2- أن يزيل شبهة التشابه بين الشرائح والنصوص، ويكشف عن استقلالية كل نص بمقولته وشعريته.

3- أن الشعر ليس خطاباً تهويمياً، تشغله هواتف الخيال، وليس انثيالاً وجدانياً يفارق الرؤيا، بقدر ما هو فاعلية تتجاوز سكونية الواقع نحو الحفر في شقوقه لتغيير مجراه، والتحديد في وجهه بصدق وصراحة، للكشف عن قبحه وفجأته.

4- أن الشاعر العربي القديم، والجاهلي خصوصاً، استطاع أن يتمثل، لا، الصراع الداخلي، الذي كان يستنفد طاقات القبيلة وقواها المادية والمعنوية فحسب، بل أن يتمثل أيضاً، أشكال الصراع الذي كان يدور بين العرب وبين غيرهم من الأمم، بما ينبت عن الدخول في سجالات حضارية أرهقت كاهل القبائل العربية، لكنها ساعدتها أيضاً على إدراك طبيعة المسافة بينها وبين الآخر.

#### الهوامش:

\*- ينظر: ، أدب النساء في الجاهلية والإسلام، تأليف: محمد بدر معبدي مطبعة مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية.

\*\*- ينظر: كتاب المعمرين من العرب وطرف من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم، تأليف: أبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، مطبعة السعادة، ط 1، 1905، ص 10 وما بعدها. وكذا البيان والتبيين للجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

\*\*\*- ينظر: القصائد المنصفت، جمع وتحقيق: عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1968.

1- يوسف عليمات، النسق الثقافي- قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم- عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، جداراً للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، عمان، ط 1، 2009، ص 2.

2- المرجع نفسه، ص 4.

3- ميجان الرويلي، سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي

- العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط3، 2002، ص80.
- 4- المرجع نفسه، ص80.
- 5- بول فاليري، نقلا عن عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2007، ص120.
- 6- PH.LEJEUNE, MOI AUSSI, LE SEUL, COLL. « POETIQUE » ,1988, « L'IMAGE DE L'AUTEUR DANS LES MEDIAS »,p87.
- 7- يوسف عليمات، النسق الثقافي- قراءة ثقافية في أنساق الشعر العربي القديم- ص4.
- 8- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، تح: عبد المعين خان، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1971، ص7.
- 9- المصدر نفسه، ص8.
- 10- المصدر نفسه، ص9.8.7.
- 11- المصدر نفسه، ص12.
- 12- البكري، ، نقلا عن المصدر السابق، ص14.
- 13- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، على رواية هشام بن الكلبي، تح: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط1، 1998، ص23.
- 14- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، تح: عبد المعين خان، ص7.
- 15- عبد الله محمد الغدامي، اليد واللسان- القراءة والأمية ورأسمالية الثقافة- المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص9.
- 16- المفضل الضبي، المفضليات، تح: أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، دار المعارف، ط6، دت، ص155.
- 17- المصدر نفسه، ص155.
- 18- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، تح: عبد المعين خان، ص9.
- 19- المصدر نفسه، ص9.
- 20- المصدر نفسه، ص10.
- 21- المصدر نفسه، ص10.
- 22- المصدر نفسه، ص10.
- 23- المصدر نفسه، ص10.
- 24- ويل ديورانت، نقلا عن دفاتر فلسفية، نصوص مختارة" الطبيعة والثقافة"، إعداد وترجمة: محمد سبيلو وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1991، ص34.
- 25- أحمد بوزفور، تأبط شرا- دراسة تحليلية في الشعر الجاهلي- الفنك، الدار البيضاء، المغرب، دط، دت، ص7.
- 26- سلام الكندي، الراحل على غير هدى- شعر وفلسفة عرب ما قبل الإسلام- تر: محمد بنعبود، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، بغداد، العراق، 2008، ص15.

- 27- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، ص 36. 37. 38.
- 28- بسام فطوس، استراتيجيات القراءة- التأصيل والإجراء النقدي- مؤسسة حمادة ودار الكندي، إربد، ط 1، 1998، ص 23.
- 29- عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2010، ص 141.
- 30- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مادة: ج ر ع ، ج 2، ص 601.
- 31- رشيد نظيف، الفضاء المتخيل في الشعر الجاهلي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط 1، 2000، ص 183.
- 32- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، ص 37.
- 33- المصدر نفسه، ص 38.
- 34- المصدر نفسه، ص 44.
- 35- أدونيس، كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1989، ص 62.
- 36- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، ص 37.
- 37- المصدر نفسه، ص 38.
- 38- المصدر نفسه، ص 40.
- 39- المصدر نفسه، ص 38.
- 40- المصدر نفسه، ص 38. 39.
- 41- المصدر نفسه، ص 9.
- 42- المصدر نفسه، ص 9.
- 43- المصدر نفسه، ص 42.
- 44- المصدر نفسه، ص 10.
- 45- المصدر نفسه، ص 7.
- 46- الجاحظ، البيان والتبيين، تج: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، ط 7، 1998، ص 42. 43.
- 47- لقيط بن يعمر الإيادي، الديوان، ص 9.

## الاتجاه المسرحي الوثائقي في مسرحية فجر المسرح المصري لنعمان عاشور

كمال علوات<sup>1</sup>

### الملخص:

في إطار تاريخي وثائقي يحاول الكاتب المسرحي المصري نعمان عاشور أن يطرح تجربة فريدة من نوعها تمثلت في محاولة تأصيلية يستقرأ فيها أهم المحطات الفنية التي عرفها المسرح العربي من خلال تجربة رواد المسرح العربي، وكبديل عن الدراسات والأبحاث التي أنجزها مؤرخون ودارسون للمسرح العربي وبداياته، يقوم نعمان عاشور بتركيب وثائق عن مراحل نشأة المسرح العربي عبر صياغة درامية ومسرحية توثيقية عنوانها فجر المسرح المصري«يستحضر فيها رموز مرحلة الريادة التي عرفها المسرح العربي في الفترة الحديثة أمثال مارون النقاش وشقيقه سليم والقباني ويعقوب صنوع وغيرهم، ومن المؤكد أن هذه التجربة قد تغذت من التيار المسرحي الوثائقي الذي ظهر في ألمانيا مع مطلع القرن العشرين.

الكلمات المفتاحية: المسرح الوثائقي. نعمان عاشور. التسجيلي. بيتر فايس. هوخهوت. مسرح تقريري. الاسكتشات. سعد الله ونوس. سهرة مع أبي خليل القباني. التجريب. التأصيل.

### Summary:

The Egyptian playwright Naaman Achour, tent, in a historical documentary framework, to implement a unique experience of its kind that is setting the stage for various periods and stages experienced by the Arab theater and using experiments field of pioneers. Unlike the various works carried out by various researchers and specialists of the Arab theater, the Egyptian playwright prefers paper trail based on the staging of a play entitled «the dawn of Egyptian theater» which traces the period before garde contemporary Egyptian theater and particularly that of Ennaqach Maron and his brother Salim El Kebani and Yaakoub Sannoua to name them. Finally, what is of note is that this experience has been fueled by the current of documentary theater appeared in Germany in the early twentieth century.

issue: What are the basics and fundamentals that constitute

---

<sup>1</sup> أستاذ محاضر ب، كلية الآداب واللغات، جامعة البويرة.

the documentary play Dawn of Egyptian theater Naaman Achour?

**Keywords:** Documentary theater . Numan Ashour . Documentary . Peter Weiss . Hoxhot discovery, Sad Allah Wanous, experimental, registration, rooting.

تمهيد: شكلت محاولات التجريب في المسرح العربي في الفترة المعاصرة لازمة من لوازيم التغيير والتجديد على مستوى اتجاهات الكتابة المسرحية وكذا على مستوى العروض وطبيعتها التي تجسد بصورة حتمية الواقع العربي المير في ظل الشحنات السياسية والاجتماعية الغير مستقرة، وساعد على هذا التغيير الذي مس أكثر الجانبي المسرحي عامل الترجمة الذي يعتبر بمثابة القنطرة التي ربطت العالم العربي بالعالم الغربي وما يحدث فيه هو الآخر من تقلبات وتغييرات على مستوى الفن المسرحي، وقد بلغ تطور المسرح العربي المعاصر بالضبط في سنوات الستين، خصوصا عند ظهور جيل جديد من المترجمين احتكوا بمختلف الاتجاهات المسرحية العالمية بما فيها المسرح الوثائقي التسجيلي الذي ظهر في ألمانيا وأسس له الكاتب الألماني بيتر فايس«في السينيات من القرن العشرين.

- مفهوم المسرح الوثائقي (Le Théâtre documentaire): لقد كانت الانطلاقة الفعلية للمسرح الوثائقي في ألمانيا من خلال مؤلفات هوخهوت«في مسرحية النائب» سنة 1963، و كيمهارد«في مسرحيته قضية روبرت اوبنهايمر» سنة 1964، بيد أن مرحلة التنظير لهذا الاتجاه كانت على يد رائد المسرح الوثائقي بيتر فايس«الذي بلور جهود في محاضرة بعنوان المادة والنماذج: ملاحظات حول المسرح الوثائقي» ألقاها ببرلين سنة 1968م في حوار عن برينشت، وقد صاغ في هذه المحاضر أربع عشرة خاصية يقدم فيها مفهوما للمسرح الوثائقي، ويشرح سماته وخصائصه التي تميزه عن باقي الاتجاهات المسرحية المعاصرة لذلك فقد قدم مفهوما شاملا لهذا الاتجاه على لأنه مسرح تقريري، فالسجلات والمحاضر والرسائل و البيانات الإحصائية و نشرات البورصات والتقارير السنوية للبنوك والشركات الصناعية، والبيانات الحكومية الرسمية و الخطب والمقابلات والتصريحات التي تدلي بها الشخصيات المعروفة والريپورتاجات الصحفية والإذاعية، والصور و الأفلام و الشواهد الأخرى للعصر الحاضر هي التي تكون أساس العرض، فالمسرح التسجيلي يستوعب كل اكتشاف، كل مادة موثوق بها، ثم يعكسها مرة ثانية على المسرح بعد التعديلات اللازمة في الشكل، دون تغيير في المحتوى، و بخلاف المواد الإخبارية التي تتراكم علينا يوميا من جميع الاتجاهات، و التي تطرح عادة بشكل غير منظم، تتم على المسرح عملية الاختيار التي تركز على

موضوع معين، غالباً ما يكون موضوعاً اجتماعياً أو سياسياً. إن ذلك الاختيار الدقيق و الأسلوب الذي تتم به عملية توليف جزئيات الواقع، هما اللذان يحددان في النهاية نوعية الدراما التسجيلية (1)1.

وفي سياق آخر يقدم بتريس بافيس Patrice Pavis «في قاموسه المسرحي (Le Dictionnaire du théâtre) تعريفاً دقيقاً للمسرح الوثائقي من أنه مسرح لا يستعمل في نصه سوى وثائق ومصادر منتقاة و مركبة» وفق الأطروحة السوسيو. سياسية للكاتب المسرحي (2)2 فهو يغذي نصه ليس من واقعه فحسب بل باستحضار التاريخ أو الأرشيف الذي يدمجه في النص فيصبح جزءاً لا يتجزأ من العمل المسرحي.

أما المعاجم العربية التي تناولت مفهوم المسرح الوثائقي فأبرزها المعجم المسرحي لماري إلياس وحنان قصاب الذي قدم تعريفاً دقيقاً للمسرح الوثائقي (Le théâtre Documentaire) على أنه شكل من أشكال المسرح يقوم على حدث تاريخي أو سياسي أو اجتماعي أو واقعة ما في إطار درامي، ولذلك يطلق عليه أحياناً اسم مسرح الوقائع Théâtre des faits. يستند هذا الشكل المسرحي إلى الوثيقة الحقيقية كمادة أولية، ويكون العرض في هذه الحالة إعادة تمثيل لمراحل الحدث أو الواقعة على شكل إعادة ترتيب Montage لعدد من اللوحات أو الاسكتشات يشكل كل منها مشهداً مستقلاً، ويتركب المعنى في الحصيلة النهائية (3)3.

في الفترة الحديثة استثمر الكتاب المسرحيين العرب جهودهم في التأصيل للمسرح العربي والبحث عن بدايات الفن المسرح العربي عبر العصور والأزمنة، عن طريق التوثيق والتحقيق في مراحلهم ومحطاتهم، واستحضار سير رواد المسرح العربي من مارون النقاش «مرورا بأبي خليل القباني» ويعقوب صنوع «وغيرهم... هؤلاء كلهم كانوا أبطالاً لمسرحيات وثائقية وتسجيلية تستعرض حياة الفن المسرحي وتقدم الحقائق والدقائق في أسلوب درامي، لذا فإن أشهر هؤلاء الرواد الذين خاضوا غمار هذه التجربة سعد الله ونوس» في مسرحيته سهرة مع أبي خليل القباني، والكاتب المصري الرائد نعمان عاشور\*4 «في مسرحيته الوثائقية فجر

(1) بيتر فايس، مارا صاد وأنشودة غول لوزيتانا، ترجمة وتقديم: يسرى خميس، مجلة آفاق عالمية، العدد 38، 2004، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص 6

(2) PATRICE Pavis، Dictionnaire du théâtre. (Termes et concepts de l'analyse théâtrale). Edition sociale. Paris. 1980 p 408.

(3) ماري إلياس وحنان قصاب، المعجم المسرحي، ناشرون، لبنان، ط1، 1997، ص 520.  
\* (4) نعمان عاشور (1918. 1987): ولد بمدينة ميت غمر. بمحافظة الدقهلية. مصر عام 1918. اكتسب حبه وعشقه للمسرح وهو صغير من والده الذي كان دائم التردد على مساح عماد الدين بالقاهرة، وخاصة مسرح الريحاني، مما جعل نعمان عاشور يتأثر بكوميديا الريحاني الانتقادية الاجتماعية الساخرة، كان

المسرح المصري ، ونكتفي بدراسة النموذج الأخير.

- نعمان عاشور وقضية التأريخ للمسرح العربي : لا تزال عملية البحث والاستقراء عن جذور الفن المسرحي في التربة العربية مرتكزتا أساسا على ثانيا التراث الشعبي العربي القديم، وقد اتخذت العملية إطارا سوسيو ثقافي عن طريق ربط الظاهرة المسرحية بالأشكال الشعبية التي عرفها العرب منذ قديم الأزل، وهذه العملية التي سماها معظم رواد المسرح في الوطن العربي بـ «التأصيل» التي ادرجت فيما بعد ضمن الطرح التجريبي المسرحي بغية تأسيس مسرح عربي، غير أن بعض هؤلاء الرواد انحازوا الى زاوية تاريخية مختلفة الأهداف مبنية على دراسة تاريخية لمراحل نشأة وتطور الفن المسرحي العربي منذ القرن التاسع عشر» وذلك من خلال أعمال درامية تعيد استحضار رموز مرحلة الريادة، وتحاول مسرحية تجربتهم بشكل يخضعها للتأمل والتحليل (1)1.

إن اطلاع بعض رواد التجريب المسرحي العربي بمقومات المسرح الوثائقي، هو الأمر الذي أعطى لهم صبغة مختلفة تتمثل في الجمع بين حرفتين أحدهما التأريخ والثانية الكتابة الدرامية، وجمع هاتين الحرفتين يتشكل طابع آخر هو المؤرخ المسرحي ، وقد شق بعض رواد المسرح العربي من الجيل الحديث طريقهم عبر هذه الحرفة من تشخيص مسار الفن المسرحي في الوطن العربي انطلاقا من الرواد المؤسسين أمثال (مارون النقاش وأبي الخليل القباني ويعقوب صنوع)، ويعتبر المؤلف المسرحي المصري نعمان عاشور واحد من هؤلاء الرواد الذين ينتمون الى جيل الدراما الجديدة سرعان ما أعطى للمسرح العربي صبغة فنية ومسرحية

نعمان عاشور منذ طفولته مغرما بالإطلاع والقراءة، ولعل الحظ أتاح له من خلال امتلاك جده لمكتبة ضخمة تضم العديد من المؤلفات في مختلف العلوم والميادين من كتب التاريخ والأدب والدين وغيرها، فأخذ نعمان يهمل من هذا المعين الذي لا ينضب، مما أثرى -ولا شك - من معارفه وصقل ثقافته وهو في سن مبكرة.

كتاباته المسرحية: تنقسم أعمال نعمان المسرحية إلى مجموعتين أساسيتين: المجموعة الأولى: وتظم عشرة مسرحيات قامت على الطابع النقدي الاجتماعي الواقعي: (المغماطيس) (1955)، الناس اللي تحت (1956)، الناس اللي فوق (1957)، عفاريت الجبانة (1957)، عيلة الدوغري (1962)، بلاد بره (1967)، برج المدايع (1975)، إثر حادث أليم (1985)، سينما أونطة (1958)، جنس الحريم (1959)، وفيها تصوير جزئي وليس شامل للحركة الاجتماعية الرئيسية في مصر، والمجموعة الثانية: وتظم تسع مسرحيات منها أربع مسرحيات وثائقية تسجيلية هي: (وابور الطحين) (1966)، الجيل الطالع (1972)، ثلاث ليال (1966)، بشير التقدم أو رفاة الطهطاوي (1974)، لعبة الزمن أو شهرزاد (1980)، حملة تموت ولا شعب يموت (1987)، مسرح صنوع موليير مصر، فجر المسرح المصري، المويلعي وحديث عيسى ابن هشام (1986)، بالإضافة إلى كتابين فهما تنظير مسرحي الأول عنوانه المسرح حياتي. والثاني المسرح السياسي.. (1) حسن يوسف، المسرح والمرابا (شعرية. الميثامسرح. واشتغالها في النص المسرحي العربي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، من موقع: [www.unecma.net](http://www.unecma.net)، ص 166.



متمردة على الدراما الكلاسيكية.

### أسس المسرح الوثائقي في المسرحية

1. التوثيق على مستوى الأحداث: المسرح الوثائقي اتجه يقوم على توظيف الوثائق الحية التي لا تقبل الشك، كما أن أي كاتب يخوض غمار الكتابة في المسرح الوثائقي فإنه لا مجال يملك الجرأة على تقديم ومعالجة مجموعة قيمة من الوثائق والحقائق، عبر عملية محكمة من البحث والتقصي وجمع للوثائق الحقيقية، كما هو معروف عند المنظر بيتر فايس«عندما أقدم على كتابة مسرحيته الوثائقية ماراصاد» اطلع كثيرا على أرشيف الثورة الفرنسية، كما أنه كان يحضر محاكمة بعض مجرمي النازية في فرانكفورت طيلة عام 21، وكما فعل أيضا في مسرحيته أنشودة غول لوزيتانيا» حيث تناول المشكلة من جوانب متعددة منها تاريخ أنجولا قبل وبعد الاستعمار البرتغالي، بمبرراته من وجهة نظر البرتغال بتاريخ أنجولا وبتصرفاته وأهدافه، شعور المواطن العادي تجاه المستعمر الأبيض، حتى يقتنع المتفرج بوجهة نظره فلا بد له أن يعتمد على وقائع وأحداث لا تقبل الشك (1)2.

تجلت معالم التوثيق في مسرح نعمان عاشور ليس فقط في هذه المسرحية، بل في أول محاولاته انطلاقا من مسرحيته التسجيلية الطهطاوي أو بشير التقدم» سنة 1977 بالتقريب وقد تناول سيرة رفاة الطهطاوي رائد الترجمة في الوطن العربي في فترة النهضة العربية، وهنا استحضرت مجموعة من الوثائق والحقائق التاريخية عن حياة الطهطاوي في مقتطفات تضمنت علاقته بشيخه حسن العطار، ثم حياته في باريس وبعد عودته، وبداية نشاطه في حماس أين طلب من محمد علي السماح له في انشاء أول مدرسة للترجمة في مصر، ثم إشرافه على تحرير مجلة الوقائع المصرية، بعدها جاء الأمر من عباس الأول يقضي بغلق المدارس الترجمة، ونفي الطهطاوي إلى السودان... 3 24 (إلى غير ذلك من الأحداث والوقائع الحقيقية التي توقف عندها نعمان عاشور بتمعن، بعد هذه المسرحية تبعتها مجلد آخر سماه (من الدراما الوثائقية) سنة 1986 وفيه جمع باقي مسرحياته التسجيلية والوثائقية (مسرحية يعقوب بن صنوع مؤلّيف مصر، مسرحية فجر المسرح المصري وهي نموذج الدراسة في بحثنا هذا، وختم المجلد بمسرحية المويلحي

(1) ينظر: إبراهيم وطفى، ثلاثة كتاب من الألمانية بيتر فايس. هاينر كيهارت. مارتن فالز، ترجمة واعداد: إبراهيم وطفى، ط1، 2000، ص52.

(2) عبد العزيز حمودة، المسرح السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب ط، 1971، صفحة المقدمة ح.و.

(3) حسن يوسف، المسرح والمرآيا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دط، دت، ص 166. 167.

(4) ينظر: فاروق عبد القادر، رؤى الواقع وهموم الثورة المحاصرة (دراسات في المسرح المعاصر)، دار الأدب بيروت، ط1، 1991، ص112.

وحديث عيسى بن هشام).

يتبدى الجانب الوثائقي في مسرحية فجر المسرح المصري من خلال تركيب وثائق تعود في مجملها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر من ضمنها خطب ومذكرات ومقالات صحفية ونصوص تاريخية ومحاضرات وإعلانات وأغاني، صاغ مسرحية تقوم بمسح شامل لتجربة الرواد الأوائل في المسرح العربي (3)1 وتجلى ذلك في الشخصيات التي تناولها: مارون النقاش وشقيقه نقولا، ثم سليم النقاش، وأبو خليل القباني، يعقوب صنوع، عبد الله النديم واسكندر فرح، وكل هذه الشخصيات حقيقية قد شهد التاريخ بدورهم في التأسيس للمسرح في الوطن العربي، أما على مستوى أحداث المسرحية فالكاتب قد حدد زمن وقوعها على لسان الراوي «بدأت بزمن أول محاولة مسرحية قدمها مارون النقاش سنة 1947 :

الراوي: نحن في عام 1847.. وقد عاد إلى بيروت أحد تجارها النوابغ.. التاجر الشاعر مارون النقاش.. عاد بعد رحلة عامين طويلين في دراسة لأسواق المدن السورية حلب ودمشق وغيرها.. تصاحبه رغبة جامحة في التزود بمعارف عدة.. عن اللغات والفنون والموسيقى.. أدت به إلى أن يعبر البحر حتى الاسكندرية والقاهرة ثم يحط الرحال في ايطاليا.. (2)1

في هذه الفترة يلجئ نعمان عاشور إلى تبرير أحداث مسرحيته والتوثيق لها من خلال الصحف والمجلات وأبرز مثال وارد على هذا النحو الخبر الذي تناولته جريدة الأهرام\* (العدد 2219 بتاريخ 26 من ديسمبر 1899)\*\* عن أول عرض مسرحي لفرقة اسكندر فرح بعنوان مطامع النساء» في سنة 1899، وقد ذكره الدكتور محمد يوسف نجم» في كتابه المسرحية في الأدب العربي الحديث 1847 . 1914» وهو يتحدث عن الرائد المسرحي اسكندر فرح : في أواخر سنة 1899، هدم مسرحه، وبني مكانه مسرحاً جديداً... وقد أوردت الأهرام خبر هذا المسرح الجديد قالت:

مثلت في ليلة الأحد الماضي رواية مطامع النساء» في الملعب الجديد بشارع عبد العزيز، لحضرة الأديب اسكندر أفندي فرح. أما الملعب فعلى ما يرام في النظام

(1) حسن يوسف، المسرح والمرايا، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دط، دت، ص 166. 167.

(2) نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، من الدراما الوثائقية . الهيئة المصرية العامة للكتاب 1986، ص 81.  
\*: تعد جريدة الأهرام المصرية المتبعة للأحداث الفنية في مصر أثناء المراحل الأولى للنشاط المسرحي خاصة مع محاولات الخديوي اسماعيل لإدخال الفن المسرحي في مصر.  
\*\*: ورد هذا العدد في هوامش كتاب . المسرحية في الأدب العربي الحديث . ليوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، دط، 1999 ص 133.

والانتقان، وقد أعدت فيه المجالس النظيفة اللائقة لأكرم العائلات، وزينت جدرانها بالزخارف والرسوم، وأنير بالأنوار الكهربائية، وتوفرت فيه المعدات التي تقر بها الأبصار. وأما الجوق فقد أجاد التمثيل فسر الحضور الكثيرين، وحملهم على التصفيق لهم مرارا وكان حامل العلم حضرة المطرب الشهير والممثل البارع الشيخ سلامة حجازي الذي أحرز قصب السبق في هذا الفن. (1)1

ومن جهة المسرحية فالمقال جاء على لسان الروائي «أين تحدث عن مرحلة فرقة اسكندر فرح» المسرحية وتقديم أول عرض لها بعنوان مطاعم النساء 22.

يظهر أن نعمان عاشور قد جمع كامل مادته الوثائقية في هذه المسرحية وبشكل كبير من الجرائد والمجلات، لأنها من الوسائل الإعلامية التي كانت منتشرة بشكل كبير آنذاك، كما أنها تتميز بإصرارها على نقل الأحداث بشكل يومي وسريع، ولم يكتفي فقط الكاتب بجريدة الأهرام بل أورد بعض الأحداث من مجلة الجنان «البيروتية التي كانت تعني بفن التمثيل وقد نشر فيها سليم النقاش بعض المقالات حول فن التمثيل وفرقة مارون النقاش، التي تناولت فترة من فترات رحلة سليم النقاش بفرقة التمثيلية التي واصل إدارتها بعد وفاة عمه مارون النقاش، والكاتب أخذ مقتطفاً يشمل حديث سليم النقاش ووصفه لمعاناته المادية في لبنان أثناء تأسيس فرقة مع عمه مارون في مشهد يوحى باليأس والتذمر:

سليم يروي: ولما كانت وسائط بلادنا قاصرة على انجاح مطلبي طمحت أفكارني إلى معالجة مقصدي في غيرها... وإذ كنت أسمع بما نال مصر من رفعة الشأن بين الأنصار إذ فاقت ما سواها من الأقطار الشرقية في التهذيب والتمدن ونجحت نجاحاً عظيماً في المعارف والعلوم.. قصدها.. (3)3

إنه درب من المدح يمدح به سليم النقاش «مصر وحكامها وشعبها الذين استقبلوه وأهبروا بفرقته، ورحبوا بمسرحياته أحسن الترحيب، خاصة كما جاء على لسان الروائي في المسرحية وأن الخديوي اسماعيل قد بدأ بإدخال الفنون الأوروبية إلى البلاد.. عملاً بخطته الماثورة في أن يحيل مصر إلى قطعة من أوروبا.. فاتحة أول ما اتجه إلى أبرز المعالم التي لمسها في الحضارة الأوروبية.. وهي فنون المسرح على اختلافها. (1)4

(1) محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، المرجع السابق، ص128.

(2) ينظر: نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص126.

(3) المصدر نفسه، ص94.

(4) فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص94.

والحوار الأول لسليم النقاش استدلل به يوسف نجم<sup>21</sup> في كتابه السابق وأشار إلى أنه نشر في مجلة الجنان سنة 1875، الصفحة 521. 32

2. الالتزام: يشكل الالتزام قاعدة أساسية يسير وفقها الكاتب بكل احترام وحرص، وقد ركز عليها بيتر فايس«من خلال ملاحظاته حول المسرح الوثائقي، وصفة الالتزام في المسرح الوثائقي لا تقيد حرية الكاتب في استخدام المادة الوثائقية لكن الحرية التي يتمتع بها كاتب المسرح التسجيلي في الافادة من كل المصادر، واستخدام كل التكتيكات، واختصار الزمان والمكان(أو الكتابة على بعدين فقط)، إنما يقابله التزام ثقيل، فهذا مسرح طموح (4)3.

كما بدا اهتمام نعمان عاشور في مسرحيته الوثائقية فجر المسرح المصري واضحا بالقضايا الفنية والمسرحية العربية، وهذه صورة من صور الالتزام من خلال رصده لمختلف المحطات التي مر بها الفن المسرحي في التربة العربية، وقد ربط هذه المحطات المختلفة بكل الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية التي خاضها الرواد الأوائل انطلاقا من تجربة مارون النقاش البسيطة، وتلته تجربة شقيقه نيقولا النقاش وسليم النقاش .

ارتبطت قضية الالتزام عند نعمان عاشور بمقتضيات النهضة العربية خاصة في المجال الأدبي والمسرحي، إنه يحاول أن يسجل الحدث المسرحي العربي منذ بداياته على أنه من أهم وأكبر الأحداث النهضوية في العالم العربي الحديث، وذلك عبر وضع تجربة الرواد في سياقها التاريخي عبر صياغة وثائقية تركيبية، وما يعبر عن هذا الموقف في المسرحية تصريح مارون النقاش رائد المسرح العربي على أن تجربته في الفن المسرحي كانت الأولى من نوعها في المشرق العربي:

مارون: أرجوكم .. يا أولادي.. يا أحبابي.. يا تلاميذي .. أنها ستكون أول شيء من نوعه في بلادنا الشرقية... (1)4

ومن جهة أخرى يحاول نعمان عاشور تسليط الضوء على جملة من الأحداث السياسية التي لها علاقة برجال الحكم، حيث قدم الكاتب المسرحية من منظور سوسيو .سياسي أثناء ربط أحداث نشأة المسرح في الوطن العربي برد فعل الولاة ورجال الدولة آنذاك، حيث أن أهم الرواد المسرحيين الذي تناولهم الكاتب قد تعرضوا للمضايقات والرقابة من قبل السلطة وبعض المشايخ :

(1) ينظر: يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث، المرجع السابق، ص 94.

(2) ينظر المرجع نفسه، ص 102.

(3) فاروق عبد القادر، رؤى الواقع.. وهموم الثورة المحاصرة، المرجع السابق، ص 117.

(4) نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 82.

نقولاً: وبماذا تنصح!! وقد بدأ اللغظ من حولنا في كل مكان عنها...

.سليم: أنا في نفسي الحيرة.. كان يكفيننا أن نجاهد بجمهور قليل.. ولكن مما يزيد الطين بلة.. أن يجهز بعض الناس بأننا إنما نقدم في المسرح ما يخدش الحياء أو يعيب حكم الخلفاء..

(...)

نقولاً: الوالي العثماني يحاربي.. ويسد علي المسالك في رزقي بسبب اشتغالي وتكفلي بمتابعة شؤون المسرح أنا وبقية العائلة بعد عمك.. (2)1

لم يكن التزام نعمان عاشور بقضية النهضة المسرحية في مصر والوطن العربي نابعا من كونه أحد أعمدة المسرح المصري الحديث فحسب، بل والأجدر بذلك أنه يحس بواجبه نحو الحفاظ على التراث المسرحي من أول شرارة وذلك بنفض الغبار عن كل حقيقة تاريخية للمشوار الفني الذي عني به كبار الفن في عصر النهضة العربية من خلال تتبع سيرتهم بالدقة والتفصيل، وكان التوثيق من أهم آلياته، هذه من أساسيات الاتجاه الوثائقي كما سبق وأن تحدث عنها بتريس بافيس Patrice Pavis في معجمه المسرحي أثناء تعريفه للمسرح الوثائقي: هو مسرح لا يستعمل في نصه سوى وثائق ومصادر أصلية منتقاة و مركبة«وفق الأطروحة السوسيو .سياسية للمسرحي (3)2، لهذا فنعمان عاشور اعتمد على تقنية التوثيق والتمسرح من منطلق اجتماعي سياسي وكانت النتيجة أن قدم المسرحية الوثائقية في اطار فني وثقافي.

من زاوية أخرى فقد ارتبطت قضية الالتزام في هذه المسرحية بمظاهر التأصيل المسرحي المتمثلة في«استقراء تجربة رواد المسرح العربي، وقراءة منطلقاتها ومساراتها ومعوقاتها... إلى جانب الدراسات والأبحاث التي أنجزها مؤرخون ودارسون للمسرح العربي، عكس الإبداع المسرحي نفسه، هذا الاهتمام بذاكرة هذا المسرح (1)3

3.جمالية السرد والتشخيص: لابد لعملية التأريخ أن تتخذ نمطا وأسلوبا معيناً في توضيح القضية التاريخية وفق وسائل أساسية، وعنصر السرد من أهم الوسائل التي يقوم عليها التأريخ، وبما أن طبيعة المسرحية الوثائقية فجر المسرح المصري«تقوم على استحضار للأحداث التاريخية التي ساعدت على قيام المسرح العربي في اطار درامي، فقد عمد نعمان عاشور الي عنصر السرد من أجل

(1) المصدر نفسه، ص 89.

(2) Patrice Pavis . Dictionnaire du Théâtre . p.408.

(3) حسن يوسف، المسرح والمرآيا، المرجع السابق، ص 166.

تقديم صورة واضحة عن سيرة المسرح العربي مروراً بالمسرح المصري مع المزج بين الحكيم وتقصي الأحداث عن طريق ادراج شخصيات حقيقية تجسد أدوارها بصورة درامية.

يقترب نعمان عاشور في لجوءه لتقنية السرد الى المسرح الملحمي وهنا تكمل مواطن التداخل مع وسائل المسرح الوثائقي بحيث تضيف إليه جانباً من الجمالية، كما يعد السرد من أهم الوسائل التي يبنى عليها الجنس الروائي، ولا بد من أن الهدف الذي يسعى إليه نعمان عاشور من خلال اعتماده على عنصر السرد في مسرحيته هذه وبصورة جزئية هو خلق جانب من الجمالية في خطابه المسرحي يغطي بها الأحداث الحقيقية من خلال استقراء الوثائق المتنوعة «فمما لا شك فيه أن الدراما الوثائقية تفترض بطبيعتها تمفصلاً نصياً قائماً على أساس جمالية الانفصال؛ وهو تمفصل تمليه عملية تركيب الوثائق المختلفة. لذا، فإن نعمان عاشور حرص على ترجمة هذه الجمالية سردياً وتشخيصياً، وذلك حتى تتحول عملية التأريخ إلى عملية مسرحية (2)1، ويعيداً عن الحكاية المتخيلة يستخدم نعمان عاشور شخصية الراوي» الذي نظم أحداث المسرحية وفق تسلسل زمني منضبط دون تزوير للوقائع والحقائق، والراوي يلعب في المسرحية دور المؤرخ الذي يسرد واقع المسرح العربي من نشأته الى أن ترست جذوره في الوطن العربي، فهو يقدم في بعض الأحيان معطيات تفيد إضاءة لبعض الأحداث مثل الموقف الذي استهل به المسرحية فترة بداية الشرارة الأولى للمحاولة المسرحية عند مارون النقاش:

الراوي: نحن في عام 1867.. وقد عاد إلى بيروت أحد تجارها النوابغ..  
التاجر الشاعر مارون النقاش .... (2)1.

يصرح الراوي عبر وثائق تاريخية محكمة عن أن الانطلاقة الفعلية للفن المسرحي في البيئة العربية كانت سنة 1847، وهو حدث تناولته كل الدراسات والبحوث الخاصة بنشأة المسرح العربي في العصر الحديث، بالإضافة الى تحديد المكان الذي انطلقت فيه أول محاولة مسرحية وبالضبط في بيروت. لبنان، وفي موضع آخر في بداية المسرحية يحكي الراوي عن رغبة مارون النقاش» في التعريف بأهمية الفن المسرحي ليس للجمهور اللبناني فحسب بل حتى للنخبة الحاكمة، من هنا حدد نعمان عاشور على لسان الراوي الزمن بالتحديد:

(1) م ن، ص 170.

(2) نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، ص 81.

الراوي: وفي عام 1849.. بعدها بعامين .. انتهز مارون فرصة وجود نخبة من رجال الدولة العثمانية في بيروت .. فدعاهم مع قناصل الدول .. ورجال البلدة إلى مشاهدة مسرحيته الجديدة في بيته .. وكان اسمها أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد .. (2)1

ومن زاوية أخرى يتدخل الراوي للإعلان عن نهاية مرحلة رائد مسرحي وبداية أو تتابع مرحلة أخرى لرائد آخر:

الراوي: ومات مارون.. لكنه مات بعد أن وضع البذرة الأولى، وبعد أن ترك للمسرح تلاميذا يحملون رسالته .. وأولهم شقيقه .. ومن بعده ابن شقيقه سليم النقاش ... (3)2

الملاحظ أن طبيعة النص المسرحي الوثائقي الذي يقدمه نعمان عاشور تتسم بأسلوب التلخيص الذي نجده في المجال السردي الروائي، وذلك من خلال ثنائية الاختزال والتكثيف لأن عنصر السرد هو الذي يغطي الكثير من الوقائع والأحداث ويحيط بمراحل مهمة في تاريخ المسرح العربي، وهذه هي المهمة الجزئية لعنصر السرد في المسرحية، أما الجزء الثاني الذي يشمل التشخيص فيشمل مختلف التعليقات والأحكام التي يوثق لها الكاتب ويراها مناسبة مع طبيعة الحدث، وأثناء عملية المزاجية بين العنصرين (السرد والتشخيص) تتضح معالم البعد الجمالي الخاصة بالتأريخ للمسرح.

-التناوب: تقوم هذه التقنية في المسرح الوثائقي على كسر عمودية الزمن، وتتجسد أهميتها في الوقفات التي تحدثها بفعل الانتقال من قصة إلى أخرى قبل اكتمالها، حيث يتخلخل الزمن جراء العودة إلى القصة الأولى لاستكمالها، أو الاستمرار فيها زمنا ثم العودة إلى القصة الثانية، بمعنى سرد قصتين في آن واحد بالتناوب مع التخلي عن إحدى القصتين عند حد معين، لتستأنف القصة الأخرى عبر عملية متكررة إلى نهاية القصتين.

اتخذت عملية المزاجية بين عنصري السرد والتشخيص في المسرحية شكلا تناوبيا ساهم في إحداث جانب من التداخل بين العنصرين «بشكل يشغل آلية التشويق ويدفع إلى انتظار المزيد من الوقائع المتصلة بفجر المسرح العربي (1)3، ويمكن تقديم أمثلة عديدة من المسرحية تبين جانبا من جوانب التناوب، فنجد مثلا الموقف الذي يعلن فيه الراوي نهاية مرحلة الرائد المسرحي مارون النقاش عن

(1) م ن ، ص 84.

(2) م ن، ص 88. 89.

(3) حسن يوسف، المسرح والمرآيا، المرجع السابق، ص 171.

طريق سرد الجهود المسرحية التي قام بها مارون النقاش سنة 1853 حيث ختمها بتقديم آخر مسرحياته بعنوان «الحسود السليط» ، بعدها يطلق الكلام إلى سليم النقاش الذي يعيد قصة عمه مارون النقاش وما عاناه من أعباء ومشاكل في مشواره المسرحي عبر عنصر التجسيد والتشخيص:

- الراوي: وبعد هذه المسرحية وبعد ما رآه مارون من التشجيع حصل على فرمان عال بإنشاء مسرحه الذي أقيم بجوار بيته خارج السور.. وقد تحول هذا المسرح بعد وفاته إلى كنيسة. ولكنه قدم عليه قبل أن يموت، مسرحيته الثالثة والأخيرة.. الحسود السليط» وعرضها على جمهور واسع من المشاهدين وهي مسرحية اجتماعية عصرية.. وكان ذلك عام 1853.. وأدخل فيها مارون على عاداته بعض الألحان الملائمة لمواقفها ليجتذب بها الناس إلى المسرح.. يقول سليم النقاش.. ابن أخيه الذي حمل رسالته من بعده..

.سليم: لا حاجة إلى ذكر ما تكبده المرحوم عمي مارون النقاش من المصاعب والمتاعب حتى حمله الاعياء إلى القول في إحدى رواياته.. إن دوام هذا الفن في بلادنا أمر بعيد.. ذلك أنه رأى بعد تجربة التمثيل وسط عموم المشاهدين عدم ميل أبناء وطنه إلى هذا الفن المفيد نظرا لعدم معرفتهم بمنافعه فقد كان يقدم لهم الروايات الأدبية.. فاضطر إلى أن يزيدا فكاها فجعل الرواية الواحدة.. شعرا ونثرا وأنغاما حتى يقبل عليه العامة والخاصة (1)1.

من هذا المشهد تتمظهر بشكل جلي العلاقة التداخلية بين سرد الراوي لأحداث يعلن فيها عن نهاية مرحلة حاسمة من الريادة المسرحية، ثم يطلق العنان لشخصية سليم النقاش» بعد ما أحال إليه الكلمة ويقدم قصة سابقة لمعاناة عمه مارون» بأسلوب التشخيص، وبالتالي يتشكل التناوب الناتج عن عملية التداخل بين السرد والتشخيص.

.الأساليب الوثائقية في المسرحية :

- كسر الإيهام المسرحي: يندرج أسلوب كسر الإيهام في المسرح الوثائقي في الجانب التمثيلي، حيث سعى بيتر فايس» من خلال ملاحظاته حول المسرح الوثائقي إلى تحطيم الإيهام المسرحي من أجل إشراك الجمهور في العرض المسرحي ودفعه نحو الوعي واليقظة، وهذا الأسلوب منبعت من الاتجاه البريختي الذي حرص على دور المتلقي في العملية المسرحية، على عكس الأسلوب المسرحي الأرسطي الذي يسعى إلى ادماج الجمهور في العرض الأمر الذي يدفعه إلى التطهير

(1) نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، م س، ص 88.



من الشفقة والخوف، ولتحقيق هذا الأسلوب في المسرح الوثائقي لا بد من الاستعانة ببعض الوسائل التي تدفع المتلقي في المشاركة الفعالة في الأحداث أهمها:  
- الاستهلال **Prologue**: وتقوم على مواجهة الشخصية للجمهور للإعلان منذ البداية على أن ما يشاهده ليس واقعا، وإنما هو عرض مسرحي حتى يضمن للمتلقي مشاركة فعالة ذهنية ووجدانية.

من خلال مسرحية فجر المسرح المصري نجد أن أسلوب الاستهلال قد ظهر في شخصية الراوي من خلال تدخلاته المتكررة من أجل الاعلان عن بداية ونهاية مرحلة تاريخية في مسار المسرح العربي، والراوي هنا في مواجهة للجمهور لسرد الوقائع والأحداث، وقد بدأ الكاتب مسرحيته بمقدمة استهلاكية على لسان الراوي يحكي فيها رحلة رائد المسرح العربي مارون النقاش «في البلدان الأوروبية التي منها عرف الفن المسرحي وأراد نقله إلى التربة العربية، وظهور الراوي لسرد الأحداث والتعليق عليها من أساليب كسر الإيهام والهدف هو تعميق وعي المتفرج بما يحدث فوق الخشبة، بالإضافة الى تقطيع المسرحية إلى أجزاء تحتفظ كل واحدة باستقلاليتها، وبالتالي عدم انسياق المتفرج مع موجة الوهم المسرحي:

**الراوي:** في عام 1847.. وقد عاد الى بيروت أحد تجارها النوابغ .. التاجر الشاعر مارون النقاش .. عاد بعد رحلة عامين طويلين في دراسة لأسواق المدن السورية حلب ودمشق وغيرها .. تصاحبه رغبة جامحة في التزود بمعارف عدة .. عن اللغات والفنون والموسيقى .. أدت به إلى أن يعبر البحر حتى الاسكندرية والقاهرة ثم يحط الرحال في إيطاليا.. (1)

لم يكتفي الكاتب في جعل شخصية الراوي هي الوحيدة في مواجهة الجمهور، وإنما حتى الشخصيات الرائدة أدت جانبا من الاستهلال، حيث تباشر الجمهور في عملية سرد الأحداث، فعندما تقدم الراوي في الحديث عن أول عرض مسرحي في تاريخ المسرح العربي بعنوان البخيل، يحيل الكلمة إلى نقولا «الذي يحدث الجمهور عن الطبيعة الفنية للمسرحية والأسلوب الذي نهجه مارون عند اقتباسه للمسرحية:

**الراوي:** وفي اليوم التالي.. قدم مارون النقاش بمصاحبة أخيه نقولا .. وبقية تلاميذه أول مسرحية في تاريخ المسرح العربي الحديث .. أخذها عن مسرحية موليير البخيل .. اقتبسها اقتباسا .. فغير من أسماء الأشخاص .. وبدل في كثير من المشاهد.. والتزم في كتابتها أسلوبا شعريا كانت الركافة فيه واضحة .. وعلى حد قول

(1) نعمان عاشور، فجر المسرح المصري، ص 81.

شقيقه نقولا.

- نقولا: لم يدقق مارون على ضبط الكلام العربي في الرواية بل التفت إلى المعنى فقط. وهو يعذر عن ذلك فقد كان يقصد بها أن يعطي للآخرين جرأة ليؤلفوا في هذا الفن الذي جاء به ..(1)1

ثم مباشرة يعود الراوي ويواصل حديثه عن مارون النقاش «بعد عامين من عرض مسرحية «البخيل في بيته».

## 2. الوسائل:

2 1: الوثائق والإحصاءات: تعتبر الوثائق والحقائق المتنوعة من الاحصائيات والمحاضرات والخطب والمقالات واللقاءات من أهم وسائل المسرح الوثائقي من حيث أنها المادة الخام التي ينطلق منها الكاتب في بناء وترتيب أحداث مسرحياته الوثائقية، وقد أكد بيتر فايس في ملاحظاته حول المسرح الوثائقي عن أهمية المادة الوثائقية في اضافة جانب كبير من المعقولية والدقة التاريخية، كما أن عملية جمع ومعالجة المادة الوثائقية ليس بالأمر اليسير لأنها تمر بعدة مراحل شاقة في البحث والتقصي، ثم إعادة بناءها بالشكل المسرحي الذي يناسب مع أسس الاتجاه الوثائقي والتسجيلي.

وقد درج رواد المسرح الوثائقي على جمع الوثائق والحقائق والشهادات الحية التي لا تقبل الشك، تماما كما فعل بيتر فايس «عندما قرر كتابة مسرحيته «ماراصاد قرأ الكثير عن الثورة الفرنسية، بالإضافة إلى مداومته على حضور جلسات محاكمة بعض مجرمي النازية في فرانكفورت طيلة عام<sup>(2)</sup>، ونفس العملية مع مسرحيته الأخرى «أنشودة غول لوزيتانيا حين تطلب الأمر منه أن يلم بالمشكلة من جميع جوانبها: تاريخ أنجولا قبل وبعد الاستعمار البرتغالي، بمبرراته من وجهة نظر البرتغال بتاريخ أنجولا وبتصرفاته وأهدافه، شعور المواطن العادي تجاه المستعمر الأبيض، حتى يقنع المتفرج بوجهة نظر فلا بد له أن يعتمد على وقائع وأحداث لا تقبل الشك (3) .

اعتمد نعمان عاشور في إعداد مسرحياته الوثائقية التي جمعها في سلسلة أعماله الكاملة «من الدراما الوثائقية (مسرح يعقوب صنوع مولير مصر، فجر المسرح المصري، المويلحي وحديث عيسى بن هشام)، على مجموعة من الوثائق التي

(1) فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص84.

(2) ينظر: إبراهيم وظفي، ثلاثة كتاب من ألمانيا، المرجع السابق، ص52.

(3) عبد العزيز حمودة، المسرح السياسي، المرجع السابق، صفحة المقدمة ح.و.

تضمنت أعمالاً ونصوصاً خاصة برواد المسرح العربي ومقالات في الصحف والمجلات أهمها:

مارون النقاش وكتابه «أرزة لبنان \* الذي ألفه سنة 1869، وفيه تحدث مارون عن قصته مع المسرح والتمثيل، وقد أورد منه نعمان عاشور الكثير من النصوص والمقولات جاءت على شكل حوارات لشخصياته، وأبرز مثال على ذلك هذا الحوار الذي أطلقه مارون النقاش يصف فيه مسرحيته الأولى «البخيل» كما أنه دلالة على مدى فهم مارون للفن من خلال إدلائه بأراء حول فن التمثيل والإخراج:

مارون: إن طلاوة الراوية ورونقها وبديع جمالها كما نوهنا يتعلق بثله بحسن التأليف.. وثلثه ببراعة المشخصين.. والثالث الأخير بالمحل اللائق والطواقم الملائمة (1)...

هذا الحوار مأخوذ من كتاب مارون النقاش أرزة لبنان» الذي يشمل مجموعة من الآراء التي يبديها الكاتب حول الفن المسرحي وعناصر العرض من تمثيل وغناء، وقد وردت هذه المقولة في الصفحة 24 من الكتاب) 2.

وفي نفس الحديث من المسرحية يواصل مارون النقاش حوارته الذي يعتبر في الأصل رأي الرائد في كتابه «أرزة لبنان لكن في الصفحة 1325، حيث أخذ الكاتب نعمان عاشور النص الثاني إلى النص الأول ليبني بذلك حوارات لشخصياته المسرحية على هذا النمط.

- مجلة الجنان البيروتية سنة 1875 التي نشر فيها مقالاته المعنونة بفوائد الروايات أو التياترات جريدة الأهرام المصرية 1876. 1877. أما على مستوى الاحصائيات التي تدخل في عملية التوثيق عن طريق الأرقام والنسب والسنوات التي توثق للنشاط المسرحي العربي، فقد وردت في المسرحية وقامت بإحصاء عدد

\* أول كتاب مسرحي مطبوع في العالم العربي، حيث تم طبعه في عام 1869 ببيروت. وهذا الكتاب تم طبعه في نسخ محدودة للغاية والدليل على ذلك أن الكتاب تم تجميعه من قبل نقولا نقاش الأخ الأصغر لمارون كي يهديه إلى نصر الله فرانكو أمير جبل لبنان، لأن هذا الأمير أراد الاطلاع على الحياة وفن مارون، وقد أعاد يوسف طباعة الكتاب سنة 1961 في بيروت لكن ليس في صورته الأصلية، بل نشر فقط المسرحيات الثلاث وهي (البخيل . أبو الحسن المغفل . السليط الحسود) وقدم لها مقدمة تتحدث عن أسباب عدم إقبال العرب على فن المسرح كإقبال الدول الغربية، والحديث عن الكوميديا والدراما والتراجيديا والأوبرا، والتشجيع على النقد المسرحي وغير ذلك. ينظر: سيد علي اسماعيل، مارون النقاش العائد إلى الحياة في المركز القومي للمسرح، جريدة المسائي، العدد 2242، السنة السابعة، 16 جوان 1997، الأهرام، ص 14.

(1) فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 83.

(2) م ن، ص 106. 107.

(3) فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 25.

الأعمال المسرحية التي قدمها رواد المسرح العربي، ويبرز هذا الأمر في الموقف الذي يخاطب فيه يعقوب صنوع الجمهور عن مشواره المسرحي:

صنوع: وفي العام التالي .. أتوخيا الدقة .. بعد تمثيل أكثر من مائتي مرة أمام الجمهور .. طلب الخديوي أن أمثل ثلاث روايات أخرى على مسرح الكوميدي الفرنسية بالقاهرة... (1)

وهنا دلالة على التجربة والموهبة التي يمتلكها يعقوب صنوع في فن التمثيل. من جانب آخر يتدخل الراوي ليعلن عن عدد العروض المسرحية التي قدمها ومثل فيها رائد المصري يعقوب صنوع خلال موسمين:

الراوي: فكأن مسرح صنوع لم يعيش غير موسمين اثنين .. قدم عليه الشيخ أبا نظارة خلالهما مائة وستين حفلة تمثيلية ... ومثل اثنتين وثلاثين مسرحية .. كتبها بنفسه .. وكان من بينها الهزلية .. (2) .

2. 2. الصحافة المكتوبة والمقابلات الصحفية: تشكل الصحف والمجلات والمقابلات الصحفية جانباً مهماً في المسرح الوثائقي كونها تضيف للعمل المسرحي جانباً من المصداقية والشفافية، وهي تدخل في مجال الوسائل الإعلامية التي تحدث عنها بيتر فايس<sup>2</sup> في ملاحظاته عندما عرف المسرح الوثائقي على أنه مسرح تقريبي، لأنه يستعين بهذه الوسائل من حيث أن المسرح الوثائقي يمارس النقد ضد التمويه الذي تمارسه وسائل الإعلام التي تعكس وجهة نظر الفئة المنتفعة، وانطبق هذا المفهوم في المسرحية في جانب معين، أين تحاول بعض الجرائد القريبة من نظام الحكم المصري آنذاك السخرية من نشاط بعض الرواد المسرحيين وذلك بمقارنة جهوده المسرحية مع المسرح الأوروبي المزدهر والناضج:

التلميذ: في العام الماضي .. قالت جريدة ليجيبت .. (لاشك أن قراءنا الأوروبيين .. الذين ألفوا مشاهدة أروع آثار الفن المسرحي .. قد يبتسمون لسذاجة الأساليب التي يعمد إليها أبي نضارة في مسرحه وتأليفه ..)

صنوع: هه .. الأوغاد .. يسفها جهودنا لأننا نجحنا في مخاطبة الجمهور واجتذابه باستعمال لغته الأصلية .. (3).

2. 3: الموسيقى<sup>2</sup> والأغاني: تبرز من جانب هذه الوثائق والوسائل الإعلامية الأغاني والرقصات والموسيقى، بوصفها أجزاء أساسية في الفعل المسرحي ومكملة

(1) م، ن، ص 106، 107.

(2) م، ن، ص 107.

(3) فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 106.

له، لكنها ليست عناصر مستقلة كما هو الشأن في الدراما الملحمية، بل هي من نسيج النص تخدم الكلمات وتساعد على توثيق الأحداث وخلق فواصل للاستراحة والانتقال من فترة زمنية إلى أخرى، والمسرحية غنية بالعناصر الموسيقية والغنائية والسبب الموضوعي من وراء ذلك معرفة نعمان عاشور بطبيعة المسرح العربي منذ بداياته الأولى حيث اتسم بالطابع الغنائي وقد جاء على شاكلة الأوبرا التي تتطلب جانبا كبيرا من الجوقة والموسيقى.

ومارون النقاش بحد ذاته له إلمام بألوان المسرحية عند الغرب وكان يفضل الأوبرا» على غيرها من ألوان الفن المسرحي، وفي هذا الشأن يصرح مارون النقاش ميله إلى الأسلوب الموسيقي الذي تجسده الأوبرا: «وإذا كانت المراسح\* تنقسم إلى مرتبتين، كلتاهما تقر فهما العين، أحدهما يسمونها بروزة، وتنقسم إلى كوميديا ثم إلى دراما وإلى تراجيديا، ويبرزونها بسيطا بغير أشعار، وغير ملحنة على الآلات والأوتار. وثانيتها تسمى عندهم أوبره (...) فترجحت آرائي ورغبتني وغيرتي، أن الثانية تكون أحب من الأولى عند قومي وعشيرتي. فلذلك قد صوبت أخيرا قصدي، إلى تقليد المسرح الموسيقي الجدي (1).

بالإضافة إلى مارون النقاش يظهر الرائد الثاني في المسرح العربي هو أبو خليل القباني الذي بدوره شيد دعائم المسرح الغنائي نظرا لتكوينه الموسيقي حيث نقل الأغنية من التخت الشرقي، ووضعها على المسرح، لتصبح جزءا من العرض المسرحي... كان القباني من أساتذة الموسيقى العربية (2)، ومن بين المواطنين التي وظف نعمان الموسيقى والرقص نجد الموقف الذي يتحدث فيه يعقوب صنوع عن مكان ولادة مسرحه للوهلة الأولى وهو مقهى موسيقي كبير بالقاهرة حيث عبر نعمان عاشور عن هذه الحقبة بمقاطع موسيقية<sup>(1)</sup> وكذلك كثيرا ما يلجأ الكاتب لعنصر الموسيقى للتعبير عن الافتتاح أو اختتام للعرض المسرحي<sup>(4)</sup>.

زيادة على عنصر الموسيقى شكلت موهبة الغناء قدرا كافيا لدى رواد المسرح العربي وعلى رأسهم المطرب الشهير والفنان المسرحي الشيخ سلامة الحجازي الذي كان ضمن فرقة اسكندر فرح في مصر، وقد اختتم نعمان عاشور المسرحية بأشهر الأغنيات التي غناها سلامة الحجازي في مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» بعنوان أنا كنت في الجيش لتتلاءم مع الظروف التي يعيشها المسرح العربي في عصر النهضة وثورة 121919.

\* ويقصد بها المسارح

(1) ينظر: فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 103.

(2) ينظر: فجر المسرح المصري، المصدر السابق، ص 126، 127.

## خلاصة:

وخلاصة القول حول مسرحية فجر المسرح المصري «لنعمان عاشور التي تمثل تجربة رائدة في الاتجاه المسرحي الوثائقي بالرغم من أنها ليست الأولى في المسرح العربي الحديث فقد سبقه «سعد الله ونوس في مسرحيته الشهيرة سهرة مع أبو خليل القباني التي كتبها سنة 1973م وهي النموذج الذي قدمه في إطار تاريخي وجمالي استحضر فيه الجانب الوثائقي لسيرة الرائد المسرحي العربي في سوريا القباني، أما الجانب الجمالي فيتمثل في إدماجه للنص التراثي الشعبي ألف ليلة وليلة، فالمسرحية كما يقول ونوس في مقدمتها «هي محاولة لبعث التراث وفهمه، أخذت إحدى روايات الرائد المسرحي أحمد أبو خليل القباني هارون الرشيد مع غانم بن أيوب وقوت القلوب، بعد تعديل شيء من لغتها وبعض مواقفها، ثم أدمجتها بالقصة الريادية لتجربة القباني، وكفاحه من أجل إقامة مسرح في دمشق (2)، وهذه التجربة تتقاطع مع تجربة نعمان عاشور من حيث المادة المسرحية ومن حيث طبيعتها التاريخية، ومن حيث الريادة في تاريخ الدراما الوثائقية في الوطن العربي.

## قائمة المصادر والمراجع

## - المصادر:

1. نعمان عاشور، فجر المسرح المصري (من الدراما الوثائقية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، 1986.
2. بيتر فايس- ماراصاد وأنشودة غول لوزيتانا، ترجمة وتقديم: يسرى خميس، مجلة آفاق عالمية، العدد 38، 2004، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة.
3. سعد الله ونوس، سهرة مع أبي خليل القباني، ط5، دار الآداب، لبنان، 2006.
- المراجع:
1. حسن يوسف، المسرح والمرآيا (شعرية «الميتامسرح» واشتغالها في النص المسرحي العربي)، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
2. مصطفى سلوي، عتبة العنوان (المفهوم والموقعية)، مجلة الميثاق الوطني (الملحق الثقافي)، العدد 7865، 24/23 ديسمبر 2001.
3. إبراهيم وظيفي، ثلاثة كتاب من الألمانية بيتر فايس- هاينر كيهارت-مارتن فالز، ترجمة واعداد: إبراهيم وظيفي، ط1، 2000.
4. فاروق عبد القادر، رؤى الواقع وهموم الثورة المحاصرة (دراسات في المسرح المعاصر)، دار الأدب بيروت، ط1، 1991.
5. محمد يوسف نجم، المسرحية في الأدب العربي الحديث 1847-1914، دار صادر للطباعة والنشر- بيروت، دط، 1999.
6. حمودة عبد العزيز، المسرح السياسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب ط، 1971.
7. PATRICE Pavis- Dictionnaire du Théâtre (Termes et

concepts de l'analyse théâtrale)- Edition sociale- Paris- 1980.

8. سيد علي اسماعيل، مارون النقاش العائد إلى الحياة في المركز القومي للمسرح، جريدة المسائي، العدد 2242، السنة السابعة، 16 جوان 1997، الأهرام.
9. مارون النقاش، أرزة لبنان، المطبعة العمومية ببيروت، 1869.
10. ماري الياس وحنان قصاب، المعجم المسرحي، ناشرون، لبنان، ط1، 1997.
11. أحمد إبراهيم، الدراما والفرجة المسرحية، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2006.





## الصدى الفكري والأدبي للثورة الجزائرية في منشورات مجلة "الفكر" التونسية

الأستاذ: سعيد جلاوي<sup>1</sup>

### الملخص :

يعالج هذا المقال الصدى الفكري للثورة الجزائرية من خلال المنشورات الأدبية والفكرية والفلسفية لمجلة "الفكر" التونسية التي كرستها لمعالجة القضية الجزائرية في الفترة الممتدة بين 1955 إلى 1962 و بالتحديد قضية التنويه والإشادة بالثورة و التنديد بالاستعمار الفرنسي في الجزائر و التضامن المغربي مع الثورة الذي تناولته أقلام الأدباء التونسيين إزاء أوضاع الثورة الجزائرية في مواجهة الاستعمار، الذي نشرته مجلة الفكر التونسية وحافظت به كأرشيف هام ، الذي لا يؤكد فقط أهميته كمصدر أساسي من مصادر الأدب الجزائري و ما كتب عن الثورة، كسجل من السجلات الشاهدة على مدى التأزر و التلاحم و التضامن بين القطرين الشقيقين، لكنه يؤكد كذلك المساندة الأدبية و المعنوية التي دعمت الكفاح المسلح، في الجزائر .

### **Résumé en français**

Cet article analyse L'écho de la revue (El'fikir) tunisienne envers la révolution Algérienne qui consiste à l'ensemble d'opinions et d'idées concernant les axes fondamentaux imposés par cette révolution et ces objectifs nationaux et humains comme le problème d'identité nationale algérienne , la solidarité maghrébines , l'union entre la Tunisie et l'Algérie et la Condamnation du colonialisme. Aussi l'Appel à l'opinion arabe et internationale pour le soutien de la révolution algérienne.

### **Résumé en anglais**

This article analyses and studies the big problems of the Algerian revolution from 1955 to 1962 in the Tunisian magazine ( El fikr) concerning the Algerian revolution. It consists of opinions

---

<sup>1</sup> أستاذ محاضر ب، جامعة البويرة.

and ideas about the principle axes imposed by this revolution and its national objectives, like the problem of the Algerian identity, the condemnation of the colonization.

يعود اهتمام التونسيين بنضال الشعب الجزائري إلى عهد قديم، و قد تواصل التعبير عن مشاعر التعاطف مع المجاهدين في القطر الشقيق دون انقطاع.. و مما يجدر التذكير به أن الثورة الجزائرية قد اندلعت قبل استقلال تونس و أن إعلان هذا الاستقلال سنة 1956 لم يخلصها تماما من الاستعمار فكانت الثورة نوعا من الامتداد لحركة التحرير التونسية التي تركت في بعض النفوس تعطشا لمواصلة المقاومة و فسحت المجال أمام المثقفين العرب عامة و التونسيين خاصة الذين لم يشارك في النضال مشاركة حاسمة للقيام بعملية تعويضية جنبته إلى حد كبير مرارة الإحساس بالحرمان. لذلك كانت الأصوات الأولى التي ارتفعت قوية الحماس تنزع إلى تهيج العواطف بتصوير بالتنويه و الإشادة بالثورة و التنديد بفظائع الاستعمار و جرائمه و الدعوة إلى التضامن معها من خلال كتاباتهم في مختلف المنابر الإعلامية التونسية.

وفي هذه الجانب كانت مجلة (الفكر)\*<sup>1</sup> إحدى هذه المنابر التي تحولت إلى العدسة اللامعة في استقطاب مختلف الأدباء و الشعراء العرب من مختلف مشاربهم و خصصت لهم قسما من أقسامها للتعبيري عن مواقفهم إزاء الوضع في الجزائر خلال حرب التحرير حيث بلغ عدد هؤلاء من الأدباء سبعة و سبعين بين شاعر و كاتب وروائي.

و خلال السنوات السبع للثورة نشرت هذه المجلة مائة و سبعين عملا فكريا تنوع بين مقالات و دراسات و قصص، و قصائد و مسرحيات. انصبت من خلاله على إبراز الصدى الفكري لهذه الثورة و انعكاسها على الأدبيين التونسي و الجزائري. لتصبح بذلك صوتا بارزا، وهذا ليس لأنها بزت كل أقرانها في هذا المضمار، و لكن لكونها تفردت بخصوصيات ينذر أن تتوفر مجتمعة في سواها. كونها تجندت للعمل الفكري و الأدبي و أسست أول تجمع أدبي تونسي جزائري

\* هي مجلة تونسية ذات طابع ادبي و فكري و فلسفي تأسست في أكتوبر 1955 من طرف الكاتب

محمد مزالي و رئيس التحرير بشير بن سلامة و السكرتير عبد الواحد براهيم توقفت عن الصدور في 1986

تجاوبت من خلاله مع الثورة الجزائرية منذ اندلاعها حيث أمنت بمبادئها وراهننت على نصرها و تطلعت لخاتمتها السعيدة، كما رصدت تطوراتها طيلة سبعة سنوات متصلة، فلم تكتفي بتسجيل التطورات الآنية والوقائع الجزئية لهذه الثورة فحسب، بل استطاعت أن يخلق عاليا و تستوعب القضايا الكبرى والمسائل الكلية التي تتمحور حولها تلك التطورات وهذه الوقائع. التي كانت بمثابة الصدى الفكري و الأدبي للثورة الجزائرية في ما يلي سنعالج ثلاثة قضايا الأكثر أهمية مثلت ابرز مظاهر هذا الصدى.

### 1. إدانة الاستعمار

بغية إخماد الثورة أستلهم الاستعمار الفرنسي شرعة الغاب و دنيا البربرية، و تفنن في اقرار الجرائم البشعة من قتل أعى و هتك للأعراض و سجن الأبرياء و ترويع الأمنين و حرق القرى و زرع الأحقاد... وهو ما اهتز له الضمير الإنساني وصدعت الأصوات الحرة باستنكاره، فكانت مجلة (الفكر) منبرا متميزا للأصحاب تلك الأصوات من ذوي الجندسيات المختلفة والتوجهات المتباينة. وكيف لا؟ وقد كانت المجلة ترى في ذلك واجبا مقدسا لا مندوحة من القيام به وهي التي كتبت في إحدى افتتاحياتها " و لم نفتأ منذ ان برزت المجلة ننادي بحرية الإنسان وندود عن كرامته و ننصر حقوقه الطبيعة فكان موقفنا من قضية إخواننا أبناء الجزائر الشقيقة واضحا صريحا، لم نطل الخطب و لم نسهب في القول و لم ننجح إلى السباب و الشتم لكننا لم نصمت ولم نحذر بل كنا فيما نشرناه أوفياء لأنفسنا مخلصين لمبادئنا ثابتين في إيماننا واليوم. (1)

وقد بلغ سيل الزبى و آل الأمر إلى الحرب وأصبح التقتيل والتعذيب والتدمير شعارا للجيش و دأبا، لذا نرى لزاما علينا أن نعلن عن شديد استنكارنا لهذه التصرفات العمياء التي يذهب ضحيتها آلاف الأبرياء، ونشهر بأعمال جيش الاحتلال القاسية تشهيرا يهتز له الضمير البشري. (2)

وعلى كثرة الأصوات التي جهرت بمواقفها من تلك الجرائم من خلال هذا المنبر، نذكر على سبيل المثال لا الحصر الشاعر التونسي " محسن بن حميدة " الذي نشر قصيدتين الأولى بعنوان " صيحة شهيد " ينعت فيها الاستعمار الفرنسي بالمتوحش و يعدد من أعماله الهمجية في الجزائر من هدر للدماء و ملء المقابر والسجون بالأبرياء واغتصاب الأرض و هتك للعرض، وراح في الثانية يصب عليه جام غضبه " في غير لين " واصفا إياه بالجنون و الحقد و عدم الحياء و الإدمان عن الجرائم و الخبائث... (3)

لا تقل الشاعرة لميعة عباس عمارة تأثرا بممارسات الاستعمار عن

نظيرها التونسي تلك الممارسات جعلتها تنفجر غيظا في قصيدة شهِيت فيها الاستعمار بإخطبوط يمد اذرعها السود لنسخ هيروشيما أخرى في الجزائر(4) ومما ينبغي ألا يفوتنا الإشارة إليه ما سجله الشاعر التونسي منور صمادح في قصيدة تحمل عنوان "الإعدام الجماعي" وهي وصف لإحدى غارات الجيش الفرنسي على حي أهل بالنساء والأطفال والشيوخ بحثا عن الثوار والسلاح، ولما فشلوا في العثور على بغيتهم عاثوا قتلا ونهباً وحرق في الحي. يقول: "صاحت خديجة من بعيد عاد الجنود، كالأمس عادوا يطلقوا، نارا لبنادق في جنون..."(5)

وتعد هذه الصورة إحدى أشنع تصرفات الاستعمار وهي قائمة على فكرة العقاب الجماعي التي تزر الجماعة بوزر الفرد و تأخذ المسالم " بجريرة" المحارب وهو أسلوب ساد في العصور الوسطى في أوروبا وعندما امتدت يد الإبادة لتطال قرية ساقية سيدي يوسف الشهيدة يوم 8 فيفري 1958، ولتمتزج الدماء التونسية الجزائرية على الحدود المشتركة انبرت المجلة بهذه المناسبة لتؤكد مجددا على وحدة الكفاح المغاربي، و لتشيد بتضامن أبنائه، و تترحم على شهدائه، مستغلة هذه الفرصة للتنديد بحرب الإبادة، وبأسلوب الاستعمار في التعامل مع الشعوب المناضلة.

إنها دلالة واضحة، و شاهد إثبات كما يقوله الكاتب محمد مزالي على المنطق الاستعماري القائم على الهدم و التدمير والوحشية، و حجة قاطعة أمام أحرار العالم لتسفيه ما كان يدعيه من حجج التهدئة والدفاع عن النفس. حيث يقول في إحدى افتتاحياته " فلعنة القرية الشهيدة" على الاستعمار لأفزع من أن يهملها (الفكر) و هو يلمح فيها ما يلمح، إنها أية على أن للنظام الاستعماري منطلقا يختلف عن المنطق المبين، يعبر عن التعمير بالتدمير، وعن البناء بالهدم، و عن التمدين بالوحشية البالغة، و كذلك سولت له نفسه أن يهدم كيان الوطن المغاربي يوم كان يستعمره في ماضيه الحالِك، و زينت له أن يهاجم القرية الشهيدة الآمنة المستقلة فيدمرها تدميرا باسم الدفاع الشرعي."(6)

وهذا التدمير الذي بلغ درجة من التوحش الأعمى في حق الأبرياء العزل، هو الذي حرك أحاسيس الشاعر التونسي منور صمادح في قصيدته النثرية "وحدة النضال" إلى وصف الاستعمار الفرنسي بالوحش التعس الذي بقر البطون و قطع الأوصال و سفك الدماء و قتل الأطفال فاستعجل الآجال و احرق النساء و الرجال."(7)

وكذلك ، الشاعر احمد اللغماني لا يقل أهمية عن نظيره في قصيدته "لعنة الاستعمار" إذ يمتطر العدو بوابل من النعوت و الأوصاف التي تحط من قيمته وتترله إلى الحضيض الأيام ، بسبب فعلته الشنيعة ، حين بالغ في عملية التقتيل والإبادة الجماعية للأبرياء من المدنيين، دون أن يشعر بفظاعة الجرم المرتكب ، أو يؤنبه ضميره ، على هذا الذي أقدم عليه بكل قساوة ووحشية يقول : حمق ، وغرور وجبن ، تلعق بالشرور، هذي خصالك يا حقير أوقعت نفسك في الحفر، وصلت ما أججت من لهب السعير، ناطحت صماء الصخور، فرجعت بالنم الكثير، بالجبهة المدماة بالقرن الكسير ، يا وارثا مجد العظام عبثت بالمجد الكبير يا عار من زانوا العصور، يا سبة لدويك لا تمحي على مر الدهور، أشبعت من أشلاء من ذبحت يا صلد الشعور، أرويت من ذاك الدم المسفوح يا ميت الضمير." (8)

هذا النهج العنيف الذي اتبعه الاستعمار ضد شعب وممتلكاته ترتب عنها انهيار ببنية الاجتماعية و الاقتصادية وسبب في تفاقم الأوضاع وانتشار الفقر والحرمان بين السكان الذين أصبحوا يهيمون على وجوههم هذه الحالة التي افرزها نظام دولة كانت تدعي العدل والمساواة، وهو ما وقف عليه الشاعر التونسي سعد غزال عند قروب الاستقلال وهو يحاول تقييم حصيلة الخسائر الناجمة عن هذه السياسة في إحدى قصائده بعنوان " حرب الجزائر"، يقول: وخرب في أرض الجزائر دورها، و قطعت الأشجار، ففي كل ركن من شوارعها به خلائق بؤس مسها الحزن والفقر، ويا ويلتنا إنا لأرامل و النساء علمين مضغوط وقد فرض الأسير، فهذي فرنسا أمة العدل قد طغت وجارت، من باريس قد برز الشر." (9)

لكن المسلك العنفي الاستعماري في نظرا لمجلة لم تقتصر على قتل الأرواح وهدم البيوت و المدارس بل وقفت أيضا على المقومات الأساسية للشعب الجزائري من لغة و دين وتاريخ و تقاليد و محاولة القضاء عليها عن طريق التمسيح و الفرنسة و الإدماج. فهذه هي الحرب المعنوية التي لا تستهدف الجزائر وحدها، ولا المغرب العربي فقط، و إنما كانت تستهدف الإنسانية كلها و الأسرة البشرية جمعاء، والحضارة البشرية قاطبة، وذلك بالعمل على حرمانها من رافد من أهم روافدها المتمثل في إسهام الجزائر المتألق عبر العصور في إثراء التراث الإنساني.

ومن ثمة فإن المجلة كانت تعتبر إدانة الاستعمار واجبة من قبل الأسرة الإنسانية، لأنه يعمل على حرمانها من عضوي، ويشل قدرات شعب معطاء ويؤكد ذلك الكاتب محمد مزالي في مقال تحت عنوان " لماذا نتضامن مع الجزائر؟" و

يقول: " فالأمة الجزائرية أمة لها كيائها ومقوماتها و لها شخصيتها وتاريخها، وهي أمة أنبتت تربتها أعلاما في الأدب والعلم والفن منذ فجر التاريخ إلى العصر الحاضر. و إن الاستعمار الفرنسي بمحاولته محو هذه الأمة وطمس معالمها، وفرنسة أبنائها، واستئصالهم من طبيعة بيئتهم ونوع حياتهم أجرم في ذات الإنسانية إجراما، إذ هو أوقف جدولا من أخصب هذه الجداول التي تغذي دوما الحضارة والفكر" (10)

وترى المجلة أن في مبادئ الثورة الجزائرية تعبير عن أصالة الشعب وتجديد لكيانه، وتحرير لإرادته، و تأكيد لتطلعاته، وبعث لأمجاده، فإن الثورة الجزائرية التي تعد من أهم الثورات الإنسانية لم تنفجر ولم تندلع لمجرد إبداء الغضب، والإعلان عن رفض الظلم فقط، و لكنها انفجرت لإخصاب الوجود الاجتماعي والوطني والمغربي، و إعلاء منزلة الإنسان، و التعبير عن مناهضة الظلم بأنواعه، و بدأ فإن كل عمل مناهض للثورة، و كل قمع مسلط عليها و كل تردد في مساندها لا يعني معاندة الواقع، و معاكسة مجرى الحياة، و موقفا رجعيا فقط و لكنه يعني ضرب الإنسانية في الصميم، و تعطيل لمسارها.

فالثورة كما محمد مزالي: " في أسى معانها، و أسى مقاصدها فرض لوجود وتأكيد لذاتية، و تزكية لروح، وهي تحسس و اكتشاف و تجاوز وتجدد وخلق، بذلك تنتسب إلى الإنسان، و تفتح له أفاق التقدم الشاسعة وتدير عجلة التاريخ. (11)

و كثيرا ما أكدنا في هذه المجلة أن شر مظاهر الاستعمار في أرض الجزائر محاولته محو الأمة الجزائرية، والقضاء على مقوماتها و تشويه معالمها، والحيلولة – بالتابع – دون ما يمكن أن تسهم به هذه الأمة في إنماء التراث البشري، وما تأتيه من خصب التجارب الإنسانية." (12)

## 2. التنويه بالثورة والإشادة بها:

و إلى جانب التنديد بجرائم الاستعمار الفظيعة ومساغيه التي لا تكل من أجل إخضاع الشعب الجزائري والحط من معنوياته وقمع صوته، وإبادته، ساهم الكتاب و الأدباء التونسيون بمختلف أعمالهم الأدبية من افتتاحيات ومقالات وقصائد المنشورة في مجلة الفكر التونسية للتنويه بالثورة الجزائرية، والإشادة بها، وبلورة أهدافها الوطنية والإنسانية، وتبرير شرعية وجودها وإبراز إيجابياتها المختلفة، واستعراض التاريخ الجزائري الحافل بالأمجاد والبطولات، رفعا للروح المعنوية لهذا الشعب، وتعريفا للرأي العام التونسي و العربي بأبعاد هذه الثورة و حقيقة منطقاتها.

ذلك أن الشعب الجزائري في نظر المجلة أو بالأحرى في نظر مؤسسها ومديرها الأستاذ محمد مزالي الذي كتب مقالا بعنوان "للثورة الجزائرية" يرى فيه أن هذا الشعب وإن فاجأ محتله والغرباء عنه بثورته المسلحة المعلنة، فإنه لم يفاجأ بهذه الثورة أشقاءه الذين كانوا على بينة من ثورته الموصولة، ثورته الكامنة تحت ساتر رقيق من الصمت الكظيم طوال مائة وثلاثين سنة، أي منذ وطئت أقدام الدخيل أرض الجزائر، وكانوا يعرفون كما يقول مدير المجلة: "أن ثورة الجزائر اليوم. وثيقة الصلة بالغابرة تأخذ ينبوعها من ماضي طويل يرجع إلى عهد الاحتلال الفرنسي، و يجد هذا الشعب الجزائري لم يستطع خلال هذه المدة أن يعترف باحتلال ظالم ولا يقبل بسياسته الغاشمة، إن الشعب الجزائري كان ثائرا بالقوة خلال مدة الاحتلال بأكملها، ثورة تخرج من حين لآخر إلى الواقع والعمل، منها القراءة إلى زيف ما كان يكتبه، بعض الجزائريين الذين كانوا يؤمنون بفرنسة الجزائر، أو على الأقل إمكان تلك الفرنسية، ذلك أن هؤلاء كانوا بعيدين على أن يشعروا بما يجري وسط الشعب من ميول و عواطف، ومن ثم فهم لا يستطيعون أن يمثلوا الطبقات الشعبية التي بقيت محتفظة بحنين قوي إلى كفاح مسلح يرجع لها كرامة ضاعت، و يعيد حرية اغتصبت(13).

على أن هذا البعد النفسي و الاجتماعي و التاريخي للثورة، وميقات تفجرها وساعة ولادتها لم يكن متاحا تلمسه أو إدراكه لأي كان عدا الشعب الجزائري نفسه، وأشقاؤه ممن عانوا نفس الأوضاع، وابتلوا بنفس الاستعمار، أما أولئك الغرباء الذين كانوا اعتبروا هذه الثورة مجرد حدث عابر، وتمرد غامض وانتفاضة محدودة، وتخبطوا في شتى التأويلات والتفسيرات، وظلوا ينتظرون انحسار مدها، واستسلام أفرادها، فإنهم لم يلبثوا أن اندهشوا لصمودها و انهروا ببطولاتها، وأذعنوا للأمر الواقع الذي فرضته الثورة نفسها على الرأي العام العالمي الذي كان بعيدا عن إدراك الروح الكامن في الشعب الجزائري، و خفايا ما كان يدور في وسطه. ويرجع و صاحب المقال خصوصية هذه الثورة الفريدة في تاريخ الثورات إلى المبادئ التي قامت عليها منذ انطلاقتها و وضوح أهداف مفرجها، و تشبعهم بالمبادئ والنظريات الاجتماعية، ومبادئهم بإنشاء المؤسسات والتنظيمات الداعمة للثورة الأمر الذي جعل هذه الأخيرة في نظر المجلة أنها: " لا توصف بأنها شعبية فحسب تحتضن سائر أفراد الشعب وإنما هي إلى جانب ذلك خاضعة لمبادئ ثورية واضحة في أذهان مسيرها وسالكة طريقا تنطبق عليه القوانين الثورية الصحيحة التي تدعمها نظريات اجتماعية وسياسية وفلسفية، تشبع بها قادة الثورة، وكونوا بها، وربوا عليها المناضلين الذين يقومون بهذه الثورة، سواء في المدن أو في أنحاء

الجبال، أو ممن يعملون في الحقل الدولي" (14).

هذا يعني أن الثورة الجزائرية تملك جيش التحرير الوطني يعمل بالأسلح لكنه يعمل مغمورا بمساندة الشعب و تأيده أي أن الشعب كله مجند ليعمل إلى جانب جيشه الوطني التحريري والشعب عندما يعزز أعماله و يحيي تحركاته فإنما يفعل ذلك لأنه يؤمن بان المقاومة التي يقوم بها هذا الجيش ليست فقط شرعية و إنما هي حيوية بالنسبة لمصير حياة الوطن و ضرورية لا مناص منها لسحق الجهاز الاستعماري الذي يبطش بأبناء الوطن والذي جعل هدفه هو القضاء على الحياة الوطنية الجزائرية التي تقف في طريقه والتي تعطل سيطرته و نفوذه على الشعب .

فيتضح من هذا أن عجز الإدارة الاستعمارية عن إحداث القطيعة بين الشعب و جيش التحرير الوطني و قاداته طوال الثورة كان يعكس مدى وضوح الأسس و عقلانية المبادئ التي تسيّر عليها الثورة، فيقول الكاتب محمد مزالي: " أن الثورة الجزائرية الجبارة تسيّر في الطريق السوي المستقيم وتعتمد على أسس واضحة ظاهرة لأنها تحتضن في طليعتها النخبة الصالحة من أبناء الشعب و تتركز أسسها على الوحدة القومية التي تجمع بين صفوف المناضلين ، والروح التي تبعث فيها الحرارة هي روح التضحية وروح العزم الذي لا يلتوي نحو الاستقلال و التحرر الوطني." (15)

"أما المبادئ العقلية التي تنير الطريق أمام هذه الثورة فهي الحرية الشعبية الحقيقية للجزائر والوحدة المغربية التي يطمح إليها كل أفراد الشعب المغربي... وهذه الوحدة التي تتحقق في العمل المباشر و تنبثق من إرادة الشعب و يدفعها تيار التاريخ." (16)

إذن فالثورة الجزائرية بهذا المفهوم تختلف عن بقية ثورات بكونها ولدت و هي تحمل في طياتها أمارات النصر، وملامح الظفر، بعد أن أعدت نفسها إعدادا كاملا و ظلت طوال قرن و ثلث القرن تمخض نفسها لهذا الحدث الفريد، كما ولدت و لها رؤية و تصور شامل و مسبق لطريقة الكفاح و البناء.

فهذا هو الجديد في ثورة الجزائر كما يقول الكاتب محمد مزالي: " ثورة تحمل طابعا خاصا تختلف به عن ثورات كثيرة، هو أنها اعتنت خلال الكفاح بجميع الميادين التي تهتم الحاضر والمستقبل، فتكون الاتحاد العم للعمال الجزائريين، و تكون الاتحاد العام للتجارة الجزائرية، اللذان أعربا عن تأييدهما لجهة التحرير. و هكذا و جدنا الثورة الجزائرية لا تقصر جهودها على الحرب، بل أنها توجه عنايتها نحو البناء و التشييد و التنظيم في فترة الكفاح المسلح. وقد بلغ أتباع الناس لأوامر الثورة و احترامهم لقوانينها، درجة جعلت الجزائريين يجمعون حولها من غير أن



يبلي في صفوفهم شاذ أو خارج." (17)

ويتبين ذلك من خلال استجابة العمال والتجار والمثقفون والطلبة والتلاميذ لكل مختلف الإضرابات التي نددت بها جبهة التحرير الوطني في الداخل والخارج خلال الثورة.

وهذا الإجماع الذي تحصلت عليه الثورة في نظر المجلة يعود إلى "مرتكزات الخطة التي انتهجه قادة الثورة والتي تستبعد كل روح إقليمية، أو وطنية ضيقة والتي تعتبر نفسها إنسانية قبل كل شيء و واضح للعالم أنها ثورة بعيدة عن كل تعصب قومي أو ديني، هذا ما كشف سياسة المستعمر الرامية إلى تشويه ثورة نقية طاهرة، بعيدة عن كل عنصرية بغيضة." (18)

هذه القيم النبيلة للثورة حركت القائمين بهذه المجلة إلى توجيه نداء "لكافة رجال الفكر في كل بلاد أن يتحدوا لنصرة الحق و العدالة و الحرية لا بالنسبة للجزائر فقط بل بالنسبة لكل بلد يدوس فيه الإنسان أخاه الإنسان ويعتدي فيه البشر على البشر. عند ذلك يكون أمل الإنسانية عظيما في انتصار الحق على الباطل و العدالة على الظلم و الحرية على العبودية (19)

هذا ما جعل احرار العالم الذين يؤمنون بالعدالة و الحرية يقفون الى جانب الثورة و يعارضون حكوماتهم الاستعمارية.

والى جانب هذا النمط الفريد والجديد لهذه الثورة كما أبرزه الكاتب و حاول تحليله استنادا إلى شواهد التاريخ، ووقائع الحاضر، و سلوك الثورة الجزائرية نفسها، وأعمالها الحضارية فإن المجلة ظلت تؤكد على الجانب الإنساني لهذه الثورة باعتبارها عملا من أجل تحرير الإنسان، واسترداد كرامته وتحقيق السعادة التي افتقدها طوال أكثر من قرن، وهو عمل في نظر الكاتب كفيل بتوجيه التحية لهذه الثورة: " نعم نحيا الثورة الجزائرية لا فحسب لأنها أثبتت إنسانية الشعب الجزائري و جدارته بالاستقلال و الحرية، بل لأنها صفحة رائعة من كفاح الإنسان من أجل السعادة، و من أجل الغد." (20)

و بناء على التوجه الوطني و الإنساني للثورة ، فقد مزالي ثورة الجزائر مغامرة إنسانية عظيمة، لأن هدفها كان صياغة الإنسان المناضل الجديد، و إنشاء كيان حر

بعيد عن شوائب السيطرة، وتحريكا و إغراء لجميع الشعوب الأخرى كي ترسم خطى هذه الثورة، و تستضيء بها في تقرير مصيرها وخوض غمار المغامرة: " ذلك أن الثورة الجزائرية مغامرة الإنسان يتطلع إلى إنشاء كيانه من جديد، ويتطلع إلى الإمساك بمقاليد مصيره حرا بريئا من شوائب السيطرة، هي المغامرة القصوى

تحرك من الشعوب سواكن، ومن النفوس أتواقا، لا يكون الإنسان جديرا بلقب الإنسان إذا تخلى عنها، ولا تكون الشعوب جديرة بالحياة إذا لم تنشرها ولم تسع لتحقيقها مهما كلفها ذلك من الثمن" (21).

و المطلع على مواقف مجلة (الفكر) و مواقف مسؤوليها عن الثورة، وتفاؤلهم المطلق بحتمية النصر ودفاعهم المستميت عن أهدافها ودعواتهم المتتالية لرجال السياسة والفكر والأدب في ربوع المغرب العربي للتضامن معها، و تنديده بالاستعمار وفضح أغراضه و إدانته دوليا، سوف لا يندهش ولا يستغرب لما أثلج صدر المجلة، وأدخل على أسرتها البهجة والنشوة في يوم إعلان وقف إطلاق النار يوم 19 مارس 1962، إعلان هزيمة الاستعمار شر هزيمة، وتسليمه بما دعي للتسليم به في أول يوم لاندلاع المعارك.

إنه النصر المبين كما وصفته المجلة، نصر يتجاوز ما حققه الجزائريون لأنفسهم ووطنهم ليشمل المغرب العربي كله، و تهب نفحة منه على كل الشعوب التي كانت تتوق إلى الانعتاق، وتعزيز لقدرات الإنسان، وخطوة نحو خدمة مبادئ التآخي والتقارب البشري: " إن هذا النصر المبين لم يسجله إخواننا المجاهدون لوطنهم فقط، و لم يثبتوا فيه أنهم جديرون بالحياة الكريمة فحسب، بل هو أيضا تسجيل للحق على الباطل، و للخير على الشر، إنه خطوة في طريق تحرير الإنسان و بلوغه أسنى المراتب وأقدس القيم في كل مكان، إنه قوة معنوية عارمة في خدمة التآخي والتقارب والغد الأسعد البسام." (22)

إننا في هذه المجلة طالما عبرنا عن تضامننا مع إخواننا الجزائريين و خاصة أهل الفكر والأدب منهم، و لا يسعنا في هذه المناسبة السارة إلا أن نتقدم لهم جميعا بعبارات التهنئة الأخوية الصادقة مباركين عملهم التاريخي، سائلين الله أن يسدد خطاهم و يوفق مسعاهم في المستقبل لينجحوا في بناء وطنهم الغالي، كما نجحوا في تخليصه من التبعية والسرطان الاستعماري، و إنقاذه من الفرنسة والمسح" (23).

وصفوة القول أن مجلة (الفكر) كرسست معظم كتاباتها لخدمة الثورة الجزائرية فنددت بالاستعمار الفرنسي و جرائمه البشعة و فضحت مزاعمه و إدعاءاته الباطلة و في المقابل أكدت على شرعية و عدالة هذه الثورة و نبذ أهدافها و نوهت ببطولات أبنائها . وهو ما كان يتطلب في نظر المجلة وقوف كل الشعوب و الأمم المحبة للسلام العدالة و الحرية إلى جانبها دون قيد أو شرط. و إذا كان هذا واجب في حق الجميع دون استثناء، فهو في حق الحكومات المغاربية و شعوبها أوجب نظرا للقواسم المشتركة و المتينة التي تربطها بالشعب الجزائري

المكافح من لغة و دين و تاريخ و جغرافيا.

لعل فيما عرضنا له من مواقف المجلة إزاء الثورة الجزائرية لا يؤكد فقط أهميتها كمصدر أساسي من مصادر الأدب الجزائري و ما كتب عن الثورة، كسجل من السجلات الشاهدة على مدى التأزر و التلاحم و التضامن بين القطرين الشقيقين، لكنه يؤكد كذلك المساندة الأدبية و المعنوية التي دعمت الكفاح المسلح، في الجزائر.

### الملحق

المقالات الأدبية المنشورة في مجلة "الفكر" حول الثورة الجزائرية

اسم الكاتب	عنوان الموضوع	رقم	السنة، العدد، التاريخ
------------	---------------	-----	-----------------------

مصطفى الأشرف	الوطنية و الأرض في الجزائر	32	س1-ع1، أكتوبر 56
جان كوهين	الاستعمار و العنصرية في الجزائر	9	س1-ع4 جانفي 56
المجلة	إلى القارئ	1	س-ع6 مارس 56
المجلة	إلى القارئ	1	س1-ع10 جويلية 56
المجلة	ثورة الجزائر هي ثورة الشعب	45	س2-ع1 أكتوبر 56
محمد مزالي	حول الذكرى الثالثة للثورة	2	س2-ع2 نوفمبر 56
المجلة	إلى القارئ	1	س2-ع3 ديسمبر 56
الهادي حمو	من أناشيد البطولة	50	س2-ع3 ديسمبر 56
عبد الله شريط	مستقبل المغرب العربي	11	س2-ع4 جانفي 57
محمد أركون	مغزى تاريخ شمال إفريقيا	23	س2-ع4 جانفي 57
مسؤول جزائري	حول وحدة المغرب العربي	32	س2-ع4 جانفي 57
المجلة	إلى القارئ	1	س2-ع6 مارس 57
البشير العربي	في موكب الأحرار	13	س2-ع6 مارس 57
البشير العربي	أخي المواطن الجزائري	5	س2-ع10 جويلية 57
يحي بوعزيز	بطل الثورة الأمير عبد القادر	82	س2-ع10 جويلية 57
المجلة	إلى القارئ	1	س3-ع2 نوفمبر 57
عبد الله شريط	حول الثورة و مفاهيمها	12	س3-ع2 نوفمبر 57
الهادي حمو	الشعر و الثورة الجزائرية	21	س3-ع2 نوفمبر 57
جالك بيشو	قضية عامما بالأوراس	32	س3-ع2 نوفمبر 57
محمد البشير إبراهيمي	حماية الأديب و القومية العربية	32	س3-ع4 جانفي 58
إبراهيم غافة	الأديب و القومية الغربية	46	س3-ع4 جانفي 58
مصطفى الحبيب بحري	كانت ليلة	50	س3-ع5 فيفري 58
رزق سبابا	أيها المجرمون	62	س3-ع5 فيفري 58
المجلة	إلى القارئ	1	س3-ع6 مارس 58
الهادي حمو	في القرية نماذج	4	س3-ع6 مارس 58
حنفي بن عيسى	شباب فرنسا الأشداء	67	س3-ع6 مارس 58
المجلة	إلى القارئ	1	س3-ع7 أبريل 58

المجلة	مرحبا بحكومة الجزائر الحرة	84	س4-ع1 أكتوبر 58
المجلة	إلى القارئ	1	س4-ع2 نوفمبر 58
يحي بوعزيز	أضواء على نضال الجزائر	35	س4-ع2 نوفمبر 58
الجنيدي خليفة	الوجود الأخصب	47	س4-ع2 نوفمبر 58
رزق سابا	إلى أين؟	61	س4-ع2 نوفمبر 58
مصطفى كاتب	حول الفن المسرحي	27	س4-ع6 مارس 59
الجنيدي خليفة	الموت	57	س4-ع9 جوان 59
المجلة	إلى القارئ	1	س5-ع2 نوفمبر 59
مصطفى الأشرف	البطولة و الثورة الجزائرية	3	س5-ع2 نوفمبر
عثمان الكعك	الأدب الجزائري	20	س5-ع2 نوفمبر 59
محمد الفاضل بن عاشور	من وثائق الوحدة	26	س5-ع2 نوفمبر 59
محمد فريد غازي	قصيدة شعبية جزائرية	39	س5-ع2 نوفمبر 59
عز الدين قلوب	أدب الثورة و ثورة الأدب	48	س5-ع2 نوفمبر 59
رابي	محادثات في الجزائر	55	س5-ع2 نوفمبر 59
أ.ف. غوتيه	الإطار الجغرافي لتاريخ	29	س5-ع2 نوفمبر 59
مصطفى الأشرف	البطولة العربية (1)		س5-ع3 نوفمبر 59
مصطفى الأشرف	البطولة العربية (1)	11	س5-ع4 جانفي 60
محمد الفاضل بن عاشور	من وثائق الوحدة (2)	27	س5-ع4 جانفي 60
الجنيدي خليفة	ويل من السماء	61	س5-ع4 جانفي 60
محمد الفاضل بن عاشور	من وثائق الوحدة (3)	34	س5-ع6 مارس 60
فرحات الدشراوي	كامو بين الموت و الخلود	8	س5-ع7 أبريل 60
الجنيدي خليفة	إحياء اللغة العربية	54	س5-ع7 أبريل 60
مفدي زكرياء	الذكرى 20 لوفاة ابن باديس	77	س5-ع8 ماي 60
المجلة	إلى القارئ	1	س6-ع2 نوفمبر 60
عامر غديرة	حرب الجزائر	2	س6-ع2 نوفمبر 60
محمد الهادي العامري	الأدب الجزائري و ثورته	10	س6-ع2 نوفمبر 60
مفدي زكرياء	فكرة المغرب العربي الموحد	17	س6-ع2 نوفمبر 60

البشير المجذوب	وحدثنا	26	س6-9 جوان 61
المجلة	إلى القارئ	1	س7-2 نوفمبر 61
البشير الزريبي	و من عظمة الثورة	9	س7-2 نوفمبر 61
محمد الحليوي	الشعر و معركة الجزائر	12	س7-2 نوفمبر 61
زين العابدين السنوسي	الوحدة بين تونس و الجزائر	19	س7-2 نوفمبر 61
محمد الهادي العمري	الوحدة التونسية الجزائرية	44	س7-2 نوفمبر 61
البشير بن سلامة	شاعر جزائري ثائر	49	س7-2 نوفمبر 61
حسن الزمري	المسرح في خدمة المغرب الكبير	53	س7-2 نوفمبر 61
محمد الفاضل بن عاشور	مدينة بجاية	70	س7-2 نوفمبر 61
زين العابدين السنوسي	عروبة الجزائر	75	س7-2 نوفمبر 61
محمد الصالح الصديق	تحيا الجزائر	76	س7-2 نوفمبر 61
أبو العيد دودو	محمد العيد رائد الشعر الجزائري	89	س7-4 جانفي 62
الطاهر وطار	أدباؤنا و الإيديولوجيات	81	س7-5 فيفري 62
صالح الخرفي	الحرية في الشعر الجزائري المعاصر	42	س7-6 ماي 62
البشير بن سلامة	اللهب المقدس	96	س7-6 مارس 62
المجلة	إلى القارئ	1	س7-7 أبريل 62
صالح الخرفي	الحرية في الشعر الجزائري المعاصر	35	س7-7 أبريل 62
المجلة	إلى القارئ	1	س7-8 ماي 62
صالح الخرفي	الحرية في الشعر الجزائري المعاصر	73	س7-8 ماي 62

### هوامش البحث

- (1) محمد، (مزالي): "كفاح من أجل الحرية" مجلة الفكر ع 8 ماي 1956، ص 1.  
 (2) ، ع 1 أكتوبر 1955، ص 36.  
 (3) محسن، (بن حميدة): صحبة شهيد، مجلة الفكر ع 2 نوفمبر 1956، ص 8.  
 (4) نفسها، ع 6 نوفمبر 1959، ص 24.  
 (5) منور، (صمادح): الاعداء الجماعي " مجلة الفكر ع 2 نوفمبر 1961، ص 13.  
 (6) محمد، (مزالي): لغنة القرية الشهيدة، مجلة الفكر ع 6 مارس 1958، ص 1.  
 (7) منور، (صمادح): "وحدة النضال"، مجلة الفكر، ع 7 افريل 1958، ص 6.  
 (8) أحمد، (اللغمانبي): "لعنة الاستعمار، مجلة الفكر، ع 4 جانفي 1957 ص 35.  
 (9) سعد، (غزال): "حرب الجزائر"، مجلة الفكر، ع 6 مارس 1962 ص 88.  
 (10) محمد، (مزالي): "لماذا نتضامن مع الجزائر"، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر، 1958، ص 100.  
 (11) مزالي: "الى القارئ"، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1959 ص 1.  
 (12) مزالي: "الى القارئ"، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1959 ص 1  
 (13) مزالي: "للثورة الجزائرية" مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1956، ص 2.  
 (14) مزالي: "ثورة الجزائر هي ثورة الشعب" مجلة الفكر، ع 1 أكتوبر 1956 ص 45.  
 (15) نفسها، ع 1 أكتوبر 1956 ص 49.  
 (16) نفسها، ص 49.  
 (17) مزالي: "ثورة الجزائر هي ثورة الشعب" مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1956 ص 45.  
 (18) مزالي: " حول الذكرى الثالثة للثورة"، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1956، ص 7.  
 (19) مزالي: "الى القارئ"، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 1960، ص 2.  
 (20) مزالي: "الى القارئ"، مجلة الفكر، ع 2 أكتوبر 1961، ص 1.  
 (21) مزالي، الثورة الجزائرية مغامرة إنسانية، مجلة الفكر، ع 2 نوفمبر 57 ص 100.  
 (22) نفسه، ص 107.  
 (23) نفسه، ص 10

